بلزاك

الجِلد المسحُور



علي مولا



روائع الروايات العالمية

21000

الجلد المسحور



النص كاملاً

ماريان

روائع الروايات العالمية

بلــــزاك

الجلد المسحور

تعريب

فريد أنطونيوس



عويدات للنشر والطباعة

بيروت - لبنان

ص.ب. ٦٢٨ - تلفاكس ٣٠٥٩٦١ ١ ٠٠٩٦١ - تلفون ٦١٦٠٣٣ ٣ ٠٠٩٦١

E-mail: oueidat_editions@hotmail.com

رقم التسجيل في الترقيم العالمي ISBN 978 9953-28

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

الجِلدُ المسحور

تقديم

اندريه بيار دومانديارك

غالباً ما تؤول أغرب الابتكارات في الأدب إلى صيغة بالغة الابتذال ، بل إلى نوع من التعبير يُشبه الأمثال . والحقّ أن مصيراً كهذا ليس هو أقل عجائب الأدب شأناً . ولا أحد يستهجن اليوم سماع قائل يقول إن « الحياة جِلْدُ حمار » [١] ، ويسارع أفاضل الناس إلى موافقته الرأي . وإذا كانت هذه العبارة هي نفسها عنوان رواية من القرن الماضي فالكثيرون يعرفون ذلك ولو جهله بعضهم ، إلا أن معظمهم قد يظنون ، لعدم قراءتهم الكتاب ، أنه تباكٍ واستبكاء وبكاء عاطفي أو أخلاقي ، وانه من صنف رواية « شاب فقير » لا بل « بلا عائلة » . وصحيح أن في « الجلد » شيئاً من اليتيم والشاب الفقير ـ وبدهي أن الأحداث في الرواية لا تتطور إلا انطلاقاً من هذه المعطيات ـ إلا أن السبب المزدوج الذي سيجعل الاهتمام يتجه دائماً إلى هذه الرواية أكثر من سواها في الأزمنة الحديثة هو أننا نجد فيها أحد أعنف وأصرح الكتب « رومنتيكية » في كل الرومنتيكية الفرنسية ، كما انها وحدها تستطيع أن تجعلنا نكتشف بلزاك بهذا الشكل ، أو تحدده لنا بهذه الدقة .

(١) Peau de chagrin هو العنوان الأصلي للرواية .

على كل حال اونوره ده بلزاك يبدأ من « الجلد المسحور »[1]. وليس صحيحاً ، مع الأسف ، ومهما كتب في هذا الصدد ، أن أول كتاب موقع باسم بلزاك هو « الجلد » ، فقد سبقه « آخر ثائر ملكيّ » الذي ترقى طبعته الأصلية ، وهي نادرة الوجود ، إلى العام ١٨٢٩ . إن بدايات بلزاك الكبير ، بلزاك الذي نفضّله ، هي بلا شك هنا ، في « الجلد المسحور » . ومعروف انه كان قد لخص موضوع الرواية ، بادىء بدء ، بالآتي : « اختراع جلد يمثّل الحياة . حكاية شرقية » . وفي مطلع العام ١٨٣١ ، وبالتحديد في ١٧ كانون الثاني ، باع بلزاك من الناشرين غوسلان وكانيل رواية عنوانها « الجلد المسحور » صدرت في ما بعد في جزءين ، وقد تعهد لهما يومها بتسليم المخطوطة كاملة بعد ذلك بأقل من شهر ، في أواسط شباط . إلا أنه لم يفِ بالوعد في دقة ، برغم طاقاته العقلية المتفوقة التي كانت عهد ذاك ، والرجل بعدُ في الحادية والثلاثين ، في أوجها ، سواء على صعيدي النضارة والقوة . ثم جاءت عملية الطبع وتصحيح « البروفات » ، التي لم تتم بالسرعة التي كان يتمناها المؤلف . ولم ينزل « الجلد » إلى المكتبات إلا في الأول من آب (رُبّ قائل ، هذه الأيام ، انه موعد سيء لتسويق الكتب ، وانه يجب إرجاء البيع إلى بدء الموسم . . . .) .

---

(١) العنوان الذي اعتمدناه في العربية لسببين : أولاً لأن ترجمة العنوان الأصلي حرفياً قد لا تعني للقارىء شيئاً ، وثانياً لأن عبارة « الجلد المسحور » تنطبق تماماً على الرواية ولا تخونها في شيء . (الناشر) .

كان العهد الرومنتيكي ـ وهذه حَسَنَة تُحْسَب له ـ أقل منّا بكثير خضوعاً لطغيان « العطلات » . وصادف « الجلد » نجاحاً فورياً ونفدت نسخه في أيام . والحقيقة أنه لم يُطبع منه سوى ٧٥٠ نسخة . في أيلول صدرت طبعة ثانية ، في ضعف عدد الطبعة الأولى تقريباً ، وتحت عنوان : « روايات وحكايات فلسفية » ، ومعها اثنتا عشرة حكاية مضافة إلى الرواية الأولى ، وكل هذا مسبوق بمقدمة لفيلاريت شاسل . عام ١٨٣٣ ظهرت الطبعة الثالثة ، فالرابعة عام ١٨٣٥ ، وهي مهمة لأنها ثبّتت عنواناً قريباً إلى جانب العنوان الكبير ، وهو : « دراسات فلسفية » ، ولأنها حملت تاريخ انجاز كتابه « الجلد المسحور » ومكان كتابته : « لابولونيير » ، نيسان ١٨٣١ . ولا بد من القول ، أيضاً ، ان النجاح الذي أحرزه الكتاب لم يكن مسألة حظ ، ولا كان ثمرة فرادة الكتاب وحدها . فلقد مهّد بلزاك لهذا النجاح وسعى إليه بأساليب ما كان أمهر ابطاله ولا أقدرهم تخطيطاً ليتبرأ منها ، وذلك بأن نظم حملة صحافية وظف لها أكثر أصدقائه نفوذاً ، ونشر مقتطفات من روايته في أكبر مجلتين أدبيتين ذلك الحين : « مجلة العالمين » (في ١٥ أيار ١٨٣١) و « مجلة باريس » (٢٩ أيار) ، وقدّم قراءات من الرواية في أكثر من صالون أدبي ، خصوصاً عند مدام ريكامييه . ولكن لا بأس . فليس هذا ما يستحق اليوم اهتمامنا .

لكي أبرر هذا الاهتمام ، سوف اتجه بنظري مجدداً صوب الرومنتيكية ، صوب الظلمات المدهشة التي راحت ، ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر ، تتلبد في سماء معظم الآداب الاوروبية ،

والتي هي مسؤولة عن المناخ المثير الذي ما زالت آثاره ماثلة . . . صوب نور عجيب ما ، نورٍ ممزِّق كالبرق ، ينتمي إلى النظام نفسه ويتحدر من الأصل نفسه . لقد لجأ بلزاك ، في كل ما نحبه من أعماله ، إلى استعمالٍ دائم للتقييم أو الحَجْب ثم إلى الانارة . ثمة اسم ، أو الأصح عنوان رواية ، يأتي لامحالة تحت القلم الذي ، إكراماً لـ « الجلد المسحور » نجعله يركض قليلاً . انه اسم « ملموث » ، « ملموث أو الانسان التائه » الذي ، برنينه المتعدد الايقاعات ، يوحي منذ ذلك الحين « ملدورور » بنسبة ما ان بطل ماتوران يعلن قرب مجيء ايزيدور دوكاس . ظهر « ملموث » في انكلترا وفي اسكتلنده (في لندن وادنبره) عام ١٨٢٠ ، ولمع كالشهاب . إلى حد أن ترجمتين منه إلى الفرنسية نشرتا في العام التالي ، واروجهما هي التي قام بها جان كوهين ، وقد أعيد نشرها مراراً . لا لزوم لكي أتحدث هنا عن تأثير هذا الكتاب على أفضل كتّاب القرن التاسع عشر ، فهذا التأثير أشهر من أن يحتاج إلى كلام . وأكتفي بالتذكير بأن بلزاك كان يعلن أن « ملموث » يضاهي « فوست » غوته ويتفوق عليه في بعض النواحي .

بلى ، يبدو لي أن بلزاك قد سُحر حرفياً بـ « ملموث » ، وذلك لأجل خيره العميم على كل حال . وهذا اللقاء ، والذي فتن أيام صباه ، هو في رأيي أهم بكثير من مجرد مسألة مصادر ومناهل ، حتى لو كانت مصادر « الجلد المسحور » ومناهله . وفي العام ١٨٢٢ ، وقد كان في الثالثة والعشرين ، أصدر ، وبتوقيعٍ مستعار هو اوراس ده سان اوبان ، رواية بعنوان « رجل المئة عام » يمكن

بسهولة أن نتبين فيها ملامح شخصية « ملموث » وقد تركها الكاتب تتضح منه بلا خجل ولا تمويه . وقد رأينا أن « الجلد المسحور » جاء عام ١٨٣١ ليعلن البداية الحقيقية لاونوريه ده بلزاك كروائي كبير ، وموضوع الرواية هو ، في الحقيقة ، موضوع « ملموث » كذلك ، مع أن شخصية الكتاب الأساسية طرأ عليها تبديل جذري ، نوع من تغيير الأقطاب رأساً على عقب ، إذ سقط رفائيل ، بفعل العَقْد الأسود ، إلى دور الضحية ، بالقدر نفسه من الحتمية التي رفعت ملموث إلى دور الجلاّد . وبعد ذلك بأربع سنوات وضع بلزاك « دراسة فلسفية » أخرى هي « ملموث المتصالح » عاد فيها علناً إلى بطل ماتوران معطياً إياه بضعة خلفاء أوصلتهم الأحداث سراعاً إلى الحالة البائسة التي تخبط فيها رفائيل في « الجلد » . وان « الجلد المسحور » و « ملموث المتصالح » هما غير قابلين للانفصال ضمن أعمال بلزاك ، وفيهما معاً نلتقي الحسناء اللعوب نفسها ، اكيلينا ، الموصوفة في كلا الكتابين بطريقة تتضمن الاشارة ذاتها إلى مسرحية اوتواي « إنقاذ البندقية » أما كان يكون جميلاً لو أمكننا أن نطالعهما الواحد تلو الآخر ؟

ما من شيء أكثر « رومنتيكية » من موضوع العَقْد الذي يجريه الانسان مع سلطة سفلى أو ملعونة ، ذلك العقد الذي سيشبع كل رغباته إبان حياته على الأرض . طبعاً يعود بنا ذلك ،أول ما يعود ، إلى فكرة مشتركة بين الكثير من الشعوب ، إذ هي موجودة ضمن بعض الهرطقات المسيحية كما هي موجودة عند العديد من ديانات الشرق القديم والحديث وكذلك في أميركا السابقة لعهد

كريستوف كولومبوس : ذلك هو الايمان بثنوية أو بتضاد قائم داخل الالوهة التي تتنازعها قوتان هما النور والظلمة ، وسيادة الخير وسيادة الشر . وتشبه الالوهة في ذلك كوكب الزهرة في مظهره المزدوج (فسبير ولوسيفير) . وبتعبير أوضح : الله والشيطان . من المؤكد أن « فوست » غوته هو ، بين القصائد والمسرحيات والروايات المكتوبة انطلاقاً من هذا الموضوع ، أكثرها فكريةً ، ولعله أيضاً الأكمل بينها والأشهر ، إن لم يكن الأشد تأثيراً في القلب .

كثيرون من الكتاب ـ أذكر منهم الرومنتيكي الالماني لاموت ـ فوكيه ، والانكليزي ستيفنسون ـ استعاروا من الخرافات القديمة شخصية صغيرة هي شاهد العقد وواسطته في آن . وغالباً ما يسمى « لفاحاً » ، فيوضع في قارورة ويُربط إلى جسد مالكه ، ويروح يلبي له كل طلباته . وإذا ضاع اللفاح أو سُرق ، فانه يعود من تلقائه إلى سيّده . ويستطيع هذا بيعه من جديد (بسعر أقل ، عموماً ، من سعر الشراء) فيحلّ نفسه هكذا من الحلف . وأما المالك الأخير للفاح فهو ملعون بلا هوادة ولا غفران . وبلزاك ، سواء في « الجلد » أو في « ملموث المتصالح » ، استعمل هذا التقليد استعمالاً شيّقاً وذكياً ، مغيّراً فيه وفقاً لأفكاره الشخصية . وبالفعل فان العقد الذي يوقّع عليه ملموث البلزاكي يربط المستفيد بالقوى الجهنّميّة ، التي ستستولي عليه حتى آخر لحظة من حياته . تماماً كما عند ماتوران . وهنا ، تجيء الخاتمة الرهيبة في الرواية الانكليزية ـ وهي خاتمة لا تصف بل توحي وتومىء ـ لتشكل أحد أجمل استعراضات اللون الأسود في تاريخ الأدب منذ وجوده . لكن عقد

ملموث ، عند بلزاك ، ليس محتوماً ، إذ هو ، شأنه شأن اللفاح ، قابل للبيع . وهكذا نراه ينتقل من يد إلى يد حتى يصل إلى مالكه الأخير ، عاشق الفتاة اوفرازي التي لا شك أنها ستقع فريسة الشيطان ، ولكن ، واعجباً ! بصورة مضحكة . . . كما لو أن بلزاك عاد وتراجع أمام النتيجة الحاسمة لفَرَضيته الدراماتيكية . وكان في « الجلد » قد دفع بالأمور أبعد من ذلك ، ومضى بها نحو المزيد من اللون الأسود .

اعتقد أن أبرز ما يتميز به « الجلد المسحور » ، قياساً بكل الروايات المشابهة له بقليل أو كثير ، هو أن لا ذكر فيه للعنة أو الخلاص . مع أن « القوة » أو « السلطة » المحكي عنها فيه هي شيطانية أكثر منها إلهيّة ، رغم أن وسيطها الأرضي كان كاهناً ، ورغم أن مشيئة الله مذكورة في بنود العَقد . وقد تم العَقْد مع الجلد فأصبح هذا الخادم والسيد . خادم الانسان الذي حمله التهوّر على قبول سلطة الجلد وشروطه . خادمه وسيده . والجلد ، شأنه شأن اللفاح (وهما متشابهان بالمرونة) ، لا يضيع ولا يُسرق . وإذا رمي في البئر عرف كيف يعود إلى صاحبه . إلا أنه من المستحيل الخلاص منه بعد قبول الدخول في ميثاق معه . فالعقد أكثر براءة (وأقل ابتذالاً) من عملية « بيع النفس » ، إلا أنه كالقفص يُطبق على الانسان الهيكل العظميّ الذي هو صورة الموت .

ما أبدعه اختراعاً ، هذا الجلد ! لا أعرف إذا كان بلزاك قد وفق إلى اختراع أكثر عبقرية منه ولكن ما أعرفه وما أنا واثق منه هو أنه أعجب هو نفسه باكتشافه هذه القطعة من الجلد الأسود إلى حدّ أنه

صار مغرما بها مثلما يُغرم المرء بأمر خارق . يجب أن ترى كيف يتكلم على الجلد عندما يواجهه بأنجع الآلات البخارية أو بأقوى مبتكرات الكيمياء ، فضلاً عن الشحنات الكهربائية ، والفولاذ المسقيّ ، وعندما يجعله يتغلب على العلماء والمهندسين . وحين عرّف عنه للمرة الأولى ، في محل بائع « الأنتيكة » العجوز ، فان النّدّ الذي وازاه به ليس أقل من لوحة يسوع المسيح بريشة رفائيل . . . وكانت اللوحة معلقة تجاهه في صندوق كبير من الاكاجو مغلق بقفل سرّي . وكلا يسوع المسيح ورفائيل هما « اسمان دينيان » (حسب تعبير بلزاك نفسه) يبيّنان نشوة الكاتب وهو يفجّر من فانتازيا خياله شكل القوة المجهولة . ومهما يكن غريباً أن اسم الرسام المختار هو نفسه اسم بطل الرواية فلا أعتقد أن في ذلك سعياً مقصوداً إلى الازدواجية أو الاسقاط . كل ما هناك أن بلزاك كان يعتبر رفائيل أعظم الرسامين . إلا أن وصف محل بائع « الأنتيكة » ، وهو الدائرة السحرية الأولى التي ستُقفل حول الصندوق المحتوي على الجلد ، يستحق أن يتوقف القارىء عنده طويلاً ، لأنه يتخطى بأشواط كل ما يمكن الواقع أن يقدّمه لنا . فهنا ، في المحل ، تتكدس الكنوز والتحف الفنية وغرائب الكون كله لا كما في متحف من صنع البشر وإنما كما في ذاكرة كائن هو فوق مستوى البشر . ولنضف أن القيمة العالية لهذه الصفحات هي أيضاً أنها تتيح لنا أن نقرّب الميل المعروف عند بلزاك إلى تجارة الأشياء الصغيرة والغريبة ومقايضتها ، من ميل اندريه بروتون إلى سوق السلع القديمة : فهنا وهناك الأكداس الفوضوية والمتنوعة نفسها ، حيث يذهب الكتاب ـ وهم قبل كل

شيء « باحثون » ـ بحثاً عن اللقية الموضوعية ، مثلما يواصلون في أماكن أخرى الاكتشاف الشعري . وهنا وهناك الامداء نفسها حيث كل اللقاءات محتملة ، كما في الليل أو الحلم .

إن الجلْد هو الحياة ملموسةً إلى حالة شيء . وانه ، بين الأشياء ، الجسم الغريب بامتياز . هل هو من هذه الأرض ؟ لست واثقاً من ذلك ، بل يبدو لي عند التفكير أن الجلد ، بحكم طبيعته ، هو من مكان آخر . لم يأتِ من كوكب آخر على غرار بعض الأشياء التي وصفها كتّاب الخرافات العلمية ، إنما خرج أسود لماعاً من عالم صوفي تسرب إليه السحر . قبل العَقْد ، يكون الجلد جامداً لا حياة فيه ، وقواه التدميرية كامنة فيه « بالقوة » كما في بيضة طفيليّ ، لا بد لها من اللقاء بالمخلوق المكرّس لها حتى تتم لها دورتها . وبعد العقد ، وإذ يستولي الجلد على حياة إنسان ، تتحرّك فيه الحياة هو أيضاً ، ويصبح اكتماله في أن يتقلص وهو ينهش حياة الانسان هذا حتى القضاء عليه وعلى نفسه . لقد أغنت مخيلة بلزاك العالم السحريّ بفصيلة جديدة من الهامة أو مصاص الدماء .

وفي الوقت نفسه فان ادخال الجلد إلى المسرح ، فضلاً عن المسرات التي يمنحها أباه الروحي ، قد حدا بلزاك ، لحسن الحظ ، على الكشف عن أفكاره المتعلقة بأسرار الحياة البشرية ، وهي أفكار لن تتغير طوال الوقت القليل (تسع عشرة سنة) الذي بقي أمامه . « الارادة تحرقنا والقدرة تدمّرنا . لكن المعرفة تترك جسدنا الضعيف في حالة دائمة من الهدوء » ، ذلك هو الدرس الذي يضعه على لسان تاجر « الأنتيكة » العجوز برسم الشاب الذي (واأسفاه ! فبلزاك

لا يجهل ذلك) يجمعه بالمؤلف نفسه أكثر من ملمح مشترك . ويعظ رفائيل فيدورا الباردة قائلاً « ان الارادة الانسانية قوة مادية شبيهة بالبخار » ولكنه سيتعلم بعد ذلك من العجوز انه يجب أن يكون المرء حريصاً على هذه القوة وان الجنون ليس سوى « الافراط في الارادة أو القدرة » . ويعترف رفائيل أيضاً وهو يروي لأحد أصدقائه حديثه مع الحسناء : « قلت لها إن أفكارنا هي كائنات منظّمة ، تامة ، تعيش في عالم غير مرئي وتؤثر في مصائرنا » . ولعله من المهم أن نلاحظ أن قدمي الشاب موضوعتان ، في هذه اللحظة التي هي نهاية سهرة مجون وفسق ، على اكيلينا الجميلة التي تشخر بصوت كهزيم الرعد . أما العجوز الحكيم المتدفق مواعظ وأمثولات ؛ أفلن يُجَنّ بحسناء لعوب أخرى هي اوفرازي ؟ حماقة صغيرة للجلد وانتقام لرفائيل فور إتمام العَقْد .

الدور النسائي الأول (وهو ، مع هذا ، ثانوي نوعاً ما) مُعطى في « الجلد المسحور » إلى بولين التي ، في علاقاتها بحبيبها ، تجمع بين الأم (تشتري له الحليب بمال أتعابها القليل) والمرأة ـ الطفلة ، وهما أقصيان أحبّهما بلزاك . وان البطلة ، في نظر الكاتب ، كانت لتكون ناقصة لولا الانفجار العاطفي الذي سُمح لها به سحابة وقت خاطف . ولكن يبدو لي ، في الأخير ، أن التقشف ، وأكثر من الاقتصاد ، هو الذي يعيّنه لنا الكتاب درب الخلاص ، إذ كان على الحب بين رفائيل وبولين أن يكون « مجرداً من اللحم والدم » لكي يحتفظ بكمال يمكنه أن يدوم . لكن « الجلد المسحور » ما كان ليكون الأثر الرومنتيكي الكبير الذي قلته والذي

يُبهرنا ، لو كوفئت هذه النصيحة المتعقلة . من حسن حظ قراء الروايات ، الذين تستهويهم المهاوي ، ان درب الخلاص لم يُسْلك ، وان الجلد أطبق على فريسته ليحملها لا نعرف أين ، في حُمى مختلجة لا ينقصها شيء من المراد الميلودراماتيكي . ولنلاحظ أخيراً أن الجلد تنازل ، وهو يتلاشى ، إلى المرأة العاشقة والمعشوقة عن دور الهامة أو مصاص الدماء . ما أجملها ذروة !

اندريه بيار دو مانديارغ



I

الطلسم

في أواخر تشرين الأول ١٨٢٩ دخل شاب إلى « الباليه روايال » في اللحظة التي تفتح فيها أندية القمار أبوابها ، حسب القانون الذي يحمي اللعب ويتقاضى ضريبةً عنه . ومن دون كثير تردد ، صعد السلم المؤدي إلى نادي القمار المشار إليه بالرقم ٣٦ .

في الظلّ ، خلف حاجز حديدي ، كان يتكوّم عجوز قصير القامة شاحب الوجه ، ما أن لمح الفتى صاعداً حتى وقف فجأة وأظهر وجهاً مسكوباً في قالب مثالٍ أصيل للدناءة والخسة وصرخ في وجهه قائلاً :

- سيدي ، القبعة من فضلك !

عندما تدخل إلى أحد بيوت المقامرة يبدأ القانون بانتزاع قبعتك منك : تُرى هل في ذلك رمز انجيلي ، سماوي ؟ أو هو ، بالأحرى ، نوع من الميثاق الجهنمي يُعقد معك ويُفرض عليك ، عنه ، لا أدري أي رهن ؟ أو هو لاجبارك على الاحتفاظ بوقارك أمام الذين سوف يسلبونك مالك ؟ أو هي الشرطة القابعة في كل بالوعات المجتمع ، تريد أن تعرف اسم صانع قبعتك أو اسمك ،

إن أنت كتبته داخل القبعة ؟ وأخيراً ، هل هذا ليؤخذ قياس جمجمتك وليوضع تقرير مفيد عن مقدرة اللاعبين العقلية ؟ إن الادارة تتكتم تكتماً تاماً في ما يختص بهذه الناحية . ولكن ، اعلم جيداً أنك ما ان تخطو خطوة واحدة نحو المائدة الخضراء حتى لا تعود تملك قبعتك كما لا تعود تملك نفسك . لقد صرت ملكاً للعب ، أنت وثروتك وقبعتك وعصاك ومعطفك . وعندما تود الخروج يثبت لك القمار ، في سخرية رهيبة وعملية ، انه يترك لك شيئاً ما فيرد إليك أمتعتك . وإذا كنت تملك قبعة جديدة ، تتعلم عندئذٍ ، على حسابك الخاص ، إنه يجدر بك أن تقتني ثوباً خاصاً باللاعبين .

إن الدهشة التي اعترت الشاب وهو يتسلم « الفيش » المرقم بدلاً من قبعته التي كانت ـ لحسن الحظ ـ متآكلة الجوانب قليلاً ، كانت تدل دلالة واضحة على نفس ما زالت بريئة طاهرة ، أما العجوز الذي أمضى شبابه ، ولا شك ، متقلباً في جحيم حياة اللاعبين ، فقد رماه بنظرة باهتة باردة ، يرى فيها الفيلسوف تعاسات المستشفى ، وتسكع المفلسين ، ومحاضر ضبط الكثير من حوادث الاختناق ، ومخاصمات جماعة تختنق ، والأشغال الشاقة المؤبدة ، والنفي إلى « غيازاكووالكو » .

هذا العجوز ذو الوجه المستطيل الأبيض كان يمثل صورة الشهوات الشاحبة عندما ترتد إلى أبسط غاياتها . ففي تجاعيد وجهه تلمح آثار عذاب قديم . ولا شك انه كان يقامر براتبه الهزيل يوم القبض بالذات . انه يشبه الفرس التي لم تعد ضربات السوط تؤلمها . وليس من شيء يقوى على أن يبعث فيه الرجفة . إن زفرات

اللاعبين وهم يغادرون القاعة بعد أن يكونوا قد أضاعوا كل ما يملكون ، ولعناتهم الخرساء ، ونظراتهم التائهة ، كلٍ ذلك لم يكن ليؤثر في ذلك العجوز . لقد كان هو القمار مجسداً .

ولو أن الشاب تأمل في هذا البواب الجهنّمي لربما كان قال في نفسه : « لم يعد في هذا القلب سوى ورق اللعب ! » ، لكنه لم يستمع إلى هذه النصيحة الحية التي وضعتها العناية الالهية في هذا المكان كما تضع القرف أمام الأماكن القذرة .

ولج الشاب باب القاعة التي كان رنين الذهب فيها يمارس سحراً باهراً على الحواس المتفتحة في أوج شهواتها . كان مدفوعاً إلى هنا ، ولا شك ، بأكثر كلمات جان جاك روسو فصاحة ومنطقاً . وهذه هي كما أعتقد تلك الفكرة البائسة :

« بلى ، أقرّ الرجل على أن يذهب إلى المقامرة ، ولكن عندما لا يعود يرى بينه وبين الموت سوى ليرته الذهبية الأخيرة » .

ليس لأندية القمار في المساء سوى شاعرية مبتذلة ، ولكن تأثيرها مضمون كتأثير المأساة الدامية . القاعات تغصّ بالمتفرجين واللاعبين وبالعجائز المعوزين الذين يجرون أنفسهم جراً إلى هذه الأمكنة ليستمدوا بعض الدفء ؟ وترى فيها وجوهاً مضطربة ، ومعربدين بدأوا حفلاتهم بالخمر لتنتهي عما قريب في نهر السين . وإذا ازدادت اللهفة إلى اللعب ، فان كثرة عدد المتفرجين يحول بينك وبين مشاهدة شيطان القمار وجهاً لوجه . والسهرة فرقة موسيقية حقيقية حيث الفرقة كلها تصرخ وحيث كل آلة توقع لحنها الخاص . وكثيرون هم الأشخاص المحترمون الذين تراهم يقصدون هذه

الأمكنة ليروحوا عن أنفسهم وليدفعوا ثمن هذا الترويح كما قد يدفعون ثمن لذة حضور مسرحية ، أو ثمن الشراهة ، أو كما قد يقصدون كوخاً ما ليشتروا بسعر بخس ندماً حارقاً على مدى أشهر . ولكن ، هل تعلم ما البحران الذي يهيم به ، وما القوة التي تزخر بها نفس الرجل الذي ينتظر بفارغ صبر أن يفتح نادي القمار أبوابه ؟ إن بين اللاعب في الليل واللاعب في الصباح يكمن الفرق الذي يميز الزوج الخامل عن العاشق القابع تحت نافذة حبيبته . ففي الصباح ترى لاعباً حقيقياً ، لاعباً تدفعه شهوته الجامحة وحاجته الملحة ، لاعباً لم يأكل ولم ينم ولم يفكر ولم يعش ، يندفع بلا إحساس ، إذ انه يجلد نفسه بسوطه ويعذبه الشوق الكامن في دمائه . في هذه الساعة الملعونة تشاهد عيوناً يخيف هدوءها ، ووجوهاً يذهل منظرها ، ونظراتٍ كأنها تشيل الأوراق وتلتهمها . لذلك لا تظهر عظمة أندية القمار إلا عند افتتاح حفلاتها . وإذا كان لاسبانيا حفلات صراع الثيران ، ولروما مصارعوها ، فان باريس تفخر بـ« الباليه روايال » حيث تقدم « الروليت » المزعجة نشوة عذبة بإهراقها سيولاً من الدم دون أن تتعرض القدم للانزلاق في هذه الدماء .

حاول أن تلقي نظرة خاطفة على هذه الحلبة . . . ادخل . . . يا للمكان العاري ! إن الجدران المغطاة بأوراق سميكة لا تقدم صورة واحدة تنعش النفس ، ولا تجد فيها مسماراً واحداً يسهل عملية الانتحار . والأرض الخشبية متآكلة وسخة . ثمة طاولة مستطيلة تحتل وسط القاعة . وكراسي القش العادية التي تحيط بالطاولة الخضراء التي أنهكها الذهب بالية تنبىء عن لامبالاة

هؤلاء الرجال بمظاهر الأبهة ، هؤلاء الرجال الذين يتدمرون في هذا المكان من أجل الثروة ومظاهر الأبهة . هذه المفارقات الانسانية تعلن عن نفسها في كل مكان تفعل فيه النفس الانسانية بقوة في ذاتها . فالعاشق يود أن يغلّف عشيقته بالحرير ، وأن يكسوها بالنسيج الشرقي ، وغالباً ما ينال وطره منها على حصير رث . والطموح يحلم بالوصول إلى السلطة وهو يتمرغ في أوحال الزحف على البطن . والتاجر يعيش في أعماق دكان رطبة غير صحية ، بينما يبني فندقاً كبيراً يورثه لولده الذي سيطرد منه عندما يباع الفندق بالمزاد العلني . وأخيراً هل هنالك شيء أقل لذة من بيت للذة ؟ مشكلة غريبة ! إن الانسان يطبع كل أعماله بطابع الضعف والتناقض ، لانه دائم التعارض مع ذاته ، يخدع آماله بآلامه الحاضرة ، وآلامه بمستقبل لا يسيطر عليه . في هذه الدنيا لا شيء كاملاً سوى التعاسة .

عندما دخل الشاب إلى القاعة كان قد سبقه إليها بعض اللاعبين ، بينهم ثلاثة شيوخ صلع الرؤوس ، جلسوا باسترخاء حول المائدة الخضراء ، ووجوههم الجبسية الجامدة كوجوه الديبلوماسيين تدل على نفوس تحجّرت مع الوقت ، وقلوب تعلمت من زمان أن لا تعود تخفق ، حتى لو قامر أصحابها بأموال زوجاتهم . ومنهم أيضاً شاب إيطالي أسود العينين ، زيتوني اللون ، كان متكئاً إلى الطاولة ، منصتاً إلى الشعور الخفي الذي يدفع اللاعب إلى القول : « نعم ! ـ لا ! » . وكان هذا الرأس الذي يوحي أن صاحبه من سكان الجنوب يفوح برائحة الذهب والنار . وثمة سبعة أو ثمانية متفرجين شكلوا صفاً أمام الطاولة ، ينظرون إلى وجوه

الممثلين وحركات المال منتظرين المشهد الذي يهيئه الحظ . إن هؤلاء العاطلين عن العمل ، كانوا هناك صامتين ، بلا حراك ، كما يكون الشعب عندما تقطع المقصلة أحد الرؤوس .

وكان هناك رجل كالح الوجه يرتدي ثوباً رثاً ، يحمل سجلاً بيد وبالأخرى يسجل فيه مرور « الأحمر » و « الأسود » . فهو واحد من الفضوليين العصريين الذين يعيشون على هامش جميع مباهج عصرهم ، واحد من أولئك البخلاء الذين بلا ثروة يأتون ليراهنوا بخيالهم . واحد من المجانين العقلاء الذين يتلهون عن تعاساتهم بمداعبة الأوهام ، ويتعاطون مع الرذيلة والخطر مثل الكهنة الجدد مع القربان عندما يقيمون قداديس بيضاء .

أمام الصندوق كان بعض المقامرين الحاذقين في اللعب ، يشبهون أولئك الذين لم تعد تخيفهم أشغال السجن الشاقة ، جاؤوا إلى هذا المكان لكي يخاطروا بثلاث أو أربع ضربات يحصلون بها على ربح أكيد هو مورد رزقهم الوحيد . وكان عجوزان من خدم القاعة يروحان ويجيئان بتثاقل وينظران من النوافذ إلى الحديقة ، بين وقت وآخر ، كأنهما يعرضان للمارة وجهيهما بمثابة يافطة .

وألقى مدير اللعبة نظرات ممتقعة وصرخ بصوت جاف : « ابدأوا اللعب » . وفتح الشاب الباب فخيّم صمت ثقيل ، وتحولت النظرات نحو الوافد الجديد الذي دفعه فضوله إلى الحضور . . . لقد حدث شيء لا يصدق ، فالعجائز الضعفاء والمستخدمون الذين تحجرت قلوبهم ، والمتفرجون ، وحتى الايطالي ، كل هؤلاء شعروا بما لا أدري أية عاطفة مخيفة ، عندما

رأوا الشاب المجهول . . . لم يجب أن يكون المرء ضعيفاً كي يحرك العطف ، أو هيئته زرية ليجعل النفوس ترتعد في هذه القاعة ، حيث على الألم أن يكون أصماً ، وعلى الشقاء أن يكون فرحاً ، وعلى اليأس أن يكون محتشماً . كان مزيج من كل هذا في الشعور الذي حرك القلوب الباردة لدى دخول الشاب . ولكن ، ألم يبك الجلادون أحياناً عندما كان عليهم أن يقطعوا رؤوس العذارى تنفيذاً لأوامر الثورة ؟

من النظرة الأولى قرأ اللاعبون على وجه هذا اللاعب الجديد سراً ما مخيفاً . فقد كانت تقاطيع وجهه موسومة بسمة الملاحة الغائمة ، ونظراته تدل على قوى مهدورة ، وعلى ألف أمل خاب ! وكان سكون الانتحار يمهر جبينه بشحوب باهت مضنٍ ، وابتسامته الحزينة تسطر حول فمه تجاعيد خفيفة ، ومظهره يفصح عن استسلام يؤلم منظره ، وفي أعماق عينيه تكمن عبقرية غامضة ، وقد اكتنفهما، ربما، تعب ارتكاب الملذات. هل وسم المجون بخاتمه الوسخ هذا الوجه النبيل الذي كان مشرقا طاهرا وأضحى ذليلاً ؟ إن الأطباء ، ولا شك ، لينسبون إلى علة في القلب أو في الصدر هذه الدائرة الصفراء التي تحيط بجفنيه ، وهذا الاحمرار الذي يكسو خديه . غير أن الشعراء يحبون أن ينسبوا هذه العلامات إلى إرهاق العلم وآثار الليالي المصروفة في الدرس على ضوء قنديل . ولكن شوقاً أقتل من المرض ، ومرضاً أفتك من الدرس والعبقرية قد أفسدا هذا الرأس الجميل ، وجعلا عضلاته النشطة تتشنج ، وعصرا هذا القلب الذي لم يكد يمسه الافراط والدرس والمرض .

وكما يستقبل السجناء مجرماً شهيراً بالاحترام ، عندما يدخل إليهم في سجنهم ، هكذا استقبلت هذه الشياطين البشرية التي أصبحت خبيرة في فنون التعذيب ، هذا الشاب المجهول ، وأكرمت فيه ألماً جديداً وجرحاً عميقاً حاولت نظراتها سبر غوره ؛ وعرفت فيه أميراً من أمرائها في جلالة استهزائه الصامت وفي أناقة ثيابه الرثة .

كان الشاب يرتدي « فراكاً » ينم عن ذوق سليم ، إلا أن ياقته وصدرته باليتان أضيفت فوقهما بضع قطع من القماش لتبدوا متماسكتين . ويداه الجميلتان كأيدي النساء ، نظافتهما مشبوهة ، وبدا انه لم يلبس قفازه منذ يومين . ولئن كان « مدير اللعبة » وخدم القاعة أنفسهم قد شعروا بقشعريرة خوف لدى رؤ يته ، فذلك لأن جاذبية الطهارة تظهر واضحة الخطوط في شكله وزيّه وفي شعره الأشقر المجعّد الخفيف .

كان لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره . وكانت طهارة شبابه تناضل بقوة ضد ميله الناشىء إلى الفسق ، والظلمة والنور والعدم والوجود تتطاحن في قلبه فتسفر المعارك عن مزيج من الرضى والخوف . كان يبدو ملاكاً بلا أشعة ضلّ طريقه . وكان شعور هؤلاء الأساتذة العريقين في الرذيلة والتعاسة شعور عجوز شمطاء حركتها الشفقة لدى رؤ يتها فتاة جميلة تقدم نفسها للدعارة . فأوشكوا أن يصرخوا في هذا المبتدىء : « اخرج » .

مشى الشاب بخطوات ثابتة نحو المائدة الخضراء ، ورمى عليها من دون اكتراث قطعة ذهبية كانت في يده ، فراحت تتدحرج على « الأسود » . ثم رمى « مدير اللعبة » بنظرة هادئة وشيطانية معاً

تصدر عن تلك النفوس القوية المشبعة بالكراهية والضجر .

وكانت قيمة هذه الضربة كبيرة ، إلى حد أن العجائز أنفسهم امتنعوا عن وضع الدراهم . ولكن الايطالي ، وقد تملكه شغف اللعب وسيطرت عليه الشهوة وابتسمت له فكرة خبيثة ، وضع كومة من الذهب تجاه لعبة الشاب المجهول . فنسي البانكييه ان يقول هذه الكلمات التي تحولت لكثرة تكرارها إلى صراخ مبهم : « ابدأوا اللعب ! ـ تمت اللعبة ! ـ لا شيء بعد هذا » . وعرض « مدير اللعبة » الأوراق وبدا كأنه يتمنى حظاً سعيداً لهذا الشاب المجهول الذي لا يكترث للربح أو للخسارة . وتوقع المتفرجون أن يشاهدوا مأساة والفصل الأخير من حياة فاضلة تساهم فيهما هذه القطعة الذهبية . فتوقفت أنظارهم المشدوهة على الأوراق التي سوف تعلن بالمقدّر ، ثم راحوا يوزعون نظراتهم ـ رغم انتباههم الشديد ـ بين الشاب والأوراق . ولكنهم لم يستطيعوا اكتشاف علاقة واحدة تنمّ عن هذا التأثّر في هذا الوجه البارد والمستسلم .

وأعلن « مدير اللعبة » رسمياً :

ـ أحمر ، زوج ، مرور .

فخرجت من صدر الايطالي حشرجة صمّاء عندما رأى الأوراق المالية تتساقط من يد « البانكييه » أمامه ، الواحدة تلو الأخرى . ولم ينتبه الشاب إلى خسارته إلاّ عندما رأى المجرفة تجرف من أمامه آخر نقوده الذهبية. وكانت المجرفة تحدث ضجّة وهي تكوّم المال أمام الصندوق .

أطبق الشاب جفنيه ، وابيضت شفتاه . ثم عاد ففتح جفنيه

واكتست شفتاه بحمرة قانية . وتظاهر باللامبالاة مثل ذلـك الانكليزي الذي ينظر إلى الحياة على أنها شيء مكشوف له ولم يعد فيها لعينيه أي سر . ثم توارى دون أن ينشد العزاء بنظرة من تلك النظرات القاتلة التي يرميها اللاعبون على من حولهم من المتفرجين . كم من الحوادث تتزاحم في مدى دقيقة واحدة . وكم من الأشياء في رمية نرْد !

وبعد لحظة من الصمت أمضاها « الكروبييه » ممسكاً بقطعة الذهب بين اصبعيه لكي يراها الحاضرون قال :

ـ هذه هي طلقته الأخيرة .

وقال أحد الحاذقين في اللعب ، وهو ينظر إلى من حوله من اللاعبين :

ـ انه شاب متهور وبعد قليل سيرمي بنفسه في الماء .

وصرخ أحد خدم القاعة وهو يأخذ قليلاً من العاطوس :

ـ أوف . . . باه . . .

وقال عجوز لزملائه وهو يشير إلى الايطالي الذي كانت أنامله ترتجف وهو يعد الأوراق المالية :

ـ ليتنا فعلنا كما فعل هذا السيّد ! .

وتابع حديثه قائلاً :

ـ سمعت صوتاً يصرخ في أذني قائلاً : « اللعب رابح دون ريب أمام يأس هذا الشاب » .

فأجاب « البانكييه » :

ـ ليس هذا مقامراً ، ولو كان كذلك لكان قسم ماله ثلاث

حصص ليجلب الحظ السعيد .

ترك الشاب القاعة من دون أن يطلب قبعته . لكن الحارس العجوز ، وقد لاحظ حالة هذه الخرقة البالية ، أعاد إليه قبعته دون أن ينبس ببنت شفة ، فردّ إليه الشاب « الفيش » بحركة آلية وهو يردّد نغم أغنية « الخفقان الشديد » بنَفَس واهن ، حتى انه لم يسمع هو نفسه أنغامها الشجية المفرحة .

وبعد قليل وجد نفسه أمام دهاليز « الباليه روايال » ، ثم أكمل طريقه إلى شارع « سان اونوريه » وسار في الطريق المؤدية إلى « التويلري » وقطع الحديقة بخطوات مضطربة .

كان يمشي كأنه في صحراء ، تدفعه أيدي المارة الذين لم يكن يراهم . ولم يكن يسمع من خلال الجلبة والضجة التي تطرق أذنيه سوى صوت واحد ، صوت الموت . وأخيراً غرق في تأملات مرهقة تشبه تأملات المجرمين الذين تقودهم العربة إلى حيث تنتظرهم مقصلة غدت حمراء من الدماء التي سفكتها منذ ١٧٩٣ .

ثمة شيء مخيف وعظيم يكمن في الانتحار ، ولا أدري ما هو . ان سقطات الكثيرين من الناس لا خطر منها ، فهي تشبه سقوط الأطفال من مكان قليل الارتفاع فلا يتأثرون ولا تدمى أقدامهم . ولكن ، عندما يتحطم رجل كبير فلا بد أن يكون آتياً من فوق ، وان يكون قد ارتفع مقامه حتى السماء ، وأن يكون قد لمح فردوساً ما بعيد المنال . ولا بد أن تكون رهيبة لا ترحم تلك العواصف التي تجبره على طلب الراحة من فوهة مسدس . . . كم من الشباب الأذكياء ينزلقون ، لأن لا صديق لهم ولا امرأة

تواسيهم ، إلى الاعتكاف في مخادعهم ، فيفنيهم الهزال ويفنون بين مليون من الكائنات ، في حضور جمهور انهكه الذهب والضجر . في هذه الحال تبدو فكرة الانتحار مناسبة تمام المناسبة . وان الله وحده يعلم كيف تتطاحن التخيلات ، والشعر ، واليأس ، والصراخ المختنق ، والتجارب القليلة الفائدة ، والأعمال الرائعة التي لم يتم إنجازها ، في نفس الشاب الذي يفكر في الموت الاختياري ويدفعه صوت الرجاء إلى باريس . ان كل حادث انتحار قصيدة سامية من الكآبة ، وفي هذا الخضم من الكتب الأدبية ، هل تجد كتاباً واحداً يقوى على المناضلة ضد هذا الخبر الصغير الذي تقرأه في إحدى الجرائد : « الساعة الرابعة من مساء أمس ألقت امرأة صبية بنفسها في نهر السين من علو جسر الفنون » ؟

أمام هذه الفصاحة الباريسية تشحب الفواجع ، وقصص الحب ، وحتى عنوان الكتاب القديم « شكوى الملك كيرنافان المنتصر الذي سجنه أولاده » ، هذا الكتاب الذي كانت بعض مقاطعه تبعث الدموع في عيني « سترن » فهجر هو أيضاً زوجته وأولاده .

وهاجمت الشاب ألف فكرة شبيهة بهذه الفكر ، وأخذت تمر أمام ناظريه متقطعة ممزقة لا ترابط بينها ، كأعلام ممزقة تتطاير أثناء المعركة . فإذا تخلّى لبعض الوقت عن هذا الحمل المرهق من ذكائه وذكرياته ليقف أمام بعض الزهور التي يداعب تيجانها النسيم ، بين هذه الحواجز من الخضرة ، شعر بشوق إلى الحياة لا يزال يكمن في ثنايا فكرة الانتحار المرهقة . ويرفع عينيه إلى السماء فيحس عندئذ

أن الغيوم الداكنة ، ونفحات الهواء المثقلة بالحزن والجو الثقيل ، تنصحه بالموت .

ووجه خطواته نحو الجسر الملكي وهو يفكر في أحدث نزوات الذين سبقوه من المنتحرين . وابتسم وهو يتـذكر أن اللورد « كاستلاراغ » قضى أكثر الحاجات تواضعاً قبل أن يذبح نفسه ، وان « لوجير » سكرتير الأكاديمية الفرنسية عاد إلى بيته فجلب علبة العاطوس ونشق منه وهو في طريقه إلى الموت . راح يفكر في هذه الغرائب . ثم اقترب من حاجز الجسر ليفسح في المجال لمرور عربة النقل التي مست كمه وتركت عليه بعض الغبار ، ففوجىء بنفسه يزيل الغبار بعناية فائقة . ولمّا وصل إلى أكثر مراكز الجسر ارتفاعاً ، وقف يرمق المياه بنظرة مشؤومة .

قالت له امرأة عجوز ترتدي اسمالاً بالية وهي تبتسم :

ـ الطقس عاطل للغرق . مياه السين وسخة باردة !

فأجابها بابتسامة بريئة تفصح عن هذيان جسارته . لكنه ارتجف فجأة عندما رأى من بعيد ، على جسر التويلري ، إعلاناً يرتفع فوق الحاجز ، مكتوبة عليه هذه الكلمات بخط يبلغ ارتفاعه القدم : « النجدة للذين يموتون اختناقاً » وظهر له « مسيو داشو » ، مدير مكاتب النجدة ، والمتسلح بمحبة الانسانية ، يستنهض همة معاونيه الفضلاء الذين يحطمون رؤوس الغرقى إذا قيض لهؤلاء أن يعوموا على وجه الماء ، وتراءى له الفضوليون ، يفتشون عن طبيب ، ويحضرونه للتبخير ، وخيل إليـه أنه يقـرأ الخبر في الصحف ، بين أفراح مأدبة كبيرة وابتسامة راقصة ، وسمع رنين

النقود التي تدفعها الشرطة للبحارة ثمناً لجثته . انه ، ميتاً ، يساوي خمسين فرنكاً ، أما متمتعاً بالحياة فلا يعدو كونه رجلاً لا أصدقاء له ولا ثروة ولا شهرة . انه صفر حقيقي في الهيئة الاجتماعية ، غير نافع للدولة ولا يشغل باله شيء .

ووضح له أن موته في النهار عمل مشين . وصمّم على الموت في الليل لكي يقدم لهذا المجتمع ، الذي لا يقدر عظمة حياته ، جثة مشوهة لا رسوم لها .

ثم تابع طريقه نحو رصيف فولتير ، وهو يمشي مشية عاطل عن العمل يبغي قتل الوقت . وعندما هبط الدرج الذي ينتهي به رصيف الجسر استرعت انتباهه الكتب المعروضة على الحاجز ، وأوشك أن يساوم في سعر أحدها . ثم ابتسم وأدخل يده في جيب سرواله الفارغة وعاد إلى مشيته الأولى وغفلته . واعترته رعشة شديدة عندما سمع صوت بعض القطع المالية في أعماق جيبه ، فأضاءت وجهه ومضة من الأمل ، انتقلت من شفتيه إلى قسمات وجهه وإلى جبينه ، وجعلت عينيه وخديه تبرق فرحاً . كانت هذه الومضة من السرور أشبه شيء بورقة يابسة التهمت أكثرها النيران . ولم يكن وجه الشاب أسعد حظاً من حظ القسم الذي أتت عليه النار وجعلته رماداً قاتماً . وعاد إليه الحزن عندما سحب يده من جيبه ولم يجد فيها سوى ثلاثة قروش .

ثم طرق سمعه صوت يقول :

ـ آه يا سيدي . . . الصدقة ، الصدقة ! . . . أعطني قرشاً واحداً لأشتري خبزاً .

كان هذا الصوت صادراً عن منظف للمداخن صغير ، وجهه المنتفخ أسود وجسمه مغطى بالدخان ، وثيابه رثة بالية ، وقد مد يده لينتزع من هذا الرجل نقوده الأخيرة .

وعلى بعد خطوتين من المنظف الصغير كان عجوز مسكين خجول ، تبدو عليه سيماء المرض ، يرتدي اسمالاً بالية ؟ وقال هذا العجوز بصوت عريض :

- سيدي . أعطني أيّ شيء تريد . سأصلي إلى الله من أجلك .

ولكن عندما نظر الشاب إلى العجوز سكت هذا ، ولم يعد يطلب شيئاً ، لأنه ربما قرأ على هذا الوجه الداكن آيات من البؤس تفوق البؤس الذي يتردى هو فيه .

- الصدقة ! الصدقة !

رمى الشاب بنقوده إلى الولد وإلى الشيخ المسكين ، ثم ترك الرصيف وتوجه نحو المنازل المأهولة ، فهو لم يعد يقوى على تحمل منظر نهر السين المؤلم .

فقال الولد والشيخ :

- سنصلي إلى الله ليسعد أيامك .

وعندما وصل إلى متجر يبيع الرسوم ، شاهد هذا الرجل المقبل على الموت امرأة تنزل من عربة فخمة . فتأمل بالتذاذ هذه المرأة البديعة وجهها الأبيض الذي تعلوه قبعة أنيقة . وأغرته قامتها الرشيقة ، وحركاتها الحلوة ، وكشف له ثوبها الذي ارتفع قليلاً وهي تهبط من العربة عن ساق يظهر تناسقها جورب أبيض استدار حولها

وشدّ بعناية .

ودخلت الصبيّة إلى المتجر واشترت « ألبوماً » للرسوم العادية وآخر للرسوم المنقوشة على ألواح حجرية ودفعت ثمنها كثيراً من القطع الذهبية ، كانت تلمع وتسمع رنيناً وهي تتساقط على مائدة التاجر .

ووقف الشاب على عتبة المتجر ، وتظاهر بالتطلع إلى الصور المعروضة للأنظار . وتبادل مع المرأة المجهولة نظرة هي أحر بكثير من تلك النظرات التي يلقيها رجل بطريق الصدفة على المارة . كانت هذه النظرة بالنسبة إليه بمثابة وداع للحب ، بمثابة وداع للمرأة ، غير أن الشابة لم تدرك مغزاها ، فلم تحرك قلبها الفاتر ، ولم تدفع بالدماء إلى وجهها فيكسوه الاحمرار ، ولم ترغمها على خفض نظرها . ترى ، ماذا كانت هذه النظرة بالنسبة إليها ؟ إعجاب آخر ، رغبة إضافية تجعلها تتلفظ عند المساء بهذه الكلمات : « لشد ما كنت أبدو جميلة في هذا اليوم » .

انتقل الشاب فجأة إلى صور أخرى يتأملها ولم يدر وجهه إلى المرأة عندما صعدت إلى عربتها الفخمة . وانطلقت الخيول تعدو واختفت هذه الصورة للترف والأناقة من أمام ناظريه كما سوف تختفي حياته نفسها . ثم راح يذرع الرصيف أمام المخازن ويفحص بإمعان أنواع البضائع المعروضة . وعندما ابتعد عن المتاجر أخذ يتأمل اللوفر وأبراج نوتردام والقصور وجسر الفنون . كانت هذه الأبنية تبدو مكتسية بطابع حزين وهي تعكس ألوان السماء الباهتة التي كانت أضواؤها القليلة المتسربة منها ، تعير باريس شكلاً مخيفاً ،

باريس التي مثل امرأة جميلة ، تقع فريسة نزوات البشاعة والجمال التي لا تُفسر . وهكذا فان الطبيعة نفسها كانت تتآمر لكي تفرق ذلك المشرف على الموت في ذهول موجع .

كان نهباً لتلك القوة الشريرة المذيبة التي تجد في السائل الذي يجري في عروقنا موئلاً لها . فشعر أن ظاهرة الميوعة تتسلط على أعضائه . وأحدث فيه عذاب الاحتضار هذا حركة تشبه تدافع الأمواج ، جعلته يرى الأبنية والناس خلال ضباب يتموجون فيه .

وأراد أن ينتزع نفسه من هذه الدغدغة التي أحدثتها فيه ردات فعل الطبيعة الجسدية ، فتوجه إلى متجر لـ « أنتيكة » علّه يجد ما يلهي به حواسه أو لينتظر هبوط الليل وهو يساوم في هذه المعروضات الفنيّة . فكأنه يفتش عن شجاعة أو مقوٍ للقلب ، مثله في ذلك مثل المجرمين الذين يحاولون استرجاع قواهم وهم في طريقهم إلى المقصلة . ولكن فكرة موته القريب أعادت إليه ثباتاً يشبه ثبات دوقة لها عشيقان ، فدخل إلى المتجر رشيقاً طلق المحيا ، ورسم على شفتيه ابتسامة هي أشبه بابتسامة السكران .

ألم يكن هو نفسه سكراناً من الحياة ، أو ربما من الموت ؟ وما لبث أن عاد إليه ذهوله وراح يحدق في الأشياء الغريبة الألوان ، فيراها تنبض بحركة خفيفة لا ريب أن مردّها جريان دمه غير الطبيعي . تارة يظهر ثائراً كالسيل ، وطوراً يبدو هادئاً كالمياه الراكدة .

وطلب بكل بساطة أن يزور المتجر ليرى هذه الأشياء فقد يجد بينها ما يلائم ذوقه . فقال له شاب بلهجة يشوبها الارتياب :

ـ انظر يا سيدي انظر . ليس عندنا هنا سوى أشياء عادية . ولكنك إذا كنت ترغب في الصعود إلى الطبقة الأولى فاني أستطيع أن أريك موميات جميلة من القاهرة ، وآنية خزفية منقوشة ، وخشب الابنوس المحفور . . . بضاعة باهرة الجمال وصلت حديثاً .

رأى الشاب نفسه في وضع مخيف . فان أحاديث هذا الثرثار وكلماته التجارية الحمقاء كانت بالنسبة إليه مثل التنكيدات الحقيرة التي يستعملها ذوو العقول الضيقة للفتك برجل عبقري . لكنه تظاهر ، حاملاً صليبه إلى النهاية ، بالاصغاء إلى دليله وأخذ يجيبه بإشارات أو بكلمات متقطعة ، لم توصل إلى اكتساب حق السكوت ، وقدر أن يسلم نفسه إلى تأملاته الأخيرة المخيفة . لقد كان شاعراً ، ووجدت نفسه ، صدفة، مرعى خصباً : لا بد انه يرى قبل الأوان عظام عشرين عالماً .

عند النظرة الأولى ، قدمت له هذه المخازن صورة مختلطة المعالم ، تتصادم فيها التماثيل البشرية والتماثيل الالهية . . . تماسيح وقرود وأفاعٍ محشوة بالقش تبتسم في داخل الحواجز الزجاجية كأنها تتهيأ لعض رسوم نصفية وضعت بالقرب منها ، أو تحاول التسلق إلى الأضواء المنبعثة من الثريات، وقدح جيء به من «سافر» رسمت عليه مدام جاكوتوت صورة نابوليون ، وصع بالقرب من تمثال لأبي الهول مكرّس للاله « ساسوستريس » . بداية العالم وانتهاؤه يختلطان بمرح رخيص ، سيف جمهوري وضع على بندقية قديمة يرجع عهدها إلى القرون الوسطى ، وصورة مدام دوباري وقد رسمها « لاتور » وعلى رأسها نجمة ، بينما وقفت هي عارية وسط الغيوم ، تتأمل بلهفة غليونا هنديا ، وهي تحاول أن تحزر منفعة هذه

الخطوط اللولبية التي تزحف نحوها . كانت أدوات الموت ، من خناجر ومسدسات قديمة وأسلحة عجيبة ، تختلط اختلاطاً مدهشاً بأدوات الحياة : من صحاف غضارية ، وصحون تنسب إلى « ساكس » ، وكؤوس شفافة جيء بها من الصين ، وممالح قديمة ، ومركب شراعي من العاج قلوعه مبسوطة ركّب على ظهر سلحفاة ، وآلة مفرغة للهواء تحجب عن النظر تمثال الامبراطور أوغيست الثابت الجنان . وعدد وافر من رسوم وجهاء الفرنسيين . ولوحات تمثل الوجهاء الهولنديين ، يبدون فيها بلا إحساس كما كانوا في حياتهم . . . ترتفع فوق هذه المجموعة من الأثريات وهي تبعث بنظرات شاحبة باردة .

ويخيل أن جميع بلدان العالم قد بعثت إلى هذا المكان ببعض بقايا مدنيتها ، وببعض مساطر فنونها . ولم يكن ينقص هذه المجموعة غليون المتوحش ولا حذاء نساء القصور الأخضر المذهب ، ولا يطقان العربي ولا معبود التتر . وكنت ترى فيها كيس التبغ الذي يستعمله الجنود ، وحُقّ القربان الذي يستعمله الكاهن والريش الذي يزين العروش .

وكانت هذه الصور المريعة عرضة لسيل من الأنوار ، فتبدو مدهشة ، ويزيد في غرابتها اختلاط الأبعاد والتنافر في توزيع الأضواء . فيخيل أن الأذن تسمع صراخاً متقطعاً ، والعقل تتملكه فواجع لا نهاية لها ، والعين تبصر شعاعاً يوشك أن ينطفىء . والغبار الذي يكسو كالغلالة كل هذه الأشياء وخطوطها الكثيرة واعوجاجها وتلويها ، يظهر للعيان صورة بديعة جميلة التناسق .

أخذ الشاب يقابل بين هذه القاعات الثلاث التي تغصّ بالمدنيات ، والطقوس ، وتماثيل الآلهة ، والأعمال الفنية الرائعة ، والممالك ، والدعارة ، والعقل والجنون ، وينظر إليها خلال مرآة متعددة الوجوه ، فيريه كل وجهٍ منها عالماً مستقلاً . وبعدما زايله هذا الشعور المبهم أراد أن يفتش عما يبعث في قلبه السرور ، ولكن استغراقه في التفكير والأحلام والتحديق أوقعه فريسة لحمى يمكن أن ننسبها إلى الجوع الذي يمزق أحشاءه . ان رؤ ية كل هذه الكائنات القومية أو الفردية ، عبر الرموز الحالية التي بقيت حية بعدها ، أنهت إغراق جواس الشاب تماماً في الخدر . وتحقق له الأمنية التي دفعه شوقها إلى المتجر : لقد خرج من الحياة العادية ، وأخذ يصعد درجة درجة نحو العالم المثالي ، وعندما وجد نفسه في قصر الانخطاف الروحي ، بدا له هذا العالم قطعة كبيرة مسطرة بالنار ، كما ظهر المستقبل ملتهباً فيما مضى أمام عيني القديس يوحنا في « باتموس » .

ونهضت أمامه بكميات هائلة ، وجيلاً وراء جيل ، مجموعة صور مؤنسة مخيفة ، مضيئة مظلمة . مصر العجيبة القوية ، المنتصبة في رمالها ممثلة بمومياء مغلفة بنسيج أسود ، وتماثيل للفراعنة الذين كانوا يرهقون الشعب ليبني لهم قبوراً ، وموسى والعبرانيون والصحراء . . . فتراءى له العالم القديم بأبهى مظاهر عظمته .

وعلى عمود من الرخام الأبيض شاهد تمثالاً جميلاً لا يزال محتفظاً برونقه وجدته ، أخذ يكلمه عن الأساطير الممتعة في « اليونان وايوني » . ولقد ابتسم . . . ولكن آه ! من ذا يستطيع أن لا يبتسم عندما يرى مثله شابة سمراء ترقص في آنية من الفخار أمام الاله

« برياب » وتحييه بسرور ؟ كذلك رأى ملكة لاتينية تداعب بحب حيواناً وهمياً له مقدّم الأسد ومؤخر التنين ، رأى مجون امبراطورية روما ممثلاً بحمام ومضجع وأدوات زينة « جولي » التي تنتظر مجيء « ثيبول » بتراخٍ وكسل .

وكان رأس شيشرون المتوج بسلطة الطلاسم العربية ، يعيد إلى الذهن ذكر روما الحرة . وتأمل الشاب القنصل الروماني ، وحامل الفأس والثياب الموشاة بالمخمل ، ومعارك « فوروم » ، والشعب المضطهد ، تمر أمامه في الأرض على مهل ، كحلم يغلّف صوره الضباب . وأخيراً روما المسيحية بأبهى مظاهرها . وعلى رسم بدت فيه السماء رأى العذراء مريم تغرق في بحر من الذهب ، بين ملائكة يعكسون مجد السماء وينصتون إلى أنين التعساء ، الذي تقابله حواء المجدَّدة هذه ، بابتسامة عذبة . ولمّا لمس إحدى قطع الفسيفساء المصنوعة من حجارة « فيزوف » و « اتنا » البركانية ارتمت نفسه فجأة في حضن ايطاليا الأشقر الدافىء ، وشهد عربدات بورجيا وتوغل في « ابريز » وتاقت نفسه إلى حب الايطاليات ، وشعر بشوق ملح إلى الوجوه البيض والعيون السود الطويلة الأهداب . واعترته رجفة شديدة عندما شاهد سيف زوج مسلط فوق رأسه . . . لقد قطع عليه حلمه وردّه إلى الواقع منظر خنجرٍ يعود تاريخ صنعه إلى القرون الوسطى ، قبضته منقوشة بدقة فائقة والصدأ الذي يكسو شفرته يشبه الدم .

والهند ودياناتها ممثلة بمعبود ألبس قبعة ناتئة الجوانب ، مزين بالأجراس ، مكسو بالذهب والحرير . وقرب نسناس صغير وضعت

قطعة خشب جميلة ، تتضوع منها رائحة الصندل .

ومن الصين قزم عيناه مستديرتان وفمه معوج وأعضاؤه ملتوية ، يوقظ في النفس ذكرى مدنيّة شعب تعب من رتابة الجمال ، فصار يجد لذة فائقة الوصف في خصوبة الكسل .

وكان هنالك مملحة خرجت من مصانع « بنفينوتو تشلليني » يعود تاريخها إلى عصر النهضة ، وقت ازدهرت الفنون والفسق ، وحين كان الملوك يروحون عن أنفسهم بمشاهدة التعذيب ، وحين كان أمراء الكنيسة المضطجعين بين أحضان النساء يأمرون الكهنة العاديين بالتزام العفة .

ورأى الشاب فتوحات الاسكندر منقوشة على حجر ثمين ، ومذابح « بيزار » على بندقية قديمة ، والحروب الدينية الهائجة الوحشية على خوذة ، وصور الفروسية الضاحكة على سلاح مصقول جيء به من « ميلان » وقد اقتبس فن صنعه من « دمشق » ، وعلى أحد جوانبه لا تزال تلمع عينا أحد أتباع « شارلمان » .

كان هذا الخضم من الأثاث ، والاختراعات ، والأعمال ، والخرائب ، يؤلف أمامه قصيدة لا نهاية لها ، تحيا فيها الألوان والأشكال والأفكار ، ولكنها لا تقدم للنفس عملاً كاملاً . كان على الشاعر أن يتمم وضع التصميم لرسوم المصور الكبير الذي حشد على لوحته باستخفاف وسخاء عدداً لا يحصى من حوادث الحياة .

وبعدما استولى على العالم ، وبعدما شاهد أشخاصاً وبلداناً وممالك ، عاد إلى التأمل بوجوده وبالوجود الفردي ، متوقفاً عند التفاصيل رافضاً حياة الأمم لاعتباره إياها مرهقة ، لا يقوى على

احتمالها رجل واحد . . .

وعاد إلى التحديق في المعروضات ، فرأى تمثالاً يمثل طفلاً صغيراً مطبق العينين ، فأعادت إليه رؤ ية هذا المخلوق العذبة شوقاً جارفاً إلى لذاذات عمره .

وعلق نظره على رسم يمثل فتيات من « أوتايتي » بمناديلهن الجميلة ، فجمح به خياله الملتهب وأخذ يصور له بساطة الحياة في أحضان الطبيعة ، وجمال العري الطاهر للخفر الحقيقي ، وعذوبة حياة الكسل الطبيعي في الانسان . وودّ لو يتمكن من العيش بهدوء ، على ضفة ساقية صافية حالمة ، تحت شجرة موز تتدلى أثمارها اللذيذة بصورة دائمة ، دون أن يضطر إلى الاعتناء بها . لكنه تحول فجأة إلى قرصان سيطرت عليه رؤ ية ألوف الأصداف اللامعة ، وقد روعتها أسماك عرق اللؤلؤ الكبيرة التي استفزتها العواصف والنباتات البحرية . ثم راح يتأمل الرسوم الدقيقة والنقوش الزرقاء والذهبية التي تزين بعض مخطوطات كتب الصلاة الثمينة ، فنسي غليان البحر وثورته .

وداعبت مخيلته فكرة الطمأنينة والهدوء والانصراف إلى البحث والتمحيص ، فتمنى لنفسه حياة الرهبان الخالية من الآلام والشهوات ، حيث يجلس في غرفة يتأمل من نافذتها الوحيدة المروج والغابات وكروم العنب التابعة لديره . واختار أمام إحدى اللوحات حياة الجندي أو شقاء بعض العمال . وتمنى لو يلبس قبعة « الفلامان » الوسخة وينتشي من البيرة ، ويبتسم لفلاحة مترهلة . وارتجف حين شاهد « سقوط الثلج » « لميريس » واحتدمت في نفسه

حمى القتال عندما رأى « المعركة » « لسالفاتور روزا » . ودهش لدى رؤيته آلة موسيقية ، فاستودعها يد أميرة فاتنة ، وأثملته أغنيتها الحزينة وهو يعلن لها حبه ، ذات مساء ، قرب مدخنة قديمة ، في الظل الباهت حيث تختفي نظرة الموافقة . . .

كان يتعلق بجميع أصناف اللذات ، وتتجاذبه جميع أنواع الآلام . واستحوذت على عقله جميع دساتير الوجود، وهو ينثر بسخاء حياته وعواطفه على التماثيل والصور التي كان وقع خطواته يردد صداها صوتاً شبيهاً بصوت يصل إلينا من عالم آخر ، كما يرتفع ضجيج باريس ويصل إلى أبراج نوتردام .

وصعد درجات السلم الداخلي المؤدي إلى الطبقة الأولى ، فشاهد الدروع والأسلحة المزركشة ، وبيوت القربان المقدس ،، والوجوه الخشبية المدلاة من الجدران . كانت تلاحقه هذه الأشكال الغريبة والمخلوقات العجيبة ، الجالسة على حدود الموت والحياة ، كأنه واقع تحت تأثير حلم . ولازمه الشك بوجوده أخيراً فأضحى مثل تلك الأشياء الفضولية التي ليست بميتة ولا تعد من عالم الأحياء .

كان ضوء النهار قد بدأ يشحب عندما دخل الشاب إلى القاعات الجديدة . ولكن ، هل من قيمة للضوء بين هذه الثروات المكدسة التي يسطع بريق ذهبها الخاطف فيبهر الأنظار ؟ كنت ترى في هذه القاعات أغرب ما سعى إلى اقتنائه أصحاب الملايين المبذرين ـ الذين عادوا فقضوا نحبهم في إحدى الغرف الحقيرة ـ مكدسة في هذا المعرض للجنون الانساني .

ورأى في إحدى الزوايا دواة ثمنها مئة ألف فرنك بيعت بمئة قرش ووضعت بالقرب من قفل سري كان ثمنه في ما مضى يكفي لفدية ملك . وفي زاوية ثانية بدا الجنس البشري في أبهى مظاهر تعاسته ، وأصدق صورة لانتصار صغائره . كانت ملقاة هناك طاولة مصنوعة من خشب الأبنوس ، حُفرت بناء على رسوم وضعها « جان غوجان » ؛ واستهلكت سنة عمل كاملة ، ربما بيعت بثمن حطب الاحراق . وأثاث بديع الصنع كأنه صنع بأيدي الجن ، كان مبعثراً هنا وهناك بمنتهى الاهمال .

ولما انتهى الشاب إلى القاعة التي تتمم هذه المجموعة من الغرف ، الغاصّة بالأواني الذهبية والأخشاب التي قام على حفرها فنانو العصر السابق صرخ قائلاً :

ـ إن هذا يقدر بالملايين .

فأجابه الشاب المنتفخ الخدين :

ـ الأفضل أن تقول بالمليارات . ولكن ، ليس هذا شيئاً بعد . اصعد إلى الطبقة الثالثة فتشاهد هناك ما يرضيك .

تبع الشاب دليله إلى دهليز رابع حيث مرت بالتتابع أمام عينيه المتعبتين رسوم « لبوسان » وتمثال مدهش « لميكل آنج » ، وبعض المناظر الطبيعية الخلابة « لكلود لوران » ، ولوحة « لجيرار دو » تشبه صفحة من « ستيرن » ، وأعمال « لرامبرانت » ، و « موريو » ، وأخرى « لنيلا سكيز » قاتمة وملونة مثل قصيدة « للورد بيرون » وغيرها من التماثيل والرسوم والتحف . . . كل هذا العمل كان من شأنه أن يقرف المرء من العمل ، وكل هذه الروائع المكدسة تكرّه

بالفنون وتقتل الحماسة .

فلقد وقف أمام رسم عذراء « لرفائيل » لكنه كان قد تعب منها « رفائيل » . ومرّ برسم « لكوريج » يتمنى أن يجود عليه المرء بنظرة ، ولكنه لم يحظ منه بها . ورأى كأساً ثمينة من الرخام السماقي القديم ، بالكاد لمحها . كان يحس بالاختناق بين بقايا خمسين قرناً منصرمة ، وشعر بالمرض من جميع هذه الخواطر الانسانية ، وفتك به الفن والأبهة ، وضيقت عليه الخناق هذه القوالب المتجددة ، التي تشبه مسخاً حديث الولادة بُلي بإله شرير يناصبه عداء لا ينتهي . . . ان النفس ، في تقلبها وجريها وراء أهوائها ، تشبه الكيمياء الحديثة التي تختصر الخليقة في غاز واحد . ألا تصنع النفس سموماً رهيبة بسرعة تجمع أفراحها وقواها وأفكارها ؟ أولم يهلك كثير من الناس من تأثير بعض الأحماض الأخلاقية التي انتشرت فجأة في عالمهم الداخلي ؟

لما ولج القاعة الأخيرة حيث تتجمع آخر كومة من الأمجاد والجهود الانسانية ، بين كثير من الغرائب والثروات ، أشار بأصبعه إلى صندوق مصنوع من خشب « الأكاجو » وسأل قائلاً :

ـ ماذا تحتوي هذه العلبة ؟

فأجاب الفتى وقد ارتسمت على وجهه دلائل الأهمية :

ـ آه ! إن معلمي يحمل مفتاح هذا الصندوق . فإذاً كنت راغباً أن ترى ما في داخله ، فاني أخاطر راضياً بإبلاغ معلمي .

وقال الشاب :

! هل معلمك أمير ؟

فأجاب الفتى :

ـ ولكنني لا أعرف ، يا سيدي .

والتقت نظراتهما فترة من الوقت متبادلة الدهشة . ثم انصرف الفتى وترك الشاب وحده وخرج من القاعة بعدما فسّر صمت الشاب المجهول بأنه رغبة في تحقيق الطلب الذي ألمح إليه .

هل حدث لك أن انطلقت في شسوع الزمان والمكان اللامتناهي ، بقراءة مؤلفات « كوفييه » الجيولوجية ؟ هل حملتك عبقريته على التحليق فوق هاوية الماضي السحيقة ، كما لو كنت على كفي مارد ؟ لقد كشف هذا العالم الفذ عن طبقات الأرض طبقة طبقة ، ووجد تحت سراديب « مونمارتر » أو في تضاريس جبال « الأورال » هذه الحيوانات التي تنسب بقاياها العظمية إلى مدنيات قديمة سبقت الطوفان . إن النفس ليعتريها الخوف وهي تجوس خلال هذه المليارات من السنين ، وهذه الملايين من الشعوب التي نسيتها ذاكرة الانسان الضعيفة والتقاليد الالهية الصلبة ، والتي يغطي رمادها سطح كوكبنا مؤلفاً التربة التي تقدم لنا الخبز والزهور .

أليس « كوفييه » أكبر شعراء عصرنا ؟ إن اللورد « بيرون » صور بأشعاره بعض الاضطرابات الأخلاقية ، ولكنّ « كوفييه » ، هذا العالم الطبيعي الخالد ، أعاد بناء عوالم كثيرة من العظام البيضاء ، ونسج على منوال قدموس ، فبنى من الأسنان مدناً كبيرة ، وأعاد الحياة إلى ألوف الغابات بمعرفته سر طبائع الحيوانات وببعض قطع من الفحم الحجري ، وكشف عن شعوب جبارة في قدم الفيل العظيم المنقرض . إنه شاعر بالأرقام يوقظ العدم دون أن

يتفوه بكلمات سحرية . ينصرف إلى البحث في قطعة من الجبس ، ويعثر على أثر صغير ، فيهتف صارخاً : « أنظر » . عندئذٍ يتحول الرخام إلى حيوان ، وتدب الحياة في أوصال الموت ، ويتضح العالم المجهول . وهكذا بعد سلالات لا تحصى من المخلوقات الجبارة ، وبعد أنواع كثيرة من السمك ، وفصائل عديدة من الأصداف والحيوانات المختلفة ، يجيء دور الجنس البشري الذي يمكن أن يكون ثمرة فاسدة لمجموع خواص جنس متفوق أراد الخالق تحطيمه .

وتبعث نظرات العالم الفاحصة الحرارة في هذه المخلوقات الضئيلة الحديثة المولد ، فتتمكن من اختراق العناصر المختلطة ، ومن ترديد لحن أنشودة لا نهاية لها ، ومن تصوير ماضي العالم . . . وأمام هذا البعث المخيف الذي أوجده صوت رجل واحد ، وهذا الفتات الذي يسمح لنا بالتمتع باستثماره في هذه اللانهاية التي لا تحمل اسماً والتي تشمل جميع الأفلاك ونسميها الزمن ، نتساءل ونحن مغمورون ببقايا عوالم كثيرة عن جدوى أمجادنا وأحقادنا وحبنا . هل كتب علينا أن نحتمل شقاء الحياة إذا كنا نود أن نصبح نقطة لا تمس في المستقبل ؟ ولكننا إذا انتزعنا أنفسنا من الماضي نصبح أمواتاً إلى اللحظة التي يقرع فيها الخادم باب مخدعنا ويقول : « لقد أجابت الكونتيس إنها تنتظر سيدي » .

هذه الروائع التي مثلت للشاب الخليقة ، بكل ما فيها أوجدت في نفسه الارتجاف الذي يعرو الفيلسوف لدى رؤيته العلمية للاكتشافات المجهولة ، فتمنى لنفسه الموت في هذه اللحظة

أكثر من كل مرة ، وارتمى على كرسي من العاج كانت لبعض الحكام للرومانيين ، وترك أنظاره تتنقل بين هذه المشاهد التي تمثل الماضي . فدبّت الحياة في اللوحات والتماثيل ، وابتسمت له ثغور العذارى وساعده الظل وخياله المضطرب ، ودماغه الذي تلهبه الحمى ، على رؤ ية هذه الأشياء تتحرك وتستدير أمامه . فراح كل تمثال يسخر منه ، وأغمض الأشخاص الذين تمثلهم اللوحات أجفانهم ليستجلبوا لأنفسهم الراحة .

كل شكل من هذه الأشكال كان يرتجف ، ثم ينتزع نفسه من مكانه ، ويقفز بطيش أو برزانة ، بنعومة أو بخشونة ، حسب عاداته وطباعه وتركيبه . فأحدث كل هذا ضوضاء تشبه خواطر الدكتور فوست الوهمية على جبل « بروكن » .

ولكن هذه المناظر التي أنجبها التعب ، وتوتر الأعصاب ، أو نزوات الأصيل ، لم تكن لتقوى على ترويع الشاب . ذلك لأن مخاوف الحياة لم تعد تفعل في نفس اعتادت مخاوف الموت . وبدا أنه يفضل صحبة هذه الغرائب التي كانت عجائبها تقترن بهواجسه الأخيرة فتجعله يحس بالوجود .

وخيّم حوله صمت عميق ، وغرقت نفسه في تأملات كانت رسومها السوداء تتتابع تدريجاً ، مختلفة الأشكال والألوان . واخترق ضوء الفضاء وألقى آخر أشعته الحمراء بعد صراعه العنيف مع الليل . فرفع الشاب رأسه ، فرأى هيكلاً عظمياً يغمره ضوء باهت ، يميل جمجمته إلى اليمين وإلى الشمال كأنه يقول له « إن الأموات لا يريدونك » .

وعندما مرّ بيده على جبينه ليطرد عن عينيه النعاس ، شعر بريح باردة تلامس خديه ، فارتجف . وأسمعت النوافذ صوتاً حاداً وهي ترتج فجأة ، ففكر أن هذه الريح الباردة التي داعبت خديه جديرة حقاً بأسرار القبر ، يحدثها بين جدرانه خفقان أجنحة بعض الوطاوط . وسمحت له أشعة المغيب الضئيلة برؤ ية الأشباح التي تحيط به رؤ ية غير واضحة . وبعد قليل اتشحت هذه الطبيعة الميتة بوشاح أسود واحد .

لقد هبط الليل وحانت فجأة ساعة الموت .

ومرت فترة من الوقت لم يتمكن خلالها من النظر نظرة واضحة إلى الأشياء الدنيوية . ودفن نفسه في تأملات عميقة ، واستسلم إلى شبه النوم الذي سببه التعب وإلى أفكار كثيرة تمزق قلبه .

وخيل إليه فجأة أنه يسمع صوتاً مرعباً يناديه . فارتجف ارتجاف من يكون في غمرة حلم مزعج ، ويرى نفسه يهبط دفعة واحدة إلى أعماق هاوية مخيفة . وأعمى بصره ضوء قوي فأطبق عينيه ، ثم فتحهما فرأى في أحشاء الظلام كرة حمراء تلمع لمعاناً عجيباً ، ينتصب في وسطها شيخ يوجه نحوه أشعة قنديل . . . إنه لم يشعر بمجيء هذا الشيخ ، ولم يسمع كلامه ، ولم يره يتحرك .

ولقد كان لهذه الرؤ يا مفعول السحر . وإن أكثر الرجال شجاعة وبأساً ، إذا ما فوجىء هكذا ، لكان ارتجف أمام هذا الشخص الذي يشبه كائناً خرج من قبر قريب . لكنّ الصبا العجيب الذي يحرك عيني هذا الشيخ الجامدتين حال بين الشاب والاعتقاد بالظواهر الفائقة الطبيعة ، إلاّ أنه في غضون الفترة التي

فصلت بين حياته الذاهلة وحياته الواقعية بقي فريسة للشك الفلسفي الذي أوصى به « ديكارت » ووقع بالرغم منه تحت تأثير هذه الأوهام الغامضة التي تأبى كبرياؤ نا الاعتراف بها ، والتي عبثاً يحاول علمنا العاجز الكشف عنها وتحليلها .

تصوّر شيخاً ضئيلاً نحيلاً ، مرتدياً ثوباً من المخمل الأسود مشدوداً حول خصره بجديلة من الحرير، وعلى راسه قبعة من المخمل الأسود أيضا تغلف جمجمته وتسمح لخصلات شعره البيضاء أن تتدلى بشكل إطار على جبينه. والثوب الذي يرتديه تظنه كفناً لا يبرز منه شيء إنساني سوى وجهه الضيق الشاحب . ولولا اليد المعروقة ، الأشبه بعصا ملفوفة بقماش ، والتي رفعها الشيخ عاليا ليسلط على الشاب ضوء القنديل ، لظننت وجهه معلقا في الهواء . وثمة لحية مدبّبة ، تغطي ذقن هذا المخلوق العجيب وتضفي عليه مظهر الرؤ وس اليهودية التي يستعملها الفنانون نماذج عندما يودون أن يرسموا موسى . وشفتاه الرقيقتان عديمتا اللون ، حتى أنه يلزمنا أن نوجه انتباهاً خاصاً لنحزر الخط الذي يسطر الفم في هذا الوجه الأبيض . وخداه الشاحبان غائران . وقوة عينيه الصغيرتين الخضراوين العديمتي الأهداب التي لا تقاوم ، كان يمكن أن تجعل الشاب يعتقد أن « وازن الذهب » « لجيرار دو » قد ترك إطاره ومشى إليه . وقوة ملاحظة عجيبة تدل عليها التجاعيد التي تكسو وجهه والخطوط المستديرة المرسومة على صدغيه تشي بخبرة صاحبها العميقة في جميع أمور الحياة .

لم يكن من السهل خداع هذا الرجل الذي أعطي موهبة الكشف عما في أعماق القلوب . فان عادات جميع سكان الكرة

الأرضية وحكمتهم كانت مجتمعة على وجهه البارد كما تجتمع مصنوعات العالم أجمع في هذه القاعات التي يكسوها الغبار . وإنك تستطيع أن تقرأ على هذا الوجه هدوء إله يرى كل شيء ، أو تعجرف رجل رأى كل شيء . وبإمكان رسام أن يحوّل هذا الوجه ، بعد أن يضيف إليه تعبيرين مختلفين ، وبخطين من ريشته ، إلى وجه الأب الأزلي الحبيب ، أو إلى وجه الشيطان الهازىء ، لأنه كان لهذين الوجهين تأثير قوي على جبهة هذا الشيخ وعلى خطوط فمه الدقيقة . لا بد أن يكون هذا الرجل قد طحن كل العذاب البشري بسلطة هائلة ، قاتلاً بذلك المسرات الأرضية .

ارتجف الشاب المحتضر عندما أحسّ أن هذا الجني العجوز يقطن كوكباً غريباً عن العالم ، حيث يعيش منفرداً دون أفراح ، لأنه تخلص من الأوهام ، ودون ألم ، لأنه لم يعد يعرف الملذات .

كان الشيخ منتصباً ، جامداً ، ثابتاً ، كنجم في وسط سحابة من النور . وعيناه الخضراوان مملوءتين لا أدري بأي خبثٍ هادىء ، فكأنهما تضيئان العالم الأخلاقي مثلما قنديله ينير هذه القاعة العجيبة .

هكذا كان المشهد الغريب الذي أذهل الشاب في اللحظة التي فتح فيها عينيه ، بعدما كانت تهدهده فكرة الموت وصور أخرى مخيفة . وإذا كان قد استمر في دهشته ، وإذا سمح لنفسه أن تقع تحت تأثير اعتقاد هو من شأن الأطفال الذين يصغون إلى قصص مرضعاتهم ، فيجب أن ننسب هذا الخوف إلى الستار الذي يحجب حياته ، وإلى قوة إدراكه لتصوراته وأوهامه ، وإلى ضعف أعصابه

المتوترة ، وإلى التمثيلية المفجعة العنيفة التي قدمت لها فصولها مسرات شرسة في قطعة من الأفيون .

لقد حدثت هذه الرؤ يا في باريس ، على جسر فولتير ، في القرن التاسع عشر ، في الزمان والمكان اللذين انعدمت فيهما قوة السحر . وبالرغم من وجوده قرب المنزل الذي قضى فيه نحبه ربُ الكفر الفرنسي ، وبالرغم من كونه رسولاً من رسل « غي - لوساك » و « اراكو » الساخرين المستهترين ، فان هذا الشاب المغمور لم يكن يطيع دون ريب إلاّ الهواجس الشعرية التي نسلم أنفسنا عادة إليها ، كمن يود أن يهرب من الحقائق التي تولد اليأس ، أو أن يمتحن قدرة الله .

ارتجف إذن أمام هذا الضوء وهذا الشبح . ودفعه شعور غامض إلى الاضطراب من بعض القوى الغريبة . ولكن اضطرابه كان شبيهاً بالاضطراب الذي نحسه أمام نابوليون ، أو في حضرة بعض الرجال العباقرة العظام الذين يكسوهم المجد .

وضع الشيخ القنديل على قاعدة عمود محطمة ، بشكل يجعله يغمر بالضوء جميع أرجاء القاعة . وخاطب الشاب بصوت أنيس واضح له رنة المعادن قائلاً :

- أيرغب سيدي في رؤ ية رسم يسوع بريشة رفائيل ؟

ولدى ذكر اسمي يسوع ورفائيل ، أتى الشاب بحركة استهجان لا بد أن العجوز كان ينتظرها . عندئذ ضغط على لولب وفجأة هبط الاطار الخشبي في أحد الشقوق ، ووقع دون أن يحدث ضجة ، وأسلم اللوحة لاعجاب الشاب . عندئذ نسي الشاب

أوهامه في المتجر ، واندفاعه وراء أحلامه ، وعاد إليه صوابه ، فعرف في هذا الشيخ مخلوقاً من لحم ودم . وغدا رجلاً يعيش في العالم الحقيقي . وأثر فيه كثيراً الصفاء الذي يشع من الوجه الالهي في لوحة « رفائيل » وبدد العطر الذي هبط من السماء العذاب الجهنمي الذي كان يلهب عظامه . كان رأس المخلص يبدو كأنه خارج من الظلمات ، تحيط برأسه هالة من نور ينبعث منها بريق خاطف . وكانت تكمن في دمائه ، وتحت جبينه ، حجج بليغة تنطق بها كل جارحة من جوارحه . واسمعته شفتا المخلص القرمزيتان كلام الخلاص ، فراح الشاب يفتش عن دويّه المقدس في الفضاء ويسأل الصمت عن أمثاله السحرية ، ثم يصغي إلى هذا الكلام في المستقبل كما يعود فيجده في تعاليم الماضي . لقد كان الانجيل ينطق في صفاء هاتين العينين الهادئتين المعبودتين اللتين تلتجىء إليهما النفوس المضطربة . والديانة المسيحية تقرأ بأجمعها في ابتسامة عذبة حلوة تعبر عن التعاليم التي تختصر بهذه العبارة : « أحبوا بعضكم بعضاً » .

كان الرسم يوحي الصلاة ، ويوصي بالغفران ، ويخنق الأنانية ، ويوقظ في النفس جميع الفضائل النائمة . وعمل رفائيل الفني يشارك الموسيقى في سحرها فيجعلك تقع فريسة لمفعوله السحري ، وينقلك إلى أجواء الذكريات ، وينتصر انتصاراً كاملاً إذ انه ينسيك حتى اسم الرسام . وكان الضوء يؤثر أيضاً على هذا الرسم الرائع فيخيل ، من وقت إلى آخر ، أن الرأس يتحرك بين مجموعة من الغيوم .

وقال التاجر ببرود :

ـ لقد رصعت هذا النسيج بقطع ذهبية .

فصرخ الشاب ، وهو يحاول التملص من أحلامه وأفكاره التي أعادته إلى التأمل في مصيره المحتوم ، وانتزعت منه دون أن يشعر بقية أمل كان يتشبث بها :

ـ آه ! لا بد إذاً من الموت . . .

فأجابه الشيخ وهو يأخذ بقبضته يدي الشاب ويضغط عليهما بقوة :

ـ آه ! أوه ! . . . كنت على حق إذن في اتخاذي الحذر منك .

ابتسم الشاب ابتسامة حزينة من هذا الخطأ الذي وقع فيه الشيخ وقال بصوت عذب :

ـ لا تخش شيئاً ، يا سيدي . ان الموت المقصود هو موتي وليس موتك .

ثم نظر إلى الشيخ المضطرب وتابع حديثه قائلاً :

ـ لماذا لا أعترف لك بخداع بريء لجأت إليه ؟ . لقد جئت إلى هنا أنتظر هبوط الليل ، لكي أتمكن من الانتحار غرقاً ، دون أن أثير فضيحة . جئت إلى هنا لأرى ثروتك . ومن لا يغفر لرجل علمٍ وشعرٍ هذه الهفوة التي دفعه إلى ارتكابها شوقه إلى إرضاء آخر رغبةٍ له ؟

كان التاجر المرتاب يتفحص بنظراته الثاقبة وجه زبونه المتجهم ، وهو يستمع إلى كلامه . وعندما أكدت له نبرات صوته المؤلمة وقرأ في تقاطيع وجهه الشاحب الموت المرعب الذي أخاف

اللاعبين قبل وقت قليل ، أفلت يدي الشاب . ولكنّ بقية من التحفظ الذي أوجده اختبار مئة سنة على الأقل تحركت في نفسه ودفعته إلى مد ذراعه بحركة لامبالاة ، إلى خزانة قريبة ، كأنه يود أن يستند إليها ، وأخذ منها خنجراً مثلث النصل وقال :

ـ هل أنت موظف بلا راتب مضى عليه ثلاث سنوات لم يمنح خلالها هبة واحدة ؟

فأجابه الشاب بإشارة نفي ، مع ابتسامة أفلتت منه .

ـ هل ينعى عليك أبوك دائماً مجيئك إلى العالم ؟ أم هل فقدت شرفك ؟

ـ لو كنت أود أن أفقد الشرف لكنت أحافظ على حياتي .

ـ هل أنت مضطر إلى التأليف لتدفع تكاليف جنازة عشيقتك ؟ ألا يسيطر عليك مرض الشوق إلى الذهب ؟ أتود أن تدك عرش الضجر ؟ وأخيراً ، أي غلطة تدفع بك إلى الموت ؟

ـ لا تفتش عن أسباب موتي بين الأسباب المبتذلة التي تجبر الكثيرين على الانتحار . ولكي أعفي نفسي من الكشف عن آلام لم يُسمع بها بعد ، ويصعب على لسان الانسان أن يعبر عنها ، أقول لك إنني أتردّى في قذارة أعمق أعماق الشقاء . . .

ثم أضاف بلهجة وحشية :

ـ لا أريد أن أتسول المساندة ولا العزاء .

ـ آه ! آه ! . . .

صاح الشيخ بهذين المقطعين فخيّل أنهما صادران عن ناقوس خشبي . ثم اتبعهما بالقول :

ـ لن أجبرك على التضرّع إليّ ، ولا أود أن أجعلك تحمرّ خجلاً . ودون أن أعطيك سنتيماً واحداً فرنسياً ، أو بارة من الشرق ، أو نقوداً المانية أو سويسرية أو روسية . ودون أن أهبك قطعة واحدة من هذه النقود القديمة الرومانية ، أو فلساً واحداً من نقود العالم القديم ، أو قرشاً واحداً من نقود العالم الحديث ، ودون أن أقدم لك أي شيء من الفضة أو الذهب أو الدراهم أو من الأوراق المالية ، أود أن أجعلك أكثر ثراء وأوفر قوة واعتباراً من ملك دستوري .

ظن الشاب أن الشيخ خرف ينحدر إلى الطفولة ، فبقي مدهوشاً فاغراً فاه دون أن يقوى على الجواب .

وقال التاجر ، وهو يوجه الضوء إلى الحائط الذي يقابل الرسم :

ـ استدر وانظر إلى هذا الجلد المرقط .

وقف الشاب فجأة ، واعترته الدهشة عندما لاحظ فوق المقعد الذي كان جالساً عليه ، قطعة من الجلد المرقط ، معلقة على الجدار ، لا تتجاوز مساحتها مساحة جلد ثعلب ، تلقي في أحشاء الظلام الذي يسود المتجر أشعة مشرقة يمكن أن ننسبها إلى أحد الكواكب .

اقترب الشاب من الطلسم الذي عليه أن يحفظه من التعاسة ، وسخر منه في وجدانه . ثم تملكه فضول حقيقي ، فانحنى ينظر إلى الجلد من جميع جهاته ، فاكتشف سبباً طبيعياً لهذا الضوء العجيب الذي يتسرب منه . فان الحبوب السوداء التي تكسو

الجلد مصقولة بعناية ، والخطوط التي تؤلف النسيج واضحة نظيفة تشبه صفيحة من صفائح العقيق . وخشونة هذا الجلد الشرقي تؤلف جيوباً كثيرة تبعث الأضواء بغزارة وقوة . فحدّق عندئذ في الشيخ وأظهر له حسابياً سبب هذه الظاهرة ، فكان جوابه ابتسامة ماكرة .

هذه الابتسامة المترفعة جعلت العالم الشاب يعتقد أنه في هذه اللحظة فريسة لخداع أحد المشعوذين . ولم يشأ أن يحمل معه إلى القبر خداعاً جديداً . فاستدار فجأة نحو الجلد ، كطفل يهمه أن يعرف أسرار لعبته الجديدة ، وهتف قائلاً :

ـ آه ! آه ! هذه بصمة الخاتم الذي يدعوه الشرقيون « خاتم سليمان » .

أرسل الشيخ من أنفه دفعتين أو ثلاث دفعات من الهواء أفصحت عن خواطر لا يمكن أن تعبّر عنها أشد الكلمات حرارة ، وسأل قائلاً :

ـ أنت تعرفه إذن !

فقال الشاب وقد آلمه أن يسمع هذه القهقهة الخرساء التي تعج بالسخرية :

ـ هل يوجد في العالم رجل ، مهما بلغت سذاجته ، يؤمن بهذا الوهم ؟ ألا تعلم أن الخرافات الشرقية قد قدّست شكل هذا الرمز الذي يمثل قوة خارقة ؟ ولا أظنني أوسم بالغباء ، في هذه اللحظة ، إلا إذا تكلمت عن أبي الهول والعنقاء اللذين تعترف بوجودهما قصص الوثنيين وأساطيرهم .

فقال الشيخ :

ـ ما دمت مستشرقاً فهل تستطيع أن تقرأ هذه الحكمة ؟

قال هذا وقدم القنديل من الطلسم الذي كان يحمله الشاب بيده ، ولفت نظره إلى خطوط منقوشة في الجلد الرائع ، كأنما أحدثها الحيوان الذي كان جلداً له في ما مضى .

فهتف الشاب صارخاً :

ـ أعترف أنني لا أفهم مطلقاً الطريقة التي لجىء إليها في نقش هذه الحروف على جلد أفعى .

ثم استدار بحيوية نحو الطاولة المثقلة بالتحف وراحت عيناه تفتشان عن شيء ما بالضبط .

فقال الشيخ :

ـ ماذا تريد ؟

ـ آلة أقطع بها الجلد لأرى إذا كانت الحروف مكتوبة كتابة أو محفورة حفراً .

قدم الشيخ خنجره للشاب ، فأخذه هذا منه ، وجرّب أن يحك الجلد حيث كانت الحروف مكتوبة ، لكنه عندما أزال طبقة رقيقة ، بدت له الحروف واضحة ومشابهة تماماً للحروف التي كانت مرسومة على سطحه . ومرت لحظة ظنّ خلالها أنه لم يقطع شيئاً . ثم قال وهو ينظر إلى الحكمة الشرقية بشيء من الاضطراب :

ـ إن لتجارة الشرق أسراراً خاصة !

فأجاب الشيخ :

ـ نعم . الأفضل أن نلوم البشر عوض أن نلوم الله .

وكانت الكلمات السحرية مرتبة هكذا :

لو ملكتني ملكت آلكل

ولكن عمرك ملكي

وأراد الله هكذا

أطلب وستنال مطلبك

ولكن قس مطالبك على عمرك

وهي ها هنا

فبكل مرامك ستسنزل أيامك

أتريد فيَّ

الله مجيبك

آمين

قال الشيخ :

ـ أنت تقرأ بسهولة . هل زرت العجم أو البنغال ؟

فأجاب الشاب وهو يتفحص بفضول هذا الجلد الرمزي الذي يشبه ورقة معدنية لقلة مرونته :

ـ كلا يا سيدي .

وأعاد التاجر الشيخ القنديل إلى قاعدة العمود حيث كان أولاً ، وهو يرمي الشاب بنظرة باردة مملوءة سخرية كأنها تقول : « لم يعد يفكر في الموت » .

وقال الشاب :

ـ هل هذه دعابة ؟ هل هذا سر ؟

فهز الشيخ رأسه وأجاب بخشونة :

ـ لا أعرف بماذا أجيب عن سؤالك . لقد قدمت هذا الطلسم وقوته الجبارة إلى أناس موهوبين يفوقونك حماسة . ولكنهم استهزأوا جميعاً بالتأثير الذي سوف يمارسه على مستقبل حياتهم . ولم يشأ أحد منهم أن يعقد معاهدة مع هذه القوة الغريبة . لقد أصبحت أفكر مثلهم وتولاني الشك و . . .

فقاطعه الشاب قائلاً :

ـ لِمَ تحاول إذن أن تختبر هذه القوة بنفسك ؟

ـ أن أختبر هذه القوة ؟ . . . إذا كنت واقفاً على العمود المنتصب في ساحة « فاندوم » هل تجرب أن ترمي نفسك في الفضاء ؟ هل نستطيع أن نوقف مجرى الحياة ؟ هل يقوى الانسان على تجزئة الموت ؟ . . . قبل أن تدخل إلى هذه القاعة كنت مصمماً على الانتحار . وفجأة يستولي سر صغير على جميع مشاعرك وتنسى الموت . اصغِ إليّ : لقد كنت في ما مضى أكثر شقاء منك . والآن بعد اثنتين ومئة من السنين أصبحت أمتلك الملايين . لقد قاد الشقاء إليّ الثروة وقدم الجهل لي المعرفة . أما الآن فأريد أن أكشف لك بقليل من الكلام سراً كبيراً من أسرار الحياة :

« إن الانسان يفني نفسه بعملين يتم فعلهما بشكل غريزي في كيانه فيستنزفان موارد وجوده . . . كلمتان توضحان جميع الأشكال التي يتخذها هذان السببان للموت : « الارادة والمقدرة » . وبين هذين الحدين الفاصلين في العمل الانساني توجد لفظة أخرى يتعلق بها الحكماء وإليها يرجع الفضل في

سعادتي وطول عمري . « الارادة » تلهبنا « والمقدرة » تحطمنا ، ولكن « المعرفة » تتركنا في حالة هدوء دائم . وهكذا ماتت فيّ الرّغبة أو « الارادة » وقضى عليها العقل ، وحلّت مشكلة الحركة أو « المقدرة » لعبة أعضائي الطبيعية . وبكلمتين : لم أضع حياتي في القلب الذي يتحطم ولا في الحواس التي تضعف . ولكنني وضعتها في العقل الذي لا ينضب معينه ويصلح لكل شيء . ولم يقوَ على تعذيب نفسي أو جسدي شيء مهما بلغت قوته ، رغم أنني طفت العالم أجمع ، ووطئت قدماي أعلى قمم جبال آسيا وأميركا ، وعشت طبقاً لجميع القوانين والأنظمة ، وأقرضت مالي إلى صيني بعدما أخذت منه جسد والده رهناً ، ونمت تحت خيمة العربي بعدما أمنني كلامه ، وساهمت في جميع الرساميل الأوروبية وتركت ذهبي بلا خوف في أكواخ المتوحشين ، كل ما كنت أتوق إليه هو أن أرى . « والرؤية » أليست هي « المعرفة » ؟

« آه ! « المعرفة » أيها الشاب ! أليس معناها التلذذ بالحدس ؟ أليس معناها اكتشاف كنه العمل والاستحواذ عليه ؟ ماذا يبقى من الممتلكات المادية ؟ فكرة . أحكم كم ستكون جميلة حياة رجل استطاع أن يرسم جميع الحقائق في عقله ، فقام ينقل إلى ذاته مصادر السعادة ، موارد السعادة في نفسه . انه يستخرج منها ألف لذة مثالية منزهة عن الشوائب الأرضية . العقل هو مفتاح جميع الكنوز ، انه يعطيك مسرات البخيل من غير أن يبلوك بمتاعبه ووساوسه » .

« وهكذا حلقت فوق العالم ، وكانت رغباتي تنحصر دائماً في نشوة فكرية ، وافراطي في اللذات في مشاهدة البحار والشعوب والغابات والجبال . لقد رأيت كل شيء ، ولكن بهدوء ودون تعب . لم أرغب في الحصول على شيء ولكنني كنت أنتظر حدوث كل شيء . تنزهت في العالم كأنني أتنزه في حديقة منزل أمتلكه . ما يسميه الناس حزناً وحباً ورغبة وكآبة ونكبة ، هو بالنسبة إليّ تصورات أحولها إلى أحلام بدل أن أحسها وأتقلب في سعيرها ، وأفصح عنها وأترجمها عوضاً عن أن أتركها تلتهم حياتي وتنغّص عيشي ، وأجعل منها مأساة هزلية ، وأزيد في إيضاحها وألهو بقراءتها . إنني لم أنهك أعضائي وما زلت أتمتع بصحة جيدة . ونفسي ورثت عني جميع القوى التي لم أسعَ إلى تبذيرها ورأسي لا يزال يغصّ بالموجودات كما يغص متجري بالتحف » .

ورفع الشيخ يده ولطم جبهته وقال : « هنا توجد الملايين الحقيقية . . . إنني أمضي أياماً عذبة وأنا ألقي نظرة على الماضي فأتخيل بلداناً كبيرة ومناظر بديعة ، ومحيطات رائعة ووجوهاً تاريخية جميلة . وعندي قصر خيالي حشدت فيه جميع النساء اللواتي لم أحصل عليهن . وأحياناً أتأمل في حروبكم ، وثوراتكم ، وأصدر حكمي لها أو عليها .

« آه ! كيف تفضل حمى الشغف والاعجاب بهذه اللحوم البشرية ، بهذه الاشكال التي تتخذ شكلاً بين الاستدارة والطول ؟ كيف تفضل تحطيم إرادتك وخداعها على الخاصة

السامية التي تجعلك تجمع في كيانك العالم أجمع ، على اللذة الفائقة الوصف التي تجعلك تتحرك دون أن تكون مقيداً برباط الزمان والمكان ، على لذة معانقة كل شيء ، ورؤية كل شيء ، والانحناء على شاطىء نهاية العالم ، ومخاطبة غيره من الكواكب ، والاصغاء إلى صوت الله » .

لفظ الشيخ هذه الكلمات ثم أشار إلى الجلد المرقط وتابع حديثه بصوت قوي قائلاً : « هنا تجتمع « المقدرة والارادة » . هنا توجد أفكارك الاجتماعية ، ورغباتك الجامحة ، وشراهتك ونهمك ، وملذاتك التي تؤدي إلى الجريمة ، وآلامك التي تقصّر أيامك . ربما لا يتعدى الشر كونه لذة جامحة . ولكن ، من يستطيع أن يعيّن اللحظة التي تصبح فيها اللذة شراً ، واللحظة التي يصبح فيها الشر لذة ؟ ألا تداعب النظر أكثر أنوار العالم المثالي سطوعاً ، بينما تدميه الطف ظلمات العالم الواقعي ؟ وما هو الجنون إن لم يكن الاسراف في الارادة أو في المقدرة ؟ » .

فأجاب الشاب ، وهو ينتزع الجلد المرقط :

ـ نعم ، أود أن أبالغ وأتجاوز الحد المعقول في حياتي .

فصرخ فيه الشيخ بحيوية جارفة :

ـ الحذار الحذار ، أيها الشاب !

فأجاب الشاب :

ـ أردت أن أحل مشكلة حياتي بانصرافي إلى الدرس والتفكير ، ولكن الدرس والتفكير لم ينفعا حتى في تأمين لقمة العيش . لا أود أن أكون فريسة سهلة الانقياد لمواعظك

ولا لتعويذتك الشرقية ، ولا للجهود التي تتصدق بها عليّ حتى أقوى على العيش في عالم أضحى فيه بقائي مستحيلاً . . . ماذا ؟ ماذا أريد ؟

ثم أضاف ، وهو يشد على الطلسم بأصابع متشنجة وينظر الى الشيخ :

ـ أريد وليمة فخمة ، ورقصاً صاخباً ، يكونان جديرين بهذاالعصرالذي يقولون ان كل شيء فيه قدتقدم . وأود أن يكون ضيوفي من الشباب الظرفاء ، المندفعين وراء الفرح حتى الجنون ، وان تتتابع علينا الخمور مؤثرة مشعشعة ، متمتعة بقوة تسكرنا ثلاثة أيام متوالية ؛ وان يكون الليل مزداناً بنساءٍ يلتهبن شوقاً وحباً ، وان نندفع وراء أهوائنا ، فتحملنا مركبة المجون الصاخبة التي تجرها اربعة جياد إلى ما وراء اهوائنا ، وتضعنا على شواطىء مجهولة . . . لتصعد الأرواح إلى السماء أو لتنغمس في الوحل . . . لا ادري اذا كانت ترتفع أو تهبط فهذا لا يهمني . . . سأوصي اذن تلك القوة المشؤومة بأن تصهر لي جميع اللذات في لذة واحدة . نعم ، اني مشوق الى ضم ملذات الأرض والسماء في عناق أخير أموت منه . وأتمنى أيضاً خمرة معتقة بعد السكر ، وغناء يوقظ الموتى ، وقبلات محمومة ، قبلات لا نهاية لها ، تحدث في سماء باريس ضجيجاً يشبه فرقعة الحرائق ، فتوقظ الازواج وتبعث فيهم حرارة محرقة ، وتعيد الشباب حتى الى الذين بلغوا أرذل العمر .

فانطلقت من فم الشيخ قهقهة عالية اخذت تطن في أذني

الشاب كصوت يخرج من الجحيم . فمنعته عن الكلام . وظل ساكتاً .

قال الشيخ :

ـ اتعتقد ان الألواح الخشبية التي تكسو أرض الغرفة ستنشق وتخرج منها موائد فخمة ومدعوون من العالم الآخر ؟ لا ، لا ، أيها الشاب الطائش . . . لقد وقعت على الميثاق . وقيل كل شيء . من الآن فصاعداً ستتمكن من اشباع رغباتك . ولكن ذلك سيكون على حساب حياتك . ان دائرة ايامك الممثلة في هذا الجلد ستضيق تبعاً لقوة تمنياتك وعددها . لقد قال لي من اعطاني هذا الطلسم ، انه يحدث اتفاقاً سرياً عجيباً بين مصير صاحبه وتمنياته . أما رغبتك الاولى فهي رغبة مبتذلة ، وكان يمكن ان أحققها لك . ولكنني أوكل أمر الاعتناء بها إلى احداث حياتك الجديدة . لقد كنت تريد ان تموت ، وكل ما جرى انه طرأ تأخير على موعد انتحارك .

دهش الشاب وكاد يفقد سيطرته على اعصابه ، وهو يجد نفسه عرضة دائمة لسخرية هذا الشيخ ، وصرخ قائلاً :

ـ سأرى يا سيدي اذا كان حظي سيتغير خلال الوقت الذي يلزمني لأقطع على قدمي جسر الفنون . ولكنك ان كنت تهزأ برجل تعيس ، فاني أتمنى لك ـ كي أثأر لنفسي من صنيعك المشؤوم ـ ان تقع في حب احدى الراقصات . فتفهم عندئذ ما هي لذة الانسياق وراء الفجور . ومن يدري ؟ فقد توزع مجاناً كل الخيرات التي ادخرتها حتى الآن بطريقتك الفلسفية .

واندفع خارجاً دون ان يسمع الزفرة الطويلة التي دفعها صدر الشيخ . واجتاز القاعات وهبط درجات ذلك البيت يتبعه الخادم المنتفخ الخدين الذي كان يحاول عبثاً ان يضيء له الطريق . كان يركض بسرعة سارق بوغت في الجرم المشهود ، يلهب دماغه هذيان محموم . فلم يلاحظ الأضواء العجيبة المنبعثة من الجلد الذي لان ولان حتى التف على أصابعه ثم انسلّ إلى جيبه بحركة آلية . واندفع ، من باب المتجر الى الطريق . فاصطدم بثلاثة شبان كانوا واقفين هناك .

- حيوان .

- مجنون .

هذه هي الكلمات اللطيفة التي تبادلوها .

آه ! هذا رفائيل ! .

- آه ! اننا نفتش عنك .

- ماذا ! أهؤلاء انتم ؟

وتبعت ذلك السباب هذه الكلمات الودية ، وانتشرت اضواء قنديل يلاعبه الهواء على وجوه الأصدقاء .

وقال الشاب الذي اصطدم به رفائيل :

- يا صديقي العزيز ، يجب ان تأتي معنا .

- لماذا ؟

- تقدم ، وسأخبرك بالقصة ونحن سائرون .

وأحاط الشبان الثلاثة برفائيل فسار معهم مجبراً أو مخيّراً . وتوجهوا جميعاً نحو جسر الفنون .

وتابع الخطيب حديثه قائلاً :

ـ نحن في طلبك يا عزيزي منذ اسبوع تقريباً . ففي فندقك المحترم « سان كوانتان » قالت لنا ليونارد انك ذهبت الى الريف . ولم تكن هيئتنا توحي اننا من رجال المال . ولكن راستينياك رآك مساء أمس في « البوفون » فعادت الينا شجاعتنا وآلينا على انفسنا ان نكتشف اذا كنت تتسلق اشجار « الشانزليزه » ، اذا كنت ذهبت لتمضية ليلتك في احدى المنامات الخيرية ، حيث ينام المتسولون مستندين إلى حبالٍ مشدودة . او كان بيتك قد نقل إلى خلوةٍ ما لحسن حظك . فتشنا في الوزارات وفي الأديرة والمقاهي والمكاتب والمسارح ، وفي لوائح المرشحين ومكاتب الصحف والمطاعم ، وفي كل ما في باريس من الأمكنة الشريفة والامكنة الفاسدة . ولمّا لم نعثر لك على اثر ، أخذنا نندب خسارة رجل مثلك له من النبوغ ما يجعل البحث عنه يتم في السجون وفي البلاط الملكي معاً ! وتداولنا على أمر تطويبك بطلاً من ابطال تموز . والحقيقة التي لا شك فيها هي اننا افتقدناك كثيراً .

في هذه اللحظة ، كان رفائيل يمر مع اصحابه فوق جسر الفنون ، فراح ينظر الى مياه نهر السين المزمجرة التي تنعكس عليها اضواء باريس . كان يمر فوق النهر بعدما أوشك منذ وقت قليل ان يرمي بنفسه فيه . لقد صحت تنبؤات الشيخ وأرجأ قدر محتوم ساعة موته .

وقال صديقه متابعاً حديثه :

ـ كنا حقيقة نفتقدك . . . واما الموضوع الذي نحن بصدده ، فهو اننا نسعى الى ايجاد اتحاد تكون منه بمثابة الرجل المتفوق الذي يستطيع ان يضع نفسه فوق كل شيء . ان العبث الملكي بالدستور قد استفحل امره ، يا عزيزي . والملكية الشنيعة التي حطمتها ارادة الشعب كانت امرأة فاسدة تسهل مداعبتها وحضور ولائمها . أما الوطن فهو زوجة شرسة فاضلة ، علينا ان نرضى ـ شئنا ام أبينا ـ بمداعباتها الموزونة . لقد انتقلت السلطة من التويلري الى الصحافيين ، وغيرت الخزانة مقرها بانتقالها من « سان جرمان » الى « شوسه دانتان » .

ولكن اليك ما ربما كنت لا تعرفه : ان الحكومة ، أي ارستقراطية أصحاب البنوك والمحامين الذين يصنعون الآن بالوطن ما كان يصنعه الكهنة في ما مضى بالملكية ، شعرت بضرورة خداع شعب فرنسا بكلمات جديدة وآراء قديمة ، ناسجة في ذلك على منوال الفلاسفة الذين ينتمون الى جميع المدارس الفكرية ، وعلى منوال الرجال الأقوياء في كل عصر . انهم يريدون ان يبلّغونا رأياً ملكياً وطنياً باثباتهم لنا انه انسب لنا ان ندفع ملياراً ومئتي مليون وثلاثة وثلاثين سنتيماً للوطن ممثلاً بالسادة فلان وفلان . . . عوضاً عن ان ندفع ملياراً ومئة مليون وتسعة سنتيمات الى ملك كان يقول « انا » بدلاً من جماعة يقولون اليوم « نحن » . وبكلمة : لقد اسست صحيفة مسلحة بمئتين أو ثلاثمائة الف فرانك هدفها المعارضة وارضاء المستائين دون ان تضر بحكومة الملك ـ المواطن . وبما اننا نهزأ بالحرية كما

نهزأ بالحكم المطلق ؛ ومن الدين كما من الكفر ، ولا نرى في الوطن سوى عاصمة تتبادل فيها الآراء وتباع بحسب السطور ، تقود كل يوم إلى ولائم فخمة ومسرحيات متعددة ، وتتكاثر فيها المومسات الخالعات العذار ، والعشاءات التي تستمر الى الصباح . . . وبما ان باريس ستظل دائماً أروع الاوطان ! وطن الفرح والحرية والفكر والنساء الجميلات والنبيذ الجيد ، وحيث لا تستطيع عصا الحكم ان تغلظ كثيراً لأننا قريبون جداً من الذين يحملونها . . . نحن ، اصحاب « الشيطان » الحقيقين ، اتفقنا على ان نغرّر بعقول الجمهور ، ونكسو الممثلين بثياب قشيبة ، ونسمر اخشاباً جديدة في الكوخ الحكومي ، ونصف الدواء للعقائديين ، ونعيد الحياة الى شيوخ الجمهوريين ، وندفع الى الحلبة بالبونابارتيين ، ونموّن أهل الوسط ، وبما انه سيسمح لنا بأن نسخر من الملوك والشعوب ، ولما كان في مقدورنا ان ننكر في المساء الرأي الذي كنا نعتقده في الصباح ، فاننا نستطيع والحالة هذه ان نحيا حياة هنيئة ونتوسد الوسائد الوثيرة .

« اننا نعدّك لكي تتسلم زمام هذه المملكة المتقلبة المضحكة الغريبة . وها نحن نقودك الآن إلى الوليمة التي يقيمها مؤسس هذه الصحيفة ، وكان صاحب بنك واعتزل العمل ، لا يعرف كيف يتصرف بالذهب الذي تكوم عنده ، فأراد ان يحوّله إلى فكر . ستُستقبل هناك كأخ ، واننا نحيي فيك ملكاً لهذه العقول الساخرة التي لا يقوى شيء على اثارتها ، والتي تكشف

بتوقد ذكائها ونفاذ بصيرتها عن نوايا النمسا وانكلترا وروسيا قبل ان توجد النوايا عند روسيا وانكلترا والنمسا . نعم ، سنقيمك سيداً لهذه القوى الخارقة التي تعطي العالم امثال ميرابو ، وتاليران ، وبث ، ومترنيخ ، ولهؤلاء الذين يقامرون فيما بينهم بمستقبل مملكة ، كما يقامر الرجال العاديون في سبيل الحصول على زجاجة خمر .

« لقد عرّفنا عنك كأجرأ رفيق عانق الفجور، هذا الوحش العجيب الذي تود العقول القوية ان تصارعه . وأكدنا ان الرذيلة لم تفز بعد بالغلبة عليك ، فأرجو ان لا تكذب مديحنا . ان « تاليفير » مضيفنا وعدنا بأن يبزّ في كرم ضيافته جميع اهل السخاء العصريين وهو كثير الغنى يستطيع ان يضع العظمة في الصغائر ، والاناقة والفضيلة في الرذيلة .

ثم اضاف وهو يقاطع نفسه :

ـ اتسمع يا رفائيل ؟

اعترت رفائيل دهشة من تسلسل هذه الحوادث الطبيعية تفوق دهشته من تحقيق رغائبه ، وتعجب من مصادفات القدر وتأثيرها في حياة الانسان ، برغم انه لا يؤمن بقوة السحر ، ثم قال :

ـ نعم .

فأجابه أحد رفاقه :

ـ ولكنك تجيبنا بالايجاب كأنك تفكر في موت جدك .

فتابع رفائيل حديثه بلهجة ساذجة أضحكت أصدقاءه الكتاب ، امل فرنسا الفتية :

ـ اعتقد يا اصدقائي اننا كنا على وشك التحول الى انذال . . . لقد طغى الكفر علينا ونحن نجرع الكؤوس ورحنا نقيّم الحياة بينما السكريتعتقنا،وسعّرنا المُثل والناس ونحن نحاول الهضم . كنا اقوياء بالكلام وحسب . أما الآن والسياسة توشك ان تسمنا بميسمها الحامي وتدخلنا الى سجنها الضيق . فاشعر بأننا سنفقد اوهامنا وضلالنا وغرورنا . . . حين لا نعود نؤمن بوجود الشيطان يحق لنا التأسف على فردوس شبابنا ، أوان الطهارة والبراءة ، عندما كنا نمد اللسان بشوق الى الكاهن لنتقبل جسد يسوع المسيح المقدس . آه ، يا اصدقائي الأعزاء ! اذا كنّا تمتّعنا باللذة ونحن نقترف خطايانا الأولى ، فذلك لأن الندم كان يسبغ عليها جمالاً ، ويكسبها روعة ، ويجعل لها طعماً . بينما الآن . . .

فقاطعه احد اصدقائه قائلاً :

ـ يبقى لنا . . .

وصرخ صديق آخر مقاطعاً المقاطع :

ـ ماذا يبقى ؟

ـ الجريمة . . .

ـ فأجاب رفائيل :

ـ هذه كلمة لها كل ارتفاع المشنقة وكل عمق نهر السين .

ـ انك لا تصغي اليّ . فأنا اتكلم عن الجرائم السياسية .

منذ هذا الصباح ، وانا لا اتوق إلّا إلى حياة واحدة ، حياة المتآمرين . لا اعرف اذا كنت غداً أقوى على الاستمرار في رغباتي أمّا هذا المساء ، فاني احس ان حياة مدنيتنا الشاحبة تولد في نفسي القرف . لقد استبد بي الشوق الى ضلال موسكو وشقائها ، والى حياة المهربين . وبما انه لم يعد للرهبان من وجود في فرنسا فأنا أود ان أكون على الأقل ممرضاً لأتباع لورد بيرون الصغار ، الذين جعلوا من الحياة خرقة بالية ، ولم يعد لهم هم سوى ان يحرقوا بلادهم ، أو يلهبوا ادمغتهم ، وان يتآمروا من اجل مجيء الجمهورية أو يطلبوا الحرب .

وقال الشاب الذي كان يمشي بالقرب من رفائيل مخاطباً الخطيب :

- إميل اقسم بشرفي انه لولا ثورة تموز لكنت الآن كاهناً يحيا حياة حيوانية في اعماق الريف .

- وتردد الصلاة كل يوم ؟

- نعم .

- انك احمق معجب بنفسه .

- ماذا تريد . . . اننا نقرأ الصحف دائماً .

- لا بأس ، بالنسبة الى صحافي . . . ولكن اسكت ! فنحن نمشي بين جماعة من المشتركين . لقد اصبحت الصحافة دين المجتمع الحديث . ونشعر بتقدم محسوس .

- كيف ذلك ؟

- الأحبار ليسوا مجبرين على الايمان ولا الشعب أيضاً .

وبينما هم في سمرهم وصلوا أخيراً إلى فندق في شارع جوبير .

كان « اميل » صحافياً أكسبه الكسل شهرة ، لا تضاهيها شهرة الذين يفنون حياتهم في العمل . وهو ناقد جريء متوقد القريحة ، حاد اللسان ، يملك جميع الصفات التي تلائم نقائصه ؛ صريح بشوش يصارح صديقه بألف نقيصة يراها فيه ، ويدافع عنه بشرف وشهامة أثناء غيابه . وهو يهزأ بكل شيء حتى بمستقبله . ولم يكن جيبه عامراً بالمال ، بل كان على النقيض من ذلك خالي الوفاض ، يشبه هؤلاء الرجال الذين تمثلهم بعض الرسوم غارقين في كسل يعجز القلم عن وصفه ، ويستطيع ان يضع كتاباً في كلمة واحدةيرميها في وجه الذين لا يقوون على وضع كلمة واحدة في كتبهم ، ويعد وعوداً كثيرة ، ولكنه لا يسعى الى تحقيقها . لقد جعل من ثروته وشهرته وسادة ينام عليها ، فلا يهمه بعد ذلك اذا استيقظ متأخراً في فندقه . وكان صديقاً مخلصاً يتبع صديقه حتى الى المقصلة ، ومتحذلقاً وقحاً ماجناً ، وصريحاً كطفل . ولم يكن يعمل الا في حالة التحدي،أو عندما ترغمه الحاجة على العمل .

قال اميل ، وهو يلفت نظر صديقه الى اصص الأزهار التي تعطر السلم وتكسوه بالخضرة .

- اننا مقبلون على وليمة فخمة كما يقول المعلم « الكوفريباس » .

فأجاب رفائيل :

ـ أحب الأروقة الدافئة المفروشة بالسجاد الثمين ، والقاعات الفخمة التي أصبح وجودها نادراً في فرنسا . هنا اشعر بأنني أولد من جديد .

ـ وسوف نشرب ونضحك كثيراً داخل الفندق يا رفائيل . ثم أشار بسخرية إلى الضيوف ، وقال :

ـ آمل ان نكون المنتصرين لنتمكّن من السير فوق هذه الرؤوس .

وبعد ذلك ولجوا باب قاعة مكسوة الجدران بالذهب . متألقة بالأنوار ، حيث استقبلهم نخبة من ابرز شبان باريس . وكانت القاعة تضم بين جدرانها خليطاً عجيباً من رجال الفكر والفن . . . منهم الرسام الذي اظهر موهبة جديدة ، وراح منذ اللوحة الاولى يتنافس وروائع الرسم الأمبراطوري . ومنهم الكاتب الذي نشر كتاباً يزخر بحرارة الشباب وعنفوانه ، موسوماً بطابع الاستخفاف بالأدب ، فرسم خطوطاً جديدة للمدرسة الأدبية الحديثة . وبالقرب من هذا الكاتب مثّال يفصح وجهه عن عبقرية متوقدة يتحدث مع احد أولئك الساخرين الباردين ، الذين ، بحسب المناسبات ، يرون التفوق في كل مكان أو لا يعترفون مطلقاً بوجوده . وفي احدى الزوايا اكثر رسامي الكاريكاتور ظرفاً ، يراقب بعينيه الخبيثتين هذه النماذج ، ليعبّر عنها ببعض الخطوط من قلمه . وفي زاوية مقابلة جلس ذلك الكاتب الجريء الذي هو افضل من قطر خلاصة

الآراء السياسية ، وقد كان منهمكاً في محادثة مع جاره الشاعر الذي كان في وسع انتاجه ان يخسف جميع كتابات العصر الحاضر لو كان لموهبته قوة حقده . الاثنان يحاولان عدم الجهر بالحقيقة وعدم اللجوء الى الكذب ، وهما يتجاملان مجاملة مقبولة . وموسيقي يتربع على دست الشهرة ، راح يعزّي بصوته الساحر سياسياً سقط حديثاً عن المنبر دون ان يسبّب أي أذى لنفسه . وخطباء تنقصهم النبرة وقوة التأثير بالقرب من خطباء تعوزهم الافكار . وناثرون يزخرون بالشعر وشعراء مشبعون بالنثر . وبين هذه الكائنات الناقصة اخذ أحد اتباع سان سيمون ، المؤمن بعقيدته لسذاجة قلبه ، يقسم هؤلاء الاشخاص الى أزواج ، وكله أمل أن يحولهم الى رجال دين ويضمهم إلى صفه . وأخيراً كان يوجد اثنان أو ثلاثة من العلماء تنحصر وظيفتهم في اثارة المواضيع . وعدد من كتّاب « الفودفيل » على استعداد تام لاشاعة ذلك اللمعان الزائل ـ الذي يشبه الأشعة المنبعثة من الماس ـ فلا يعطي حرارة ولا ضوءاً . وبعض الرجال الذين تغاير آراؤهم آراء الجماعة ، كانوا يسخرون في سرهم من كل مَن آمن باعجابهم أو باحتقارهم للناس ، فهم يلجأون إلى تلك السياسة ذات الوجهين التي تكمن في صميمها المؤامرة ضد جميع الأوضاع ، دون ن يساندوا أي وضع . « والحَكَم » ذلك الذي لا يدهشه شيء والذي يصرخ « برافو » قبل كل إنسان ويخطىء الذين لا يؤيدون آراءه ، كان موجوداً أيضاً ، يحاول أن ينسب إلى نفسه كلمات رجال الفكر . وبين هؤلاء المدعوين ، خمسة

أشخاص لهم مستقبل ، وعشرة أشخاص تقريباً ينتظرهم مجد سرعان ما يخبو ضوؤه . أما الباقون فيحق لهم كما يحق لجميع القليلي الذكاء أن يرددوا كذبة لويس الثامن عشر المشهورة : « اجتماع ونسيان » .

كان صاحب الدعوة يبدي سرور رجل ينفق ألفي قطعة ذهبية . ومن وقت إلى آخر كانت عيناه تنظران بنفاد صبر إلى باب القاعة ، كأنهما تستعجلان مجيء الضيوف المتأخرين . وبعد قليل ظهر على العتبة رجل قصير القامة ، فاستقبله الحضور بكلمات الاعجاب والاطناب . وكان هذا الكاتب العدل الذي انتهى في هذا الصباح نفسه من عملية إظهار الصحيفة الجديدة إلى الوجود . وما لبث أن فتح أبواب قاعة الطعام الفسيحة خادم يرتدي لباساً أسود ، فدلف الجميع إلى القاعة وراح كل منهم يتعرّف إلى مكانه حول طاولة كبيرة مثقلة بالمغريات .

قبل أن يترك رفائيل مكانه ، أجال نظره في القاعة للمرة الأخيرة . لقد تمت رغائبه كما كان يتمنى . فالذهب والحرير يغلفان القاعات . وثريات كثيرة تحمل شموعاً لا تحصى تلقي أشعتها بغزارة ووفرة على أدق أجزاء الأفاريز المذهبة والنقوش البرونزية الرائعة وألوان الأثاث المشرقة ، فتبعث هذه لمعاناً يخطف الأبصار . والزهور الموزعة بذوق وفن تنشر عطراً ذكياً . والستائر وكل شيء في هذا المكان يوحي أناقة محببة . ان لذة شعريّة تسيطر على هذا المكان وتؤثر تأثيراً كبيراً في خيال رجلٍ محروم فقير .

ثم قال وهو يتنهد :

ـ ان دخلاً يبلغ المئة ألف ليرة في الشهر هو تفسير جميل لتعاليم الدين ، وسوف يقدم لنا هذا المبلغ مساعدة جليلة ، تمكننا من إعادة الحياة إلى العالم الأخلاقي . . . ان فضيلتي لا تسير أبداً على قدميها ، وليست الرذيلة بالنسبة إلي سوى مخدع حقير ، وثوب رث ، وقبعة حائلة اللون في الشتاء ، وديون متراكمة لحارس البيت . . . آه ! أريد أن أعيش سنة كاملة أو ستة أشهر ، أو أية مدة كانت في قلب هذا الترف وهذه الخيرات الفائضة ، وبعد ذلك أموت . فأكون ، على الأقل ، قد عرفت ألف حياة والتهمتها وأفنيتها .

فأجابه اميل الذي كان يصغي إلى حديثه :

ـ انك تحصر السعادة في قبضة من الأوراق المالية ، وأراهن علي أنك ستسأم الثروة عندما تلاحظ أنها تسلبك سحر كونك رجلاً متفوقاً . هل تأرجح الفنان يوماً بين فقر الثروة وغنى الفقر ؟ ألا ترى أننا لا نقوى على العيش دون صراع ؟ أما الآن فهيء معدتك .

ثم أضاف ، وهو يشير إلى المائدة :

ـ أنظر الشكل المطمئن الذي تظهره مائدة هذا الرأسمالي . ان هذا الرجل لم يسعَ فعلاً في جمع أمواله وتكديسها إلا من أجلنا . ألا ترى أنه يشبه اسفنجة نسيها أحد العلماء الطبيعيين وهو يقوم بتصنيف أنواع الحيوانات النباتية ، وانه علينا أن نضغط عليها بلطف قبل أن يمتصها ورثتها ؟ ألا نجد فناً في

هذه النتوءات التي تزين الجدران ، وفي هذه المرايـا الكبيرة واللوحات البديعة ؟ . . . هذه عظمة ولا شك . . . وإذا كان يجب أن نصدق ترهات الحاسدين ، فنقول أن هذا الرجل قد قتل أثناء الثورة رجلاً ألمانياً وأشخاصاً غيره منهم صديقه الأقرب إليه وأم هذا الصديق . هل تتخيل أن هناك مجرماً يتخفى في نفس « تاليفير » هذا ؟ إن هيئته تدل على أنه رجل فاضل . أنظر إلى هذه الأواني الفضية كيف تبعث الشرر ، هل كل ومضة من أشعتها خنجر يطعنه ؟ . . . دع هذا . وإذا كان الناس على حق في مزاعمهم ، فهناك ثلاثون رجلاً من رجال الفكر والذكاء يتهيأون لأكل أحشائه وامتصاص دمه . وسنكون كلانا شريكين في هذه الجريمة . ولا أدري لماذا أشعر برغبة في سؤال هذا الرأسمالي إذا كان رجلاً شريفاً .

فصرخ رفائيل قائلاً :

ـ ليس الآن . ستسأله عندما يسكر ، ونكون قد انتهينا من عشائنا .

وجلس الصديقان وهما يضحكان . وعند أول نظرة لم يقوَ أحد من المدعوين على منع نفسه من الاعجاب بهذا المنظر الرائع الذي تقدمه طاولة طويلة بيضاء ، كقطعة من الثلج المتساقط حديثاً ، تعلوها أدوات الطعام موزعة توزيعاً فنياً ومتوجة بقطع الخبز الوردية . وكانت الأواني البلورية المرصعة بالنجوم تعكس أنواراً شبيهة بأنوار قوس قزح . والشموع ترسم نيراناً متشابكة في اللانهاية ، والطعام الموضوع تحت قباب من الفضة يبعث

القابلية والفضول . وأصبح الكلام نادراً ، وأخذ المدعوون ينظرون بعضهم إلى بعض . وبعد قليل أقبلت أصناف الطعام الأولى يحفّ بها مجدها وإغراؤها . وقُدمت خمور « بوردو » « بورغونيه » البيضاء والحمراء بسخاء ملكي .

كان القسم الأول من المأدبة يشبه في تفاصيله تمثيلية مدرسية محزنة . أما الفصل الثاني من هذه التمثيلية فقد غدا أكثر ثرثرة . وشرب كل واحد منهم من أصناف الخمور ما يوافق ذوقه ومزاجه . وعندما أحضرت أصناف الطعام الأخرى ، كانت المجادلات الحامية قد بدأت ، والوجوه الشاحبة تسلل إليها الاحمرار ، والأنوف اكتست بلون أرجواني ، فتهللت الوجوه ولمعت العيون . وفي بدء هذه النشوة ، لم تتجاوز المجادلات حد الأدب والأنس . ولكن بعض كلمات السخرية أخذت تنطلق من أفواه الحاضرين ، وبوداعة رفعت النميمة رأسها الذي يشبه رأس الأفعى ، وأخذت تسمع صوتها . وهنا ، وهناك ، كان بعض المرائين يستمعون بانتباه إلى الأحاديث ، ليثبتوا وجودهم .

إذاً ألهب القسم الثاني من الوليمة عقول الجميع ، فأخذ كل واحد منهم يأكل بينما يتكلم ، أو يتكلم ويأكل معاً ، ويشرب دون أن يحسب حساباً لمفعول هذه السوائل التي يتجرعها ، فقد كانت الخمور معطرة لذيذة ، وعدوى الانغماس في لذائذها تمكنت من الجميع . وشاء « تاليفير » أن يبعث الحياة في مدعويه فقدم لهم خمور « الرون » القوية ، وأفخر أنواع النبيذ المعتق ، فأصبحوا كجياد عربة البريد وقد أرخيت أزمتها . ولسع

أبدانهم سوط النبيذ ، والشمبانيا المنتظرة بفارغ صبر والتي وُزّعت عليهم بسخاء ، فتركوا عقولهم تعدو في فراغ التحليلات التي لا يصغي أحد إليها ، وراحوا يقصون أخباراً لا تجد من يهتم بها . وأعادوا مئة مرة النداءات التي تبقى دون جواب . وأسمع المجون صوته القوي ، صوته المؤلف من صراخ مختلط يتجسم ثم يتعالى تدريجاً ويسيطر على كل شيء .

وجاء دور شرب الانخاب والتحذلق والمفاخرة . فرفضوا جميعاً المفاخرة بقواهم الذهنية ، ليتباهوا بمقدرتهم على شرب الخمر . فخيل أن لكل واحد منهم رأسين ، وجاءت لحظة كان يتكلم فيها هؤلاء السادة معاً . فتختلط الآراء المبهمة بالحقائق الواضحة ، وتصطدم في خضم من الصراع والحجج والأحكام والحمق والجهل ، كما تتشابك في المعركة طلقات المدافع والرشاشات والبنادق . ومما لا شك فيه أن هذا المشهد يثير فضول الفيلسوف بغرابة أفكاره ، ويدهش السياسي بأساليبه .

كان هذا المشهد كتاباً ولوحة معاً . فان الفلسفات والديانات والأخلاق التي تختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً ، والحكومات وكل ما انتجه العقل الانساني من الاعمال الجليلة ، كل هذا ، وضع تحت نصل خنجر طويل كالزمن . ولعلنا اننا لا نقوى على الجزم - الا بصعوبة فائقة - في ما اذا كان ذلك الخنجر قد سُلط بيد الحكمة الثملة أم بيد النشوة التي أصبحت حكيمة .

أرأيت البحر تجتاحه العواصف ، فتثور مياهه وتندفع نحو صخور الشاطىء ؟ هكذا كانت هذه العقول تود ان تزعزع كل

القوانين والأنظمة التي ترتكز عليها المدنية ، فترضي بذلك ـ دون علم منها ـ إرادة الله التي تضع الخير والشر في طبيعة الانسان وتحتفظ لنفسها بسر صراعهما . وتحولت المنافسة الحامية إلى نوع من الفوضى ، فكنت تلمح بين فكاهات شباب الثورة لمناسبة مولد صحيفة ، وأحاديث الشاربين الفرحين لمناسبة مولد « غارغانتيا » [1] » الهوة التي تفصل بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر . فالأول هيّأ للخراب وهو يضحك ، والثاني يضحك بين الاطلال .

قال الكاتب العدل وهو يشير الى رفائيل :

ـ كيف تسمي هذا الشاب الجالس هناك ؟ اعتقد انني سمعتهم يدعونه فالنتين .

فصاح اميل ضاحكاً :

ـ ماذا تقول ؟ . . . أتكتفي بتسميته فالنتين ؟ . . . انه يدعى رفائيل دي فالنتين من فضلك ! ان بيننا نسراً ذهبياً ، في حقل رملي ، متوجاً بالفضة ، وله مخالب عديدة وشعاره : « الشجاعة لا تُغلب » . ليس هذا ولداً لقيطاً ، انه يتحدر من صلب الامبراطور فالانس ، مؤسس السلالة الفالنسية ، ومؤسس مدينتي فالانس في اسبانيا وفرنسا ، وهو الوريث الشرعي لامبراطورية الشرق . واذا كان قد ترك في القسطنطينية التاج للسلطان محمود ، فذلك عن طيبة خاطر منه ، ولافتقاره إلى المال والرجال .

---

(١) « غارغانتيا » كتاب مشهور « لرابليه » ملأه المؤلف بالسخرية الحادة .

ورسم اميل في الفضاء تاجاً فوق رأس رفائيل ، فسكت الكاتب العدل لحظة ، ثم عاد إلى تجرع الخمر ، وأفلتت منه حركة تدل على الموافقة ، كأنما يعترف بها ان ليس في وسعه ان يضم إلى زبائنه مدينتي فالانس ، والقسطنطينية ، ومحمود ، والامبراطور فالانس ، وعائلة الفالانسيين .

وقال « كلود فينيون » وهو نوع من العبيد الأرقاء ، اشتري خصيصاً ليكون نوعاً من «بوسوييه»[1] بعشرة قروش للسطر الواحد :

ـ ألا يمكن أن يكون خراب بيوت النمل التي نسميها : بابل وصور وقرطاجة والبندقية تحذيراً للانسان من قوة ساخرة ؟

فأجاب أحدهم :

ـ ويمكن ايضاً ان يكون موسى ، وسيللا ، ولويس الحادي عشر ، وريشاليه ، وروبسبيير ، ونابليون ، رجلاً واحداً يظهر خلال المدنيات كنجم مذنّب في السماء .

وقال كناليس مدبّج القصائد :

ـ لماذا نحاول سبر غور العناية الالهية ؟

فقاطعه « الحكم » صارخاً :

ـ ماذا تقول ؟ العناية الالهية ! . . . انني لا اعرف شيئاً مرناً مثلها .

وقال « ماسول » الذي اصبح جمهورياً لأن اسمه ينقصه لقب الاشراف :

ـ ان لويس الرابع عشر اهلك من الناس في سبيل حفر

---

(١) خطيب فرنسي اشتهر بفصاحته .

دهاليز قصر « مانتنون » أكثر مما أهلكت الحكومة في سبيل جباية الضرائب بحق ، وتوحيد الانظمة ، وتوحيد فرنسا ، وتوزيع الارث بالتساوي .

فأجاب «مورو» وهو أحد أصحاب الأملاك في منطقة اللوار:

- سيدي . انت الذي ينظر الى الدم المراق نظرته إلى النبيذ هل تبقي لكل رجل - هذه المرة - رأسه بين كتفيه ؟

- ولماذا سيدي ؟ ألا تستحق مبادىء الانظمة الاجتماعية بعض الضحايا ؟

فقال أحدهم لرفيقه :

- ان هذا الجمهوري يزعم ان رأس هذا الملاّك يمكن ان يعتبر تضحية .

وأكمل الجمهوري شرح نظريته قائلاً :

- الناس والحوادث ليست بشيء . وليس في السياسة والفلسفة سوى آراء ومبادىء .

- يا للهول ! ألا تشعر بأي أسف وأنت تفتك بصديق لك في سبيل . . .

- آه ! سيدي . ان الرجل الذي يبكيه ضميره هو المجرم الحقيقي ، لأنه يكون لديه فكرة عن الفضيلة . لقد كان بطرس الاكبر ودوق ألب مجموعة أقيسة وقواعد ، وكان القرصان مونبيار نظاماً .

وقال كاناليس :

- ولكن ، ألا يمكن المجتمع أن يعيش بلا مذاهبك وأنظمتك؟

ـ آه ! اتفقنا . . .

ـ ان جمهوريتك الرعناء تولد في نفسي القرف . ألا نستطيع ان نقوم بأي عمل ، ان نذبح ديكاً مثلاً ، أو أن نقطع غصناً دون ان نكون ملاحقين بقانون الأراضي ؟

ـ مبادئك رائعة جداً يا عزيزي « بروتوس » المملوء بالكفاءة ! ولكنك تشبه خادمي الذي يسيطر عليه هوس النظافة فاذا ما أعطيته بزتي لينظفها اضطررت إلى الخروج عارياً .

ـ أنتم قليلو التهذيب . أتريدون ان تنظفوا شعباً بكامله بمسواك ؟ ان العدل كما تفهمونه يصبح أشد خطراً من اللصوص .

وقال كاردو الكاتب العدل :

ـ ما أضجرهم بأحاديثهم السياسية ! اغلقوا الباب . اعتقد انه لا توجد علوم أو فضائل تساوي نقطة دم واحدة . إذا اردنا تصفية حساب الحقيقة فقد نجدها في حالة افلاس .

ـ آه ! كان سيكون أقل كلفة لنا لو تسلينا في الشر عوض ان نتخاصم في الخير . لذلك فاني ابادل كل الخطب التي القيت منذ اربعين سنة بسمكة نهرية أو بحكاية من حكايات شارل بيّرو .

ـ انك على حق . . . اعطني الهليون . . . الحرية تولد الملكية ، والملكية تؤدي الى الظلم ، والظلم يرجع الى الحرية . لقد هلك ملايين من الناس قبل ان يروا انتصار مبدأ واحد من هذه المبادىء . أليست هذه هي الحلقة المفرغة التي سيظل يدور

فيها العالم الاخلاقي ؟ وعندما يعتقد الانسان انه توصل إلى الاصلاح ، فان ذلك لا يزيد عن تغييره مواضع الاشياء .

وهتف كورسي القصاص :

ـ آه ! آه ! . . . سادتي . انني اشرب نخب شارل العاشر أب الحرية .

فقال إميل :

ـ ولم لا ؟ عندما يكون الطغيان في القوانين نجد الحرية في العادات . والعكس .

وقال صاحب البنك :

ـ لنشرب نخب بناء السلطة الذي يعطينا كل هذه السلطة على الاغبياء !

وقال أحد ضباط البحرية : ولم يكن قد ترك « برست » قط :

ـ لقد ترك لنا نابوليون مجداً على الأقل .

ـ المجد سلعة بخسة ندفع ثمنها غالياً ولا نقوى على الاحتفاظ بها . الا يكون المجد هو غرور الرجال العظام كما هي السعادة مجد الحمقاء .

ـ سيدي . انك سعيد جداً . . .

ـ الرجل الذي اخترع حفر الخنادق كان رجلاً ضعيفاً ولا شك . لأن المجتمع لا يستفيد منه الا الضعفاء . المتوحش والمفكر اللذان هما على طرفي نقيض ، كلاهما ترعبه فكرة الامتلاك .

فصرخ كاردو :

ـ بديع ! كيف نسجل الصكوك ونقيم الدعاوى ، ان لم يكن هنالك أملاك ؟

ـ هذه البزّيلا لذيذة الطعم جداً .

ـ لقد وجد الكاهن ميتاً في فراشه .

ـ من يتكلم عن الموت ؟ . . . لا تمزح . ان عمي ما زال على قيد الحياة .

ـ سوف تعتاد فكرة فقدانه .

ـ ليس هذا هو السؤال .

ـ اصغوا إليّ ، يا سادتي . هذه طريقة يجب أن يلجأ إليها كل من يشتهي موت عمه . اصغوا إليّ . . . اصغوا إليّ . . . ان أنسب عم هو العم السمين الذي يبلغ السبعين من عمره على الأقل : قدم لعمك الحبيب هذا فطيرة محشوة بكبدٍ دسمة . . .

ـ ولكن عمي رجل نحيف الجسم ، بخيلٍ وقنوع .

ـ تباً لهذا النوع من الأعمام ! انهم وحوش .

واستطرد الرجل ذو الأعمام يكمل « نصيحته » :

ـ اخبروه إذن ـ أثناء هضمه ـ بإفلاس البنك الذي يستودع فيه ماله .

وإذا قاوم الصدمة ؟

ـ سلّط عليه امرأة جميلة .

ـ وإذا كان . . . (وأتى بإشارة سلبية) .

ـ ان عمك إذن ليس بعم مثالي . . . فأولى صفات العم

الحقيقي هي البطر .

ـ لقد بدأ يخفت صوت ماليبران .

ـ كلا ، يا سيدي .

ـ بلى ، يا سيدي .

ـ أوه ! أوه ! نعم ولا . أليست هذه حكاية جميع المباحثات الدينية والسياسية والأدبية ؟ الانسان مهرج يرقص فوق الهوة .

ـ من يسمعك يظن أني أحمق .

ـ بالعكس ، من لا يسمعني .

ـ والثقافة ، هذه الحماقة الجميلة . ان « هانفثماش » أوصل عدد الكتب المطبوعة إلى المليار . وعمر الانسان لا يسمح له إلاّ بمطالعة الخمسين ألفاً ! فسّر لي إذن يا سيدي ما تعني كلمة « ثقافة » . انها تتوقف عند البعض على معرفة أسماء جواد اسكندر الكبير ، واسم كلب « باريسلو » وأسماء أسياد « اكورد » ، وجهل اسم الرجل الذي أوجد الملاحة ، أو الذي صنع الأواني الصينية . وعند البعض الآخر ، هي درس عميق للكتاب المقدس ، والسعي وراء حياة شريفة ، واكتساب احترام الناس ، بدلاً من أن يمتهن هؤلاء سرقة الساعات مثلاً ، ويستمروا في غيّهم وتكرار جرمهم ، حتى ينتهوا إلى الموت في ساحة الاعدام مبغوضين محتقرين .

ـ هل يبقى « ناتان » ؟

ـ آه ! ان هؤلاء المتعاونين أصحاب روح حلوة .

ـ أنتم سكارى .

ـ النتيجة المباشرة لدستور ما هي سحق الذكاء . لقد التهمت الأنانية المخيفة ، مرضنا الحالي ، العلوم والفنون والروائع . والثلاثمئة بورجوازي الذين يجلسون على مقاعد النيابة ، لا عمل لهم سوى زرع أشجار السرو . يصنع الطغيان بصورة غير شرعية أشياء كبيرة . بينما الحرية لا تزعج نفسها في سبيل الاتيان ببعض الأمور الصغيرة بصورة شرعية . . .

فقاطعه أحد دعاة الحكم المطلق قائلاً :

ـ ان تعاليمك المشتركة تولد قطعاً من فئة المئة فرنك تحت الجلد الانساني . ألا تدري ان الفردية تضمحل في شعب صقلته الثقافة ؟

فأجابه « السان سيمونيان » :

ـ ولكن أليست غاية المجتمع أن يقدم لكل فردٍ الراحة والدعة والغبطة ؟

ـ إذا كان دخلك السنوي يبلغ خمسين ألف ليرة ، فانك لا تعود تفكر في الشعب . أما إذا كان قلبك يعجّ بحب الانسانية فاذهب إلى مدغشقر . فتجد هناك شعباً يصلح لاقتبال تعاليمك ، ويصلح أيضاً للتصنيف والحفظ في الأدغال . أما هنا ، فالوضع يختلف تماماً ، إذ أنك تجد كل إنسان يجلس بصورة طبيعية في مكانه ، كما يدخل الوتد في ثقبه . فحارس البيت هو دائماً حارس البيت ، والحمقى هم حيوانات دون حاجة إلى تخرج من معاهد الرهبان .

ـ انك كارليست [1] .

ـ ولماذا لا أكون كذلك ؟ اني أحب الطغيان ، لأنه يدل على احتقـار للجنس البشـري ، ولا أمقـت الملوك ، فـهم مضحكون جداً . أليس شيئاً مهماً أن يجلس الملك على عرشه في غرفة تبعد عن الشمس ثلاثين مليوناً من الأميال ؟

وقال العالم الذي كان منهمكاً في إلقاء محاضرة عن بدء المجتمعات وعن الشعوب القديمة ، على مسمع المثّال الشارد الذهن :

ـ لماذا لا نختصر هذه النظرة الواسعة إلى المدنية ؟ إن قوة المجتمعات البدائية كانت نوعاً ما مادية ، واحدة . غير أنه بعدما تكتلت هذه المجتمعات ، انبثقت الحكومات من تفكك السلطة البدائية . وهكذا ، فان القوة في العصور القديمة كانت صادرة عن الله ، وكان الكاهن يحمل السيف والمبخرة . وبعد ذلك وُجد نوعان من الكهنة : الحبر والملك . أما اليوم فان مجتمعنا الذي هو آخر ما توصلت إليه المدنية ، قد وزّع السلطة حسب عدد المجموعات المنتظمة . وتوصلنا إلى قوى جبارة نسميها : التجارة ، والآراء ، والمال ، والكـلام . لقد فقـدت السلطة وحدتها وتسير بخطى مسرعة إلى الانصهار في بوتقة المجتمع ، من دون أن تستند إلى الدين أو إلى القوة المادية ، وليس لها من رائد سوى العقل . والمشكلة التي تعترضنا الآن ، هي هذه :

---

(١) اسم أطلق على اتباع شارل العاشر في فرنسا سنة ١٨٣٠ .

هل يعادل الكتاب السيف ؟ وهل يساوي الجدال العمل ؟
فصاح « الكارليست » قائلاً :
ـ العقل قتل كل شيء . الحرية المطلقة تقود الأمم إلى الانتحار . الأمم تضجر من انتصارها كثري انكليزي .
ـ بماذا ستنبئوننا ؟ لقد سخرتم اليوم من جميع السلطات ، ومن المبتذل أن ينكر المرء وجود الله . لقد فقدتم إيمانكم وأصبح عصرنا كسلطان يتعتعه الفسق والفجور . ثم جاءكم اللورد بيرون ، فآخر يائس للشعر ، وغني أهواء الجريمة .
فأجابه بياشون وقد كان ثملاً تماماً :
ـ هل تعلم أن زيادة أو نقص كمية صغيرة من الفوسفور تجعل من الرجل عبقرياً أو مجرماً ، رجل علم أو أحمق ، رجل فضيلة أو مجرماً ؟
فصرخ كورسي :
ـ أنقوى على البحث في الفضيلة بهذا الشكل ؟ أليست الفضيلة موضوع جميع المسرحيات ، والنهاية التي تتوصل إليها جميع المآسي التمثيلية ، وأساس جميع المحاكم ؟
فقال بيكسيو :
ـ اسكت ، يا حيوان . ان فضيلتك هي « آشيل » بلا عقب .
ـ إلى الشرب .
ـ أتراهن أنني أستطيع شرب زجاجة شمبانيا دفعة واحدة ؟

فهتف بيكسيو صارخاً :

- هذه دفعة مدهشة من الذكاء .

وقال شاب كان يسقي قميصه الخمر باجتهاد ورصانة :

- انهم سكارى كسائقي العربات .

- نعم ، يا سيدي . ان الحكومة الحالية هي فن جعل الرأي العام ملكاً .

- الرأي العام ، انه أفسد من جميع البغايا . وإذ كان يجب أن استمع إليك ، يا رجل الأخلاق والسياسة ، فعليّ أن أفضل دائماً القوانين على الطبيعة . كل شيء صحيح وكل شيء مغلوط . فإذا كان المجتمع قد وضع لنا الريش الناعم في الوسائد ، فانه اعتاض عن ذلك ، دون ريب ، بتقطير حسناته قطرة قطرة ، كما وضع إجراءات الدعوى ليخفف من غلواء العدل . وكما وضع الزكام خلف الشالات والكشمير .

فأجاب إميل مقاطعاً :

- أيها القزم ! كيف تقوى على إنكار فضل المدنيّة بحضور النبيذ والطعام اللذيذ ، على طاولة يبلغ ارتفاعها إلى ذقنك . تستطيع أن تعض السنجاب من رجليه ومن قرونه المذهبة ، ولكن ، لا تحاول عض أمك .

- هل الذنب ذنبي إذا كانت الكثلكة قد تمكنت من دفع مليون إله في كيس من الطحين ، وإذا كانت الجمهورية تنتهي دائماً إلى « نابوليون » ما ، وإذا كانت الملكية تجد نفسها بين اغتيال هنري الرابع ومحاكمة لويس السادس عشر ، وإذا كانت

الليبرالية أصبحت « لافايت » .

- هل قبلته في تموز ؟

- كلا .

- إذن اخرس ، أيها المتشكك .

- ان المتشككين هم رجال الضمير والوجدان .

- ليس للمتشككين ضمير .

- ماذا تقول ؟ ان لهم ضميرين على الأقل .

- اسقط السماء من حسابك ، يا سيدي . . . اسمع ، هذه فكرة محض تجارية ان الديانات القديمة لم تكن سوى مظاهر للذة الجسدية . أما نحن فقد هذبنا النفس ، ونشعر بتقدم محسوس .

وقال ناتان :

- آه ، يا أصدقائي ! ماذا تنتظرون من عصر أتخمته السياسة ؟ وماذا كان مصير « تاريخ ملك الغجر وقصوره السبعة » ؟

فصرخ « الحكم » الذي كان جالساً عند طرف الطاولة قائلاً :

- هذه كلمات ساعد الحظ على إخراجها من إحدى القبعات .

- إنك أبله .

- إنك مضحك .

- أوه ! أوه !

ـ آه ! آه !

ـ سيقتتلان .

ـ كلا .

ـ إلى الغد ، يا سيدي .

فأجاب ناتان :

ـ بل الآن ، وفي هذه اللحظة .

ـ اتركا هذا ، اتركا هذا ، أنتما شجاعان .

فقال ناتان :

ـ وأنت شجاع أيضاً .

ـ انهما لا يقويان حتى على الوقوف .

وقال ناتان ، وهو يبذل جهداً لينتصب واقفاً :

ـ ربما كنت لا أصرّ على القتال .

ثم ألقى على الطاولة نظرة ذاهلة ، ووقع على كرسيه وقد أنهكه الجهد الذي بذل ، وأحنى رأسه إلى صدره ولزم الصمت .

فقال الحكم لجاره :

ـ أليس مضحكاً أن أقاتل في سبيل كتاب لم أسمع به ولم أقرأه ؟

وقال بيسكيو :

ـ إميل ، انتبه لثوبك . جارك اعتراه الشحوب .

ـ سادتي ، سادتي . لقد نسيتم « كانط » . سألقي بكلمتي هذه لأروّح عن الحمقى . ان المادة والروح هما آلتان

جميلتان لرمي الكرة في يدي بهلوانين يدعيان المعرفة . . . ليكن كل شيء جزءاً من الله كما يقول « سبينوزا » أو فليأتِ كل شيء من الله كما يقول القديس بولس . أيها البلهاء ! سواء فتحنا الباب أو أغلقناه ، ألسنا نأتي بحركة واحدة ؟ هل تأتي الدجاجة من البيضة أم البيضة من الدجاجة ؟ أعطني زجاجة النبيذ . . . هذه هي كل العلوم .

فصرخ فيه العالم قائلاً :

ـ أيها الأبله ! السؤال الذي تلقيه يخالف الواقع .

ـ وما هو هذا الواقع ؟

ـ منابر الأساتذة لم تصنع من أجل الفلسفة ، ولكن الفلسفة وضعت من أجل المنابر . أليس كذلك ؟ انه يوافقك جداً أن تضع نظارات وتراقب دخل أحد التجار .

ـ لص .

ـ مجنون .

ـ خبيث .

ـ مغرور .

وقال بيكسيو بصوت خافت :

ـ هل نستطيع أن نجد في غير باريس هذه المجادلات الحامية وسرعة الخاطر المتوقدة ؟

ـ بيكسيو ، أسمعنا بعض دعاباتك الكلاسيكية .

ـ أتريدون أن أمثل لكم القرن التاسع عشر ؟

ـ اسمعوا !

ـ الصمت .

ـ هل تسكت ، أيها الصيني ؟

ـ قدم له نبيذاً وليصمت هذا الطفل .

ـ تكلمْ ، يا بيكسيو !

وقف بيكسيو الفنان وزرّر ثوبه حتى عنقه ولبس قفازيه ، وكشر عن أسنانه ، محاولاً تقليد مجلة « العالمين » وهو يصطنع الحول . ولكن الضجيج طغى على صوته ، فأصبح من المستحيل التقاط كلمة واحدة من حديثه . وإذا لم يكن يمثل العصر تماماً ، فانه على الأقل كان يمثل المجلة ، لأنه لم يكن يفهم ما يقول .

وقُدّمت الفاكهة بقدرة ساحر . واختفت الطاولة تحت طبق واسع صنع في معامل « تومير » . وحملت آنية منقوشة بيد رسام ماهر عصير ثمر التوت ، والأناناس ، والعنب ، والبرتقال الذي جيء به من « ستابيل » على مركب صغير ، والرمان ، وأثماراً من الصين ، جميع مفاجآت الترف والغنى وأنواع الحلويات المختلفة . وكانت الأواني الصينية بخطوطها الذهبية المشعة ، وبشكلها البديع ، تظهر ألوان هذه الأنواع من الأطعمة الفاخرة وتضخمها وتزيد في روعتها . ووزع الذهب واللؤلؤ والبلور والفضة من جديد تحت أشكال مختلفة . ونستطيع أن نقول أن ثروة أمير الماني لم تكن كافية لدفع ثمن هذا البذخ الصارخ . ولكن العيون المسترخية وهذيان حمى السكر لم يسمحا للمدعوين أن يروا هذا الترف الذي هو خليق بالقصص الشرقية . وأقبلت

الخمور ثانية ، صافية معتقة ، تنشر عطرها ولهيبها ، فتخلق نوعاً من السراب الفكري وتقيد الأرجل وتثقل الأيدي .

وامتدت الأيدي إلى إهرامات الفاكهة وتناهبتها ، واشتد اللغط وارتفعت الضجة . فلم يعد يفهم ما يقال . وتطايرت الأقداح شظايا . وانطلقت القهقهات الحادة كطلقات البنادق . وانتزع « كورسي » بوقاً ، وراح يوقع عليه لحناً شاذاً . فكان لحنه بمثابة إيماءة من الشيطان . وأخذ هؤلاء الأشخاص وقد عصفت بهم أهـواؤهم ، يزأرون ، ويصفـرون ، ويغنـون ، ويصرخون ، ويزمجرون ، ويدمدمون . ويصعب جداً أن تصد نفسك عن الابتسام لدى رؤيتك أشخاصاً مرحين ، تخفت فجأة أضواء مباهجهم كما تخفت أضواء خاتمة قصص « كربيون » أو لدى رؤيتك إياهم يحلمون كبحارة يمتطون عربة . وراح الرجال المهذبون منهم يهمسون بأسرارهم إلى فضوليين لا يصغون إليها . وارتسمت الابتسامة على ثغور أصحاب المزاج السوداوي ، كما ترتسم على ثغر راقصة انتهت من أداء رقصتها . وأخذ كلود وفينيون يتبختران كتبختر الدببة في الأقفاص . وتشاجر الأصدقاء الأعـزاء . وارتسمت الأشكال الحيـوانية عـلى هذه الـوجـوه الانسانية ، تظهرها وتجسمها حركات الأعضاء والأجسام . أما صاحب الدعوة فكان يشعر أن السكر قد بلّد إحساسه وشعوره فلم يجرؤ على النهوض ؛ لكنه كان يوافق على تصرفات مدعويه بحركة معينة من يده ، وهو يحاول أن يحتفظ لنفسه بمظهـر المضيف السخي . واكتسى وجهه العريض بالخمرة والزرقة ، ثم

تحوّل لونه إلى بنفسجي قاتم ، فأصبح منظره مخيفاً جداً . وكان يبذل جهوداً عنيفة ، ويأتي بحركات تشبه تمايل المركب واهتزازه ، ليقوى على مشاركة ضيوفه في مرحهم الجنوني وحركاتهم .

وسأل إميل صاحب الدعوة :

ـ هل قتلتهم جميعاً ؟

فأجاب تاليفير ، وهو يرفع حاجبيه بحركة تنم عن فطنة وغباء في وقت واحد :

ـ يقولون ان عقوبة الاعدام ستُلغى . وهذه نعمة من نعم ثورة تموز .

وقال رفائيل :

ـ ولكن ، ألا يتراءون لك في الحلم مرات ؟

فأجاب السفاك المحشو بالذهب :

ـ هنالك عفو مرور الزمن .

وهتف إميل بلهجة شيطانية :

ـ . . . وعلى قبره سيحفر ملتزم الدفن هذه الكلمات : « أيها المار ! اذرف دمعة على ذكراه » .

ثم أضاف :

ـ انني أدفع مئة قرش للعالم الرياضي الذي يستطيع أن يثبت لي ، بمعادلة جبرية ، وجود الجحيم .

ورمى قطعة فضية في الفضاء وهو يصرخ :

ـ النقش يثبت وجود الله .

فانتزع رفائيل القطعة الفضية وقال :

ـ لا تنظر إليها . ما أدرانا ؟ القدر كثير السخرية .

وقال إميل ، وقد اكتسى وجهه بإمارات مضحكة :

ـ لم أعد أعرف أين أضع قدميّ بين هندسة الكفر وصلاة البابا « أبانا الذي في السماوات . . . » باه ! . . . فلنشرب . . . إني أؤمن بألوهية الزجاجة ، وأصغي إلى أحاديثها ، وأنتفع بالنتائج التي توصل إليها « بانتاغريل » .

ـ نحن مدينون لـ « أبانا الذي في السماوات » بفنوننا ، وروائعنا ، وعلومنا ، وقد نكون مدينين لها بحسنات أخرى ، ومدينون لها أيضاً بحكوماتنا الحديثة التي يمثل فيها المجتمع الكبير المخصب خمسمئة عقل ، والتي تتحد فيها القوى المتناقضة ، تاركة جميع السلطات للمدنية ، هذه الملكة العظيمة التي حلت محل الملك ، هذا الوجه القديم المخيف الذي هو نوع من الحظ العاثر ، أوجده الانسان بينه وبين السماء . وإذا ما رأيت كل هذه الأعمال الجليلة ، ألا تشعر أن الكفر يبدو كهيكل عظمي لا ينجب . . . ماذا تقول في هذا ؟

فقال إميل ببرود :

ـ إني أفكر بسيول الدماء التي أهرقتها الكثلكة . لقد استولت على شرايينا وقلوبنا لكي تقوى على تزوير طوفان جديد . ولكن ما هَمّ ؟ أعتقد أن على كل رجل مفكر أن يمشي تحت لواء المسيح ، لأن المسيح وحده مجّد انتصار الروح على المادة ، وكشف لنا بصورة شعرية عن العالم المتوسط الذي

يفصلنا عن الله .

فأجابه رفائيل ، وهو يبتسم ابتسامة سكر غامضة :

ـ تظن ؟ اقترح ، لكي لا نتورط ، ان نشرب نخب : الاله المجهول .

. . . وهكذا أفرغوا جعبتهم من العلوم ، وغاز الفحم ، والعطور ، والشعر ، والكفر .

وقال رئيس الخدم :

ـ إذا شاء السادة أن ينتقلوا إلى قاعة الاستقبال ، فانهم سيجدون القهوة في انتظارهم .

في هذه اللحظة كان المدعوون كلهم تقريباً يدورون في ذلك الاطار اللامع اللذيذ ، حيث تخمد أضواء الفكر ، وتنطلق الأجسام من عقالها ، وتندفع بكل قوتها وراء هذيان الحرية . وكان البعض منهم ، وقد سيطر عليهم السكر سيطرة كاملة ، واكفهرت وجوههم ، يجربونْ أن يفطنوا إلى فكرة تؤكد لهم وجودهم الذاتي . والبعض الآخر يترددون في خمول سبّبه عسر هضم مؤلم منعهم عن الحركة . وراح بعض الخطباء الفاشلين يتفوهون بكلمات لا يفقهون هم أنفسهم لها معنى . وكانت أغنيات تتردد ، فتحدث دمدمة تشبه ضجة آلة ميكانيكية مجبرة على تتميم دورها ، فيمتزج السكوت والضجة بشكل غريب .

عندما سمع المدعوون صوت الخادم الرنان يدعوهم إلى مسرات جديدة وقفوا جميعهم ، وراحوا يجرون أقدامهم جراً ، أو يستند بعضهم إلى بعض ، لكنهم جمدوا جميعاً مذهولين عند

عتبة باب القاعة ، وشحبت في مخيلتهم رؤى ملذات المأدبة المتتابعة أمام المشهد البديع الذي دغدغ أبصارهم ، والذي قدمه المضيف ليثير إحساسهم الشهواني . ففي غمرة من الأضواء ، ترسلها شموع إحدى الثريات الذهبية ، وحول طاولة مغطاة بالعقيق ، شاهد المدعوون مجموعة من النساء ، تضيء عيونهن كما تضيء حبات الماس . . . ثمينة هي الحلى ، ولكن أثمن منها جمال هؤلاء الفتيات الصارخ الذي تضمحل أمامه كل بدائع هذا القصر ونفائسه . والشوق الذي تضج به عيون هؤلاء الفتيات الساحرات هو أكثر قوة وفاعلية ولمعاناً من سيول الأضواء التي كانت أشعتها تبعث حياة وبريقاً في الرخام الأبيض وفي النقوش البرونزية الدقيقة . وان القلب ليلتهب التهاباً لدى رؤية هذه الرؤوس البديعة المتوجة بشعور ذهبية افتنّ في تصفيفها وزينتها ، وهذه القامات الممشوقة المتنوعة الجاذبية والشمائل . إنها حديقة تغص بالزهور والياقوت الأحمر ، واللازورد ، والمرجان . . . عقود على رقاب بيض كالثلج ومناديل رقيقة تتماوج كأضواء المنارات . عمائم ثمينة زاهية ، وغلائل شفافة تبعث بتواضع إغراء وشوقاً .

كانت القاعة تقدم إغراء لجميع العيون ، وملاذاً لجميع الأهواء والطبائع . فهنا راقصة اتخذت وضعاً يسلب العقول ، تبدو كأنها عارية بين ثنايا الكشمير المتموجة . وهناك ثياب شفافة ، وهنا الحرير المختلف الألوان ، يخفي أو يظهر مزايا سحرية . أقدام صغيرة تتكلم عن الحب ، وثغور رطبة تمتنع عن

الكلام . عذارى رخيصات العود محتشمات ومزوّرات تفوح من شعورهن رائحة الطهارة يعرضن للنظر كرؤيا تكفي لمحوها قبضة من الأنفاس ، وسيدات ارستوقراطيات أنيقـات يبعثن بنظرات مترفعة ، ولكنها متراخية رقيقة أنيسة ، يحنين رؤوسهن كأنما لا يزال هنالك حماية ملكية يسعين إلى الفوز بها . وسيدة انكليزية ، يخال أن وجهها الأبيض المتواضع قد هبط من غيوم « اوسيان » تشبه ملاكاً للحزن أو ندماً هارباً من الجريمـة . والباريسية التي يكمن الجمال كله في عياقتها التي لا توصف ، والتي تتسلح بضعفها العظيم القوة ، ناهيك بزينتها وسرعـة إدراكها ومرونتها وصلابتها ؛ إنها جنية بـلا قلب ولا أهواء ، تقوى على إثارة الميول والشهوات ، وعلى تزوير خفقات القلب . هذه الجنية لم تكن تنقص هذه المجموعة الخطيرة ، حيث كانت تتـألق الايـطاليـات الهـادئـات المـظهـر ، الأمينـات للذاتهن ومسراتهن . وسيدات ثريات من نورمانديا بقاماتهن المشوقة . ونساء من الجنوب بعيونهن السود العميقة الواسعة . فيُظن أن أجمل سيدات « فرساي » وقد أخذن منذ الصباح الباكر في التبرج وإظهار المفاتن ، يهرعن كقطيع من العبيد أيقظه صوت التاجر ، لينطلق به عند انبلاج الفجر .

وبقيت النساء متمنعات خجولات ، وأسرعن في الالتفاف حول الطاولة كسرب من النحل يدندن في خليته . ونستطيع أن نعزو هذا الارتباك وهذا الدلال إلى قوة الاغراء التي تلجأ إليها المرأة ، أو إلى الخفر العفوي . أو أنه شعور المرأة الذي لا تظهره

أبداً على حقيقته كأن يأمرها بأن تتدثر برداء الفضيلة ، لتضفي سحراً وجاذبية على الافراط في الرذيلة .

وهكذا ، فان المؤامرة التي حاك خيوطها تاليفير الشيخ كادت تمنى بالفشل ، فهؤلاء الرجال الذين لا ضابط لهم ، قد خضعوا لتلك القوة العظيمة التي تتمتع بها المرأة . وتعالت همهمة الاعجاب كأعذب الموسيقى . ولم يكن الحب قد سافر في صحبة السكر ، فاستولى الضعف والفتور على المدعوين بدلاً من أن ينساقوا وراء عاصفة من الأهواء ، ووقفوا لحظة مدهوشين أمام لذائذ هذا المنظر الخلاب . وراح الفنانون منهم يدرسون - بفيض من الغبطة - الفروقات التي لا تكاد تدرك والتي لا تكاد تميّز بين أنواع هذا الجمال المختار . ولمعت فكرة في رأس فيلسوف بينهم ، مردها إلى بخار الشمبانيا الذي كان يتصاعد في رأسه . واعتراه الرعب وأخذ يفكر في الحظ العاثر الذي قاد خطوات هؤلاء النساء إلى هذا المكان ، هؤلاء النساء اللواتي ربما كنّ في ما مضى أهلاً لكل تقدير واعتبار وإجلال . فعند كل واحدة منهن ولا شك قصة واقعية تروى ، وكلهن تقريباً أسيرات الشقاء، عرفن رجالاً بلا ضمير ، ووعوداً بلا تحقيق ، ومسرات دفعتهن التعاسة ضريبتها .

واقترب المدعوون من النساء بأدب جم ، وبدأت الأحاديث ، وتألفت جماعات صغيرة . فيخيل انك في قاعة تضم نخبة من الأصحاب ، تقدم فيها النساء والفتيات للضيوف ، بعد الطعام ، المساعدات التي توفرها الخمرة والقهوة والسكر

للشرهين الـذين بلوا بعسر الهضم . ومـا لبث الضحك أن تعالى ، وعمّت الضجة ، وارتفعت الأصوات . وهددت الأهواء التي كبتت لقليل من الوقت ، بالاستيقاظ والانفجار . كانت هذه المناوبة بين الضجة والصمت تشبه شبهاً غامضاً إحدى سمفونيات بيتهوفن .

جلس الصديقان على أريكة وثيرة ، وما لبثت أن اقتربت منهما امرأة معتدلة القامة ، أنيقة الهندام ؛ ذات وجه مميز متناسق تماماً إلا أنه ثاقب ومليء بالحيوية ويأسر النفس بسطوته ، وشعرها الأسود الذي حبك حلقات حلقات على رأسها ، والذي يظهر أنه سبق أن خضع لمعارك الحب ، يتدلى على كتفيها العريضين اللذين يعرضان للنظر مشهداً يدهش الأبصار ، وعقد بديع يغطي نصف عنقها الجميل الذي ينزلق الضوءعليه فترة بعد فترة ، فيظهر دقائق جماله المغرية . أما بشرتها ، فلونها الأبيض الباهت يبرز الألحان الدافئة النابضة بالحياة التي تتألف منها ألوانها . ولحظها المسلح بأهداب طويلة يبعث لهيباً متوقداً وشرر الحب . وفمها الأحمر الرطب يستدعي القبلة . وقوامها الصلب المتين يبدو لدناً مرناً . صدرها نافر وذراعاها طويلتان ، فهي أشبه شيء برسوم « كاراش » الجميلة ، وإلى ذلك ، فهي تبدو رشيقة ، غيداء . وقوتها توحي أن لها رشاقة النمر ، وشكلها وزيها يعللان النفس بملذات ضارية .

برغم أن هذه المرأة تحسن الضحك والعبث ، فان عينيها وابتسامتها تنشر الرعب والخوف . فهي تشبه تلك الآلهـات

اللواتي يسيرهنّ الشيطان ، فتدهش أكثر مما تسر . وعلى وجهها تتتابع دفعة واحدة كل خلجات نفسها كما يتتابع البرق . إن في إمكانها أن تسحر رجلاً مجرباً ، أما الشاب الغرير فانه يشعر بالرهبة إزاءها . إنها تمثال ضخم سقط من علو احد الهياكل اليونانية ، نراه جميلاً من بعيد ، وإذا اقتربنا منه نشعر بسماجته . ومع ذلك فان جمالها الصارخ يوقظ العاجزين ، وصوتها يسحر الأصم ، ونظراتها تعيد الحياة إلى الهياكل العظمية . وقد وجد اميل شبهاً غامضاً بينها وبين مسرحيات شكسبير الدامية ، حيث يزأر السرور ، وحيث يسيطر على الحب ، لا أدري أيّ شيء من الوحشية ، وحيث يعقب سحر اللذة ونار السعادة ضجيج الغضب الدامي . إنها مسخ يحسن العضّ والمداعبة ، ويحسن الضحك كالشيطان ، والبكاء كالملاك ، ويرتجل كل إغراءات المرأة في عناق واحد ، باستثناء زفرات الكآبة وسحر العذراء المحتشمة . ولكنها في وقت ما ، تزمجر ، وتمزق ثوبها ، وتخمد أشواقها ، وتحطم عشيقها ، ثم تحطم نفسها كما يصنع الشعب المتمرد .

كانت مرتدية ثوباً من المخمل الأحمر ، وقدماها تدوسان زهرة وقعت عن رأس إحدى صاحباتها . ويدها ممدودة بطبق من الفضة نحو الصديقين . . . إنها فخورة بجمالها ، ومن يدري ؟ فقد تكون فخورة أيضاً برذيلتها . وقفت أمام الصديقين تظهر ذراعاً بيضاء تنسل من المخمل ، كملكة للذة ، كصورة للسرور الانساني ، هذا السرور الذي يبذر الكنوز التي كومتها ثلاثة

أجيال متتالية ، والذي يضحك فوق الجثث ، ويسخر من الأجداد ، ويذيب الحلى والعروش ، ويحول الشباب إلى شيوخ ، وغالباً ما يحول الشيوخ إلى شباب ، هذا السرور الذي سمح به فقط للأشخاص الذين تعبوا من السلطان ، وحنكتهم التجارب ، وأصبحت الحرب بالنسبة إليهم لعبة يلهون بها .

قال لها رفائيل :

ـ ماذا تسمين ؟

ـ اكيلينا .

فهتف اميل :

ـ لقد أتيت إذن ، من « فينيسيا المنقَذَة » [1] .

فأجابت :

ـ نعم ، وكما أن الباباوات يتخذون لأنفسهم أسماء جديدة ليرتفعوا بها فوق الناس ، هكذا اتخذت لنفسي اسماً جديداً ، وارتفعت به فوق جميع النساء .

وقال اميل بلهجة تتدفق حيوية وقد أيقظه كلامها الشعري :

ـ هل لك ، كما للبطلة التي تحملين اسمها ، متآمر نبيل مخيف يحبك . ويعرف كيف يموت من أجلك ؟

فأجابت :

ـ كان لي ذلك ، ولكن المقصلة كانت خصمي اللدود .

---

(١) مسرحية من تأليف ث . اوتواي في القرن السابع عشر .

ولذا فانني أضيف دائماً بعض الخرق الحمراء إلى زينتي ، لكي أحرص على أن لا يتعدى سروري الاعتدال .

ـ آه ! إذا تركتماها تخبركما بقصة شبان « لاروشيل » الأربعة ، فانها لن تنتهي من ذلك أبداً . اسكتي إذن يا اكيلينا . ان لجميع النساء عشاقاً يذرفن الدموع على فقدهم ، ولكن هل لكل واحدة منهن سعادة فقد عشيقها على المقصلة ؟ آه ! أفضل أن أعلم أن حبيبي يرقد في حفرة في كلامار ، على أن أعرف أنه أمضى ليلة في سرير منافسة لي .

صاحبة هذا الكلام كان صوتها شجياً ناعماً ، كصوت الطف مخلوقة صغيرة ، تنضح طهارة وعفّة ، وتسيطر عليها عصا جنيّة ساحرة ، فلم تدعها تترك بيضتها المسحورة . وكانت قد اقتربت من الصديقين ، دون ان يسمعا وقع خطواتها ، وأظهرت وجهاً بديع التقاطيع ، وقامة هيفاء ، وعينين زرقاوين تطفحان بالحشمة والرصانة ، وصدغين غضّين بريئين ... ان عروس الماء الساذجة التي تخرج من ينبوعها ، ليست أكثر وجلاً ، واشد بياضاً ، وأوفر سذاجة من هذه الفتاة التي يبدو انها لا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، والتي تجهل الشر ، وتجهل الحب ، ولا تعرف عواصف الحياة ؛ فكأنها تخرج من كنيسة بعدما صلّت إلى الله ورجت الملائكة ؛ كي تفوز بنعمة دعوتها الى السماء قبل الأوان . ففي باريس وحدها تستطيع ان تشاهد هذه المخلوقات التي تخفي وجوهها البريئة الفسادَ العريق ، والرذيلة الخالصة ، تحت جبينٍ يبدو ليناً رخصاً كزهرة الأقحوان .

وخُدع الشابان بادىء بدء بالوعود السماوية المسطورة في جاذبية هذه الفتاة وميولها . فقبل إميل ورفائيل القهـوة التي سكبتهـا في قدحـين وقدمتهـا لهما . وبـدأ بمجاذبتهـا اطراف الحديث ، فتمكنت اكيلينا من ابدال وجهة نظر الشاعرين ـ لست ادري إلى اي وجه من وجوه الحياة ـ بأمثلتها المشؤومة ، وهي تناقض بتعابير خشنة شهوانية صاحبتها ، تلك الصورة للفساد البارد ، الطاغي اللذة ، الذي يدفعـه الطيش الى ارتكـاب الجرائم ، وتحمله قوته الخارقة على الهزء بما فعل ، والذي هو كشيطان بلا قلب يعاقب النفوس الفتية الرقيقة لأنها عرفت مشاعر هو لا يستطيع معرفتها ، ويجد دائماً حباً زائفاً للبيع ، ودموعاً في وقت تشييع جنازة ضحيته ، ولذة في قراءة الوصية . . . ان الشـاعر يعجب بـاكيلينـا ، ولكن العـالم اجمـع يتهـرب من « افرازي » المؤثرة ، لقد كانت احداهما روح الرذيلة ، أما الثانية فهي الرذيلة بلا روح .

وخاطب إميل هذه المخلوقة الجميلة قائلاً :

ـ أود ان اعرف إذا كنت تفكرين في المستقبل .

فأجابته ضاحكة :

ـ المستقبل ؟ ماذا تعني بهذه الكلمة ؟ لماذا تريدني ان افكر في شيء لا وجود له بعد ؟ لا انظر ابداً إلى الوراء ، كما لا انظر أبداً إلى الأمام . أليس كثيراً ان أهتم بنهار كامل دفعة واحدة ؟ لكنني مع ذلك اعرف ما سيكون المستقبل . إنه المستشفى .

فقال رفائيل :

ـ كيف تستطيعين التأكيد ان مستقبلك سيكون المستشفى ، ولا تحاولين العمل على تجنب هذا المصير ؟

ـ وما الذي يخيف في المستشفى ؟ عندما لا نكون أمهات ولا زوجات ، وعندما تغلّف الشيخوخة أقدامنا بالجوارب السوداء ، وتسطر على جباهنا التجاعيد ، ويذبل فينا كل ما ندعوه انوثة ، ويجف الشوق في نظرات أصدقائنا ، فأي شيء يمكن ان نحتاج اليه ؟ أما وهذه حالتنا ، فلن تعودوا تروا فينا سوى طينٍ بدائي يدبّ على قدمين ، بارد ، جاف ، مفكك ، يحدث في سيره حفيفاً يشبه حفيف الاوراق المائتة . ان اجمل الثياب تصبح بالنسبة الينا كالأسمال ، والعطر الذي كان يشيع البهجة في خلواتنا يتخذ طعم الموت وينشر رائحة الهياكل العظمية . واذا كان ثمّة قلب في هذا الطين ، فانكم تلعنونه جميعاً ، ولن تسمحوا له حتى بالذكرى . وهب اننا كنا في هذه المرحلة من العمر ، في فندق جميل نعتني بالكلاب أو في مستشفى نجمع الخرق البالية ، ألايكون الأمر سيّان والحالة واحدة ؟ وهب اننا خبأنا شعورنا البيضاء تحت المناديل الحمر والزرق ، أو تحت التخاريم . أو كنسنا الشوارع بشرائطنا ، أو جررنا الأطلس على درجات « التويلري » ، أو جلسنا بالقرب من المواقد المذهبة ، نفتش عن الدفء في الرماد الموضوع في آنية فخارية حمراء ، أو شاهدنا المقصلة وهي تطيح الرؤوس ، أو ذهبنا الى الأوبرا . هل بين كل هذا فرق يدعو الى الأسف والحسرة ؟

وأكملت « افرازي » حديثها قائلة :

ـ اكيلينا الحبيبة ، لم تكوني على حق مثلك هذه المرة . نعم ، ان الكشمير ، والفراء ، والعطور ، والذهب ، والحرير ، والاناقة ، وكل شيء يلمع ، وكل شيء يسر ، لا يليق إلاّ بالشباب . الزمن وحده يقوى على الحد من جنوننا ، ولكنّ السعادة تغفر لنا .

ثم صرخت ، وهي ترمي الصديقين بنظرة مشبعة بالسموم :

ـ انتما تهزآن بما اقول . الست على حق إذن ؟ اني أفضل الموت من اللذات على الموت من المرض . لست راغبة في الخلود ، ولا اكنّ احتراماً كبيراً للجنس البشري ، لأرى ما يصنع به الله . اعطياني الملايين ، فألتهمها دفعة واحدة . اذ إني لا أحب أن أبقي قرشاً واحداً للسنة المقبلة . . . أود أن أعيش كي أشيع السرور وأحكم . هذا ما تنبض به كل خفقةٍ من خفقات قلبي . والمجتمع يرتضي بأحكامي . ألا تراه يقدم لي دون انقطاع ما يشبع رغائبي ؟ . لماذا جعل الله لي في كل صباح دخلاً يعادل ما انفقته في المساء ؟ وأخيراً ، لماذا تبنى المستشفيات ؟ وكما ان الله لم يضعنا بين الخير والشر لكيّ نختار ما يدمينا أو ما يضجرنا ، أعتقد أني أكون كثيرة الحماقة ان لم أندفع وراء أهوائي ورغباتي .

فقال إميل :

ـ والآخرون .

ـ يستطيع الآخرون ان يتدبروا أمرهم . اني أفضل السخرية من عذابهم ، على ان يسببوا لي عذاباً ابكيه بدموعي . وليس في وسع احد ان يسبب لي أدنى عذاب .

وسألها رفائيل :

ـ ما هي الآلام التي قاسيتها والتي جعلتك تفكرين هكذا ؟

فأجابت ، وهي تتخذ وضعاً مثيراً أبرز مفاتنها :

ـ لقد هُجرتُ من أجل إرث . وكنت أعمل الليل والنهار في سبيل اعالة حبيبي . أما الآن ، فلن تخدعني أيَّة نظرة ، ولن يغرّر بي أي وعد . وارغب في ان تكون حياتي سلسلة طويلة من الأفراح والملذات .

فصرخ رفائيل قائلاً :

ـ أولَيْسَت النفس هي مصدر السعادة ؟

ـ أليس شيئاً ان نرى انفسنا نثير الاعجاب ، وان ننتصر على جميع النساء ، حتى على أكثرهن فضيلة ، وأن نحطمهن بجمالنا وثرائنا ؟ اننا نحيا في يوم واحد ما تحياه المرأة البورجوازية في عشرة أعوام . ألا ترى ان المشكلة قد حُلت على أكمل وجه ؟

فخاطب رفائيل إميل قائلاً :

ـ اليست مكروهةً المرأة التي لا تتحلى بالفضيلة ؟

فرمتهما « افرازي » بنظرة ، أين منها نظرة الأفعى ، وأجابت بسخرية لا تحاكى :

- اننا ندع الفضيلة للنساء القبيحات والمحدودبات الظهور . ترى ، ماذا تكون حال هؤلاء النساء المسكينات لولا الفضيلة ؟

فصرخ إميل :

- اسكتي ! لا تتكلمي عن شيء لا تعرفينه .

فأكملت « افرازي » قائلة :

آه ! أتقول انني لا اعرف ما هي الفضيلة ؟ . . . هذه هي الفضائل التي تأمرون بها المرأة : ان تهب نفسها طوال حياتها إلى كائن محتقر ، وأن تربي وتعني بأطفال لا يلبثون ان يتركوها وأن تقول لهم شكراً عندما يطعنونها في الصميم . ولكي تكافئوها على تضحيتها ، تفرضون عليها آلاماً كثيرة وانتم تحاولون اغراءها . واذا قاومتكم فانكم تضعونها في مأزق . . . تباً لها من حياة ! الأفضل ان أبقى حرة وأحب من أشاء وأموت شابة !

- ألا تخافين ان تدفعي يوماً ثمن كل هذا ؟

فأجابت :

- ستكون حياتي مقسومة قسمين عوضاً عن ان أمزج ملذاتي بالآلام : شباب فرح بكل تأكيد ، وشيخوخة لست متأكدة منها ، سأتعذب فيها ما طاب لي العذاب .

وقالت اكيلينا بصوت عميق :

- انها لم تحب ، ولم تقطع الف ميل لتلتهم بألف لذة نظرةً ورفضاً . ولم تعلّق حياتها في شعرة ، ولم تجرب ان تحكم الخنجر في رقاب الكثيرين من الرجال لتحفظ مليكها أو سيدها أو

إلهها . كان الحب بالنسبة اليها كولونيلاً جميلاً .

فأجابت افرازي :

ـ آه ! آه ! « لاروشال . . . » . الحب كالهواء لا نعرف من أية ناحية يأتينا . ومع ذلك ، ولو وقعت في غرام حيوان لكرهت الرجال الأذكياء .

وقالت اكيلينا بلهجة تزخر بالسخرية :

ـ القانون يمنعنا من عشق الحيوانات .

فردت افرازي ضاحكة :

ـ ظننتك أكثر رفقاً بالعسكريين .

وقال إميل :

ـ ما اسعدهما في فقدهما الرشد هكذا !

فعلت شفتي اكيلينا ابتسامة تنم عن الشفقة والخوف ، ورمت الشابين بنظرة صاعقة وقالت :

ـ تجهلان ما معنى ان يكون محكوماً على المرء بالسرور وفي قلبه مأتم دائم .

●

النظر الى القاعات في هذه اللحظة ، كان يعني رؤية قاعات شياطين « ملتون » . فلهيب الكوكتيل الأزرق يلوّن وجوه الذين ما زالوا يستطيعون الشرب بلونٍ جهنمي . والرقص الجنوني الذي تزيد في احتدامه حماسة وحشية . يبعث على الضحك ، ويفجر الصراخ . والقاعات تغصّ بالموتى

والمحتضرين ، فتظن انك أمام ساحةٍ جرت عليها معركة دامية .
وكان الجو دافئاً من الخمر ، والملذات ، والاحاديث . والسكر ، والحب ، والانسياق وراء الشهوات ، ونسيان العالم ، كل هذا ، كان في القلوب وعلى الوجوه ، ومخطوطاً على السجاد ومعلناً عنه بعدم الترتيب والنظام ، فيرخي على العيون غشاء رقيقاً ، يجعلها ترى في الفضاء أبخرة فاتنة مسكرة .

واستولى التأثر على رفائيل ، وتراقصت أمام ناظريه هذه الأشكال المتنوعة كما تتراقص ذرات الغبار في ثنايا خيوط اشعة الشمس التي ترسلها من احد السقوف .

وبرغم ان الصديقين كانا لا يزالان يحتفظان بنوع من الصفاء الذهني الخادع والتوازن الجسدي ، هذا الصفاء الذي لم يكن سوى ارتعاشةأخيرة قبل السكر وصورة ناقصةٍ للحياة ؛ فانه كان عسيراً عليهما ان ينسبا الى الحقيقة أو الى الخيال هذه الصور الفائقة الطبيعة التي كانت تتراقص أمام أعينهما المتعبة . ان فضاء أوهامنا الخانق ، والعذوبة التي تتخذها الوجوه في أحلامنا ، وخصوصاً لا ادري أية رشاقة مكبّلة بالسلاسل ، والأسباب التي تكحل عيوننا بالكرى ، كل هذا أحاط بالشابين فجعلهما يظنّان هذا الصراخ لا يطرق الآذان .

وفي هذه اللحظة تمكن رئيس الخدم بعد جهدٍ جهيد من استدراجٍ صاحب الدعوة الى قاعة مجاورة لقاعة الرقص وهمس في اذنه قائلاً :

- سيدي ، الجيران جميعهم يطلون من النوافذ ويتذمّرون

من الضجيج .

فصاح تاليفير :

ـ اذا كان الضجيج يخيفهم فما عليهم إلاّ ان يكدسوا القش أمام أبوابهم .

وبغتة صدرت عن رفائيل قهقهة أحدثت ضجة قوية فالتفت اليه إميل مستفهماً عمّا سبّب له هذا السرور الوحشي .

فقال رفائيل :

ـ ربما يصعب عليك فهمي . ويجب ان أعترف أولاً أنكم منعتموني من الانتحار في اللحظة التي كنت أود القاء نفسي في نهر السين ؛ ولا أخالك إلا راغباً في معرفة الأسباب التي كانت تدفعني الى الموت . لكن هل ستفهم شيئاً إذا قلت لك ان خرائب العالم الأكثر شاعرية كانت قد أجملت في عيني قبيل ذلك ، وان بقايا الكنوز المقلية التي بدّدناها بالقرب من الطاولة تؤدي الى هاتين المرأتين اللتين هما صورة حيّة للجنون ؟ وان عدم اكتراثنا العميق بالناس والأشياء كان وسيلة توضح لنا الوجوه البارزة الألوان لنظريتي الوجود ، اللتين هما على طرفي نقيض ؟ ولو لم تكن ثملاً لكنت ترى في ما اقول درساً فلسفياً .

فأجاب إميل الذي كان يداعب شعر افرازي وهو ذاهل عمّا يفعل :

ـ لو لم تكن غارقاً حتى اذنيك في هذه المرأة ، في اكيلينا المغرية ، التي يشبه غطيطها زئير عاصفة تهدد بالانفجار لاعتراك الخجل من سكرك وثرثرتك . ان نظريتيك يمكن ان تحصرا

يجملة واحدة وان تختصرا في فكرة واحدة . الحياة البسيطة الميكانيكية تؤدي بنا الى حكمة حمقاء وهي تخنق ذكاءنا بالعمل . بينما الحياة التي نقضيها في فراغ الأفكار الغامضة أو في لجج العالم الأخلاقي تقودنا الى حكمة جنونية . وقصارى الكلام : خنق الشعور لكي نعيش طويلاً ، أو الموت في ريعان الشباب إذا رضينا باستشهاد أهوائنا . هذا هو حكمنا . وهذا هو الحكم الذي لا يزال يناضل ضد طبائعنا التي وهبنا إياها ذلك الكائن الظريف الذي خلق ابانا الأول و . . .

فصرخ رفائيل مقاطعاً :

- ايها الأبله ! اذا بقيت تختصر أفكارك هكذا . فستملأ مجلدات . ولو كان لي الرغبة في التعبير بوضوح عن هاتين الفكرتين ، لكنت قلت لك ان الانسان يفسد بتمارين العقل ، ويتطهر بالجهل . نحن نحكم على المجتمع . فاذا عشنا مع العقلاء أو هلكنا مع الأغنياء ، ألا يقود ذلك ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى نتيجة واحدة ؟ ألم يعبر لنا الذي يستخرج جواهر الأشياء ، ويحاول التعمق فيها وسبر غورها ، عن هاتين النظريتين بكلمتين اثنتين :

Carymary كاريماري ، **Carymara** كاريمارا [١] .

فقال إميل :

- انك تجعلني اشك في قدرة الله ، فانت احمق بقدر ما هو

---

(١) احدى شتائم الباريسيين الأقدمين .

عظيم . ان عزيزنا « رابليه » وجد حلا لهذه الفلسفة بكلمة اوجز من Carymary ، Carymara هي كلمة « ربما » ومنها استمد « مونتينه » سؤاله : «ما يدريني ؟ » وان هاتين الكلمتين الأخيرتين من العلوم الاخلاقية ليستا إلّا هتاف « بيرون » (Pyrrhon) الذي بقي يتيه بين الخير والشر كحمار « بيربدان » ، بين كومتين من الشعير . لندع هذه المناقشات التي لا نهاية لها والتي تؤدي إلى « نعم » أو « كلا » . . . فما هو الاختبار الذي كنت تحلم به بالقاء نفسك في نهر السين ؟ هل حسدت آلة الضغط المائي التي يرتكز عليها جسر نوتردام ؟

- آه ! لو كنت تعرف شيئاً عن حياتي !

فقال اميل :

- لم اكن أتصورك هكذا مبتذلاً . ان كلامك مبريّ وموطوء . ألا تدري أننا جميعاً نجسم آلامنا ونحبّ الادعاء بأننا نتعذب أكثر مما يتعذب الآخرون ؟

فرد رفائيل :

- آه !

- ولكنك مضحك بصراخك آه . هل بك داء جسدي أو نفسي يجبرك كل صباح على استرجاع الجياد التي ستمزق جسدك في المساء، كما فعلت تلك الجياد «بداميان»؟ هل أكلت لحم كلبك نيئاً في كوخك بلا ملح؟ هل اشتكى أطفالك من الجوع؟ هل بعت شعر عشيقتك لتقامر؟ هل خدعت الناس بتزويرك سنداً أزعمت انّ عمك الوهميّ وهبك اياه لتدفعه الى أشخاص وهميين ؟ قل لي

اني أصغي . واني أنكرك كصديق إذا جربت ان تقنعني بأن محاولتك الانتحار كانت في سبيل امرأة ، أو بسبب تزوير سندات ، أو فراراً من الضجر . اعترف بما اقترفت ولا تكذب . فاني لا اطلب منك ايضاحات تاريخية ، وجرب ان تختصر حديثك بقدر ما يسمح سكرك . فاني لجوج مثل قارىء ، وعلى وشك النوم كامرأة تقرأ صلاة العصر .

فقال رفائيل :

ـ أيها الأبله المسكين ! من يستطيع ان يفصل الألم عن الاحساس ؟ عندما نتوصل إلى مرحلة من العلوم تسمح لنا بدراسة القلوب درساً علمياً وتسميتها وتصنيفها الى فروع أولية وفروع ثانوية ، وإلى عائلات، إلى قلوب تنتمي الى فصيلة الأسماك أو الأصداف أو الزحافات ، إلى ذرات أو إلى . . . عندئذ نكون أظهَرنا ان القلوب تقسم أقساماً عدة : فهناك القلوب الرقيقة وهناك القلوب الحساسة ، التي يؤثر فيها أدنى شيء ، كما تتأثر الزهور عندما يداعبها لمس خفيف . هذا اللمس الذي لا تحسه بعض القلوب المعدنية .

فقال إميل بلهجةٍ يمتزج فيها الهزء بالشفقة ، وهو يأخذ يد رفائيل بيده :

ـ الرحمة ، أعفني من مقدمتك .

II

امرأة بلا قلب

صمت رفائيل لحظة ثم صدرت عنه حركة تنمّ عن عدم اكتراث ، وقال :

ـ لا اعرف ، حقاً ، اذا كان يجب أن أنسب الى بخار النبيذ والكوكتيل هذا النوع من الصفاء الفكري الذي يسمح لي هذه اللحظة برؤ ية جميع دقائق حياتي كأني أرى رسماً تبدو فيه الوجوه والألوان والظلال جلية تامة الوضوح . ولم تكن لعبة خيالي الشعرية هذه لتدهشني ، لو لم تكن مصحوبة بنوع من الاحتقار لجميع آلامي وأفراحي الماضية . أما الآن فاذا انفصلت عن ذاتي ، ونظرت الى حياتي من بعيد ، فأراها كأنها محصورة ضمن نطاق حادث حسّي أخلاقي . وهذا الألم الطويل المرهق الذي استمر عشر سنين يمكن التعبير عنه الآن ، بكلمات قليلة ، فيتحوّل الألم إلى فكرة ، واللذة إلى بحث فلسفي . فاحكم عوضاً عن أن أحس .

فصاح اميل :

ـ انك مزعج .

فأجاب رفائيل دون ان يتأفف :

ـ ممكن . ولكي لا أثقل كثيراً على مسامعك ، فاني أعفيك من الكلام عن الفترة الأولى من حياتي . فقد بقيت حتى السابعة عشرة من عمري ، مثلك ومثل ألوف غيرنا ، أحيا حياة مدرسية تؤلف آلامها الوهمية وملذاتها الحقيقية عذوبة ذكرياتنا ؛ هذه الذكريات التي غالباً ما نسترجعها ونحاول إيقاظها ما دمنا لا نملك غيرها : حياة جميلة كانت أعمالها تبدو لنا محتقرة بينما هي التي علمتنا العمل .

فقال اميل ، بلهجة نصفها ساخر ونصفها الآخر متألم :

ـ أوصلنا الى المأساة !

فأكمل رفائيل قائلاً :

ـ تركت المدرسة وأنا أعلن رغبتي في اتمام دروسي ، فأخضعني والدي لطاعة عمياء ، وأسكنني في غرفة تلاصق غرفته . فاعتدت ان آوي إلى فراشي في الساعة التاسعة مساء ، وان أنهض في الخامسة صباحاً . وكان والدي يريدني ان أنهي دراسة الحقوق . وكنت اذهب الى بعض دور العلم وإلى زيارة بعض المحامين . لكنّ قوانين الزمان والمكان كانت تطبق بقساوة على خطواتي وأعمالي ، وكان والدي يسألني حساباً دقيقاً عن . . .

فقاطعه اميل قائلاً :

ـ وماذا يهمني كل هذا ؟

فأجاب رفائيل :

ـ ليذهب بك الشيطان ! كيف تستطيع ادراك عواطفي ان لم أخبرك بالحوادث التي أثرت على نفسي ، فدربتها على الخوف ، وتركتني طويلاً ساذجاً كما يكون الشاب البدائي ؟

وهكذا ، فقد بقيت حتى الحادية والعشرين من عمري أرزح تحت نير ظلم بارد . ولكي اكشف لك اسباب أحزاني ، اظن يكفيني ان أصف لك والدي . كان رجلاً طويلاً نحيلاً ، وجهه كحد الموسى ، شاحب اللون ، قليل الكلام ، لجوج كعانس ، مبالغ في التدقيق كرئيس دائرة . وكانت أبوّته تحلق فوق شيطنتي الصبيانية وأفكاري المرحة ، كأنها تسجنها في قبة من الرصاص . واذا رغبت في ان أعبّر له عن عاطفة رقيقة عذبة فانه كان يستقبلني كما يستقبل طفل يوشك ان يتفوه بالحماقات ، وأظنني أراه الآن أمام ناظري ، بثوبه الكستنائي ، منتصباً كشمعة عيد الفصح . كان كثير الشبه بسمكة مجفّفة مغلّفة بكتاب هجائي أحمر .

لكنني كنت أحب والدي . فانه كان في أعماقه عادلاً . ولعلّنا لا نكره القسوة عندما تبررها الأخلاق القويمة ، والعادات السليمة ، وعندما تكون ممزوجة،بلباقة ، بالطيبة والعطف . واذا كان والدي لم يتركني حراً ، ولم يترك لي قبل أن أبلغ العشرين من عمري عشرة فرنكات ، أو عشرة قروش ، أو عشرة سنتيمات أتصرف بها (هذا المبلغ الضئيل الذي كنت أحسبه كنزاً كبيراً ، والذي كان الحصول عليه مستحيلاً ، والذي كان يعللني بلذاذات تفوق الوصف ؛) فانه على الأقل لم يكن يحرمني

بعض المسرّات . وبعدما بقي شهوراً كاملة يعدني بأشياء وأشياء تسرني ، قادني أخيراً الى حفلةموسيقية ، ثم الى مرقص ، حيث كنت آمل ان ألتقي بعشيقة . فلقد كانت العشيقة بالنسبة اليّ تعني الاستقلال . ولكني كنت خجولاً وجلاً أجهل تقاليد الصالونات ، ولا تربطني الصلة بأحد ، فأعود دائماً بقلب بكر يزخر بالآمال والرغبات . وفي صباح اليوم التالي كان والدي يلجمني كما يُلجم الجوادِ في احدى فرق الخيالة ، ثم أذهب إلى مكتب المحامي أو إلى كلية الحقوق ، أوإلى قصر العدل .

اي انحراف عن الطريق الذي خطه لي والدي ، كان يعني التعرض لسورة غضبه . فقد هددني بأن يجعل مني نوتياً ـ عند أول هفوة تصدر عني ـ على مركب مبحرٍ إلى جزر « الانتيل » . وان رجفة مخيفة كانت تعروني عندما تدفعني الصدف ساعة أو ساعتين إلى احدى المغامرات .

تمثّل في خاطرك خيالاً كثير الخصب ، وقلباً يفيض بالحب ، وفكراً يغصّ بالشعر ونفساً تذوب رقة ، في صراع صامت دائم مع رجل سوداوي المزاج شديد القسوة . وأخيراً ، زوّج شابة ريانة من هيكل عظمي فتفهم الواقع الذي لا بد من اعلان فصوله الفضولية : مشاريع للهرب كانت تتلاشى عند رؤية والدي ، ويأس يخفف النوم من حدته ، ورغبات مكبوتة وأحلام حزينة تبددها الموسيقى . وكثيراً ما كنت أصعّد تعاستي زفرات . وغالباً ما كنت ألجأ الى بتهوفن وموزارت . أما اليوم فأبتسم وأنا أتذكر تلك المشاريع الخيالية التي كانت تقلق وجداني في تلك

الفترة من عمري ، فترة الطهارة والفضيلة .

كان خيالي يصوّر لي المقهى مكاناً للدعارة والفجور حيث يخسر الرجال شرفهم ومالهم . وكان لا بد أن أملك بعض المال لكي أقوى على المخاطرة به . آه !. وان كنت ستنام من جراء ذلك ، فسأخبرك بلذةٍ من لذائذ حياتي ، لذة مسلّحة بأنياب حادة تغرز في قلوبنا ، كقطعة حديد محماة على كتف أحد المجرمين .

حضرت الحفلة الراقصة التي أقامها دوق نافاران قريب والدي . ولكي تقوى على فهم موقفي تماماً ، عليّ ان أسرّ اليك ان ثوبي كان رثاً وحذائي قديماً ، وربطة عنقي تشبه ربطة عنق الحوذي ، وقفازي كان مستعملاً قديماً . فجلست في إحدى الزوايا لاتمكن من تناول المرطبات ومراقبة النساء الجميلات . ولاحظني والدي في هذه الخلوة فتقدم مني وعهد اليّ بكيس نقوده ومفاتيحه لأحتفظ بها . ولا اكتمك انني ما زلت أجهل السبب الذي دفعه الى الثقة بي . . . وعلى بعد عشر خطوات مني كان الرجال يقامرون . كنت في العشرين من عمري ، أتمنى لو يتاح لي أن أقضي نهاراً كاملاً غائصاً حتى أذني في الجرائم الخاصة بسني . وان ذلك لتهتك فكري لا تجد له مثيلاً في أشواق المومسات ولا في أحلام العذارى . منذ سنة تقريباً وانا أحلم بأن أجلس في عربة وبقربي امرأة ، أتناول الطعام عند « فاري »[1] على غرار الأسياد ، وأذهب في المساء إلى الأوبرا ، ولا اعود إلى

---

(١) احد اشهر مطاعم باريس ذلك الحين .

والدي إلا في صباح اليوم التالي . وظننت ان خمسين قطعة ذهبية تكفي لامتاع نفسي بهذا السرور الذي طالما حننت اليه . ويا للظن الساذج !

انزويت اذن في احدى الخلوات وعددت القطع الذهبية وأناملي ترتجف وعيناي تلتهبان . كانت مئة قطعة ذهبية . ودغدغ حواسي هذا المبلغ ، وبدت ملذات تمردي واهمالي واجباتي تتراقص أمام ناظري كما تتراقص ساحرات « مكبث » حول المرجل ، ولكنها ملذات مغرية ، مرتعشة ، عذبة . وتحولت الى لص . ودون أن أصغي إلى طنين أذنيّ ، وإلى خفقات قلبي المتتابعة ، أخذت قطعتين من فئة العشرة فرنكات لا ازال أراهما الآن أمام عيني . لقد كان تاريخ سكّهما ممحواً وصورة نابليون تبرز عليهما واضحة جلية . ثم وضعت كيس النقود في جيبي وتقدمت من المائدة الخضراء وأنا أطبق أناملي المبللة بالعرق على القطعتين الذهبيتين ، وأخذت أدور حول اللاعبين ، كذبابة فوق خمّ الدجاج .

وفجأة ، القيت نظرة شفّافة على ما يحيط بي وأنا فريسة لغصص يعجز اللسان عن وصفها . ولكي لا يراني أحد من معارفي وضعت المبلغ مع شيخ قصير القامة منتفخ البطن، يبدو متهللاً ، وكوّمت فوق رأسه صلوات ونذوراً تفوق الصلوات والنذور التي تنطلق من الأفواه في البحر ،إبّان ثلاث عواصف . ثم دفعتني غريزة المخاتلة أو الاجرام إلى الوقوف عند الباب ، ورحت أجيل نظري بين القاعات ولكني لم أر شيئاً . كانت

نفسي تهيم فوق المائدة الخضراء المشؤومة . وفي هذه الليلة بالذات ، ولـدت فيّ أولى ملاحـظاتي التي وهبتني نوعـاً من الاستشفاف يخولني التقاط بعض اسرار طبيعتنا المزدوجة . ثم أدرت ظهري الى الطاولة حيث كانت تختصم سعادتي المقبلة ، سعادة تزداد عمقاً بنسبة ما تزداد إجراماً . وكان يفصلني عن اللاعبين حاجز قوامه خمسة صفوف من المتحدثين وضجيـج الأصوات يمنع من تمييز صوت الذهب الذي يختلط بصخب الموسيقى .

برغم كل هذه الحواجز تمكنت من سماع كلمات اللاعبين وحدست أهدافهما . وعرفت أيهما من الاثنين سيكون الرابح ، كأنني أرى الأوراق بعيني . وأخيراً ، وعلى بعد عشر خطوات من المائدة الخضراء ، كانت الأهواء تتصادم في قلبي ، فـاكتسى وجهي بشحوب مقيت . وفجأة مرّ والدي من أمامي ففهمت عندئذٍ معنى آية الكتاب المقدس القائلة : « لقد مرّ روح الله من أمام وجهه » وكنت قد ربحت .

وخلال العاصفة التي أثارها الرجال وهم يتدافعون حول اللاعبين ، أسرعت نحو الطاولة ، وأنا أنزلق برشاقة سمكة تنطلق من عقدة شبكة تمزقت ، وتحول انفعالي المؤلم إلى سرور لا يوصف . كنت كالمجرم الذي يصادف الملك وهو في طريقه إلى ساحة الاعدام . وحدث أن طـالب رجل تـزيّن صدره الأوسمة ، بأربعين فرنكاً كانت تنقص المبلغ ، فغمرتني نظرات المتهمين ، فشحب لوني ولمعت قطرات العرق على وجهي .

وخيل لي أن الجريمة التي اقترفتها بحق أبي قد وجدت من ينتقم لها . ولكن الرجل القصير السمين الطيب ما لبث أن قال بصوت حسبته ملائكياً :

ـ إن هؤلاء السادة قد دفعوا جميعهم .

ثم دفع الأربعين فرنكاً .

رفعت عندئذ جبيني ورميت اللاعبين بنظرات المنتصر . ثم أعدت إلى كيس والدي الدراهم التي كنت قد أخذتها منه ، وتركت ربحي مع هذا الشيخ الوقور الشريف الذي استمر يربح . وعندما أصبحت أملك مئة وستين فرنكاً ، أخذت المبلغ ووضعته في منديل ، بطريقة لا تسمح لهذه القطع الذهبية بالتحرك واسماع أي صوت ونحن في طريق العودة إلى منزلنا ، ثم انقطعت عن اللعب .

قال لي والدي ، ونحن نركب العربة :

ـ ماذا كنت تصنع بالقرب من طاولة اللعب ؟

فأجبته وانا أرتجف :

ـ كنت اراقب اللاعبين .

فقال أبي :

ـ ما كان ليكون مستغرباً ان يدفعك حب الذات الى وضع بعض النقود على الطاولة الخضراء ، فإنك تبدو كبيراً بالنسبة الى الناس ويحق لك ارتكاب الحماقات . ولكنتُ عذرتك يا رفائيل لو تصرفت بنقودي .

فلم أحر أي جواب . وفي طريق العودة اعدت إلى والدي

كيس نقوده ومفاتيحه . وعندما دخل إلى غرفته افرغ الكيس على المدفأة ، وعدّ الذهب ثم استدار نحوي وقال بلهجة عذبة وهو يتمهل في حديثه ، لتتسم كلماته بالمعنى الذي يريد :

ـ يا بني . لقد بلغت العشرين من عمرك . وأنا مسرور منك . وأصبحت بحاجة إلى راتب يدربك على الاقتصاد ويعرفك إلى شؤون الحياة . وسأبدأ من هذا المساء باعطائك مئة فرنك شهرياً . يحق لك التصرف بها كما يحلو لك .

وأضاف وهو يتحسس بأنامله احدى القطع الذهبية كأنه يتأكد من صحة المبلغ :

ـ خذ يا ولدي . هذا ما تستحقه عن ثلاثة أشهر .

واعترف الآن انني كدت ارتمي على قدمي والدي لأعلن له انني كنت لصاً ، متهتكاً ، وأسوأ من هذا أيضاً : كنت كاذباً . ولكن الخجل منعني فارتميت على صدره لأعانقه ، فأبعدني عنه بضعف وهو يقول :

ـ انك الآن رجل ، يا ولدي . وان ما اقدمه لك هو شيء بسيط وعادل يجب ألاّ تشكرني عليه .

ثم أضاف بصوت لين عذب يطفح بالوقار :

ـ وان كان لي حق بشكرك وعرفانك ، فليكن ذلك لأنني حفظت لك شبابك من الآلام التي تفتك بجميع الشباب في باريس . فمن الآن وصاعداً ، سنصبح صديقين . بعد سنة نغدو دكتوراً في الحقوق . ولقد اكتسبت ـ بانصرافك عن اللذات وبمقاساتك الحرمان ـ معلوماتك القيمة وحب العمل اللازم

للرجال المدعوين للقيام بجلائل الأعمال . تعلم يا ولدي ان تعرفني . انني لا اريد أن أجعل منك محامياً بل رجل دولة يغدو مفخرة بيتنا المسكين .

ثم أضاف ، وهو يصرفني بحركة عجيبة من يده :

ـ الى الغد !

منذ ذلك اليوم أصبح والدي يطلعني صراحةً على كل مشاريعه . لقد كنت ولده الوحيد وكانت أمي قد قضت نحبها لعشر سنين خلت . وكان أبي كبير بيت تاريخي قديم ، عفا عليه النسيان في « اوفرنيه » ، جاء إلى باريس لكي يناضل من اجل العيش ، تزيّنه تلك اللباقة التي تجعل رجال أواسط فرنسا يتفوقون على غيرهم ، عندما تكون مصحوبة بالحماسة والقوة . وتوصل دون مساعدة تذكر إلى احتلال مكان مرموق في قلب السلطة . ولكن الثورة سلبت ثروته بعد حين فعرف كيف يقترن بوارثة بيت كبير . وشوهد في عهد الامبراطورية يسعى ليعيد إلى عائلاتنا عظمتها القديمة . ولكن عودة الملكية التي أرجعت إلى أمي ثروات طائلة سببت خراب أبي . اذ إنه كان قد اشترى في ما مضى اراضي شاسعة خارج فرنسا ، كان الامبراطور قد أقطعها لقواده . وكانت قد مرت عشر سنين وأبي لا يزال يبذل جهوداً جبارة لدى السياسيين والمحاكم البروسية ، ليتمكن من الاحتفاظ بملكيته المطعون فيها لهذه الأراضي .

ورماني والدي في تيه هذه الدعوى الغامضة التي يتوقف عليها مستقبلي . وكان من الممكن ان يحكم علينا بدفع عائدات

الأراضي ، وقد نغرّم بثمن الأخشاب التي قطعت بين سنتي ١٨١٤ و١٨١٧ وفي هذه الحالة قد لا تكفي ثروة أمي لانقاذ شرفي واسمي .

وهكذا وقعت تحت أثقال نيرٍ بغيضٍ ممقوت في اليوم الذي سمح لي والدي بالتصرف بأملاكه . وأصبحت مجبراً على خوض المعركة ، والعمل ليل نهار ، والاتصال بكثير من رجال الدولة ، واعتناق مبادئهم لأجعلهم يهتمون بقضيتنا ، محاولاً اغراءهم واكتساب عطفهم وثقة نسائهم وخدمهم وكلابهم ، مخفياً كل ذلك وراء ستار من الكلمات المنمقة المختارة والمداعبات الظريفة المتنوّعة . فقدرت عندئذٍ قيمة الآلام التي أذبلت وجه والدي . وبقيت سنة تقريباً أحيا في الظاهر حياة رجل يلهو. ولكن طيشي ومبادرتي إلى توطيد علاقاتي مع اقارب لهم نفوذهم ، أو مع اشخاص يقوون على تقديم المساعدة لنا ، كانا يخفيان أعمالاً جليلة . لقد كان لهوي دفاعاً وأحاديثي بيانات .

بقيت إلى هذا الوقت محتفظاً بطهارتي لأنه لم يكن في امكاني اشباع شهواتي ورغباتي . وكنت أخشى أن يؤدي الاهمال والانصراف الى اللذات إلى خرابي وخراب والدي . فأخذت نفسي بالعنف ولم اسمح لها بالاندفاع وراء اية لذة ولم أبذر سنتيماً واحداً . . . حين نكون في ريعان الشباب ولم يقتطف الناس بعد زهرة عواطفنا الضعيفة ، وطهارة وجداننا النبيلة ، اللتين لا يسمحان لنا مطلقاً بالاندفاع وراء الشر ، نشعر بثقل ما القي على كواهلنا من واجبات ، ويتكلم شرفنا عالياً ويجبرنا على

الاصغاء إلى أحاديثه . هكذا كنت الى ذلك الوقت . فقد اردت ان أحقق ثقة أبي بي . . . لقد سلبته في ما مضى مبلغاً ضئيلاً ، لكنني عندما شاركته في حمل متاعه وأعماله ، واسمه واسم بيته ، وهبته بطريقة خفية معارفي وآمالي كما ضحيت في سبيله بملذاتي ، ولقد كنت سعيداً جداً حتى بتضحياتي .

وبدا كأن كل شيء يتآمر ضدنا فقضى أبي نحبه ونبش السيد « فيلال » ، من زوايا النسيان ، المرسوم الملكي الذي يحدد مواعيد دفع الديون ، وأعلنه رسمياً . فخسرنا كل شيء ووقّعت على عقود بيع املاكي ، ولم يبقَ لي سوى أرض لا قيمة لها في منطقة « اللوار » تضم بين جنباتها قبر أمي . ومن يدري ؟ فلو كنت قد تعرضت اليوم إلى هذه الدعوى ، لكان بامكان الحجج والحيل والمناقشات الفلسفية والسياسية التي اصبحت اتقنها اتقاناً تاماً ان تحول بيني وبين الاتيان بعمل يسميه صديقي المحامي « حماقة » . ولكن عندما نكون في العشرين من عمرنا ـ أكرر هذا أيضاً ـ عندما نكون في العشرين من عمرنا ، فاننا نتقد حماسة ، ونفيض حباً ونتفجر سخاء . والدموع التي رأيتها في عيني والدي كانت لي أعظم الثروات ، وذكرى هذه الدموع طالما عزتني في آلامي وشقائي .

ان ابي يعبدني ، ومع هذا فهو الذي تسبب في خرابي : هذه الفكرة استحوذت عليه وقتلته . وقد فاضت أنفاسه بعدما دفع ديونه بعشرة أشهر . وفي خريف ١٨٢٦ ، وأنا في الثانية والعشرين من عمري ، شيّعت وحدي جثمان صديقي الأول ،

جثمان والدي . . . .

قلائل هم الشباب الذين وجدوا أنفسهم مع أفكارهم ، وراء عربة الموتى ، مغمورين في باريس ، دون مستقبل ولا ثروة . ان مستقبل الايتام الذين تتلقفهم الجمعيات الخيرية في ساحة الحرب ، ووالدهم الحكومة ووصيهم الملك ، وملجأهم دور الضيافة . أما أنا فلم أكن أملك شيئاً . وبعد ثلاثة اشهر قدم لي وكيلي مئة واثني عشر فرنكاً ارثي الصافي من ثروة أبي . وأجبرني الدائنون على بيع مقتنيات بيتي . ولما كنت معتاداً الحياة بين هذه القطع من الأثاث البديعة ، لم أقوَ على منع نفسي من الاندهاش لدى رؤيتي تصفية هذا الحساب الزهيد .

فقال لي مندوب المحكمة :

ـ لا تيأس . ان هذه القطع من الأثاث قد بطلت عادة استعمالها .

فبلبلني كلامه وسلبني جميع اعتقادات طفولتي ، وعرّاني من أوهامي الأولى التي هي أحبّ وأعزّ من جميع الأوهام . وأصبحت ثروتي تختصر في صك البيع ، ومستقبلي يكمن في كيس حريري يحتوي على مئة واثنتي عشر فرنكاً . وبدا لي المجتمع في شخص حوذي يكلمني وقبعته على رأسه ، وفي شخص خادم يحبني كانت أمي قد أورثته دخلاً سنوياً يربو على اربعمئة فرنك .

وقال لي جوناتاس الخادم الأمين وهو يترك البيت ، جوناتاس الذي طالما خرجت بصحبته في عربة ايام طفولتي :

ـ كن مقتصداً ، يا رفائيل .
وبكى الرجل الطيب .
وتابع رفائيل حديثه قائلاً بعد فترة من الصمت :
ـ هذه هي يا عزيزي إميل الحوادث التي سيطرت على حياتي وبدّلت من نفسي ، ووضعتني وأنا لا ازال في ريعان الشباب في اشد المنزلات الاجتماعية كذباً وزيفاً . كانت صلات عائلية ضعيفة تربطني ببعض الأسر الثرية ، ولكن عزة نفسي كانت ستمنعني من الاندماج بها لو لم يسبقها الى اغلاق الأبواب في وجهي ، كل من الاحتقار واللامبالاة . ورغم كوني أنتمي الى اسرة تتمتع بنفوذ كبير ، لا يبخل افرادها ببسط حمايتهم على الغرباء ، فاني لم أكن اشعر بوجود من يرعى شؤوني أو من أحس بأنه قريبي . وانكمشت نفسي على ذاتها اذ لم يتح لها ان تحقق مآربها . واعتقد ان الناس كانوا ينظرون إليّ نظرتهم الى خبيث جبان يفضّل الابتعاد عنهم ، رغم ان قلبي كان يفور صراحة وطيبة . وكان استبداد أبي قد أزال كل ثقة لي بنفسي . وكنت حيًّا متردداً . ولم أكن اعتقد ان لنبرات صوتي أي تأثير ، فاستخففت بنفسي ، ورأيتني سمجاً قبيحاً وصرت أخجل بنظراتي .

وبرغم الصوت الداخلي الذي يعتمد عليه الموهوبون في كفاحهم ، والذي كان يحثني قائلاً : « تشجع . . . الى الأمام » وبرغم اعتقادي بقوتي وتفوقي عندما اخلو إلى نفسي ، وبرغم الآمال التي تجيش في صدري وتلهبني وانا أقابل بين المؤلفات

الجديدة التي تنتزع اعجاب الجمهور والمؤلفات التي كان في امكاني ان انتجها ، برغم كل ذلك كنت أشك في نفسي كالأطفال. وكنت فريسة لطموح هائل أراني مدعواً إلى القيام بجلائل الأعمال ، ولكني لم أعمل شيئاً . كنت بحاجة إلى من يشجعني ، ولم يكن لي صديق . وكان علي ان اشق طريقي الى العالم ، ولكنني بقيت وحيداً خجولاً أكثر مني خائفاً .

وظهرت في المجتمع ، في السنة التي القى أبي خلالها بي في تياره الجارف ، بقلب بكر ونفس بريئة . وكغيري من الأولاد الكبار كنت في سري أتوق الى غراميات عذبة . والتقيت بين من هم في عمري بفئة من الشباب المستهترين ، السفهاء ، الذين يسيرون مرتفعي الرؤوس ويجلسون دون اي ارتباك قرب النساء اللواتي يوحين الاحترام والوقار ، ويتفوهون بكلمات بذيئة وهم يعضون على أطراف عصيّهم ، ويتكلفون الأناقة في جلوسهم ووقوفهم ، وينظرون الى النساء نظرتهم إلى مومسات . ويدّعون انهم قضوا وطرهم من جميع النساء فلم تعد هنالك لذة تغريهم . ويزعمون انه يسهل عليهم نيل بغيتهم من أشد النساء فضيلة وأكثرهن عفّة ، بكلمة واحدة ، أو باشارة وقحة ، أو بنظرة مغرية .

وأؤكد لك بكل صراحة ان الوصول الى السلطة ، أو إلى شهرة أدبية واسعة ، كان اسهل عليّ من الفوز بامرأة شريفة المنبت ، ريانة الشباب ، عذبة الكلام ، رشيقة القامة .

وجدت اذن قلق قلبي ، وعواطفي ، ومعتقداتي ، تناقض

مبادىء المجتمع . وكنت اشعر برباطة جأش في نفسي ، ولكن
مظهري كان يدل على الجبن والخوف. وعرفت بعدئذ ان النساء
لا يردن ان يُظفر بهن بالتسوّل . ورأيت بينهن كثيرات شغفنني
حباً ، فوضعت بين أيديهن قلباً يقوى على احتمال التجارب ،
ونفساً ترضى بالتمزيق ، وعزماً لا تخيفه التضحيات والعذابات .
وكانت هؤلاء النساء ملكاً لأشخاص لا ارضى بهم حراساً
لداري . وكم من مرة تأملت ، صامتاً جامداً ، امرأة أحلامي
تتألق في حفلة راقصة ، فأسلم نفسي الى دغدغات لا نهاية لها ،
وأضع كل أملي ورجائي في نظرة منها ، وأقدم لها في ذهولي حب
شاب يندفع وراء الخداع دون ان يدري . واحياناً كنت على
استعداد لتقديم حياتي لقاء ليلة واحدة أقضيها إلى قربها . ولما
رأيتني عاجزاً عن ايجاد أذن تصغي إلى لهاثي ، ونظرات ترتاح
إلى نظراتي ، وقلب يخفق لقلبي ، أسلمت نفسي لقمة سائغة الى
جميع الآلام التي تسبّبها قوة عاجزة دفعتها الحاجة الى افتراس
نفسها بنفسها . وقد يكون مرد ذلك الى الشجاعة التي كانت
تنقصني أو إلى عدم سنوح الفرصة ، أو إلى قلة خبرتي . وقد
يكون ذلك لأنني كنت يائساً من مقدرتي على التعبير عما تختلج به
نفسي ، أو أنني كنت أخاف من ان يكتشف بعضهم نفسي على
حقيقتها . ورغم اني كنت اشعر بعاصفة توشك ان تنفجر في
صدري لدى كل نظرة رقيقة توجه اليّ ، ورغم سرعتي في فهم
معنى هذه النظرة ، أو هذه الكلمات التي كانت بمثابة تعاقد
عاطفي ، فلم أجرؤ قط على السكوت أو على الكلام كما يتطلب

الموقف . وكان حديثي ، بسبب اضطرابي ، يبدو مبتذلاً لا معنى له ، وسكوتي نوعاً من السخافة .

كنت ساذجاً جداً بالنسبة الى هذا المجتمع الزائف الذي يعيش في الأضواء ، والذي يعبر عن افكاره وآرائه بكلمات متفق عليها ،أو بكلمات تفرضها « التقاليد » . ولم أكن أحسن التعبير عن افكاري بالصمت ، ولا التفوه بكلمات مبتذلة لا طائل تحتها . وكنت اضم جوانحي على نيران تلتهمني ، وأملك نفساً شبيهة بتلك النفوس التي تتمنى النساء ان يقعن عليها ، وكنت فريسة لذلك اللهيب الذي تشغف به النساء ، ومتحلياً بالحيوية الدافقة التي يفخر بها الحمقى . ورغم هذا كله ، كان يؤلمني انصراف النساء عني انصرافاً لا رحمة فيه . ولذا كنت اعجب ، بسذاجة ، بابطال الغرام عندما يحتفلون بانتصاراتهم ، دون ان اتهمهم بالكذب . وكان خطئي الأكبر في رغبتي رؤية خضم العواطف الذي تتلاطم أمواجه في قلبي ، منعكساً في قلب هذه المرأة المتقلبةالظمأى إلى البهرجة والذهب ، السكرى من الكبرياء . أوه ! كم هو جميل ان يحس الانسان انه ولد للحب ، ان يكون سبب سعادة امرأة ! غير اني لم أجد امرأة واحدة ، حتى ولا مركيزة هرمة . كنت كمن يحمل كنوزاً ثمينة في جعبته ولا يجد فتاة يطرح كنوزه عند قدميها . وكثيراً ما فكرت في الانتحار هرباً من اليأس .

فصرخ إميل قائلاً : إنك متشائم هذا المساء .

فأجاب رفائيل :

ـ آه ! دعني اصدر الحكم بالموت على حياتي الماضية . فاذا كانت صداقتك لي لا تسمح لك بالاصغاء الى شكواي ، واذا كنت لا تقوى على بذل نصف ساعة تمضيها فريسة للضجر من احاديثي ، فنم . ولكن اياك ان تسألني بعد ذلك حساباً عن اسباب انتحاري الذي يعصف بي وينادي ، والذي اصغي الى ندائه . لكي تحكم على رجل يجب ان تسبر غور عواطفه ، وآلامه ، وشعوره . واذا كنت لا تود ان تعرف من حياته سوى الناحية المادية فذلك يعني الاهتمام بتأريخ الحوادث ، وهذا هو عمل الحمقى .

كانت اللهجة المرة التي عبر بها رفائيل عن اوجاعه صفعة قوية اجبرت اميل على اعارة انتباهه إلى صديقه ، وعلى التحديق فيه بذهول .

ثم استطرد رفائيل :

ـ النور الذي يلون هذه الحوادث يفرض عليها شكلاً جديداً . ومن يدري؟ فقد يكون تسلسل الحوادث التي كنت احسبها ملمّات جسام ، هو الحافز الذي ولد فيّ في السجايا النبيلة التي اصبحت مصدر اعتزازي وفخري . ان الانكباب على الفلسفة ، والمبالغة في العمل ، وحب القراءة ، كل هذا كان المحور الذي دارت عليه حياتي منذ السابعة من عمري حتى دخولي الى العالم . ألم يهبني كل هذا القوة التي تجعلني اعبر بسهولة عن افكاري والقدرة على السير الى الأمام في حقل المعارف الانسانية الشاسع؟ والعزلة التي كان محكوماً عليّ بها ،

وعادة كبت عواطفي ، ولجوئي الى قلبي والانزواء بأفكاري ، ألم يؤهلني كل ذلك أيضاً إلى قدرة التمييز والتأمل ؟ وبما انني لم أسلم نفسي إلى المغريات الاجتماعية والاخلاقية التي تدس السم في الدسم والتي تذل حتى اجمل النفوس وتجعلها رثة بالية ، ألم يتركز شعوري في نقطة واحدة ليغدو خادماً أميناً لارادة ترتفع فوق كل الأهواء ؟

والنساء اللواتي تجاهلنني ، راقبتهن بحصافة الحب المحتقر . أما الآن ، فأرى أن صدقي هو سبب بعدهن عني . ومن يدري ؟ فقد تكون المرأة راغبة في قليل من الخبث . وأنا الذي كان في وقت واحد ، طفلاً ورجلاً ، تافهاً ومفكراً ، ساخراً من الأوهام ومؤمناً بالخرافات ، وفي كثير من الأحيان امرأة مثلهن ، ألا يمكن ان يكنّ قد حسبن سذاجتي وقاحة ، وطهارة تفكيري نفسها خلاعة وفسقاً ؟ لقد كانت العلوم بالنسبة اليهنّ شيئاً مضجراً والتخنث ضعفاً . وكانت سهولة انسياقي وراء خيالي ، هذه الخاصة التي طالما سببت شقاء الشعراء ، تظهرني بمظهر كائن لا يقوى على الحب ، ينقصه ثبات القلب والجَلَد والقوة . كنت انفرهن اذا حاولت التسرية عنهن ، واحمق اذا التزمت الصمت . فأصدرت النساء حكمهن بحقي وتنكرن لي .

وتلقيت الحكم الذي صدر بحقي من العالم بالدموع والحسرات . ولكن هذا العذاب اعطى ثمرته . فأردت ان انتقم من المجتمع ، وان أمتلك نفوس جميع النساء باخضاعي جميع

العقول لعبقريتي ، وحلمت برؤ ية جميع الأنظار تعلق عليّ عندما يعلن الخادم اسمي على باب الدخول . كنت قد انشأت نفسي منذ طفولتي لأكون رجلاً عظيماً ، وقد ربّت على جبهتي مثل الشاعر اندريه شينييه وأنا أقول : « ان شيئاً ما يوجد هنا » .

واعتقدت ان رأسي يضج بفكرة يجب اخراجها ، أو بقاعدة يجب وضعها ، أو بعلم يجب شرحه . أما اليوم ، يا عزيزي إميل ، وقد كدت ابلغ السادسة والعشرين من عمري ، فأشعر إني سأموت مجهولاً مغموراً ، دون ان أكون عاشق المرأة التي حلمت بامتلاكها ، فدعني اذن أخبرك بقصص طيشي وجنوني . ألسنا نجسّم رغباتنا وأشواقنا ونظنها حقائق ؟ آه ! اني لا ارغب أبداً في صداقة شاب لا يضفر لنفسه إبان احلامه تيجاناً ، ولا يبني في خياله قصوراً ، ولا يحظى بعشيقات جميلات . فغالباً ما كنت أعتقد نفسي جنرالاً وامبراطوراً ، وكنت أيضاً « بيرون » ثم لا شيء . وبعد ان خبرت واقع الأوضاع الانسانية ، وضح لي انني لم اضع شيئاً وان جميع الصعوبات تنتظرني لأتغلب عليها وأدمرها .

حب الذات هو الذي كان يغلي في ضلوعي ، وهذا الاعتقاد الراسخ بمصير متفوق هذا الاعتقاد الذي قد يصير عبقرية اذا لم تقو الأوضاع الاجتماعية على تمزيقي كما يترك الحمل صوفه على الأشواك عندما يمر بينها - كل هذا كان سبب نجاتي . لقد أردت ان أظفر بالمجد مهما كان الثمن ، وأن أعمل بهدوء في سبيل العشيقة التي طالما منيت نفسي بالحصول عليها .

وكانت جميع النساء تختصر في نظري بامرأة واحدة ؛ وهذه المرأة كنت اعتقد انني أجدها في أول واحدة تقع عليها عيناي . ونظرتي الى كل امرأة هي نظرتي إلى ملكة متوجة. فأصبح على النساء والحالة هذه ، مثلما هي العادة مع الملكات ، ان يقتربن من عشاقهن ، أو أن تقترب احداهن مني بقلب كسير متوجع . آه ! لقد كان في قلبي ، لتلك التي ستأتيني واجفة متدلهة بحبي ، كثير من عرفان الجميل والحب . وكان في وسعي أن أعبدها طيلة أيام حياتها . وقد علمتني ملاحظاتي في ما بعد حقائق قاسية ومرة .

وهكذا ، ياعزيزي إميل ، شعرت اني قد اعيش الى الأبد وحيداً . لقد اعتادت النساء ـ ولا أدري بأي خلل في تفكيرهن ـ ان لا يرين في الرجل المتفوق إلا النقائص ، ويفضلن حماقته على خصائص موهبته . ويظهرن عطفاً كبيراً لنقائص الاحمق التي هي تملق أبدي لنقائصهن ، طالما كان الرجل المتفوق لا يقوى على منحهن سروراً يعوض عن عدم كماله . ان الموهبة هي حمى تشتد وتضعف ، ولن تجد امرأة واحدة لا ترغب في مقاسمة الموهبة مصاعبها ومشاقها ، وكلهن يحببن ان يجدن في عشاقهن أسباباً ترضي غرورهن . ولا يعجبهن فينا إلا هذه الأسباب . أما الرجل الفقير ، المتعجرف الفنان ، الذي أعطي هبة الخلق ، فانه يكون مسلحاً بالاثرة وحب الذات ! انه محاط بزوبعة من الأفكار يغلف بها كل شيء ، حتى عشيقته التي عليها ان تنسجم مع هذه الزوبعة . وهل في وسع المرأة المتملقة ان تثق

بحب رجل من هذا النوع ؟ هل تذهب الى التفتيش عنه ؟ ليس لهذا العاشق وقت يضيعه في الشيطنات الصغيرة التي تتعلق بها المرأة والتي هي انتصار الزائفين وفاقدي الاحساس . ان الوقت لا يكفيه لانجاز اعماله فكيف يسمح لنفسه بأن يضيعه بتحويل نفسه سخرية في عيون الناس ؟

وكنت مستعداً لأهب نفسي دفعة واحدة ، ولم أكن أفكر في التقتير في إذلالها . غير أنه يوجد في ترويض الرجل الذي يقوم على خدمة امرأة مدللة ، لا أدري أي نوع من المسكنة تخيف الفنان . ان الحب المجرد لا يكفي الرجل الفقير والعظيم لأنه يرغب في التضحيات ونكران الذات . وان المخلوقات الصغيرة التي تمضي حياتها في لبس الكشمير ، أو التي لا تفتأ تفتش عما وصلت إليه آخر الأزياء ، لا تتحلى بنكران الذات ، فهي تلح دائماً في طلباتها ، وترى في الحب لذة الأمر ، وليس لذة الطاعة . الزوجة الحقيقية هي التي تندفع بقلبها ولحمها وعظمها وراء زوجها ، الذي تكمن فيه قوتها وسعادتها ومجدها . والعباقرة هم في حاجة ماسة إلى النساء الشرقيات اللواتي يفهمن بنظرة واحدة ما يجول في خاطر أزواجهن ، لأن الشقاء بالنسبة إلى العباقرة هو عدم التوافق في الرغبات وعدم وجود وسيلة لتتميمها . وأنا الذي كان يعتقد نفسه عبقرياً ، كنت أحب هؤلاء العشيقات الصغيرات .

كانت أفكاري ، إذاً ، تناقض الأفكار السائدة وكنت أريد ارتقاء السماء بلا سلم ، وأملك كنوزاً لا أجد مجالاً لاظهارها ،

وكنت مسلحاً بمعارف واسعة تثقل ذاكرتي ، ولم أكن قد اعتنيت بترتيبها وتصنيفها . ووجدت نفسي دون أهل ولا أصدقاء ، وحيداً في أشد الصحارى هولاً وقبحاً ، في صحراء مرصوفة بالحجارة ، تلتهب وتفكر وتعيش حيث كل شيء يدعو إلى الضجر واللامبالاة . وكان العزم الذي اتخذته طبيعياً ، وإن عزي إلى الجنون ، فهو يحمل بين جنباته لست أدري أي شيء من المستحيل ، وهبني قوة وشجاعة . لقد كان رهاناً بيني وبين نفسي وكنت المراهن والرهينة . وهذه هي خطتي : كان على الألف ومئة فرنك أن تكفيني ثلاث سنوات كاملة لأكرّس هذا الوقت في سبيل وضع كتاب ينتزع إعجاب الجمهور ويوجه أنظاره إليّ ، فأكسب من ذلك ثروة أو شهرة . واعتراني السرور عندما فكرت أنّ عليّ أن أكتفي بالخبز واللبن ، كناسك من نساك « تيباياد » [1] ، وأن أغرق العالم بالكتب والأفكار ، في وسط باريس ، هذه الكرة للعمل والسكوت ، حيث أبني قبراً لأبْعَثَ منه مُمَجّداً منتصراً . وكنت في سبيل المخاطرة حتى الموت لأظفر بالحياة . وبعد حساب دقيق جداً وجدت أن ثلاثمئة وستين فرنكاً تكفي لحياتي الجديدة . والحق يقال ، ان هذا المبلغ الضئيل قد أرضى حاجاتي ، لأني أخضعت نفسي لانضباط صارم في المصروف . فقال اميل :

---

(١) النساك المسيحيون الذين كانوا يعيشون في صحراء مصر . ويطلق هذا الاسم أيضاً على قسم من أقسام مصر القديمة أو مصر العليا .

ـ مستحيل !

فتابع رفائيل ، وقد شمخ بأنفه :

ـ عشت ثلاث سنوات هكذا . ولنجرِ حساباً بسيطاً : ثـلاثة سنتيمـات ثمن خبز ، وسنتيمـان ثمن لبن ، وثلاثـة سنتيمات ثمن لحم خنزير مقدد كان يمنعني من الموت جوعاً ويحفظ تفكيري في حالة وضوح لا مثيل لها . تعرف ؟ لاحظت نتائج رائعة للحمية في تأثيرها على الخيال . وكان سكني يكلفني ثلاثة سنتيمات في اليوم . وكنت أنفق ثلاثة سنتيمات ثمن زيت أشعله في الليـل ، وأعتني شخصياً بتـرتيب غرفتي ، وألبس قمصاناً قطنية كيلا أنفق سوى سنتيمين اثنين أجرة غسيل ، وأستعمل فحم الخشب للتدفئة ، ولو قسمت جميع ما صرفته أثناء السنة على عدد الأيام لبلغ ذلك سنتيمين لا غير . وكنت أملك ثياباً وجوارب تكفي ثلاث سنوات . ولم أكن أرتدي ثيابي إلا لأذهب إلى بعض الأماكن العامة أو إلى المكتبات . وهذه النفقات تبلغ كما ترى ثمانية عشر سنتيماً ، زد على ذلك سنتيمين كنت أحتفظ بهما للطوارىء . وأذكر أنني طيلة هذا الوقت لم أقطع جسر الفنون ولم أشتر ما احتاجه من ماء ، بل كنت أذهب كل صباح وأجلب حاجتي منه من الينبوع الموجود في ساحة سان ميشال في إحدى زوايا شارع كريس . آه ! لقد كنت فخوراً بفقري ، لأن الرجل الذي يرى من خلال تعاسته وفقره مستقبلاً جميلاً يلوح له ، يخطو كبريء يقاد إلى ساحة الاعدام ولا يشعر بالخجل . ولم أشأ أن أتنبأ لنفسي بالمرض . وكنت مثل اكيلينا ،

أنظر إلى المستشفى دون خوف أو وجل . ولم أشك لحظة واحدة بقوة أعضائي . . . هل يحق للفقير أن يستسلم إلى النوم إلا عندما يدعوه إلى ذلك الموت ؟ وكنت أقصّ شعر رأسي بيدي ، وبقيت مواظباً على هذه العادة إلى أن اعترض طريقي ملاك رحمة وحنان . . . ولكنني لا أود أن أستبق حوادث حياتي الماضية في الكلام عنها .

ويكفي أن تعلم يا صديقي أنني لم أحظَ بعشيقة قط ، وكنت أعيش وقلبي ينبض بفكرة تشمل كل شيء ، هذه الفكرة لم تكن إلا حلماً وهذا الحلم لم يكن إلا خداعاً وغشاً . غير أننا نؤمن بهذه الفكرة ونعتنقها . أما اليوم فاني أسخر من نفسي ، من هذه « الأنا » التي كانت سامية وقديسة في ما مضى والتي فقدتها الآن . ان المجتمع ، والعالم ، وعاداتنا ، وتقاليدنا ، هذا كله أظهر لي خطر معتقدات طفولتي ، وعدم جدوى أعمالي الشاقة ، وأقنعني بأن هذه المؤن لا تجدي الطمُوح ، فعلى الذي يسعى وراء الشهرة والثروة أن يلقي عنه ما يثقل كاهله . وخطأ الرجال العظام هو أنهم ينفقون سني شبابهم في السعي وراء اكتساب قلوب الناس ورضائهم . وبينما نرى الرجال الفقراء يجمّعون ثروتهم وقواهم ليستطيعوا حمل الشهرة التي تهرب منهم ، نجد المرائين ، الأغنياء بالكلام ، والفقراء بالأفكار ، يعملون دائبين ، فيدهشون الحمقى ، ويكسبون ثقة السذّج : الفقراء يكدون والمراؤون يتقدمون والفقراء يترددون والمراؤون يغامرون ، والعبقري الفقير يكتم عن الناس قدرته الكامنة في

نفسه والمرائي ينشر على الملأ ادعاءاته الفارغة فيصل إلى أهدافه دون ريب . إن رجال السلطة في حاجة إلى من يثقون به ، إلى العبقرية الكاذبة . وان العبقري الحقيقي الذي ينتظر المكافأة من الناس لهو عبقري طفل في تفكيره . وإذا ما تكلمت كذلك فلا تظنني راغباً في أن أنقل إليك ما يقال عادة عن الفضيلة . ولا تظنّن كلامي « نشيد الأناشيد » الذي يـردده دائماً وأبـداً العباقرة المجهولون ، وليس قصدي من كلامي هذا إلا استنتاج الأسباب التي تهيء طرق النجاح للرجال العاديين .

أذكر أنني كنت مرات ، وأنا جالس إلى نافذتي أتنشق الهواء النقي ، أغمس خبزي باللبن الصافي ، وأدع نظري يحلق فوق سطوح البيوت المعمّمة بالقرميد الأحمر والرمادي والأسود والمكسوّة بالأعشاب الصفر أو الخضر . وإذ بدت لي هذه المناظر رتيبة مضجرة عند أول وهلة فسرعان ما اكتشفت فيها جمالاً فريداً . تارة كانت أشعة من النور تتسرب من النوافذ التي لم يُعن بإقفالها فتضفي ألواناً وتهب حياة لسواد هذه المناظر الغريبة الخلابة . وطوراً كانت القناديل المدلاة في الطرق ترسل أنواراً شاحبة تخترق الضباب الشفاف فتبدو تعاريج السطوح كأنها أمواج بحر ساكن . وأخيراً ، كانت تظهر حيناً بعد حين بعض الصور في أعماق هذه الصحراء الهادئة . وبين أزهار حديقة غائصة في الضباب كنت ألمح شبح امرأة عجوز هزيلة الجسم بارزة العظام تسقي أصص الأزهار . وفي إطار كوة قديمة كنت أرى فتاة تتزين أمام المرآة وكلها اعتقاد أن ليس هنالك من

يراها . غير أنني لم أكن أرى منها سوى جبينها الوضّاح وشعرها الطويل الجميل الذي رفعته بذراعها البيضاء البضة . وكنت أتأمل بإعجاب في بعض الأعشاب الضعيفة الساق النابتة في الميازيب ، التي سوف تجرفها العاصفة . وكنت أمعن النظر في الأعشاب المبعثرة على السطوح ، وأعجب من ألوانها التي أعاد المطر إليها الحياة والتي كانت تتحول تحت أشعة الشمس إلى لون مخمل فقد جدته . إن ألوان النهار الشعرية الهاربة ، وأحزان الضباب ، وبزوغ الشمس المفاجىء ، وصمت الليل وسحره ، وسر الفجر ، ودخان كل مدفأة ، وجميع دقائق هذه الطبيعة الفريدة ، كل هذا ، أعتدته وأصبح يسليني ويروّح عن نفسي . وكنت أحب سجني فقد اخترته بنفسي . وسهول باريس هذه التي تتألف من السطوح المتتابعة كسهل منبسط والتي تسدل الستر على بيوت تغصّ بالناس . كانت تؤثر في نفسي وتنسجم مع أفكاري . وانه لمتعب حقاً أن نبحث في أمور العالم عندما نهبط من المرتفعات السماوية التي أوصلتنا إليها التأملات العلمية . . . عندئذٍ فهمت كم هي عذبة حياة الدير المجردة من الماديات .

وعندما عزمت على السير في هذه الطريق التي رسمتها لنفسي ، فتشت عن مسكن في حي منعزل من أحياء باريس . ففي إحدى الأمسيات عندما كنت عائداً من « الاستراباد » مررت بشارع « الكورويه » في طريقي إلى بيتي ، فرأيت في زاوية من زوايا شارع « كلوني » فتاة تبلغ الرابعة عشرة من عمرها

تلعب مع أتراب لها ، وكانت ضحكاتهن وحركاتهن تروّح عن الجيران . وكان الطقس جميلاً برغم الحرارة الشديدة إذ أن شهر أيلول لم يكن قد لفظ أنفاسه الأخيرة بعد . وأمام كل باب كانت النساء جالسات يتسامرن كما يكنّ في إحدى مدن المقاطعات في يوم عيد . وأمعنت النظر أولاً في الفتاة الغريرة ذات الوجه الموحي بقوة التعبير والجسد الذي كأنما خلق ليكون نموذجاً لرسام . لقد كان مشهداً بديعاً مغرياً .

وفتشت عن سبب هذه البوهيمية في باريس ، فلاحظت أن هذا الشارع غير مطروق ، وانه لا يؤدي إلى غيره . فتذكرت أن جان جاك روسو كان يقطن في هذا المكان . ووقع نظري على فندق « سان كوينتان » فأطمعتني حالته الرثة وجدرانه الخربة بغرفة تليق بفقري ، وأحببت أن أزوره . وعندما دخلت إلى أولى غرفه المنخفضة السقف رأيت القناديل النحاسية ترتفع فوق الشمعدانات ، منسقة تنسيقاً تاماً أمام الأبواب . ولفتت نظري النظافة التي تسود هذه القاعة . السرير ، والأواني ، والأثاث ، كل شيء يوحي بذوق سليم ، ينمّ عن حب صاحبه للتنسيق .

كانت صاحبة الفندق امرأة في الأربعين من عمرها تدل تقاطيع وجهها على آلام مكبوتة ، ونظراتها كسيرة كأنما يغشي عينيها البكاء . وما أن لمحتني حتى وقفت وتقدمت مني فوضعت في يدها بكل تواضع أجرة سكني في فندقها ، ومن غير أن يبدو عليها الاندهاش أخذت تفتش بين المفاتيح ثم اختارت أحدها وقادتني إلى غرفة عالية تشرف على السطوح وعلى باحات منازل الجيران ،

وتتسرب من نوافذها أشعة دافئة .

لم يكن هنالك شيء يدعو إلى التقزز والاشمئزاز أكثر من هذه الغرفة ذات الجدران الصفر الوسخة التي تفوح منها رائحة الفقر والتعاسة . كان سقفها منخفضاً جداً وقرميدها المتفكك يسمح برؤية السماء . ولم يكن فيها سوى مكان لسرير وطاولة وبضعة كراسي وللبيانو الذي كنت قد احتفظت به . ولم تكن حالة المرأة المادية تسمح لها بتأثيث هذه الغرفة ولم يسبق لها أن أجرتها . فاتفقت معها على أن أنقل إلى الغرفة ما تبقى عندي من أثاث ، وأن أقطنها في صباح اليوم التالي .

بقيت ثلاث سنوات كاملة أعيش في هذا القبر الجوّي وأنا أعمل ليل نهار بهمة لا تعرف الكلل ، وبلذة لا توصف . وكان الدرس يبدو لي أجمل الأبحاث وأسعد حل للحياة . ففي الهدوء والسكون اللذين لا غنى للعالم عنهما لذة مسكرة كالحب . وتمرين العقل ، والتنقيب عن الأفكار ، والتبصر الهادىء في العلوم ، كل هذا يغمرنا بلذة لا توصف ، ككل شيء يشارك فيه العقل الذي لا تشعر بحوادثه الحسية حواسنا الخارجية . وأرى أننا مجبرون على شرح أسرار الفكر بلجوئنا إلى أمثلة مادية : ان لذة السباحة في بحيرة هادئة ، يجعّد صفحة مائها نسيم فاتر ، بين الصخور والأشجار والأزهار ، هذه اللذة وحدها تقوى على رسم صورة ضعيفة للسعادة التي كانت تغمرني عندما كانت تسبح نفسي ، لا أدري في أي سيلٍ من الأضواء ، عندما كانت تصغي إلى صوت الالهام المخيف المبهم ، عندما كانت الصور المتتابعة تنسكب في عقلي من ينبوع

مجهول . إن رؤية فكرة تبزغ في حقل المعميات الانسانية كالشمس ، وان ترتفع مثلها ، وأجمل من هذا أيضاً ، أن تنمو هذه الفكرة كطفل فتدرك سن البلوغ ، هي لذة تفوق جميع الملاذ الأرضية ، أو قل هي غبطة سماوية .

الدرس يغمر بالسحر كل ما يحيط بنا . فالمكتب الحقير الذي استعمله للكتابة ، وجلد الغنم المدبوغ الذي يغطيه ، والبيانو ، وسريري ، وكنبتي ، وفراشي العجيب ، وأثاثي ، كل هذه الأشياء تنبض بالحياة وتربطني بها صداقة متواضعة . وكم من مرة اطلعتها على دخيلة نفسي وأنا أنظر إليها . وغالباً ما كنت أجيل نظري في بعض النقوش المتعرجة . وفي كل مرة أجد فيها شيئاً جديداً ، أو برهاناً حسياً لصلاحية مذهبي الجديد ، أو كلمات اعتقدها كفيلة بإيضاح أفكار جديدة تمتنع على التعبير . وجعلتني مداومة التأمل في هذه الأشياء التي تحيط بي ، أجد لكل منها شكلاً خاصاً ، وطبعاً مختلفاً . وكثيراً ما كانت هذه الأشياء تكلمني ، وإذا ما تسربت أشعة الشمس الهاربة ، عند المغيب ، إلى غرفتي ، من نافذتها الضيقة ، وغمرت هذه الأشياء ، فانها كانت تتلوّن وتشحب ، وتلمع ، وتحزن أو تفرح فتسيطر على قلبي وتستولي على حواسي . ان دقائق حوادث العزلة التي لا يعيرها التفاتاً من يعيش في خضم هذا المجتمع الصاخب هي عزاء السجناء . ألم أكن أسير فكرة ؟ ألم أكن سجين نظام يشجعني على احتمال متاعبه ما انتظره من مجد ؟ . . . وكنت كلما تغلبت على صعوبة من الصعوبات ، أقبل يدي المرأة الجميلة العينين ، المتأنقة ، الثرية ، التي لا بد أن تدغدغ شعري يوماً ما

وهي تقول :

ـ لقد تعذبت كثيراً ، يا ملاكي المسكين .

وبدأت بوضع مؤلفين كبيرين : تمثيلية لكي تجلب لي الشهرة والثروة في وقت قليل ، وتفتح أمامي أبواب المجتمع حيث أريد أن أتألق وأنا أتمتع بحقوق الفنان العبقري الشرعية . ولكنكم رأيتم في هذا المؤلف ضلال شاب لم يكد يترك مقاعد الدراسة ، ونسبتموه إلى طفل أحمق . فقصت دعاباتكم وسخريتكم جناح أوهامي المخصبة وقضت عليها . أنت وحدك يا عزيزي اميل لطفت الجرح الذي أحدثه الباقون في قلبي . وأنت وحدك أعجبت بـ « نظرية الارادة » هذا المؤلف الضخم الذي درست من أجله اللغات الشرقية والتشريح والنبات . وقد خصصت لذلك قسماً كبيراً من وقتي . وكان في إمكان هذا الكتاب ، كما اعتقد ، أن يتمم نظريات مسمر ، ولا فاتير ، وغال ، وبيسا ، ويخط طريقاً جديدة في حقل العلوم الانسانية . هنا توقفت حياتي الجميلة ، وتضحيتي بجميع أيامي ، وعملي المرهق كعمل دودة الحرير ، ومن يدري ؟ فقد تكون مكافأتي الوحيدة غن هذا الارهاق هي العمل نفسه .

منذ أن بلغت سن الرشد إلى اليوم الذي انتهيت فيه من وضع « نظرية الارادة » كنت ألاحظ ، وأتعلم ، وأكتب ، وأقرأ دون توقف . وكانت حياتي عقاباً طويلاً . وبالرغم من شغفي الجارف بالكسل الشرقي ، وعشقي لأحلامي ، وتعلقي بشهواتي ، فقد بقيت أعمل دائماً . ولم أسمح لنفسي بتذوق لذاذات الحياة في باريس . ورغم شراهتي أصبحت قنوعاً ، ورغم حبي السير الطويل

والسفر في البحر وشوقي إلى زيارة بلدان كثيرة ـ ولا أزال أحس بالشوق إلى السفر ـ بقيت جالساً في مكاني ، وقلمي في يدي . ورغم ثرثرتي كنت أذهب إلى المكتبات لأصغي بانتباه وصمت إلى العلماء يلقون المحاضرات . ولكن المرأة كانت حلمي المزعج ، حلماً أداعبه ويهرب مني . كانت حياتي رتيبة قاسية ، وكذبة أبدية .

وكانت شهواتي الجارفة تستيقظ أحياناً في نفسي وجسدي . فيصور لي نوع من السراب انني محاط بعشيقات جميلات مدهشات في غرفتي الحقيرة ، عشيقات طالما اشتهيتهنّ وتمنيت قربهن ، فأركض في شوارع باريس وأنام على الوسائد الوثيرة ، وأغرق في الدعارة وأنتهب كل شيء وأحظى بكل شيء ، فأشعر بالشبع والسكر رغم حرماني ووحدتي . وكان النوم يجلب لي الراحة ويزيل من أمام ناظري هذه الرؤى المفترسة . صباح اليوم التالي ، يدعوني العلم وهو يبتسم ، فألبي الدعوة . يخيل إليّ أن النساء المسميات فاضلات لا بد أن يقعن في الغالب فريسة لهذا الجنون ، ولهذه الأشواق والرغبات التي تستيقظ فينا بالرغم منا . أليس لهذه الأحلام سحرها الخاص ؟ ألا تشبه سمرنا في ليالي الشتاء الباردة ، قرب المدفأة ، عندما نسمح لخيالنا أن ينقلنا على جناحيه إلى الصين مثلاً ؟ وماذا تصير إليه الفضيلة في هذه الرحلات اللذيذة عندما يذلل الفكر جميع الصعوبات ؟

في الشهور العشرة الأولى التي حييت فيها حياة الفقر والعزلة والتي وصفتها لك كنت أذهب في الصباح الباكر ، دون أن يراني أحد ، وأشتري جميع حاجات يومي . كنت أرتب غرفتي . كنت

سيداً وخادماً معاً . ولكن ، بعد مضي الوقت الذي تحسست فيه صاحبة الفندق وابنتها على عاداتي ، وشعرتا بتعاستي وفقري ، ودرستا درساً عميقاً شخصي وكل ما يتعلق بي وتعرفتا إلى أخلاقي ، قدمتا لي خدمات لم أستطع رفضها . وبولين ، بولين هذه المخلوقة الساحرة التي قادتني ملاحتها البريئة بشكل من الأشكال إلى هذا المكان ـ قدمت لي خدمات كثيرة . ان جميع التعساء هم أخوة ، يتكلمون الكلام نفسه ، ويتحلون بالسخاء ، بسخاء الـذين لا يملكون شيئاً . ويبذلون عاطفتهم بجود ويدفعون من وقتهم ومن أنفسهم . وأحبت بولين أن تقوم على خدمتي ولم تعارض أمها في هذا الأمر . ورأيت الأم نفسها ترفىء ثيابي وتصلح ما تمزق منها . وكان الاحمرار يكسو وجهها عندما أفاجئها وهي تقوم بهذا العمل النبيل . وأصبحت بالرغم مني تحت كنف حمايتها ، ورضيت بخدماتها . ولكي تقوى على فهم هذا العطف الغريب ، يجب أن تعرف قساوة العمل واضطهاد الأفكار ، وهذا النفور الغريزي الذي يشعر به رجل الفكر من تفاصيل الحياة المادية . هل كان يمكن أن أقاوم انتباه بولين الدقيق عندما كانت تحضر لي طعامي ، بخطواتها الخرساء ، وعندما تلاحظ انه مضى عليّ سبع أو ثماني ساعات لم أتناول أثناءها شيئاً؟ كانت تبتسم لي بعذوبة امرأة وبراءة طفلة وتأتي بحركة كأنها تقول : « كان يجب ألا تراني » . لقد كانت « اريال » الجنية التي تدخل إلى غرفتي من شقوق سقفها وتعرف حاجاتي .

وفي إحدى الأمسيات قصت عليّ بولين قصتها ببراءة مؤثرة . كان والدها رئيس فرقة الحرس الامبراطوري ، ولكنه وقع أسيراً بين

أيدي الكوزاك ، وفي ما بعد عندما اقترح الامبراطور تبادل الأسرى ، لم تعثر له السلطات الروسية على أثر في مجاهل سيبيريا ، وذهبت الجهود في التفتيش عنه سدىً لأنه هرب من منفاه على أمل أن يصل إلى الهند ، كما زعم بعض الجنود الذين شاركوه النفي . ومنذ ذلك الوقت لم يبلغ السيدة غودان ، صاحبة الفندق ، أيّ خبر عن زوجها . وحلّت نكبات سنتي ١٨١٤ و ١٨١٥ ، فبقيت وحدها ، دون مساعدة ولا مورد ، فصممت على أن تدير فندقاً لكي تستطيع تقديم وسائل الحياة لابنتها . وكان يحزنها جداً أنها لم تتمكن من تثقيف بولين ابنة الأميرة بورغيس بالمعمودية . فان مستقبل بولين كان سيكون رائعاً باهراً لو بقيت لها حماية الأميرة النبيلة .

عندما اطلعتني مدام غودان على سرها وأمنتني على ألمها المر الذي يفنيها يوماً فيوماً قالت لي بلهجة تمزق القلوب :

ـ إني أهب عن طيبة خاطر قطعة القماش القديمة التي جعلت من غودان « باروناً » وكل حق لنا في وقف « ويستشنو » لأرى بولين تدرس في « سان دوني » .

فاعترتني رجفة شديدة ، وخطر لي أن عرفان الجميل يقتضيني الاهتمام بتثقيف بولين والاعتناء بتدريسها . فرضيت المرأتان باقتراحي .

كانت استعدادات بولين مدهشة حقاً . وتعلمت بسهولة ان تعزف على البيانو وبزتني بذلك بعد وقت قصير . كان قلبها الذي يتفتح للحياة كبرعم وردة تبسط تيلاته على مهل أشعة الشمس ، يضج بألف دعابة ونكتة . وكانت تصغي إليّ بوقار

وسرور وهي تحدّق فيّ بعينيها السوداوين الشبيهتين بالمخمل . وتسمعني دروسها بنبرات صوت حلوة مدغدغة ، وهي تبدي سروراً يشبه سرور الطفل ، عندما تلاحظ أنني مسرور منها . أما أمها التي تقلقها جداً مهمة المحافظة على ابنتها وصون جمالها المتفتح من كل خطر ، فقد غمر الفرح قلبها عندما رأتها تقضي سحابة نهارها سجينة غرفتها ، رهينة الدرس والعمل . وكانت بولين تغتنم فرص غيابي عن المنزل لتتدرب على البيانو . وعندما أعود إلى البيت أجدها في غرفتي ، بزينتها المتواضعة ، ولكن أدنى حركة تقوم بها تظهر رشاقة قامتها ، وجاذبية جسمها تحت القماش الخشن الذي ترتديه . فهي أشبه شيء ببطلة قصة « جلد الحمار » التي تظهر قدماً جميلة في حذاء حقير .

ولكن ثروة هذه الفتاة من الحسن والبهاء وأناقة جمالها الجذاب ، فضلاً عن كنوز تلك الحياة كلها ، هذا كله كان ثمرة محرمة بالنسبة إليّ . فقد أمرت نفسي بأن ترى فيّ بولين أختاً لها . وكنت أشعر بخوف شديد إذا فكرت في خيانة ثقة أمها بي . وصرت أعجب بهذه الفتاة إعجابي بلوحة جميلة ، أو برسم يمثل عشيقتي المتوفية . لقد كانت طفلتي وتمثالي . وأردت أن أنسج على منوال بينجماليون ، وأن أصنع من هذه العذراء التي تفيض حياة وألواناً وشعوراً وكلاماً ، قطعةً من الرخام . لقد كنت قاسياً جداً في علاقتي معها . ولكنني كلما جعلتها تشعر بجوري وقساوتي ازدادت رقة وطاعة .

إني لا أفهم مطلقاً أن يكون الصدق والأمانة في الشؤون

المالية ، وأن لا يكونا في الأفكار . فخداع المرأة أو إعلان الافلاس شيء واحد بالنسبة إليّ ، وحب فتاة أو السماح لفتاة بحبنا معاهدة يجب أن تنفذ شروطها . وإذا كان يحق لنا أن نهجر المرأة التي تبيع نفسها فانه لا يحق لنا مطلقاً أن نفكر بهجر الفتاة التي تهب نفسها ، لأنها تجهل مقدار تضحيتها . ولم أشأ أن أرتكب حماقة جنونية بزواجي من بولين . ألا يعني زواجي منها اسلام نفس بريئة عذراء إلى أنياب شقاء مخيف ؟ ان فقري كان يتكلم عالياً ويضع يده الحديدية بين هذه المخلوقة وبيني .

ولا يمنعني الخجل من الاعتراف بأنى لا أفهم الحب في الفقر . قد يكون هذا فساداً في الأخلاق سبّبه هذا المرض الانساني الذي نسميه المدنية . مهما بلغ جمال المرأة الرثة الثياب ، ولو فاقت جاذبيتها جاذبية « هيلين » الجميلة ، فانها لا تسيطر على قلبي وشعوري . آه ! من لي بأن أعيش الحب في الحرير ، على الكشمير ، وأنا محاط بكل ما نسميه ترفاً وفخفخة وأناقة ، فقد تكون المرأة نفسها ترفاً وفخفخة وأناقة . وإذا ما ضجّت رغباتي في صدري أحب أن أعبث بزينة المرأة وثيابها وأن أنثر زهوراً ، وأن أمد يداً مخربة إلى الروائع الهندسية الأنيقة من الشعر المعطر . ان العيون الملتهبة المختبئة خلف البراقع الشفافة التي تمزق نظراتها ، كما تمزق النار دخان المدفع ، تجذبني وتسلبني عزمي وقوتي . وحبي يود سلماً مكسواً بالحرير ليرتقي درجاته في ليل شتاء بارد . وكم هو عظيم السرور الذي يستولي على المرء الذي يغطي الثلج رأسه وثيابه عندما يدخل إلى غرفة مضاءة بالعطور ، مبطّنة بالحرير الكثير الألوان .

فيجد امرأة تلتف أيضاً بالثلج ـ وأي اسم غير هذا يمكن أن نعطيه لرداء الموسلين الأبيض المغري ـ الذي تظهر المرأة من خلاله كملاك بين الغيوم ؟ هذا الرداء الذي لا تلبث أن تخرج منه . ويلزمني أيضاً سعادة خائفة ، وطمأنينة جسورة . وأحب أن أرى هذه المرأة العجيبة تتألق في العالم ، فاضلة محاطة بالتكريم ، مرتدية ثياباً ثمينة ، ومزينة بالماس ، تأمر وتنهي وتطاع ، وقورة بحيث لا يجسر أحد على تصعيد شوقه إليها ، وان تبعث إليّ وهي بين حاشيتها بنظرة مختلسة ، بنظرة تهدم تصنّعها ، بنظرة تضحي في سبيلي الرجال والعالم .

والحقيقة أنني وجدت مما يدعو إلى الضحك أن أحب بعض الثياب المخملية وبعض أنواع النسيج الثمين ، والبروج المستطيلة التي يبنيها الحلاق ، والشموع والعربات ، والألقاب ، والتيجان المرسومة على الأواني الزجاجية أو المصنوعة بيد أمهر عمال الصاغة ، التي تدل على النسب وتستعمل كشعار ، وكل ما هو اصطناعي في المرأة . فسخرت من نفسي ونعتها بالحمق . ولكن بلا جدوى . فالمرأة الارستوقراطية وابتسامتها العذبة ، واحترامها لنفسها ، وتصرفاتها المميّزة ، تسحرني وتسيطر على عقلي . وعندما تضع هذه المرأة حاجزاً بينها وبين العالم رضي فيّ غروري الذي هو نصف الحب . وعندما أرى النساء يحسدنها أشعر بأن سعادتي عذبة الطعم . وإذا لم تصنع شيئاً مما يصنع غيرها من النساء ، ولم تمش مثلهن ، ولم تحيا حياتهن ، وإذا تدثرت برداء لا يتمكن غيرها من الحصول عليه وتنشقت عطراً خاصاً بها ، فأشعر بأن عشيقتي هذه

توافقني موافقة تامة . وإذا ابتعدت عن كل ما هو دنيوي ، حتى عن كل ما في الحب من الدنيويات ، فانها تبدو أمام ناظري أكثر جمالاً . مضى علينا ، لحسن حظي أو لتعاسته ، عشرون سنة دون أن يكون لنا ملكة . لقد كان في وسعي أن أحب الملكة . ولكي تقوى المرأة على تقليد الأميرة في تصرفاتها يجب أن تكون ثريّة .

ماذا يبقى من بولين حيال رغباتي هذه ؟ هل تستطيع أن تهبني ليالي يعادل ثمنها ثمن الحياة ؟ هل تستطيع أن تقدم لي حباً يغني ويميت ويهزأ بجميع القوى الانسانية ؟ نحن لا نبذل حياتنا أبداً في سبيل فتيات يهبن أنفسهن وأجسادهن لقمة سائغة .

ولم أقوَ على التملص من عواطفي وأحلامي الشعرية هذه . لقد ولدت من أجل حب مستحيل وشاءت الصدف أن أكون خادماً لتمنياتي ورغباتي . وكم من مرة غلفت قدمي بولين بالحرير ، وسجنت قامتها الرشيقة كشجرة سرو صغيرة في ثوب شفاف ، وألقيت على كتفيها شالاً خفيفاً وجعلتها تدوس السجاد وأنا أقودها إلى عربة أنيقة . كان في إمكاني أن أعبدها في هذه الحالة ، وأن أسبغ عليها جرأة لا تملكها ، وأن أعرّيها من جميع فضائلها ومن سذاجتها وطهارتها ، ومن سحرها الطبيعي ومن ابتسامتها البريئة لأجعلها تغرق في خضم رذائلنا ، وأن أهب قلبها قوة تعصمه من الجراح لتصبح أهلاً لجرائمنا ، وتغدو امرأة متبرجة طائشة تسيطر على جميع الاجتماعات ، امرأة هيفاء تنام في الصباح لتستيقظ في المساء على ضوء الشموع . لقد كانت بولين تفيض عاطفة وحرارة وكنت أريدها جامدة باردة .

وفي أواخر أيام جنوني أظهرت لي الذكرى بولين كما تبدو لنا حوادث طفولتنا . وكثيراً ما كنت أجلس متأثراً مفكراً بتلك اللحظات اللذيذة ، عندما كانت تلك الفتاة المعبودة تجلس إلى مكتبتي ، مشغولة بالخياطة ، هانئة صامتة ، تقع على شعرها الأسود الطويل خيوط ضعيفة من النور تتسلل من النافذة الضيقة فترسم عليه خيوطاً من الفضة ، أو عندما كنت أسمع ضحكتها العذبة البريئة ونبرات صوتها البارعة تردد مقطوعات غنائية كان يسهل عليها تأليفها . وغالباً ما كانت بولين تستفز عواطفي وهي تعزف على البيانو . فيشبه وجهها عندئذٍ الرأس النبيل الذي حاول « كارلودولسي » أن يعبر به عن وجه إيطاليا ـ وكانت ذاكرتي الشرسة ترمي بهذه الفتاة خلال شطط حياتي كتبكيت للضمير أو كصورة للفضيلة . ولكن لندع هذه الفتاة على ما قُدر لها . لقد وضعتها في مأمنٍ من عاصفة مخيفة ، مهما كان نوع التعاسة التي تنتظرها ، وجنّبتها الارتماء في جحيمي المرعب .

أظن أنّني رسمت لك صورة ضعيفة عن حياتي الهادئة المنتجة التي حييتها حتى الشتاء الماضي . في الأيام الأولى من كانون الأول ١٨٢٩ التقيت براستينياك فقدم لي ذراعه برغم فقري وحالة ثيابي الرثة واهتم بي اهتماماً أخويّاً . وأغراني بأساليبه ، فأخبرته بقصة حياتي ، وأمنته على آمالي ، فضحك من سذاجتي ونعتني بالحمق . فأثرت في نفسي لهجته السكسونية ، وخبرته وتجاربه ، وقدرته على التصرف . وجعلني راستينياك أموت في المستشفى كالأبله وشيع جنازتي ، ورمى جثتي حيث ترمى جثث الفقراء . وكلمني عن

الخداع والغش والحيل بأسلوب مدهش مغرٍ وأظهر لي رجال الفن مظهر الدجالين . وأفهمني أن هنالك سبباً يدعوني إلى الموت إذا بقيت وحيداً في شارع كورديه . وفهمت منه أن عليّ أن أدخل العالم وأعوّد الناس لفظ اسمي وأن أتعرى من هيئة السيد المتواضع الذي يناقض كل المناقضة الرجل العظيم الذي أود أن أكونه .

ثم قال :

ـ إن البلهاء يسمون هذه المهنة « مكيدة أو دسيسة » والرجال الذين يتحلون بالأخلاق يعبرون عنها بكلمة « حياة طائشة » . علينا أن لا نتوقف عند أحكام الناس ، بل أن ننظر إلى النتائج . أنت تعمل ، اتفقنا . ولكنك لن تصل إلى شيء . وأنا أصلح لكل شيء ولكنني لا أعمل شيئاً وأصل إلى كل شيء . أدفع بنفسي فيفسحون لي مجالاً . أدعي فيصدقونني ، وأستدين فيدفعون ديني . حياة التبذير مذهب سياسي . وحياة الرجل الذي لا يفتأ يفكر بالتهام ثروته تصبح نوعاً من المضاربة المالية ، لأنه يضع رأسماله في الأصدقاء واللذات ، وفي أشخاص يتولون الدفاع عنه ، وفي البحث والتنقيب والمعارف . هل يخاطر تاجر بمليون من الفرنكات ؟ لقد قضى عشرين عاماً دون أن ينام ، أو يشرب ، أو يلهو . إنه يحضن مليونه ويساهم في الرساميل الاوروبية ، ويحس بالضجر ويسلم نفسه إلى جميع الشياطين الذين أوجدهم الانسان ، ثم تحدث تصفية ـ وكثيراً ما لاحظت ذلك بنفسي ـ فتتركه غالباً وحيداً دون مليم واحد ، خلواً من الأصدقاء والشهرة . أما المبذر المتلاف ، فانه يلهو ويعيش ويدع خيوله تركض . وإذا شاءت

الصدف أن يفقد رأسماله فهو يعرف كيف يتزوج ، كيف يرتبط بوزير أو بسفير . زد على ذلك أنه يحافظ على أصدقائه وشهرته ولن تخلو جيبه من المال ، لأن خبرته الواسعة في شؤون الناس تجعله يدير الدفة إلى حيث يريد . هل هذه طريقة معقولة أم أنني أتكلم كمجنون ؟ أليس في كلامي هذا مغزى المهزلة التي تمثل كل يوم على مسرح هذا العالم ؟

ثم اتخذ وضعاً مريحاً وأكمل حديثه قائلاً :

ـ انتهيت من وضع كتابك ـ وإن لك لعبقرية متفتحة ـ ووصلت إلى نقطة الانطلاق . فيجب الآن أن تسعى وراء نجاحك بنفسك . ولن تصل إلى غايتك إلا باندماجك في شلة من الأصدقاء تمهد أمامك السبيل ، وباكتسابك كثيراً من المعجبين المتملقين . أما في ما يتعلق بي فسأهتم بإقامة نصف مجدك وأكون بائع المجوهرات الذي يرصع تاجك بالذهب . ولكي نبدأ ، احضر إلى هنا غداً مساء لأقودك إلى بيت تؤمه باريس بأجمعها ، باريسنا نحن ، باريس من يعشقون الجمال . فتجد هنالك أصحاب الملايين ورجالاً تثقل كواهلهم الشهرة ، ورجالاً يتكلمون بفصاحة يوحنا فم الذهب [١] . وعندما يتبنى هؤلاء الأشخاص كتاباً يقفز الكتاب إلى قمة الشهرة ويصبح « موضة » اليوم . وإذا كان الكتاب ذا قيمة

---

(١) أو Chrysostome أي فم الذهب . وهو لقب القديس يوحنا ، بطريرك القسطنطينية الذي اضطهدته الامبراطورة ادوكسي . وهو مشهور بفصاحته ، وقد ترك كثيراً من الآثار الأدبية والمواعظ الدينية . (٣٤٧ ـ ٤٠٧) .

أدبية فيكون هؤلاء الأشخاص قد عبروا عن فهمهم العميق للفن دون أن يشعروا بذلك . وإذا كنت على شيء من النباهة فانك تقوى على جمع ثروة طائلة من « نظرية الارادة » وتستطيع فهم فن جمع الثروة . وغداً مساء سترى الكونتيس الجميلة فيدورا ، امرأة اليوم .

ـ لم أسمع بهذا الاسم .

فقال راستينياك وهو يضحك :

ـ ما أنت إلا عبد أسود . ألا تدري من هي فيدورا ؟ إنها امرأة في سن الزواج يبلغ دخلها السنوي أربعين ألف ليرة . لا ترغب في أحد ولا يرغب فيها أحد . إنها مشكلة نسائية . باريسية أكثر مما هي روسية ، أو روسية أكثر مما هي باريسية . امرأة تنشر عندها جميع المؤلفات التي لا تظهر أبداً . أجمل وأظرف امرأة في باريس . لست عبداً أسود وحسب بل أنت وحش أدنى رتبة من العبد وأرفع شأناً من الحيوان . وداعاً وإلى الغد !

قال هذا ثم اختفى دون أن يسمع جوابي . لم يكن يقدر أن يعتقد أن هنالك رجلاً مثقفاً يرفض أن يُقدَّم إلى فيدورا .

كيف أعبر لك عن سحر بعض الأسماء ؟ كانت فيدورا تلاحقني كفكرة شريرة . وعبثاً حاولت أن أعقد معها صلحاً . وعبثاً كان صراخي في ذلك الصوت الذي يلاحقني « إنك كاذب » . فيدورا ! ألا يمكن أن يكون هذا الاسم رمزاً لجميع شهواتي ورغباتي وبحثاً تدور حوله جميع دقائق حياتي ؟ هذا الاسم يوقظ كل ما في العالم من تملق ، ويتألق في الحفلات ، في باريس ، ويرضي

الغرور . وظهرت لي هذه المرأة محاطة بجميع مشاكل أهوائي التي كنت فريسة لها . ولم يكن ذلك لا المرأة ولا الاسم ، بل كانت جميع رذائلي التي انتصبت في نفسي محاولة إغرائي من جديد . ألم تكن الكونتيس فيدورا ، الثرية ، الخالية القلب من الحب ، والساخرة من الاغراءات الباريسية ، تجسيداً لآمالي ؟ لقد خلقت لنفسي امرأة ورسمتها في مخيلتي ، وحلمت بها . ولم أنم في الليل لأنني وقعت فريسة حبها ، وتمثلت لي في ساعات قليلة حياة كاملة ، حياة حب جامح . وتذوقت لذاتها الوفيرة المحرقة .

صباح اليوم التالي ذهبت إلى إحدى المكتبات واشتريت كتاباً لأصرف النهار باحثاً مدققاً ، فقد يلهيني ذلك عن قياس الوقت وعن التفكير . ولكن اسم فيدورا كان يدوي في نفسي كصوت تسمعه من بعيد فيجعلك تضطرب ويجبرك على الاصغاء إليه .

وكنت لا أزال أملك لحسن الحظ ثوباً أسود وصدرية بيضاء . وكان قد بقي لي من ثروتي زهاء ثلاثين فرنكاً ، وزعتها في جيوب ثيابي الرثة وفي الادراج لأجعل من هذه السنتيمات ، المبعثرة هنا وهناك ، حواجز تمنعني من الاسراف في إنفاقها . ونقودي القليلة هذه تظهر لك المبلغ الضخم الذي أنفقته عندما اشتريت قفازاً جديداً ، فالتهم ذلك مصروف شهر كامل . آه ! إننا نجد دائماً مالاً ننفقه في سبيل تفاهاتنا ، ولا نساوم إلا في أسعار الأشياء الضرورية اللازمة . ونرمي الذهب دون اكتراث عند أقدام الراقصات ، ونساوم العامل المسكين لننتزع منه بضعة سنتيمات ينتظرها أولاده بفارغ صبر . كم من الناس يملكون بزّة ثمنها مئة فرنك ولا يدفعون

ثمن غدائهم سوى مليمات ! وهكذا فاننا ندفع غالياً ثمن زهونا وغرورنا .

وكان راستينياك أميناً على الموعد ، وما أن رآني حتى ابتسم من تبدل شكلي ، وبذل لي نصائح كثيرة ونحن في طريقنا إلى الاجتماع ، وأفهمني كيف يجب أن يكون مسلكي مع الكونتيس ، وصورها لي بخيلة مقترة ، عابثة ، حذرة . ولكن بخلها لا يخلو من أبهة ، وعبثها من سذاجة ، وحذرها من بوهيمية .

ثم قال :

- إنك تعلم مقدار وفائي لوعودي ، وتعرف أنني أخسر كثيراً في تنقلي من حب إلى حب . عندما راقبت فيدورا كنت متجرداً ، بارد الأعصاب ، ولا بد أن تكون ملاحظاتي عادلة وصحيحة . ولما نويت أن أقدمك إليها فكرت في ثروتك . فكن حريصاً في كل ما تقوله لأن لها ذاكرة لا تخونها مطلقاً وتتمتع بدهاء سياسي عريق وتتمكن من معرفة اللحظة التي يتكلم فيها المرء بالصدق . وأعتقد أن الامبراطور لم يعترف بزواجها لأن سفير روسيا ضحك كثيراً عندما كلمته عنها . فهو لا يستقبلها ، ويحييها ببرود عندما يصادفها في أحد المتنزهات . ومع ذلك انها من طبقة مدام ساريزي ، وتستقبل في صالون مدام نوسانجان ومدام راستود . وتتمتع في فرنسا بشهرة تحسد عليها . وان دوقة كاريكلينو تمضي معها كل سنة فصل الربيع في أحد أملاكها الشاسعة . ومن يدري ؟ فقد تبقى متبلدة الشعور إلى أن يعترضها كونت مثلاً . ألست مركيزاً ؟ إذا أعجبتك ، هيّا .

امض إلى الأمام ولا تجبن ! وبعد ، هذا ما اسميه اعطاء توجيهات .

جعلتني دعابة راستينياك اعتقد انه يهدف إلى إثارة فضولي . وعندما توقفنا أمام رواق داخلي مزين بالزهور كانت رغباتي قد استيقظت في نفسي ضاجة صاخبة . ثم صعدنا درجات سلم يغطيها السجاد ، وشاهدت الرفاهية الانكليزية بأبهى مظاهرها . وخفق قلبي ، وكسا الاحمرار وجهي ، وأنكرت حقيقة منبتي وعواطفي ، وتحولت إلى بورجوازي أحمق . يا للأسف ! كنت قد خرجت من غرفة حقيرة ، بعدما عشت فيها ثلاث سنوات كاملة حياة فقر مدقع ، دون أن أعرف كيف أضع فوق ترهات الحياة هذه الكنوز المكتسبة ، هذه الرساميل الفكرية الضخمة ، التي تغنيك ولا تحطمك ، عندما تصل السلطة إليك ، ذلك لأن الدرس يكون قد أعدك للصراعات السياسية . ووقع نظري على امرأة في الثانية والعشرين تقريباً ، جالسة ضمن حلقة من الرجال ، مرتدية ثوباً أبيض ، وفي يدها مروحة من الريش .

وقفت المرأة لدى رؤيتها راستينياك وتقدمت منا ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة عذبة ، ووجهت إليّ كلمات إطناب ومديح بصوت شجيّ . وكان راستينياك قد مهد لتقديمي قبل مجيئنا بأن أذاع أنني رجل فن وعبقرية ، وتمكن تعاظمه السكسكوني ولباقته من إعداد استقبال لي لم أكن أتوقعه . وأصبحت موضوع انتباه خاص جعلني أضحك وأرتبك . ولكن

راستينياك ، لحسن الحظ ، كان قد أعلن عن تواضعي . ووجدتني بين علماء ورجال الفكر ، والوزراء السابقين ، وحملة الألقاب النبيلة . وما أن جلسنا حتى أخذ الحديث مجراه فشعرت أنني أتمتع بشهرة يجب أن أحافظ عليها ، فعادت إليّ الثقة بنفسي . وعندما كان عليّ أن أتكلم ، كنت أجمل فكرتي بكلمات مختارة منتقاة ليكون لها وقعها وتأثيرها . ولما امتلأت القاعة بالزوار أخذني راستينياك من ذراعي ورحنا نتجول في القاعات . ثم قال لي :

ـ لا تظهر إعجاباً كبيراً بالكونتيس حتى لا تدعها تعرف أسباب زيارتك .

كان أثاث القاعات ينم عن ذوق سليم . وزينت الجدران لوحات مختارة واحتفظت كل قاعة بطابعها الخاص كما هي الحال في قصور أثرياء الانكليز . ويشعر المرء لدى أول نظرة أن الطنافس ، والحرير ، وشكل الأثاث ، تنسجم انسجاماً تاماً وتتوافق توافقاً غريباً .

قال راستينياك ، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة تشوبها السخرية :

ـ سيكون مسكنك مريحاً .

ثم جلس وهو يضيف :

ـ ألا يغريك كل هذا ؟

ووقف فجأة وقادني إلى غرفة النوم ، وأراني سريراً بديع الصنع ، يظلله الموسلين الأبيض ويغمره ضوء خفيف . إنه

سرير جنية شابة مخطوبة إلى إله شاب .

وقال راستينياك بصوت منخفض :

ـ أليس في السماح لنا بتأمل عرش الحب هذا ، وقاحة وسفاهة ودلال أكثر من اللزوم ؟ ثم لماذا هي تترك كلاً منا يلقي شباكه ولا تستسلم لأحد ؟ لو كنت حراً لأحببت أن أخضع هذه المرأة ، وأن أراها باكية عند بابي .

ـ هل أنت متيقن من فضيلتها ؟

ـ أمهر الرجال وأوقحهم يعترفون بعجزهم حيال هذه المرأة . أو ليست أحجية يصعب حلها ؟

وولدت فيّ كلماته نشوة سحرية . وبدأت غيرتي تتخوف من أشباح الماضي . وعدت فجأة إلى القاعة حيث كانت الكونتيس ، فأشارت إليّ بابتسامة وأجلستني إلى قربها وسألتني عن مؤلفاتي ، وبدت كأنها تهتم بها اهتماماً فعلياً ، خصوصاً عندما أخذت أكلمها عنها مداعباً وأنا أمزج الجد بالهزل . ولم أتخذ صفة المعلم لأشرح لها نظريتي علمياً . وأعجبها كثيراً أن تعرف أن الارادة هي قوة مادية تشبه البخار ، وأن لا شيء هناك يقوى على مقاومتها عندما يعتاد المرء على حصرها في نقطة واحدة ، واستعمالها بأجمعها ، وتوجيه أشعتها إلى النفوس . وان المرء يقوى على تكييف كل شيء ـ حسب رغبته ـ بالنسبة إلى الانسانية ، حتى قوانين الطبيعة المطلقة .

وكشفت لي اعتراضات فيدورا سرعة خاطرها وتوقده . حتى أوافقها مبدئياً على كل ما تقول لأرضي غرورها . ثم أثرت

فضولها وهدمت دفعة واحدة ما كانت تعتقده صواباً ، عندما لفت نظرها إلى حادث يقع يومياً ، ألا وهو النوم ، هذا الحادث المبتذل في ظاهره والمملوء في أعماقه بالمشاكل المعقدة التي لا يجد لها العالم حلاً . وصمتت الكونتيس لحظة عندما قلت لها أن أفكارنا هي كائنات عضوية ، تامة ، تعيش في عالم غير منظور وتسيطر على ما قدر لنا ، وعددت لها أمثلة من ديكارت ، وديدرو ، ونابوليون ، الذين قادوا وما زالوا عصراً بكامله . وأعتقد أنني نجحت بالترفيه عن الكونتيس ، ونلت حظوة في عينيها . ولا أدري إذا كانت ألفاظي المهذبة قد أثرت في قلبها ، أو أن فيدورا قد لمحت على وجهي دلائل شهرة قريبة فأرادت أن تزيد اهتمامها بالعلماء . لكنني أعرف أنها عندما وقفت لتتركني رجتني أن لا أنقطع عن زيارتها .

ثم انزويت بالقرب من إحدى النوافذ ، واستعنت بكل معلوماتي الفيزيولوجية وبأبحاثي عن المرأة لأدرس درساً دقيقاً هذه المرأة الغريبة وأساليبها . وأخذت أتجسس على أفكارها مفتشاً عنها في رزانتها وثيابها . وراقبت اهتمامها بضيوفها ، في ذهابها وإيابها ، في جلوسها وأحاديثها . فهي تدعو رجلاً إليها ، وتطرح عليه سؤالاً ، ثم تتكىء على حاجز نافذة مفتوحة لتسمع جوابه . ورأيت في مشيتها دلالاً واهناً لطيفاً ، وفي ثوبها تموّجاً مغرياً سحرياً . لقد كانت تثير الشوق ، وتذكي نار الرغبة ، فكفرت عندئذ بكل ما يسمونه فضيلة .

وإذا كانت فيدورا لا تدري اليوم ما هو الحب ، فانها

ولا شك قد تقلبت في سعيره في ما مضى ، وذاقت حلوه ومرّه .
إذ أن لذة ماكرة ترتسم حتى في شكل الوضع الذي تتخذه أمام محدثها . . . كانت تستند إلى لوح خشبي كامرأة توشك أن تستسلم ، ولكنها متأهبة للهرب إذا حاولت نظرة ملتهبة أن تخيفها . وكان ذراعاها مشبوكين إلى صدرها كأنهما على فراش وثير . إنها تتفجر عاطفة وتصغي إلى الحديث بنظرات ثابتة وشوق عارم . فيخال انها تلتهم الكلام التهاماً . أما شفتاها الريانتان القرمزيتان فانهما مخطوطتان على وجه ناصع البياض . وشعرها الأسود ينسجم انسجاماً تاماً مع لون عينيها اللتين تزيدان في سحر حديثها وتأثيره . وخصرها اللدن جاذبيته لا تقاوم . وإذا ما نظرت إليها منافسة لها ، فانها تعيب عليها ولا شك كثافة حاجبيها اللذين يوشكان أن يتصلا . أما أنا فقد وجدت الاغراء يطبع كل شيء فيها ، والحب مخطوطاً على أهدابها الايطالية وعلى كتفيها الجميلتين . فهي « فينوس » للفنان « ميلو » بتقاطيع جسمها البديعة وشفتها السفلى النافرة . إنها أكثر من امرأة ، فهي قصة غرامية كاملة . نعم ، ان هذه الكنوز الأنثوية ، ومجموعة الخطوط المنسجمة ، والوعود المغرية التي يهذبها هذا الجسم الريان ، كانت ملطفة بل قل ملجومة باحتشام حازم ، وتواضع عجيب ، يتناقضان تناقضاً تاماً مع التعبير الذي تفصح عنه كل جارحة من جوارحها . كان لا بد من دقة كدقة ملاحظتي ، لكي تكتشف في طبيعة هذه المرأة علامات قَدَرها الذي هو قدر اللذة . ولكي أزيد فكرتي وضوحاً

أستطيع القول إنه كان في فيدورا امرأتان ، يفصل بينهما الجذع . إحداهما باردة كالثلج والرأس وحده يبدو كأنه غارق في الحب . وكانت تهيء نظراتها وتعدّها قبل أن توقفها على رجل من الرجال ، كأنما يحدث لا أدري أي شيء سرّي في دخيلة نفسها ، تقوى على التعبير عنه برعشة في عينيها اللامعتين . وقد أكون قليل المعرفة ، أو أن هنالك كثيراً من الأسرار لم تتضح لي بعد عن الانسان والأخلاق ، أو أن الكونتيس كانت تملك نفساً جميلة تسبغ ما يتضوع منها على وجهها ، هذا السحر الذي يجذبنا ويخضعنا ، ويتسلط على أخلاقنا ، بقوة تتفق مع جاذبية رغباتنا .

وتركت البيت منتشياً ، وقد سيطرت عليّ هذه المرأة ، وأسكرتني أناقتها وفخفختها ، يدغدغني كل ما يعتلج في قلبي من النبل والرذيلة ، والخير والشر . وفي غمرة هذا التأثر الحي المتدفق أعتقد أني عرفت الجاذبية التي تقود إلى فيدورا هؤلاء الفنانين والسياسيين ، ورجال السلطة ، والتجار المغلقين كصناديقهم . ولا شك في أنهم كانوا يجيئون إلى هذا المكان لينتشوا من النشوة الجنونية التي كانت تهزّ كل القوى الكامنة في كياني ، وتنبض في الدم الذي يجري في عروقي ، وتؤثر في أعصابي وترقص في دماغي . لقد منعت نفسها من الاستسلام لرجل ما كي تحتفظ بالرجال جميعاً ، والمرأة تعلق أهمية كبرى على التزين والتبرج ما دامت لا تحب .

ثم قلت لراستينياك :

ـ من يدري ؟ فقد تكون بيعت أو زفّت إلى عجوز ما ، ولا تزال ذكرى ليالي زفافها الأولى تخلق في نفسها قرفاً من الحب .

رجعت سيراً على قدمي من « فوبور سان أونوريه » حيث تقطن فيدورا الجميلة إلى شارع كورديه . تقريباً كل باريس بيننا . ورغم بعد المسافة لم أشعر بمضي الوقت والبرد الشديد . كيف تجرأت على معاهدة نفسي على إغواء فيدورا ، في هذا الشتاء البارد ، وأنا لا أملك فلساً ، والمسافة التي تفصل بيننا بعيدة مرهقة ؟ وحده الفقير يعرف كم يكلفنا السعي وراء رغبة من رغباتنا ، من أجرة عربات وثمن قفازات وثياب . والحب إذا بقي أفلاطونياً أطول من المدة المعقولة ، يسبب الخراب لصاحبه ... كم من الطلاب الأغنياء لا يتمكنون من ارواء ظمئهم إلى الحب ، والحب قريب منهم ، وقد يكون في البيت الذي يقطنونه . وكيف أستطيع ، أنا الضعيف الهزيل ، بثيابي البسيطة ، الشاحب الوجه كفنان يخلد إلى الراحة بعدما بذل جهوداً جبارة في إخراج إحدى مؤلفاته . كيف أستطيع وحالتي هذه ، أن أنافس شباناً أغنياء ، يتألقون جمالاً ، ويتفننون في تصفيف شعورهم ، ويتمنطقون بالسيوف ويتشحون بالكبرياء ؟

وصرخت في نفسي وأنا أقطع أحد الجسور :

ـ فيدورا أو الموت ! فيدورا هي الثروة .

وتمثلت في خاطري غرفة زينتها الجميلة . حيث تتبرج وتتألق ، وقاعة استقبالها المفروشة على طراز لويس الرابع عشر .

وتـراءت لي الكونتيس بثـوبها الأبيض ، وأكمـامـه الـواسعـة اللطيفة ، وبمشيتها المغرية وخصرها الجذاب . وعندما دخلت إلى غرفتي الحقيرة ، كنت لا أزال محاطاً بصور تألق فيدورا وثرائها ، فكان هذا التناقض مستشاراً شريراً ، وأظن أن الجرائم تولد هكذا . فلعنت للحال ، وأنـا أرتجف من الغضب ، فقري الشريف وغرفتي المخصبة ، حيث ولدت أفكاري التي أعتز بها . وسألت الله والشيطان والمجتمع وأبي والعالم أجمع حساباً عن حظي وتعاستي ، ولجأت إلى فراشي وأنياب الجوع تعضني وأنا أقذف شتائم تثير الضحك ، ولكني مع ذلك كنت مزمعاً على إغواء فيدورا لأن قلبها أصبح آخر ورقة يانصيب يتوقف عليها مستقبلي وآمالي .

ولا أريد أن أثقل عليك بالتحدث عن زياراتي الأولى لفيدورا ، وسأنتقل بك فوراً إلى المأساة . كنت وأنا أحاول التأثير على قلب هذه المرأة أسعى إلى اكتساب فكرها إليّ ، وإلى استمالة غرورها . ولكي أتأكد من فوزي بقلبها ، كنت أقدم لها ألف سبب يزيد من محبتها لنفسها ؛ فلا أدعها أبداً في حالة لامبالاة ، ومهما كان الثمن ، فقد كنت أبذله لها بإسراف . إذ إن المرأة بطبعها تحب أن تكون دائماً ثائرة المشاعر . وكنت أفضل أن أسبب لها ما يغضبها ، على أن أراها غير مكترثة بي .

وإذا كنت بادىء الأمر أتسلّح بإرادة قوية وبشوق لاقتطاع نفوذ لديها ـ وقد حققت شيئاً من رغبتي ـ فان حبها ما لبث أن اشتعل في قلبي ، ولم أعد أملك زمام عواطفي ، ووقعت فريسة

للحب الصادق ، وخسرت نفسي .

لا أعرف جيداً ما نسميه « الحب » في الشعر أو في المحادثة . ولكن العاطفة التي انبثقت فجأة في طبيعتي المزدوجة ، لم أجدها في أي مكان حتى ولا في الكتب ، ولا في تآليف جان جاك روسو ، الذي ربما كنت أسكن الغرفة نفسها التي سكن ، ولا في المفاهيم الباردة للعصرين الأخيرين ، ولا في لوحات إيطاليا الفنية . ولكن لوحة بحيرة « بريان » وبعض رسوم « رُوسيني » ولوحة العذراء « لمورو » التي يملكها المارشال « سولت » ورسائل « لسكومبا » وبعض الكلمات المنتشرة في مجموعات القصص وخصوصاً صلوات الصوفيين ، وبعض مقاطع أدبنا الفرنسي القديم ، هي وحدها التي استطاعت أن تحلق بي في أجواء حبي السماوية . وليس كلام ما على ألسنة الناس ، ولا أي تعبير عن الفكرة بواسطة الألوان ، والرخام ، والكلمات والأنغام ، يقوى على التعبير عن قوة هذا الشعور المفاجىء ، ونبضه ، وحقيقته ، وكماله . نعم ، إن الفن لضرب من الكذب . والحب يمر في أطوار لا نهاية لها قبل أن يمتزج إلى الأبد بحياتنا ويصبغها بلون النار . وهذا الامتزاج اللاشعوري يعجز الفنان عن تحليله . الهوى الحقيقي يُعبّر عن ذاته بالصراخ ، وبتنهدات مضجرة بالنسبة إلى الانسان الجامد البارد . الحب جدول صافٍ يخرج من نبعه المحاط بالأزهار والأعشاب النديّة ، ويتراقص على الحصى اللامعة ؛ ثم يتحول إلى ساقية ، ثم إلى نهر ، فتتغير طبيعته وصورته كما تتبدل

تموجاته ، ويصب في خضم عميق لا قرار له . فترى فيه العقول الضعيفة منظراً رتيباً يضجرها ، وترى فيـه النفوس الكبيـرة بحراً ، يجعلها تغوص في تأملات عميقة . ان حب المرأة يفتح أمامنا هاوية تبتلع جميع الأناشيد . كيف نستطيع أن نصف بقصائدنا ارتعاشات النفس المضطربة ، ونحن عاجزون عن أن نصف بها أسرار الجمال المنظور ؟ وكيف أستطيع أن أصور هذه الألوان المتقلبة من العواطف والمشاعر ، وهذه الأشياء التافهة التي لا تقدر بثمن ، وهذه المعاني التي تعجز اللغة عن أدائها ، وهذه النظرات التي تفوق الأناشيد سحراً ؟ . . . يا للروعة ، كم ساعة قضيتها وأنا غارق في ذهول لا يوصف أنظر إليها ؛ وأنا سعيد ولا أدري سبباً لسعادتي .

وإذا ما غمرها الضوء في هذه اللحظات ، كانت تحدث ظاهرة طبيعية تجعلها تتألق بهاء . وترسم الشعيرات الناعمة التي ترتاح على بشرتها البضة استدارة وجهها ، وتسكبه في قالب من النور . فتتأمله بشوق كما تتأمل خطوط الأفق البعيدة عندما تغمرها الشمس . عندئذٍ تبدو كأن النور يداعبها وهو يمتزج بها ، أو كأن النور يتدفق من وجهها المضيء أشد لمعاناً وبهاء من النور نفسه . ثم يمر ظل على هذا الوجه اللطيف ، فيظلله بفيض من الألوان . فتتبدل التعابير بتبدل الألوان . وغالباً ما يفطن أن فكرة ما ترتسم على جبينها الرخامي ، فتلتهب عينها ، وترتجف أهدابها ، وتتموج تقاطيعها وتحركها ابتسامة لا تقاوم . ولا أدري أية أشعة كانت تتسلل من شعرها فتلقي ظلالاً سمراء

على صدغيها النضرين . وكان امتزاج هذه الألوان وتوافقها يمثل لناظري جمالاً فريداً . وكانت الكلمات الصامتة تتسرب من نفس إلى نفس كما يندمج الصوت بالصدى . وكان صوتها يسبب لي هذياناً لا سبيل إلى وصفه . ولم يعد ذلك إعجاباً أو رغبة ، بل تحول إلى سحر ، إلى قضاء وقدر . وكثيراً ما كنت أرى بالخيال ، وأنا في مخدعي الحقير ، فيدورا في بيتها ، وأشاركها بشكل غامض في حياتها . وإذا ما تعذبت كنت أقول لها صباح اليوم التالي :

ـ لشد ما تعذبت البارحة !

وكم من مرة وافتني فيدورا ، بالخيال أيضاً ، في هدأة من الليل ، تلح في طلبها قوة انخطافي وذهولي . تارة كانت تتراءى لي ضوءاً يتدفق ، فتجبرني على ترك قلمي ، ثم تأخذ وضعاً جذاباً مثيراً ، فأنصرف إلى التأمل في محاسنها وكنوزها . وطوراً كان يحملني إليها حلم عذب ، فألقي عليها التحية ، وأطلب منها أن تسمعني صوتها الفضي ، ثم أستيقظ من نومي وأنا أنتحب .

وفي أحد الأيام ، وعدتني فيدورا بأن ترافقني الى المسرح ، ثم رفضت فجأة ان تخرج معي ، ورجتني ان أتركها وحدها . فاستولى عليّ اليأس من هذا التناقض الذي كلفني عمل يوم كامل . ولا اكتمك انني أنفقت آخر قطعة ذهبية لي في ذلك اليوم لأذهب الى حيث كانت تحب أن تكون ، ولأرى المسرحية التي كانت تود ان تراها . ولم أكد أجلس في مكاني حتى اخترقت

فؤادي شرارة من الكهرباء وهمس في أذني صوت يقول : « انها هنا » فأدرت وجهي إلى الوراء فرأيت الكونتيس جالسة في مقصورتها ، الطبقة السفلى متدثّرة بالظلّ . لقد اكتشفتها عيناي بوضوح غريب . وحوّمت نفسي فوق حياتها كما تحوّم النحلة فوق زهرتها . فمن ذا الذي نبّه حواسي إلى وجودها ؟ قد تكون تلك الارتعاشات الداخلية التي تستطيع السيطرة على الرجال العاديين ، ولكن تأثيرات طبيعتنا الداخلية هي واضحة سهلة كما تكون ظواهر رؤيتنا الخارجية العادية . ولم يستولِ عليَّ الاندهاش بل تملكني الغضب . ان أبحاثي في القوة الأخلاقية ، التي لا يهتم بها كثيرون كما اعتقد ، كانت تجعلني أرى في أهوائي بعض أمثلة حيّة تؤكد لي صدق نظريتي . وهذا الحلف بين العالم والعاشق الذي هو عبادة حقيقية وحب علمي ، كان لا يخلو من الغرابة . فالعلم يفرح كثيراً مما يسيء الى العاشق وعندما يعتقد العاشق بانتصاره فانه يطرح العالم جانباً بمنتهى السرور .

ولمحتني فيدورا فاعتصمت بالرزانة . كنت أزعجها . وعند نهاية الفصل الأول ذهبت اليها ، فوجدتها وحيدة منكمشة على نفسها فجلست إلى قربها . ورغم اننا لم نتكلم في ما مضى عن الحب ، فقد كنت اشعر بوجوده . ولم أكن أطلعتها بعد على دخيلة نفسي ولكنه كان بيننا نوع من الانسجام والموافقة . كانت تسرُّ إليَّ بما تعزم على القيام به من اسباب التسلية والترويح عن النفس . وتسألني في المساء بنوع من القلق ، إذا كنت أود المجيء في اليوم التالي . وكانت تتفحصني بنظراتها عندما تتفوه

بدعابة أو بكلمة مناسبة كأنها تفتش عن إرضائي وإثارة شوقي .
واذا عبست تـلاطفني وإذا ادعت الغضب كـان لي الحق بالاستفسار عن أسباب غضبها . وإذا ما اقترفتُ ذنباً تدعني وقتاً طويلاً ارجو واستغفر قبل ان تصفح عني . وهذه المشاجرات التي استسغنا مذاقها كانت تزخر بالحب ، تضفي عليها فيدورا سحراً وغنجاً وأجد فيها سعادة لا توصف . غير انه في هذه اللحظة بدت صداقتنا مفصومة العرى وبقينا جالسين الواحد بالقرب من الآخر كغريبين لا تجمع بينهما أية صلة . لقد كانت الكونتيس جامدة باردة وكنت أتمزق ألماً وتعاسة .

وعندما أسدل الستار على آخر فصول المسرحية قالت لي فيدورا :

ـ يجب ان ترافقني .

وعندما تركنا المسرح كان الطقس قد تغيّر فجأة . وأخذ الثلج يتساقط ممزوجاً بقطرات المطر . ولم تتمكن عربة فيدورا من الوصول إلى أمام المسرح . فبدا عليها الارتباك . فتقدم منا أحد الخدم ونشر مظلته فوق رأسينا . ولما صعدنا الى العربة طالبنا بمكافأة عن خدمته . ولم أكن أملك شيئاً . وكنت مستعداً للتضحية بعشر سنين من عمري في سبيل سنتيمين لا غير . وحطّم فيَّ كل ما هو رجل ألمٌ جهنمي لا يطاق . وأنا ، أنا الذي دفع في الماضي ما يقرب من مليون فرنك بسهولة لا تصدق ، وأنا العريق في الشقاء وزميل هذا الخادم المسكين ، تفوهت بصوت أجش يخرج من أعماق أهوائي المتناقضة المتضاربة بهذه

الكلمات : « لا أملك قطع نقد صغيرة ، يا صديقي » . فدفع الحوذي الخادم من كتفه ، وأرخى زمام جياده ، فراحت تسابق بنا الريح .

وفي بيتها بدت فيدورا مشغولة عني ، وأخذت تجيب عن أسئلتي بكلمات يشتم منها الاحتقار . فالتزمت الصمت . وكانت لحظة رهيبة مخيفة .

وكنا قد جلسنا قرب المدفأة ، وحضر الخادم فأضرم النار ، ثم ترك القاعة بهدوء . وبعد قليل ، استدارت الكونتيس نحوي ، واتخذت وضعاً ملائماً ، وقالت لي بصوت لا تخلو نبراته من عظمة ومفاخرة :

ـ لقد أغرت ثروتي عدداً كبيراً من الشبان بعد عودتي الى فرنسا ، وكثيرون هم الذين باحوا لي بحب كان يمكنه ان يرضي غروري . وصادفت رجالاً أظهروا لي حباً عميقاً صادقاً ، واعتقد أنهم كانوا على استعداد للزواج مني حتى لو لم يجدوا فيّ سوى فتاة فقيرة كما كنت سابقاً . وأخيراً ، اعلم يا سيد فالنتين ان ثروات وألقاباً جديدة عرضت عليّ ، واعلم أيضاً أنني لم أعد استقبل الرجال الذين خانهم الالهام فراحوا يخاطبوني عن حبهم . ولو لم يكن عطفي عليك صادقاً لما كنت أكلمك هكذا . وثق ان كلامي يحوي من الصداقة أكثر مما يحوي من الكبرياء . ان المرأة تعرض نفسها لنوع من الاهانة عندما تعرف انها محبوبة وترفض سلفاً ، مع هذا ، عواطف المجاملة . وآمل ألا يسيء الظن بي رجل متفوق لأنني اطلعته بصراحة على دخيلة

نفسي .

كانت تتكلم ببرود محامٍ أو كاتب عدل وهو يطلع زبائنه على أساليب إحدى الدعاوى أو على مواد عقد من العقود . ولم تكن نبرات صوتها الواضحة المغرية تنم عن أيّ تأثير بل كانت الرصانة تكسو وجهها والحشمة تبدو في رشاقة قامتها ، والاتزان في كلامها . فكأنها رجل سياسي . ولا شك أنها كانت قد اعدت كلامها ، ونسقت برامج هذه المقابلة . آه يا صديقي العزيز! عندما تجد بعض النساء لذة في تمزيق قلوبنا ، عندما يضمرن ان يغرزن فيها خنجراً ويحركنه في الجرح . هؤلاء النساء هن أهل للعبادة . يحببن أو يردن ان يكنّ محبوبات . وقد يكافئننا يوماً على آلامنا ، كما سوف يجازينا الله على أعمالنا البارة ذات يوم . ويقدمن لنا عندئذ لذة تفوق مئة مرة ما قاسيناه من آلام . أليست وحشيتهن ملأى بالأهواء ؟ولكن ان نقاسي آلاماً مرة تسببها امرأة تحطمنا بعدم اكتراثها ، أليس هذا عذاباً لا يطاق ؟ . . . في هذه اللحظة كانت فيدورا تمشي على جميع آمالي دون ان تدري ، وتبدد حياتي ، وتحطم مستقبلي ببرود ، وبوحشية طفل بريئة ، دفعه الفضول الى تمزيق جناحي فراشة .

وأضافت فيدورا :

ـ أرجو ان تدرك في المستقبل قوة العطف الذي أغمر به أصدقائي . فستراني مخلصة طيبة معهم . اني مستعدة لبذل حياتي من أجلهم إذا دعتني الحاجة إلى ذلك . ولكنك ستحتقرني إذا علمت انني أتقبل حبهم دون ان أبادلهم إياه . هذا يكفي .

فانك الرجل الوحيد الذي تفوهت أمامه بهذه الكلمات .

خانني الكلام أول الأمر ، وعانيت كثيراً قبل ان أتمكن من إخماد العاصفة التي أوشكت ان تنفجر في قلبي . ولكنني عدت ودفنت احساسي في أعماق نفسي ، وقلت وأنا أحاول الابتسام :

ـ إذا صارحتك بحبي تطردينني ، وان تظاهرت بعدم الاكتراث تعاقبينني . فالكهنة والقضاة والنساء لا يتخلون عن ثيابهم الأساسية تخلياً تاماً . وبما ان السكوت لا يدل على شيء ، فاسمحي لي يا سيدتي ان أعتصم بالصمت . لقد حذرتني منك بكلمات أخوية ، فذلك يعني انك تخشين فقدي ، وقد ترضي هذه الفكرة غروري . قد تكونين المرأة الوحيدة التي يمكنني أن أبحث معها ، كفيلسوف ، الأسباب التي ولدت فيك هذا الميل الذي يخالف شرائع الطبيعة . انك فريدة من نوعك بين النساء . فلنبحث معاً ، وبكل صراحة ، أسباب هذا الحادث النفسي الغريب . هل تطوين نفسك كجميع النساء المغرورات على انانية تجعلك ترتعدين خوفاً من فكرة الخضوع لرجل واحد ، والتخلي عن ارادتك ، والخنوع الى رئاسة تقليدية تعتقدين انها تحتقرك ؟آه ! لو كنت تملكين هذه الأنانية لكنت رأيتك مئة مرة أجمل . هل دفعك حبك الأول إلى الهوان ؟ أما انّ الثمن الذي تقدرين به قامتك الرشيقة وخصرك اللدن هو الذي يخيفك من تشويههما بالولادة ؟ أليس هنالك سبب سري يجعلك ترفضين الحب ؟ هل هنالك عيوب تجعلك فاضلة بالرغم

منك ؟ لا تغضبي . فاني أناقش ، وأدرس ، وأنا على بعد الف ميل من الهوى . فالطبيعة التي ترضى بولادة العميان تستطيع ان تخلق امرأة بكماء صماء في الحب. والحقيقة انك موضوع ثمين للملاحظة الطبية . ولا تدرين كم انت ثمينة . وهبي انك تشعرين بقرف من الرجال ، فأنا أوافقك على ذلك ، فشكلهم شنيع وقلوبهم تعج بالخبث .

ثم أضفت ، وأنا اشعر بقلبي ينتفخ :

- انك على حق . ولا أشك في أنك تحتقريننا . ليس هنالك من هو جدير بك .

لا أحب ان أسمعك الكلمات الجارحة التي اسمعتها إياها وأنا أمزج الجد بالهزل . ولكن أكثر الكلمات طعناً والسخرية الأكثر نفاذاً لم تتمكن ان تنتزع منها حركة غضب أو مبالاة .

كانت تصغي إليّ وهي تحتفظ على شفتيها وفي عينيها بابتسامتها العادية . هذه الابتسامة التي كانت تستعملها كأحد أثوابها . هذه الابتسامة التي كانت تقابل بها أصدقاءها ومعارفها والغرباء .

ثم قالت وكنت انظر اليها بصمت :

- ألا تراني كثيرة الطيبة بالسماح لك بتحليل عواطفي على هذا النحو؟ هكذا رأيت كم احتمل من وقاحة أصدقائي . كثيرات هن النساء اللواتي يغلقن في وجهك أبوابهن عقاباً لوقاحتك .

- تستطيعين ان تطرديني من بيتك دون أن تبرري سبب

قساوتك .

قلت هذا وشعرت اني على استعداد تام لقتلها ، اذا حدث وطردتني .

فقالت وهي تبتسم :

ـ انت مجنون .

فقلت :

ـ هل سبق لك وفكرت في ما يمكن ان يحدثه حب قوي عاصف ؟ فكثيراً ما دفع اليأس الرجال إلى خنق عشيقاتهم .

فأجابت ببرود :

ـ افضل الموت على التعاسة . فالرجل الذي تراه يلتهب شوقاً ، لا يمكث طويلاً حتى يهجر امرأته ويتركها على الحضيض بعد ان يكون قد التهم ثروتها .

فأذهلني كلامها ، ورأيت بوضوح عمق الهوة التي تفصل بينها وبيني . ووضح لي اننا لن نقوى أبداً على التفاهم .

قلت ببرود :

ـ الوداع .

فأجابت ، وهي تحني رأسها احناءً خفيفاً بشكل وديّ :

ـ الى الغد .

ونظرت اليها وأنا أرشقها بكل الحب الذي تنازلت عنه . كانت منتصبة أمامي بقامتها الرشيقة ، تبعث إليَّ بنظرة مبتذلة ، نظرة احتقار كأنها صادرة عن تمثال رخامي . تبدو ناطقة بالحب ولكن ببرود . وأظنك تدرك الآن يا عزيزي مقدار الألم الذي

عصف بقلبي وأنا عائد إلى بيتي ، أغوص في الوحول ، واحتمي بقبعتي من المطر ، وقد خسرت كل شيء . أوه ! كم كانت خيبتي عظيمة عندما عرفت انها كانت تظنني مثلها غنياً أملك العربات . ولم يعد المال شغلي الشاغل ، بل الخوف من خسارة نفسي . كنت أسير هائماً على وجهي وأنا أناقش بيني وبين نفسي كلمات تلك المحادثة الغريبة ، وتهت في تفسيرها وتأويلها ، وشككت في قيمة الأفكار والكلام . كنت غارقاً في حب هذه المرأة التي يتمنى قلبها أن يمزقه الحب ، والتي تحل نفسها دائماً من الوعود التي تبذلها في المساء لتظهر لك في الصباح مظهر عشيقة جديدة .

وبينما أنا أقطع احد الجسور شعرت برجفة شديدة تعتريني ، وتذكرت اني لم أذق في هذا النهار طعاماً . ولم يكن في جيبي سنتيم واحد . وزد على ذلك ان المطر كان قد غيّر شكل قبعتي . وكيف يمكنني بعد ، ان أمثل في حضرة امرأةمتأنقة بقبعة فقدت شكلها وحال لونها ؟ وكنت قد احتفظت بهذه القبعة إلى الآن بمظهر محترم ، وأنا ألعن الزيّ الأحمق الفارغ الذي يفرض علينا ان نحمل قبعاتنا بأيدينا . لم تكن قبعتي جديدة ولا قديمة العهد ، وكان من الممكن ان تنسب إلى رجل متأنق . اما الآن فقد وصل وجودها الاصطناعي الى آخر مراحله ، فهي جريحة ، تلفظ أنفاسها . بل قل خرقة بالية رثة جديرة كل الجدارة بصاحبها . آه ! لو كنت املك ثلاثين فلساً لما كنت أضعت أناقتي المصطنعة !

كم تكبدت من التضحيات في سبيل فيدورا ! فكثيراً ما كنت أخصص المال اللازم لشراء الخبز في اسبوع كامل من اجل ان أذهب وأراها لحظات . ولم يكن يخيفني اهمال أعمالي واحتمال الجوع ، بل الذي كان يرعبني هو اختراق شوارع باريس ، سيراً على الاقدام ، دون أن ألطخ ثوبي بالوحول . وكان عليَّ ان أركض لأصل اليها متأنقاً كأفراد بطانتها المتغطرسين . آه ! كان في هذا العمل صعوبات لا تحصى بالنسبة الى شاعر تاعس مشتت الأفكار . وكان حبي وسعادتي يتوقفان على نقوش تزين صدريتي الوحيدة . وكم كنت أخاف ان يبللني المطر ، وان يلطخ الوحل حذائي . لأن في ذلك حرماني رؤ يتها ، ولأنني لم أكن أملك خمسة مليمات أدفعها لمن يزيل البقع عن ثوبي أو الوحل عن حذائي .

كان يضرم شوقي ويزيد في اواره هذا العذاب المجهول المخيف . ان التعساء بتضحياتهم وبذل ذاتهم لا يحق لهم مطلقاً ان يرفعوا أنظارهم إلى النساء اللواتي يعشن في دنيا من الاناقة والترف ، لأنهن ينظرن الى العالم من خلال موشور مثلث يلوّن الرجال والأشياء بلون الذهب . انهن يمزجن التشاؤ م بالكبرياء ، والقوة بالطيبة ، ويعفين أنفسهن من التفكير لأن ملذاتهن تنسيهنّ كل شيء ، ويبررن عدم اكتراثهن بالشقاء بسعيهنّ وراء اللذة . واذا شاء الحب ان يعلن وجوده بتضحيات كبيرة ، فيجب أيضاً ان يسدل على تضحياته ستاراً كثيفاً ، وان يدفنها في الصمت.. ولكن الرجال الأغنياء ، ببذلهم ثروتهم وحياتهم ، يستفيدون من

أباطيل العالم التي تضفي لمعاناً باهراً على حبهم الجنوني . فالصمت عندهم يتكلم والستار نعمة ، أما أنا فان مأساتي الرهيبة تحكم عليّ بآلام فظيعة دون ان يكون لي حق القول : « أحب! » أو « أموت ! » ولكن هل هذه تضحية مني ، في نهاية العصر ؟ ألا أتمتع بلذة فائقة تكافئني مكافأة سخية ، هي لذة تضحيتي كل شيء من أجلها ؟

كانت الكونتيس قد علقت أهمية كبيرة على جميع تفاصيل حياتي ووجدت فيها سروراً لا يوصف ، فأصبحت لا أهتم كثيراً بزينتي ، ولكنني بقيت احترم ثوبي كما أحترم شخصي . وأصبحت أفضل ان تغرز نصلة خنجر في صدري على ان يمزق ثوبي . وأظنك تدرك الآن موقفي ، وتفهم ضراوة أفكاري والجنون الذي كان يتملكني وأنا أسير في الشوارع ، ومن يدري ؟ فقد يكون السير في الشوارع لا يزال يعشق هذا الجنون ! وكنت أشعر لا أدري بأي سرور جهنمي وأنا غارق في تعاستي ، وأردت أن أرى في هذه الأزمة الأخيرة تفاؤلاً بثروة قريبة . ولكن الشقاء يزخر بكنوز لا حصر لها .

كان باب فندقي مفتوحاً ، والضوء يتسرب منه ويغمر الشارع وبولين وأمها تتحدثان وهما بانتظاري . فسمعت بولين تتلفظ باسمي ، فوقفت وأصغيت .

وكانت بولين تقول :

ـ رفائيل أجمل بكثير من الطالب الذي يسكن الغرفة رقم ٧ . شعره الأشقر يزهو بلون عجيب . ألا تجدين شيئاً في صوته يؤثر

في القلب ؟ وبرغم كبريائه فإنه يبدو طيب القلب ، وأساليبه تميزه عن غيره . آه ! انه جميل جداً . واعتقد ان النساء يهمن به حباً .

فأجابتها السيدة غودان :

ـ تتكلمين كأنك تحبينه .

فأجابت بولين وهي تضحك :

ـ أوه ! انني أحبه كأخ . وأكون ناكرة للجميل اذا كنت لا احتفظ له في قلبي بصداقة أخوية . ألم يدرسني الموسيقى ، والرسم ، واللغة . وكل ما أعرف ؟ لا تعيرين انتباهاً كافياً لتقدمي المحسوس يا أمي الحبيبة ، فقد تسمح لي معارفي بعد وقت قليل باعطاء بعض الدروس ، فيصبح بعدئذ في وسعنا ان نستعين بخادمة .

تركت مكاني بهدوء ، ثم أحدثتُ ضجة صغيرة ، ودخلت إلى القاعة لكي آخذ قنديلي الذي تشعله بولين دائماً . لقد أغدقت الطفلة المسكينة بلسماً على جراحي ، واعاد إليّ مديحها الساذج ثقتي بنفسي ، فقد كنت في حاجة الى حكم عادل على قيمة ما يمكن ان أقدمه من فوائد .

وهكذا أخذت آمالي التي عادت اليها الحياة ، تنعكس على كل الأشياء التي كنت أراها . واعتقد انني لم أكن أمعنت النظر سابقاً في هذا المشهد الرائع الذي تقدمه هاتان المرأتان ، في هذه القامة ، ولكنني في تلك اللحظة رأيت في واقعه وحقيقته أجمل صورة للطبيعة المتواضعة ، التي تعبر عنها بسذاجة لوحات الفنانين « الفلامان » ،

كانت الأم جالسة في زاوية قرب الموقد ، ترفىء الجوارب ، وعلى شفتها طيف ابتسامة رضية . وبولين مهتمة بالرسم ، وأدواتها وألوانها مبعثرة أمامها على طاولة صغيرة . ولمحتني بولين فانتصبت واقفة واهتمت باشعال القنديل فانعكس ضوؤه على وجهها . كان لا بد ان يكون المرء غاصاً باهواء فائقة حتى يستطيع ان لا ينظر باعجاب الى يديها الشفافتين الورديتين ، وإلى رأسها الجميل التقاطيع الذي توحي كل جارحة من جوارحه بالبراءة والمثالية . وكان الليل والصمت يضفيان السحر على هذه السهرة وعلى هذه القاعة المتواضعة . ان هذا العمل المضني المستمر الذي تحتمله المرأتان بصبر ثابت ، وخضوع لأحكام القدر ، مملوء بالعواطف النبيلة . في هذه القاعة يكمن انسجام عجيب بين الأشخاص والأثاث المتواضع . أما عند فيدورا فالترف جاف يوقظ فيَّ أفكاراً شريرة ، ولكن الفقر المتواضع والطيبة الطبيعية كانا ينعشان نفسي ، ومن يدري ؟ فقد تكون الأناقة تشعرني بالذل . ولكنني في هذه القاعة السمراء ، وبالقرب من هاتين المرأتين ، حيث يخال ان الحياة المتواضعة تلتجىء الى انفعال القلب وخوفه ، كنت اشعر ان عليّ بسط حمايتي علي هاتين المرأتين ، هذه الحماية التي يهم غرور الرجل ان يُحسّ بها وتُعرف .

وعندما اصبحت بالقرب من بولين ، رمقتني بنظرة عطف ، ثم وضعت القنديل على الطاولة بيدين مرتجفتين وصرخت قائلة :

ـ الله . . . كم انت شاحب الوجه ! آه ! انه مبلل بالمطر ! أمي ستهتم بك في الحال .

ثم أضافت بعدما جلست على حافة الطاولة :

ـ انك مغرم باللبن . وعندنا منه هذا المساء مقدار كبير . اسمع . سأجعلك تذوقه .

ثم قفزت كقط صغير وأحضرت اناء فخّار مملوءاً باللبن وقدمته لي ، ثم دفعته إلى قرب انفي عندما رأت أنني أتردد ، وقالت بصوت يفيض بالتأثر :

ـ ترفض ؟

كانت بولين تتعذب من فقرها وتعيب عليّ عجرفتي فاستولى عليَّ التأثر . فقد تكون بولين تحتفظ بهذا اللبن لتقتات به صباح اليوم التالي . لكنني رضيت بأن أشربه . فحاولت المسكينة ان تخبىء سرورها ، ولكنه كان يتراقص في عينيها ويلمع .

قلت لها ، وأنا أتخذ لي مجلساً بالقرب منها :

ـ هل تذكرين يا بولين كلمة « بوسوييه » المأثورة التي يصور بها الله يكافىء في سبيل قدح ماء أكثر مما يكافىء في سبيل احراز نصر ؟

فأجابت :

ـ نعم .

وأخذ صدرها يعلو ويهبط ، وخفق قلبها خفقاناً شديداً كقلب عصفور صغير بين يدي طفل شرير .

ثم أضفت بصوت تخالج نبراته التأثر :

ـ وبما اننا سنفترق عما قريب ، فأرجو ان تدعيني اعبّر لك عن عرفاني للعناية التي بذلتها لي وغمرتني بها أمك .

فقالت وهي تبتسم :

ـ آه ! دعنا من ذكر هذا .

وكانت ابتسامتها تخفي اضطراباً هزّني .

ثم قلت :

ـ أرجو ان تقبلي البيانو هدية لك مني . خذيه دون تردد . والحقيقة انني لا ادري كيف انقله في الرحلة الطويلة التي قررت ان أقوم بها .

أوضحت الكلمات التي تفوهت بها بصوت حزين مؤثر للمرأتين ما أرمي إليه ففهمتا أسباب تعاستي ونظرتا إلي بفضول ممزوج بالخوف . ووضح لي عندئذ أن العطف الذي فتشت عنه في المجتمع المتأنق المتألق ، يوجد هنا على حقيقته ، متواضعاً ، رضيّاً ، ولعله يدوم إلى أمد طويل .

وقالت لي الأم :

ـ يجب أن لا تقلق كثيراً . ابق معنا .

ثم أضافت :

ـ قرأت انجيل القديس يوحنا هذا المساء ، بينما كانت بولين تحمل بين يديها الكتاب المقدس الذي يتدلى منه مفتاح صغير . فدار المفتاح على نفسه . وهذا الفأل يعني أن غودان يتمتع بصحة جيدة وأشغاله حسنة . ولكن بولين أعادت الكرة من أجلك ومن أجل الطالب الذي يقطن الغرفة رقم ٧ . فدار المفتاح على نفسه من أجلك فقط . سنصبح جميعاً أغنياء لأن غودان سيعود صاحب ملايين . لقد رأيته في الحلم على مركب مملوء بالأفاعي ، وكانت

المياه ثائرة لحسن الحظ ، وهذا يعني : ذهب وأحجار كريمة من وراء البحار .

هذه الكلمات الودية والفارغة ، الشبيهة بالأغاني التي تلجأ إليها الأم لتنيم ولدها ، أعادت إليّ نوعاً من الهدوء . وكان صوت المرأة الطيبة ونظرتها يعبران عن تلك المحبة التي لا تزيل الآلام ، بل تهدئها ، والتي تهدهد الشقاء وتضعفه .

وبدت بولين مضطربة أكثر من أمها . وراحت عيناها الذكيتان تتفحصانني بقلق كأنهما تحاولان كشف الغطاء عن حياتي ومستقبل أيامي . وأشفقت على نفسي من الاستسلام لهذه النظرات . فشكرت بانحناءة من رأسي وتركت الغرفة . وعندما ضمتني جدران غرفتي ، كنت أغرق في تعاسة لا شبيه لها ، وصور لي خيالي ألف مشروع وأشار عليّ بألف حل مستحيل . عندما يجر الرجل نفسه بين بقايا حظه فلا بدّ أن يعثر هناك على بعض الفتات . ولكن أنا كنت في العدم ! وما أسرع ما نشكو من الشقاء ! لنكن أكثر رحمة بأشد أسباب انحلال المجتمع فعالية ، فحيث يخيم الشقاء فإنك لا تجد حياء ، ولا جرائم ، ولا فضائل ، ولا تفكير . فقدت عندئذ مقدرتي على التفكير وقوتي ، وأصبحت كفتاة جثت على ركبتيها أمام نمر مفترس . ان الرجل الفقير الذي لا تعصف بقلبه الأهواء يبقى مسيطراً على إرادته وشخصه ، أما التعيس الذي يحب فانه يفقد ملكية نفسه ولا يجرؤ حتى على الانتحار . لأن الحب يهبنا نوعاً من العبادة لذاتنا ، فنحترم في وجودنا حياةً أخرى . ويصبح عندئذ من أشد أنواع الشقاء ضراوة ، ذلك الشقاء الذي

لا يخفف من حدته الأمل ، والذي يجبرنا على احتمال آلام لا حصر لها .

وأسلمت جفوني للكرى بعدما عقدت العزم على الذهاب في الصباح الباكر إلى راستينياك لأخبره بما جرى بيني وبين فيدورا .

وقال لي راستينياك عندما رآني ألج باب بيته في التاسعة من صباح اليوم التالي :

ـ أعرف السبب الذي من أجله تطرق بابي ، لقد أطلقت فيدورا سراحك . ان بعض النفوس الشريرة التي تطفح بالحسد من تأثيرك على الكونتيس قد أعلنت عن زواجك . والله وحده يعرف ما نسب إليك أعداؤك من نواقص ، والنميمة التي كنت هدفاً لها .

فصرخت قائلاً :

ـ وضّح كل شيء إذن !

وتذكرت جميع الحماقات التي ارتكبتها ، وتمثلت لي الكونتيس رائعة جداً . ورأيتني ذليلاً شنيعاً غبياً ، ولم أعد أرى في تسامحها غير صبر المحبة الذي يولده الحب .

فقال راستينياك :

ـ إن فيدورا كجميع النساء العميقات الأنانية ذات فراسة حادة طبيعية ، فقد تكون تسللت إلى نفسك ودرستها في الوقت الذي كنت تحصر تفكيرك في ثروتها وأناقتها . فهي كتومة معقدة ، لا تنجح معها المداهنة والمداجاة .

ثم أضاف :

ـ أظن أني وجّهتك الوجهة الخطأ فبرغم نعومة أساليبها فان

هذه المخلوقة تبدو لي قاهرة كجميع النساء اللواتي لا تأتيهن اللذة إلا من رؤوسهن . فالسعادة بالنسبة إليها تكمن كلها في الرفاهية والملذات الاجتماعية . ان العاطفة هي عندها مجرد دور سوف تشقيك صحبتها وستجعل منك خادمها الأول !

كان راستينياك يلقي كلامه على أذني أصم . فقاطعته وأنا أعرض له بمرح ظاهري حالتي المادية :

فأجاب :

ـ خسرت نهار أمس كل ما أملك . وإلا لقاسمتك كيس نقودي بطيبة خاطر . أما الآن ، فلنذهب إلى المقهى وعسى أن يبذل لنا السمك نصيحة غالية .

ثم ارتدى ثيابه ، وهيأ عربته . ووصلنا إلى « مقهى باريس » كثريين يفخران بملايينهما . ودخلنا إليه بوقاحة تاجرين يعتزان برساميلهما الوهمية . وقد أدهشني هذا « الغاسكوني » بدماثة أساليبه ورباطة جأشه . ولما كنا نرشف القهوة بعد الغداء الدسم أخذ راستينياك يجيل بنظره بين مجموعة من الشبان يشفع بهم ثراهم وأناقتهم ، ثم لاحظ أحد الرجال يدخل المقهى فقال لي :

ـ إنما نحن في طلب هذا الرجل .

وأشار بيده إلى شاب متأنق كان يفتش عن طاولة ملائمة . يقترب منه .

ثم همس راستينياك في أذني :

ـ هذا شاب اكتسب شهرة ونال وساماً لأنه ينشر مؤلفات لا يفهم منها شيئاً . فهو كيمائي ، ومؤرخ ، وقصاص ، وناشر .

ويملك ربع أو ثلث أو نصف مجموعة من المسرحيات وهو غبي وجاهل كبغلة « دون ميغيل » ليس هذا برجلٍ ولكنه يحمل اسم رجل ، إنه عنوان ألِفه الجمهور ، يحرص كثيراً على الدخول إلى الغرف التي تجد فوق أبوابها هذه الكلمات : « هنا يستطيع المرء أن يخلّد نفسه » . . . وهو خبيث بحيث يستطيع أن يغرر بمؤتمر . وبكلمتين اثنتين : إنه مخضرمٍ بالنسبة إلى الأخلاق ، فليس هو بالرجل الشريف وليس سارقاً بالمعنى الصحيح . ولكنه ناضل كثيراً . والناس لا يطلبون منه أكثر من هذا ويقولون عنه : « إنه رجل شريف » .

عندما جلس هذا الرجل المجهول إلى طاولة مجاورة قال له راستينياك :

ـ يا صديقي العزيز ، يا صديقي المحترم ، كيف حال ذكائك ؟

ـ بين بين . . . إن العمل يرهقني . وبين يدي المواد اللازمة لكتابة مذكرات تاريخية شائقة . ولكنني لا أعرف إلى من يجب أن أنسبها . إن هذا يعذبني . ويجب أن أهتم بالأمر قبل فوات الأوان انه بعد قليل تفقد هذه المذكرات قيمتها .

ـ هل هي مذكرات تتعلق بالعصر الحاضر أم أنها قديمة ؟ هل تكشف عن حوادث البلاط ؟ أم أنها . . .

ـ إنها قضية العقد . . .

فقال لي راستينياك وهو يضحك :

ـ أليست هذه أعجوبة ؟

ثم استدار نحو الناشر وقال وهو يدلّ عليّ :

ـ السيد ده فالانتين هو أحد أصدقائي . وأقدمه لك كمؤلف لا تلبث شهرته أن تعم جميع الأقطار . وكانت عمته إحدى وصيفات الشرف في البلاط . وهو يعمل منذ سنتين على إخراج مؤلف تاريخي عن الثورة .

ثم انحنى وهمس في أذن هذا التاجر العجيب قائلاً :

ـ إنه رجل عبقرية وفن ، وأحمق بحيث يكتب لك مذكراتك ، باسم عمته المركيزة ، لقاء مئة قطعة ذهبية للمجلد الواحد .

فأجاب وهو يرفع ياقته بيده :

ـ ان الصفقة توافقني . . . أيها الخادم أحضر السمك بسرعة .

فقال راستينياك :

ـ حسناً ولكنك ، ستدفع لي خمسة وعشرين قطعة ذهبية سمسرة ، وتدفع لصديقي ثمن مجلد مقدماً .

ـ كلا . كلا . لن أدفع في الوقت الحاضر سوى خمسين قطعة ذهبية لأضمن الحصول على المجلد في الوقت الذي سنتفق عليه .

ونقل إلي راستينياك هذه المحادثة المالية بصوت منخفض ثم سأل التاجر قبل أن يستمع إلى رأي :

ـ متى نستطيع أن نلتقي بك لننتهي من إتمام الصفقة ؟

ـ احضرا إلى هذا المقهى ، مساء غد ، في السابعة .

ووقفنا . فوضع راستيناك فاتورة الحساب في جيبه وأعطى

الخادم بعض النقود ثم تركنا المقهى . وكنت مذهولاً من الطريقة الشاذة التي بيعت بها عمتي المحترمة ، مركيزة مونتورون .

ـ أفضل أن أبحر إلى البرازيل وأعلم الهنود الجبر ، الذي لا أعرف كلمة واحدة منه ، على أن ألطخ بالعار اسم عائلتي .

فقاطعني راستينياك ، وهو ينفجر ضاحكاً :

ـ هل أنت حيوان ؟ اقبض أولاً خمسين قطعة ذهبية واكتب المذكرات . وعندما تنتهي من كتابتها ، ترفض أن ننشرها باسم عمتك أيها المجنون . إن مدام مونتورون التي فاضت روحها على المقصلة ، ومقامها ، واحترامها وجمالها ، كل هذا يساوي أكثر من ستمئة فرنك . فإذا رفض الناشر أن يدفع لنا الثمن الذي تستحقه عمتك ، فعليه عندئذٍ أن يفتش عن فارس عجوز أو عن كونتيس غارقة في الوحل لينشر المذكرات باسمه أو باسمها .

فصرخت قائلاً :

ـ آه ! لماذا تركت غرفتي الحقيرة الفاضلة ! إن للعالم وجوهاً سافلة دنيئة .

فأجاب راستينياك :

ـ أوف ! إنك تنظم الشعر ، ونحن في صدد الأعمال . أنت طفل . اسمع . في ما يتعلق بالمذكرات فان الجمهور سيحكم عليها . وفي ما يختص بالناشر ، ألم يبدد هذا المسكين ثماني سنوات من حياته في تجارب مرة سببها اتصاله بالمكتبات ؟ وإذا قاسمته أرباحه على هذا النحو ، ألا تظفر منها بحصة الأسد ؟ إن خمسة وعشرين قطعة ذهبية هي ثروة طائلة بالنسبة إليك ، كما أن الألف

فرنك هو مبلغ ضئيل جداً بالنسبة إليه . إلى الأمام . تستطيع أن تكتب المذكرات التاريخية ، وستكون عملاً فنياً إذا شئت ذلك . أم يكتب « ديدرو » ستاً من مواعظه لقاء مئة قطعة ذهبية ؟

فأجبته وقد بلغ مني التأثر مبلغه :

ـ انها لضرورة بالنسبة إليّ . وهكذا ، يا صديقي المسكين ، أشعر أنه يجب أن أشكرك . إن خمسة وعشرين قطعة ذهبية تجعل مني سيداً ثرياً .

فأجابني ضاحكاً :

ـ وستغدو ثرياً أكثر مما تظن ! ان الخمسة والعشرين قطعة ذهبية التي سأتقاضاها ثمناً لأتعابي ستكون لك أيضاً . والآن ، لنذهب إلى غابة بولونيا فتشاهد الكونتيس فيدورا وأعرفك على الأرملة الجميلة الشابة التي سأتزوجها . إنها ساحرة من الألزاس . ونقرأ « كنط » « وشيللر » ، « وجان بول » وتسألني دائماً رأيي . ولم أتوصل بعد إلى تخفيف شغفها الجنوني بالأدب فهي تذرف دموعاً غزيرة عند قراءتها « غوته » ، واضطر إلى مراضاتها وملاطفتها فأبكي معها ، لأنها تمثل لي دخلاً سنوياً يربو على خمسين ألف ليرة وأجمل يد صغيرة وأجمل قدم تدوس الأرض . آه ! لو كانت تستطيع أن تلفظ بعض الكلمات لفظاً تاماً لأصبحت امرأة كاملة لا ينقصها شيء .

رأينا الكونتيس تتألق بين حاشية متألقة . وحيتنا المغناجة بحرارة وهي ترمقني بنظرة بدت لي سماوية مملوءة بالحب . آه ! كنت سعيداً جداً فأنا قد أكون محبوباً ، وصرت أملك مالاً ، وكنوزاً من

الشوق ؟ ووجدت عشيقة صديقي رائعة حقاً .

الأشجار ، والهواء والسماء ، وكل ما في الطبيعة ، كان يذكرني بابتسامة فيدورا . ولدا عودتنا من غابة بولونيا ذهبنا إلى صانع القبعات ثم إلى خياط راستينياك . لقد سمحت لي قضية « العقد » أن أخلع ثوب السلام الحقير لأرتدي ثوب الحرب المخيف . وأصبح في إمكاني أن أنافس بأناقتي وهندامي هؤلاء الشباب الذين يحومون حول فيدورا . ثم رجعت إلى بيتي وحبست نفسي ضمن جدران غرفتي ، وظهرت هادئاً قرب قنديلي ولكني كنت أهمس بكلمات الوداع للسقف الذي يظللني وأنا أعيش في المستقبل ، وأشتاق إلى الحب وملذاته . آه ! كيف يغدو وجود شخص بين جدران غرفة حقيرة عاصفاً لا يطاق ! إن النفس الانسانية هي جنية ساحرة ، تحول القش إلى جواهر ، ومن تأثير عصاها السحرية ترتفع القصور الشامخة كما تنبت زهور الحقل من تأثير أنفاس الشمس الحادة .

في اليوم التالي ، طرقت بولين باب غرفتي عند الظهيرة وسلمتني . . . تكهن ماذا ؟ ـ رسالة من فيدورا ! كانت الكونتيس ترجوني أن آتي إليها وأرافقها إلى حي اللكسمبور ، ومن هنالك نذهب معاً إلى المتحف ثم إلى الحديقة العامة .

وقالت بولين بعد صمت :

ـ الخادم ينتظر الجواب .

فسطرت رسالة شكر حملتها بولين . ثم قمت إلى ارتداء ثيابي . وفي اللحظة التي كان فيها السرور يغمرني ، وقد انتهيت من

زينتي ، سرت في أوصالي رجفة باردة سببتها فكرة مرت في خاطري : هل أحضرت فيدورا عربتها ؟ أم تراها فضلت السير على القدمين ؟ هل سينهمر المطر أم سيبقى الطقس صاحياً ؟

ثم همست إلى نفسي قائلاً :

ـ لنفرض أنها في عربتها ، أو أنها جاءتني على قدميها . هل نستطيع أن نحصر نزوات المرأة ؟ قد لا تحمل مالاً ويعن لها أن تعطي مئة سنتيم لطفل يرتدي اسمالاً بالية .

وكنت لا أملك فلساً واحداً ولا آمل في الحصول على المال قبل المساء . وفي لحظة واحدة وخزتني ألف فكرة مؤلمة كالسهام الحادة . ثم نظرت إلى السماء من نافذة غرفتي فوجدت الطقس يدعو إلى الريبة . وأيضاً ، ألم أكن أرتجف وأنا في غمرة سعادتي من فكرة عدم اجتماعي « بفينو » ذلك المساء ؟ كنت أضعف من أن أحتمل جميع هذه المخاوف تلك اللحظة . ورغم يقيني من فراغ جيوبي وأدراجي ، بدأت بالتفتيش عن قطع ذهبية وهمية ، حتى في أعماق ثيابي الرثة البالية ، وبحثت في كل مكان . حتى في أعماق حذاء قديم . ووقعت فريسة لحمى عصبية ، وأخذت أنظر إلى أثاث غرفتي الذي قلبته رأساً على عقب نظرات لا معنى لها . وأظنك تدرك الهذيان الذي ألهبني عندما فتحت درج مكتبتي للمرة السابعة بنوع من التثاقل يدفعنا إليه اليأس ، ورأيت في أحد الشقوق الداخلية قطعة مالية من فئة المئة سنتيم ، نظيفة ، لامعة ، نبيلة ، تتألق كنجم عند بزوغه . فلم أسألها حساباً عن سكوتها ولا عن قساوتها التي تستحق العقاب ، بل رفعتها إلى شفتي وقبلتها كما نقبل

صديقاً يقبل عثرتنا ويساعدنا في أحرج ساعات شقائنا . وحييتها بصراخ رددت صداه الغرفة . ثم استدرت فجأة فوجدت بولين شاحبة الوجه .

وقالت بولين بصوت تفيض نبراته بالتأثر :

ـ لماذا تعذب نفسك هكذا ؟

ولم تقو على إكمال كلامها ، وأوشكت أن تختنق .

ثم أضافت بعد جهد :

ـ أمي دفعت للخادم أجرته .

ثم انطلقت هاربة من الغرفة . فتمنيت لهذه الصغيرة المسكينة سعادة غامرة . وفي هذه اللحظة ، كنت أشعر أن جميع ملذات الأرض تتجمع في قلبي ، وأحببت أن أرجع إلى التعساء ما اعتقدت أنني سلبتهم إياه .

وكانت الكونتيس قد صرفت عربتها ، وها أنت ترى أننا نكون دائماً على حق عندما نشعر بوقوع الحوادث قبل وقوعها . فقد شاءت فيدورا أن تذهب إلى الحديقة العامة سيراً على القدمين ، مدفوعة برغبة لا تقوى النساء الجميلات دائماً على تأويلها وتفسيرها .

فقلت لها :

ـ لكنها ستمطر !

ووجدت لذةً في إنكارها تخوفاتي . وبالفعل ، وبمحض الصدفة ، بقي الطقس جميلاً طوال الوقت الذي كنا نقطع فيه اللكسمبور . وبعد قليل ، ظهرت غيمة داكنة في الجو ، أخذت

الريح تدفعها بسرعة أقلقتني . ثم تساقطت قطرات من المطر ، فركبنا للحال عربة صغيرة . وعندما وصلنا إلى الشارع ، انقطع المطر عن السقوط ، وعاد إلى السماء صفاؤها . ولدى وصولنا إلى المتحف أردت أن أصرف العربة ، ولكن فيدورا رجتني أن أبقيها في انتظارنا . . . لكم تعذبت ! . . . كنت أحدثها كالمحموم ، وأنا أحاول إخفاء انفعالي وراء ابتسامة حمقاء ، وأتنزه معها في الحديقة ، وأقدامنا تطأ الممرات المرصوفة بالحجارة ، وذراعها تستند إلى يدي . كان في كل هذا شيء غريب ، بل قل انه حلم في فيضٍ من النور . ولم يكن في مشيتها ووقوفها حب أو عذوبة ، رغم ما يوحيه شكلها من الاغراء والاغواء . وعندما كنت أحاول الاطلاع على بعض تفاصيل حياتها ، كان يصدني ويرجعني عن عزمي ذكاء مفرط حاد ، يعرف كيف يكتم الأمور ويضلل السائل الفضولي . . . عندما تكون المرأة بلا قلب ، فانك لا تجد شيئاً من الميوعة في حركاتها . وهكذا ، فانه لم تكن تجمع بيننا إرادة واحدة ، حتى ولا خطوات واحدة . وليس هنالك كلمات تقوى على التعبير عن الاختلاف والتناقض بين كائنين ، لأننا لم نعتد بعد قراءة فكرة في حركة . وهذا الحادث الحسي نشعر به بشكل غريزي ، ونعجز عن إيضاحه بالكلمات .

وصمت رفائيل فترة من الوقت ، ثم أضاف كأنه يجيب عن سؤال طرحه على نفسه :

ـ لم أحلل شعوري وملذاتي وأنا في غمرة أشواقي الشديدة هذه ، ولم أفحص دقات قلبي كما يفحص البخيل نقوده الذهبية

ويزنها . ان خبرتي تلقي اليوم أنوارها الضعيفة على الحوادث الغابرة ، وتعيد صورها الذكرى إلى خاطري ، كما تعيد أمواج البحر إلى الشاطىء في أوقات الصفاء بقايا مركب حطمته العاصفة .

وقالت الكونتيس ، وهي ترمقني بنظرة يكسوها الخجل :

ـ تستطيع أن تقدم لي خدمة ذات أهمية كبرى . فبعدما أبلغتك بقرفي من الحب ، أشعر أنه أصبح لي الحق أن أختبرك وأرى إذا كان في إمكانك أن تقدم لي هذه الخدمة .

ثم أضافت وهي تبتسم :

ـ ألا ترى أن تأدية هذه الخدمة تجعلني مدينة لك ؟

نظرت إليها بألم وحسرة . ولم أشعر بعطفٍ نحوها ، لأنها لم تكن تتفجر عاطفة ، بل بدت لي ماكرة خبيثة . وظهرت كأنها تقوم بدور ممثلة حاذقة . كانت لهجتها ، أو نظرة منها ، أو كلمة تتفوه بها ، تعيد إليّ آمالي . وإذا كان حبي الشديد يتلألأ في عيني ، فان قوة نظراتي لم تكن لتقوى على تعكير صفاء نظراتها . كانت عيناها كعيني نمر ، مصفحتين بصفائح معدنية . لكنني في تلك اللحظة شعرت بأنني أزدريها وأحتقرها .

وتابعت كلامها بنبرات صوت مملوء بالتملق :

ـ إن حماية دوق نافاران تؤدي لي خدمة جلى لدى شخصية قوية معروفة في روسيا ، وان تدخل دوق نافاران المباشر هو ضروري لاعطائي حقي في إحدى الدعاوى التي لها علاقة بثروتي ومنزلتي الاجتماعية . اني أسعى إلى حمل الامبراطور على الاعتراف بزواجي . أليس دوق نافاران قريبك ؟ إن رسالة منه تحلّ القضية .

فأجبتها :

ـ أنا في تصرفك . لك أنْ تأمري وعليّ أن أطيع .

فقالت ، وهي تشد على يدي بكلتا يديها :

ـ إنك لطيف جداً . أرجو أن تشاركني غدائي اليوم . وسأطلعك على كل شيء ، كأنني في منبر الاعتراف .

. . . إن هذه المرأة الحذرة الغامضة ، التي لم تبح لأحد بسر واحد من أسرارها ، قد عزمت على استشارتي !

فهتفت صارخا :

ـ آه !ـكم أحب الآن الصمت الذي فرضتِه عليَّ ! ولكن كنت أود لو يكون الاختبار أقسى !

في هذه اللحظة أخذت تتقبل اللهيب الذي يتدفق من نظراتي ، وبدت كأنها معجبة بي . فهي تحبني إذن ! ووصلنا إلى منزلها ، وتمكنت نقودي القليلة من إرضاء الحوذي .

أمضيت النهار بكامله معها .

كانت هذه أول فرصة تسنح لي للقائها على انفراد . إذ أنه كان يحول بيننا العالم ، وتهذيبها المخيف ، وأساليبها الباردة ، حتى في ولائمها الفخمة . غير أنني شعرت في تلك اللحظات بأنني أمضيت حياتي تحت سقف بيتها ، واعتقدت أنها لي ولي وحدي . وراح خيالي الخصيب يحطم الحواجز ، ويكيّف حوادث الحياة لتتلاءم مع رغباتي ، ويغرقني في ملذات حب سعيد . وظننتني زوجها ، فأخذت أتأملها وهي مشغولة بأعمال تافهة وهي تنزع قبعتها عن رأسها وشالها عن كتفيها . وتركتني لحظة ، ثم عادت إليّ وقد سوّت

ما تناثر من شعرها ، فبدت ساحرة جذابة . يا لسعادتي ! إن هذا التبرج من أجلي! وأحاطتني أثناء الطعام بانتباه شامل ، وأظهرت نعومة لا حد لها في ألف شيء تافه ، هذه الأشياء التافهة التي يتألف منها نصف الحياة . وعندما جلسنا معاً على مقعد وثير قرب النار المضطرمة ، والبذخ الشرفي يحيط بنا ، وعندما رأيت بالقرب مني هذه المرأة التي طالما دفع جمالها القلوب إلى الخفقان ، هذه المرأة البعيدة المنال ، وعندما سمعت صوتها العذب ، وتأكد لي أنها تتبرج من أجلي ، تحولت سعادتي العذبة إلى ما يشبه الألم . وتذكرت ـ لسوء حظي ـ الأمر المهم الذي كان عليّ أن أتممه في المساء ، ورأيتني مضطراً للذهاب إلى الموعد الذي تعاهدنا عليه البارحة .

فقالت عندما رأتني أستعد لأخذ قبعتي :

ـ هل تذهب الآن ؟

انها تحبني ، ظننت ذلك على الأقل عندما سمعتها تتلفظ بتلك العبارة بصوت مدغدغ . ولكي أطيل مدى انخطافي ، كنت متأهباً للتضحية بسنتين من عمري ثمناً لكل ساعة تمنّ بها عليّ . وسوف تزداد سعادتي بنسبة ما أخسر من مال ! ولم أتركها إلا بعدما أشار عقربا الساعة إلى منتصف الليل .

صباح اليوم التالي كلفتني شجاعتي كثيراً من تبكيت الضمير . فقد ظننت أنني أضعت فرصة تتميم صفقة المذكرات التي أصبحت مهمة جداً بالنسبة إليّ ، فأسرعت راكضاً إلى راستينياك ، وذهبنا لنفاجىء الناشر في الصباح الباكر . وقرأ « فينو » عقداً لم يذكر فيه اسم عمتي . ودفع لي ، بعدما وقعته ، خمسين قطعة ذهبية ،

وتناولنا طعام الفطور معاً . وبعدما دفعت ثمن قبعتي وديوني لم يبق لي سوى ثلاثين فرنكاً ، غير أن جميع مصاعب الحياة كانت قد ذُلّلت لبضعة أيام . ولو شئت أن أصغي إلى راستينياك لكان في وسعي أن أحصل على ثروة كبيرة إذا تبنّيت الطريقة الانكليزية . لقد كان يلح عليّ بالاستدانة ويزعم أن عبقريتي هي آمن رأسمال في العالم .

انقطعت منذ ذلك اليوم عن حياة التنسك والدرس التي عشتها طوال ثلاث سنوات كاملة ، وواظبت على الظهور في بيت فيدورا حيث كنت أحاول أن تنافس أناقتي أناقة هؤلاء الوقحين الذين تتألف منهم حاشيتها . وظننت أني تغلبت على الفقر ، فانصرفت إلى إظهار لباقتي وفني ، فحطمت منافسيّ ، وعُرفت بالرجل الجذاب الفاتن الذي لا يقاوم . لكن الرجال الحاذقين كانوا يقولون وهم يتكلمون عني : « هذا شاب لا يعرف الحب إلى قلبه سبيلاً . إن قوته تكمن في رأسه » . ثم يضيفون : « هل هو سعيد حقاً في انصرافه عن الحب ؟ وهب انه أحب ، فهل تبقى له بشاشته وسرعة خاطره ؟ » .

كانوا يمدحونني على حساب شعوري وإحساسي .

وكنت عاشقاً أرعن في حضرة فيدورا . فهي وحدها تربكني ، وتسلبني قوة تأثيري ، وتبلبل تفكيري ، فيتحول كلامي إلى تفاهات . وكثيراً ما كنت أذم الحب وأتفكّه في اعراضي عنه ، لأن في ذلك إرضاء لها . وكنت أخفي عذابي وشقائي خلف ابتسامة مصطنعة كمتملق يريد أن يخفي غيظه وسخطه . وأخيراً ، فقد كنت أحاول أن أمتزج بتفاصيل حياتها لتغدو لا غنى لها عني لسعادتها

وإرضاء غرورها .

وهكذا واظبت على تمضية نهاري عند فيدورا ، ثم أعود إلى غرفتي وأعمل طوال الليل . ولم أكن أنام سوى ثلاث ساعات في الصباح . ولم أتبع الطريقة الانكليزية على غرار راستينياك ، فوجدتني بعد أيام قليلة خاوي الوفاض لا أملك فلساً واحداً . ومنذ ذلك الوقت ، يا صديقي ، أصبحت مختالاً بلا ثروة ، وأنيقاً بلا مال ، وعاشقاً مهملاً . وعدت إلى عدم الاستقرار ، وإلى ذلك الشقاء العميق الذي نخبئه خلف مظاهر الأناقة الخادعة . وشعرت أن عذابي الأول يهاجمني بضراوة وقسوة ، وصرت أكتفي بالشاي والحلويات التي تقدمها فيدورا لضيوفها . وأحياناً كانت الولائم الفخمة التي تقيمها تكفي لغدائي طوال يومين كاملين .

وكنت أستعمل وقتي ، وأستخدم علمي وقوة ملاحظتي ، لأتغلغل إلى مجاهل نفس فيدورا ، وأدرس درساً وافياً طباعها وشمائلها وأخلاقها ، فيتنازع الرجاء واليأس في كياني ، تارة أرى فيها المرأة العاشقة التي تفوق أبناء جنسها شعوراً وإحساساً ، وطوراً تبدو جامدة متبلدة الشعور ، فيعذبني جمودها ويضنيني عدم اكتراثها . وأحببت أن أفتش عن خاتمة لهذه المعركة القاسية التي تدور رحاها في أعماقي ، فلم أجد أنسب من التغلب على قلبي ودفن حبي إلى الأبد . ومرات كانت بعض الأضواء المشؤومة تلمع أمام عيني ، فتريني الهوة التي تفصل بين فيدورا وبيني .

كانت الكونتيس تؤكد لي مخاوفي . ولم يحدث أن فاجأتها والدمع في عينيها ، فهي تحتفظ ببرودها وجمودها حيال أكثر المشاهد

تأثيرا ، وتحتفظ بكل إحساسها ونعومتها لنفسها . ولم تكن تشعر بتعاسة الآخرين أو سعادتهم ، فأصبحت لعبة طيعة بين يديها .

وشعرت بأنني أفقد عزة نفسي عندما ذهبت إلى مقابلة دوق نافاران ، هذا الرجل المتعجرف الذي كان يخجل من فقري ويمقتني ويبغضني . فاستقبلني بذلك التهذيب الجاف الذي يعطي الكلمات والاشارات مظهر الاحتقار . فحركت نظراته القلقة شفقتي ، وخجلت من حقارته في عظمته ، ومن فقره في ثرائه وترفه . وراح يكلمني عن الخسائر المادية التي مُني بها أخيراً . فأفهمته سبب زيارتي . وكم كانت دهشتي عندما رأيته يتحول إلى شخص نبيل يفيض إحساساً وشعوراً .

نعم ، يا صديقي ، إن الدوق حضر بنفسه إلى فيدورا ، فاستقبلته الكونتيس بحفاوة ليس بعدها حفاوة ، ورأت فيه سحراً ليس بعده سحر ، وفاوضته في قضيتها السرية التي لم أفهم منها كلمة واحدة . لقد كنت وسيلة لها وحسب . وأصبحت تتجاهل وجودي عندما يكون قريبي عندها ، وأمسى استقبالي في بيتها بارداً فاتراً . وفي إحدى الأمسيات تعمدت اهانتي بحضور قريبي ، بنظرة من تلك النظرات التي يعجز الكلام عن وصفها ، فتركت البيت باكياً ، وأنا أعد ألف مشروع للانتقام ، وأرسم خططاً فضائحية ، و . . .

وغالباً ما كنت أرافقها إلى الحفلات الموسيقية فأجلس إلى جانبها متأملاً جمالها المشرق ، وأنا استمع إلى الموسيقى ، فتغرق نفسي في لذة الحب وفي لذة انسجام خفقات قلبي مع أنغام الموسيقيين . وكثيراً ما كنت آخذ يد فيدورا بيدي ، وأدرس

تقاطيعها ، وأطيل النظر إلى عينيها ، وأنا آمل أن تتكلم يدها وتلين نظراتها . ولكن يدها كانت خرساء ، ونظراتها جامدة لا تعبر عن شيء . وإذا ما صفعتها النار المضطرمة في قلبي بقوة على وجهها ، فانها ترميني بتلك الابتسامة المصطنعة التي تلجأ إليها السيدات في قاعات استقبالهن . لم تكن تصغي إلى الموسيقى ، ولم يكن في وسع الحان روسيني أو سيماروزا أن تولد فيها عاطفة أو تعيد إلى قلبها ذكرى بعض ساعات حياتها ، لأن نفسها مجدبة قاحلة . كانت تبدو هناك كمشهد ضمن المشهد ، أما نظراتها فانها تنتقل دائماً من مقصورة إلى مقصورة ، مضطربة رغم مظهرها الهادىء ، فقد كانت ضحية الأزياء ، لا يهمها من الحياة سوى مقصورتها ، وقبعتها ، وعربتها ، وشخصها .

كثيراً ما تصادف ، يا عزيزي ، أشخاصاً ضخام الجثة يخفون بين طيات أجسامهم البرونزية قلوباً رقيقة لينة . أما فيدورا ، فقد كانت تخفي قلباً من البرونز في جسم لدن غض . وإذا كان الاستقبال الحسن يتوقف على نكران الذات ، وعلى مزج الصوت والحركات بعذوبة دائمة ، وعلى إرضاء الآخرين بإثارة اهتمامهم بأنفسهم ، فان فيدورا لم تكن تقوى على التنكر لنقائص منبتها السوقي . فلقد كان نكرانها لذاتها مغلوطاً ، وأساليبها مكتسبة وليست طبيعية فيها . وتعود ضيوفها أن يروا في كلامها المعسول علامة الطيبة ، وفي مبالغتها الوقحة التفاتاً نبيلاً . وأنا ، أنا وحدي أشبعت أساليبها درساً وعريت نفسها من الغشاء الشفاف الذي تستتر به عن الناس . لم يكن يخدعني تمثيلها وغشها . وكنت أعرف

معرفة حقيقية أن لها نفساً ماكرة كنفس قطة . وإذا حاول أحد الحمقى أن يطنب في مديحها ، أو أن يتملقها ، كنت أخجل عنها . ورغم هذا ، كنت أحبها حب رجل وعاشق وفنان ، وآمل أن أذيب برودها وجمودها تحت دفء جناحي شاعر . واعتقد أنه كان في إمكان رجل غبي مزهو بنفسه أن يظفر بها ، لأنها بعبثها وتصنعها فريسة سهلة لشباك مخادع مخاتل . وكثيراً ما اخترقت قلبي نصال الألم والأسى ، وأنا أسمعها تعبر لي بسذاجة عن زهوها وغرورها . وفي إحدى الأمسيات وجدتها قلقة مضطربة ، لا تعرف إلى من تمد يدها ، ولا تجد مكاناً تريح عليه نظراتها ، فتجرأت ووصفت لها ، بصورة شعرية ، شيخوختها المقفرة الفارغة الحزينة . فأجابتني بهذه الكلمات القاسية :

ـ سأكون دائماً صاحبة ثروة كبيرة ، ويستطيع الذهب أن يخلق لنا العطف الذي نحن في حاجة إليه .

تركتها مصعوقاً مدهوشاً من منطق هذا الثراء وهذه المرأة ، وهذا العالم ، وأنا ألوم نفسي على انسياقي الأعمى وراء الحب . . . لم أكن أحب بولين الفقيرة ، ولكن ، هل كان يحق لفيدورا الغنية أن تعرض عني وعن حبي ؟ إن الضمير القاضي العادل كان يصرخ فيّ قائلاً : « فيدورا لا تحب أحداً ولا تعرض عن أحد . إنها الآن حرة ، ولكنها أسلمت نفسها في ما مضى إلى إغراء الذهب وأمتلكها الكونت الروسي كزوج أو كعاشق . ولن تخلو حياتها من تجربة جديدة ، فانتظرها ! » . لم تكن فاضلة ولم تكن خاطئة . بل كانت تعيش بعيدة عن الناس في دنيا أوجدتها لنفسها . ومن يدري ؟ فقد

تكون حياتها فردوساً أو جحيماً .

هذا السر النسائي المغلف بالكشمير والذهب ، جعل من قلبي مسرحاً لجميع العواطف الانسانية : التعجرف ، والطموح ، والحب ، والفضول . . .

وأسرت لي الكونتيس برغبتها في مشاهدة وجه أحد الممثلين المغرورين . وكان لي الشرف بمرافقتها إلى أول حفلة أقامها هذا الفنان . وكان ثمن البطاقة مئة سنتيم وأنا أملك فلساً واحداً . وكان راستينياك ، ملاكي الرحيم ، غائباً عن باريس ، ولم أجرؤ على الذهاب إلى « فينو » لأطلب إليه أن يدفع لي ما تبقى من ثمن المذكرات . وكان هذا العوز الدائم يسيء إلى حياتي ويكدرني . ومرةً ، عند خروجنا من حفلة موسيقية ، أخذ المطر يتساقط مدراراً ، فدعتني فيدورا إلى ركوب العربة ، دون أن تدع لي مجالاً للاعتراض ، ولم تقم وزناً لاحتجاجاتي ، ولحبي السير تحت المطر ، ولا لرغبتي في الذهاب إلى اللعب . ولم تكتشف إفلاسي وعوزي في ارتباكي ، ولا في كلامي الساخر . والتهبت عيناي ، وصار لونهما بلون الدم . ولكن ، هل تفهم فيدورا معنى نظرة واحدة من هذه النظرات ؟ وهل تدري أن حياة الشباب تخضع لأهواء لا حصر لها ؟ وراحت العربة تقطع بنا الطريق وأنا نهب أفكار محزنة تمزق قلبي . وصور لي خيالي الجامح ان في وسعي أن أقتلع خشبة من أسفل العربة وأرمي بنفسي إلى الأرض دون أن تشعر فيدورا بي . لكنني ما لبثت أن ضحكت من حماقاتي . وبقيت هادئاً متجهم الوجه كرجل مكبل بالحديد . ولدى وصولي إلى بيتي ، حاولت أن أتمتم ببعض

الكلمات ولكن بولين قاطعتني قائلة :

ـ إن لم تكن تملك مالاً . . .

آه ! أنّى لموسيقى روسيني أن تكإن شديدة الأسر كهذه الكلمات ! . . .

ولكي أقوى على مرافقة الكونتيس إلى « فينانبول » فكرت برهن السلسلة الذهبية التي تحيط برسم أمي . ولكنني كنت أنظر إلى محل الرهونات نظرتي إلى سجن مخيف . إذ إنه في نظرة الرجل الذي تسأله بعض المال شيء يؤذيك . وبعض القروض تكلفنا شرفنا ، كما أن الرفض الذي نسمعه من فم صديق ينتزع منا آخر أوهامنا الحبيبة . . . كانت بولين لا تزال ترسم ، وكانت أمها راقدة . وألقيت نظرة عجلى على السرير ، فحسبت أن مدام غودوان تغرق في سبات عميق ، عندما رأيت وجهها الشاحب الهادىء يرتاح على الوسادة .

ووضعت بولين فرشاتها على الطاولة وقالت لي :

ـ قلبك يثقله الحزن .

فأجبتها :

ـ يا طفلتي المسكينة ، تستطيعين أن تؤدي لي خدمة جليلة .

فوجهت إليّ نظرة تطفح بالسعادة ، جعلتني أرتجف . ـ ترى ، هل هي تحبني ؟

ثم أضفت :

ـ بولين . . .

وجلست إلى قربها وغمرتها بنظرات فاحصة مدققة ، ففهمت

قصدي وأرخت أهداب عينيها . وبقيت أتفحصها وأنا أقرأ ما سطر على صفحة وجهها البريء الساذج وقلت :

- هل تحبينني ؟

فهتفت صارخة :

- أحبك قليلاً . . . يعني . . . لا أحبك مطلقاً .

لم تكن تحبني . فلهجتها الساخرة ، وعذوبة الحركة التي صدرت عنها كانتا تفصحان عن عرفان الجميل . فأطلعتها عندئذٍ على أسباب شقائي . وعلى الارتباك الذي أجد فيه نفسي ، ورجوتها أن تساعدني .

- لماذا لا تريد يا سيد رفائيل أن تذهب إلى محل الرهونات وتدفعني أنا إلى اللجوء إليه ؟

كسا الاحمرار وجهي ، وخجلت من منطق هذه الطفلة ، غير أنها ما لبثت أن أخذت يدي بيدها ، كأنها تحاول بمداعبتها أن تعوّض عما سبّبه لي تصريحها من عذاب ، ثم قالت :

- لا عليك ، كنت لأذهب بكل طيبة خاطر ، ولكن لا لزوم لذلك ، لقد وجدت خلف البيانو ، هذا الصباح ، قطعتين من فئة المئة سنتيم ، كانتا قد سقطتا هناك دون علم منك ، فأخذتهما ووضعتهما على الطاولة .

ورفعت الأم الطيبة رأسها عن الوسادة ، وقالت :

- اعتقد أنك بانتظار بعض المال ، يا رفائيل ، أستطيع والحالة هذه ، إقراضك بعض القطع الذهبية .

فهتفت وأنا أضغط يد بولين بين يدي :

ـ آه ! بولين . . . كم أود أن أكون غنياً !

فأجابتني بلهجة صادقة :

ـ باه ! ولماذا تعشق المال ؟

وراحت يدها ترتجف في يدي ، تجيب على خفقات قلبي ، ولكنها ما لبثت أن سحبت أصابعها وأخذت تتأمل في أصابعي وقالت :

ـ ستتزوج امرأة غنية ، ولكنها ستسبب لك كثيراً من الآلام . آه ! يا الله ! انها ستسبب لك الهلاك . . . انني متيقنة مما أقول .

كان في صوتها نوع من الايمان بخرافات أمها الجنوبية .

ـ أنت ساذجة جداً وتؤمنين بالخرافات !

فأجابت ، وهي ترمقني بخوف :

ـ آه ! انني متيقنة مما أقول . . . المرأة التي تحبها ستسبب لك الهلاك .

ثم عمدت إلى فرشاتها ، فأخذتها وغمستها في الألوان . واستولى عليها تأثر عميق وأشاحت بنظرها عني . . . في تلك اللحظة كنت أحب أن أعتقد بالأوهام ، ولكن ، أليس حقيراً الرجل الذي يؤمن بالخرافات ؟ أليست الخرافة رجاء في أكثر الأحيان ؟ ولما دخلت إلى غرفتي وجدت على المكتب قطعتين ذهبيتين نبيلتين ، بدا وجودهما غريباً جداً . وفي غمرة من أفكاري الغامضة ، وأنا مستلق على فراشي أحاول النوم ، جربت أن أعيد النظر في نفقاتي ، علني أهتدي إلى إيضاح يبرر لي وجود هاتين

القطعتين الذهبيتين . ولكن النوم أثقل جفنيّ فوقعتْ تحت سلطان الكرى قبل أن أصل إلى نتيجة مقنعة . وجاءتني بولين صباح اليوم التالي ، وأنا أستعد للخروج ، لأذهب إلى المسرح وأحجز مقعدين .

وقالت الفتاة الفاتنة اللطيفة ، وقد اكتسى وجهها بالاحمرار :

ـ قد لا تكون العشرة فرنكات كافية . لقد كلفتني أمي بحمل هذا المبلغ الزهيد إليك .

ووضعت على الطاولة ثلاث قطع ذهبية ثم حاولت الفرار ، لكنني لم أدعها تترك الغرفة . . . وجفف الاعجاب الدموع التي اغرورقت بها عيناي وقلت لها :

ـ بولين ! إنك ملاك . ان هذا القرض لا يؤثّر فيّ كما تؤثر قوة العاطفة التي تدفعك إلى تقديمه . كنت أرغب في امرأة غنية ، متأنقة ، تحمل لقباً . أما الآن فلم أعد أتمنى إلا أن أمتلك الملايين ، وألتقي بابنة فقيرة مثلك ، وغنية مثلك بقلبها وعواطفها . يجب أن أتخلص من شوق قاتل يؤرقني ، ومن يدري ؟ فقد تكونين على حق .

فأجابت :

ـ يكفي . . .

وتركت الغرفة هاربة . كان صوتها الملائكي العذب ، ومشيتها الرشيقة يحدثان إيقاعاً على درجات السلم . فقلت في نفسي وأنا أفكر في العذاب الذي أقاسيه منذ شهور : « يا لسعادتها ! إنها لا تحب » .

الخمسة عشر فرنكاً التي قدمتها لي بولين كانت ثمينة جداً ، بل قل ان قيمتها لا تقدّر . . .

فكرت فيدورا ان القاعة التي علينا أن نمضي فيها بضع ساعات ستكون شديدة الازدحام ، فتأسفت لأنها لم تجلب معها باقة زهور ، ذهبت واشتريت لها زهوراً ، وحملت إليها حياتي وثروتي .

شعرت بتبكيت الضميروبالسرور معاً ، وأنا أقدم لها الباقة التي أوضح لي ثمنها ما تتطلبه الاناقة الاصطناعية من مال . وبعد قليل شكت من قوة رائحة زهرة ياسمين مكسيكية وأظهرت قرفها من القاعة ، عندما وجدت نفسها جالسة على لوح خشبي ، ولامتني لأنني قدتها إلى هذا المكان . وأرادت أن تغادر القاعة . وتركتها فعلا . . . لقد جعلتني أبذر شهرين من حياتي ، وفرضت عليّ ليالي أقضيها ساهراً ، دون أن يرضيها شيء !

ولم يسبق لي أن رأيت تلك الشيطانة طافحة عذوبة كتلك الليلة . في طريق العودة جلست إلى قربها في عربة صغيرة ، أتنشق أنفاسها ، وألمس قفازها المخضب بالعطور ، وأحدّق في كنوز جمالها الفريد . في تلك اللحظة سمح لي شعاع من النور برؤية أعماق حياتها السرية . وتذكرت فجأة كتاباً حديث الطبع لشاعر ، فهي تجسد حقيقي لتمثال « بوليكلاس » [1] . وتوهمت أنني أرى ذلك القزم الذي ينتحل تارة شكل ضابط يروض جواداً جموحاً ،

---

(١) نحات يوناني له ، من جملة ما له ، تمثال يصور الخنثى ، وهو ما يشير إليه بلزاك هنا .

ويتجسم طوراً في هيكل شابة تتبرج أمام مرآتها ، وتغمر باليأس قلوب عشاقها ، أو عاشق تيأس من حبه فتاة عذبة متواضعة .

ولما عجزت عن حل لغزها بطريقة أخرى ، رحت أخبر فيدورا قصة ذلك القزم . إلا أن شيئاً منها لم يظهر أي تشابه مع هذا الشعر المستحيل ، وقد تسلت بالقصة كما تتسلى طفلة بحكاية من حكايات « ألف ليلة وليلة » .

وخاطبت نفسي وأنا في طريقي إلى غرفتي : « لكي تقوى فيدورا على مقاومة حب شاب في عمري ، ولكي تستطيع الصمود أمام هذه النار التي تنسل من نفس إلى نفس ، يجب أن تكون محروسة ببعض الأسرار . فهل هي مثل لادي دلاكور يلتهم جسدها السرطان ؟ إن حياتها ولا شك حياة اصطناعية .

وعندما خطرت لي هذه الفكرة شعرت بالبرد . ثم هيأت مشروعاً جنونياً قد لا يفكر فيه عاشق غيري . فلكي أفحص جسم هذه المرأة كما درست نفسها وقلبها ، ولكي أتمكن من معرفتها نفسانياً وجسمانياً ، قررت أن أمضي ليلة في غرفة نومها دون أن تشعر بوجودي . وإليك كيف نفذت هذه الفكرة التي كانت تفترس نفسي كما يعضّ شوق الثأر قلب راهب كورسيكي .

في اليوم الذي خصصته فيدورا للاستقبال ، كانت قاعات دارتها تضم عادة جمعاً غفيراً ، حتى يغدو من المستحيل على البواب تنظيم الدخول والخروج . فتأكد لي أنه من الممكن أن أبقى في البيت ، في مثل هذا اليوم ، دون أن أسبب فضيحة . وانتظرت بفارغ صبر السهرة التي تقيمها الكونتيس في اليوم التالي . ووضعت

في جيب صدرتي ، وأنا أستعد للسهرة ، سكيناً انكليزياً لأنه لم يكن لدي خنجر ، ولأنني لم أكن أدري أين ستقدوني مغامرتي الجنونية ، وكنت حذراً ، فلم أشأ أن أذهب بلا سلاح .

بدأت القاعات تغصّ بالضيوف ، فانسللت إلى غرفة النوم ، ودققت في فحص كل شيء . ورأيت النوافذ مقفلة ، فأرخيت السجف دون أن يشعر بي أحد ، وقد كان في ذلك مخاطرة ولا شك . وانتصف الليل ، فعدت إلى غرفة النوم واختبأت في فرجة إحدى النوافذ . وتمثلت لي خطورة هذا الوضع الذي اتخذته وقوة هذه المغامرة التي يدفعني الطيش إلى إتمامها ، ومكثت واقفاً لا أشعر بالتعب ، مرتجفاً من أن يفاجئني السعال فيفضحني . وبقيت هكذا منتظراً اللحظة الخطيرة ، كعنكبوت في بيتها . وكان موسلين السجف الأبيض المرخى أمامي يؤلف ثنايا تشبه أنابيب الارغن ، فأحدثت فيه ثقوباً صغيرة بسكيني ، لأتمكن من رؤ ية كل شيء .

كنت أسمع في مخبئي ضحكات المتحدثين ونبرات أصواتهم ولكن هذه الضجة ما لبثت أن أخذت تخف شيئاً فشيئاً . ودخل بعض الرجال إلى غرفة نوم الكونتيس ، ليأخذوا قبعاتهم التي كانت على المشجب بالقرب مني . وكنت ، كلما لمس أحدهم السجف ، أرتجف في مخبئي ، وأنا أفكر في ما يلجأ إليه هؤلاء الرجال في التفتيش في هذا المكان . ومن يدري ؟ فقد يدفعهم حظي العاثر إلى العثور عليّ ، وهناك الطامة الكبرى والبلية العظمى . وتيقنت من نجاح مغامرتي ، عندما دخل إلى الغرفة أحد عشاق فيدورا القدماء

وأخذ القبعة الأخيرة من المشجب ، وظن العاشق نفسه وحيداً ، فنظر إلى السرير نظرة تنم عن شوق مكبوت ، وزفر زفرة محرقة ملهبة . ولم يبق بالقرب من الكونتيس في غرفة زينتها المجاورة لغرفة النوم سوى خمسة أو ستة أشخاص ، فعرضت عليهم أن يشربوا الشاي . وكشرت النميمة عن أنيابها ، هذه النميمة التي لم يعد المجتمع يؤمن إلاّ بها ، وامتزجت الأحاديث بأصوات الملاعق تحرك السكر في الشاي . وبعد قليل انطلقت الضحكات الرنانة ، وكان سبب انطلاقها راستينياك ، بنكاته الحادة ضد منافسي وأعدائي ، نكاتهم التي لا رحمة فيها ولا شفقة .

وقالت الكونتيس ضاحكة :

ـ السيد راستينياك من الرجال الذين يجب أن لا يتخاصم المرء معهم .

فأجاب راستينياك بسذاجة :

ـ أعتقد هذا . . . لقد كنت دائماً على حق في حقدي وبغضي وفي صداقتي . ومن يدري ؟ فقد يستخدمني أعدائي كما يستخدمني أصدقائي . ولا أكتم أنني درست درساً وافياً اللهجات العصرية ، والتصنع الطبيعي ، وكل ما يستعمل للدفاع أو الهجوم ، فالفصاحة إذن هي تقدم اجتماعي محسوس . ليس هنالك صديق دون نقائص . ولكنك لا تتكلمين سوى عن شرفه وصراحته . وقد يكون كتاب صديق آخر سمجاً لا يستحق الاعتناء ، ولكنك تتكلمين عنه كعمل أدبي متقن . وقد يكون أحدهم بلا إيمان ، وبلا أخلاق ، ويهرب منك كل لحظة ، لكنك

تنعتينه بالاغراء والسحر والسخاء . أما إذا كان الأمر يتعلق بأعدائك ، فانك تلبسينهم عيوب الأحياء والأموات ، وتصبحين ماهرة بارعة في اكتشاف نقائصهم كما كنت ماهرة بارعة في إبراز فضائل أصحابك . ان تطبيق هذه القاعدة في أحاديثنا هو فن افراد الحاشية ، فإذا لم نلجأ إليه ، فهذا يعني أننا نريد الحرب ، ونحن عزّل ، ضد أناس مدججين بالسلاح والحديد كالفرسان . أما أنا فاني ألجأ إلى هذه القاعدة ، وأسرف في استعمالها أحياناً ، وهكذا أحظى باحترام الآخرين أنا وأصدقائي . . . وأضيف أيضاً : ان حسامي يعادل لساني .

كان بين هذه المجموعة واحد من المعجبين المتيمين بفيدورا ، وهو شاب معروف بوقاحته التي يستعملها وسيلة لتحقيق مآربه . فبدأ يتكلم عني ، ويمدح عبقريتي ، ويثني على شخصي ، بلهجة يتخللها الخبث والمراوغة . وخدعت الكونتيس بهذا المديح ، وتناولتني بأنيابها الحادة ، وراحت تمزقني لتسلي أصدقاءها وحدثتهم عن أسراري ، وعما أصبو إليه من آمال .

فقال راستينياك :

ـ إن مستقبلاً رائعاً ينتظره ، وقد يتمكن يوماً من الانتقام . وأعتقد أن عبقريته تعادل شجاعته . وهكذا ترون كم يجب أن يتحلى بالشجاعة من يهاجمه . ولا أكتمكم أن له ذاكرة لا تخونه .

وقالت الكونتيس ، وقد آلمها أن يخيم الصمت فجأة على الحاضرين :

ـ ويكتب مذكرات أيضاً .

فأجاب راستينياك :

ـ انها مذكرات كونتيس زائفة . واعتقد انه بحاجة إلى نوع آخر من الشجاعة لكي يقوى على كتابتها .

فقالت الكونتيس :

ـ اني اعترف له بالشجاعة ، وهو مخلص أمين .

وأردت ان أظهر نفسي فجأة للضاحكين الساخرين ، كشبح « بانكو » في مسرحية « مكبث » . لقد أضعت عشيقتي ولكنني تأكدت ان لي صديقاً ! غير ان الحب عاد فهمس في أذني كلماته التي يقوى بها ان ينيم جميع الآلام . ثم فكرت لحظة : اذا كانت فيدورا تحبني ، ألا يجب ان تخفي عطفها خلف دعابة تحط من شأني ؟ كم من مرة غالط القلب ما يتفوه به الفم من سخافات !

ووقف منافسي الضعيف يريد الخروج بعدما ذهب الجميع وبقي وحده مع فيدورا .

فقالت له الكونتيس بصوت ملؤه التدليل جعلني أرتجف :

ـ ألا تهبني لحظة أخرى من وقتك ؟ ألم يبق هنالك ما تقوله لي ؟ ألا تضحي في سبيلي ببعض ملذاتك ؟

وانصرف الشاب .

فقالت الكونتيس وهي تتثاءب :

ـ آه ! انهم جميعاً مضجرون .

ثم شدّت حبلاً ، فأسمع الجرس صوتاً في الغرف كلها ، ودخلت الى غرفة نومها وهي تردد لحن أغنية عذبة . ان هذه أعجوبة ولا شك . فلم يسبق لأحد ان سمع الكونتيس تغني ، مما أرخى

العنان لمختلف التأويلات حول امتناعها عن الغناء . ومما قيل انها وعدت عشيقها الأول الذي سحرته أساليبها ، والذي تقلق الغيرة عظامه في قبره ، أن لا تقدم لغيره السعادة التي تذوقها هو وحده .
وأمسكت أنفاسي لكي أصغي إلى غنائها الساحر . كان صوتها يرتفع شيئاً فشيئاً ، وما لبث أن غدا سماوياً . وبدا لي أن الكونتيس تملك ثروة في حنجرتها ، لا تقدر قيمتها . لا اعرف أي نوع من الانسجام كان يتسلل إلى القلب فيدغدغه ويسيطر عليه . ان التي تغني لا بد ان تعرف كيف تحب ! أو ليس الموسيقيون جميعهم عشاقاً ؟ . وأصبحت عذوبة الصوت سراً جديداً في هذه المرأة الغامضة . كنت اراها في تلك الساعة كما أراك الآن . كانت تبدو كأنها تصغي إلى نبرات صوتها ، وتشعر بسرور غريب ، كأنها تشعر بلذة الحب . وتقدمت من المدفأة بعدما أنهت المقطع الأول من أغنيتها ، ولزمت الصمت ، فتغيرت هيأتها . وعبر وجهها عن الضجر والتعب . لقد خلعت قناعها ، بعدما قامت بتمثيل دورها . لكن الذبول الذي كسا وجهها تلك اللحظة ، سواء من تعب الغناء أو من التعب الذي سببته لها السهرة ، كان له سحره .

قلت في نفسي : « هذه هي على حقيقتها » .

وضعت فيدورا قدمها على المدفأة البرونزية ، كأنها تفتش عن الدفء الذي يتسرب من النار المضطرمة . وخلعت قفازها وحلاها . ورفعت عن عنقها قلادة ذهبية مرصعة بالاحجار الكريمة . فشعرت بلذة فائقة . وأنا أراقب حركاتها الشبيهة بحركات القطط التي تتبرج في الشمس . ثم نظرت إلى المرآة وقالت

بصوت مرتفع يتخلله الغضب :

ـ لم أكن جميلة هذا المساء . ان ضياء وجهي يخبو بسرعة غريبة . فيجب ان أهجر هذه الحياة ، وأن آوي إلى فراشي باكراً في المساء . ولكن هل جوستين تضحك عليّ ؟

وقرعت الجرس مرة ثانية فأسرعت إليها خادمتها . أين تسكن هذه الخادمة ؟ لا اعرف لقد وصلت اليها من سلم موارب . وكنت كثير الفضول إلى رؤ يتها ، لأن خيالي كان يصورها لي دائماً فتاة سمراء ضخمة الجثة ، متينة البنيان .

ـ هل قرعت سيدتي الجرس ؟

فأجابت فيدورا :

ـ قرعت الجرس مرتين . هل أصبت بالصمم ؟

ـ كنت أهيء اللبن لسيدتي .

وركعت جوستين أمامها ، وفكت رباط حذاء سيدتها التي كانت تتثاءب وهي مستلقية على كنبة قرب النار ، تحك رأسها بيدها . لم أجد شيئاً غير طبيعي في حركاتها . ولم يظهر لي أي دليل على الألم الذي كنت أظنه مكبوتاً في حنايا صدرها .

وقالت الكونتيس :

ـ ان جورج عاشق سوف اطرده . لماذا لا يرفع السجف إلى الآن ؟ بماذا يفكر ؟

عند هذه الملاحظة تسارعت خفقات قلبي ، وجرت الدماء مسرعة في عروقي .

وأضافت الكونتيس :

ـ الحياة فارغة . آه ! احترسي ان تخدشيني ؛ كما فعلت البارحة ! . ثم أرتها ركبة ناعمة ملساء ، وقالت :

ـ انظري . انها لا تزال تحمل آثار مخالبك .

ثم أدخلت قدميها في خفٍ من المخمل مبطن بالريش الناعم ، وخلعت ثوبها بينما كانت جوستين تستعد لتمشيط شعر سيدتها .

ـ يجب ان تتزوجي يا سيدتي ، وأن تنجبي .

فصرخت الكونتيس قائلة :

ـ أتريدين أن أنجب ؟ لم يعد ينقصني إلا هذا لأنتهي كامرأة . افترضي انني أردت أن أفتش عن زوج ، فمن هو الرجل الذي استطيع انْ . . . ؟ هل كان تصفيف شعري جميلاً هذا المساء ؟

ـ ولكنه جميل جداً ، يا سيدتي .

ـ انك حمقاء .

فقالت جوستين :

ـ يجب ان تضفري شعرك دائماً على شكل حلقات كثيرة ناعمة لأن التجعيد يخفف من وطأة جماله .

ـ أصحيح ما تقولين ؟

ـ نعم ، ياسيدتي . الشعر المجعد المضيء لا يليق إلا بالشقراوات .

ـ لا . لا . لن أتزوج . الزواج تجارة لم أخلق لها .

يا للمشهد المريع بالنسبة إلى عاشق متيم . امرأة تعيش

وحيدة بلا أهل وبلا أصدقاء . كفرت بالحب ولم تعد تؤمن بأية عاطفة . ومهما تكن ضعيفة فيها حاجة البوح ، فانها لا تزال تعاني منها . ولارضاء هذه الحاجة ـ الطبيعية لجميع المخلوقات ـ ها هي مضطرة لمباسطة وصيفتها والتفوه بكلمات جافة باردة لا معنى لها .

انتهت جوستين من عملها ، ورحت أحدق في فيدورا بفضول ، وهي تخلع ثوبها الأخير ، فأذهلني جمال خصرها الذي يشبه خصر العذراء . وظهر جسمها الأبيض ، خلال قميصها الشفاف ، وعلى ضوء الشموع ، متلألئاً كتلؤلؤ تمثال من الفضة تحت غطاء شفاف . لا ! لا ! ليس هنالك عاهة تجعل الحب حراماً عليها . وعادت السيدة الى الجلوس قرب النار مفكرة هادئة ، بينما راحت الخادمة تشعل الشمعة الموجودة قرب السرير ، وجلبت جوستين اناء الماء الساخن ، وهيأت السرير ، وساعدت سيدتها على النوم . وبعد وقت طويل ، قضته الخادمة في تتميم رغباتٍ ، ان دلت على شيء ، فعلى حب سيدتها لنفسها ، ذهبت المسكينة إلى غرفتها . وتقلبت الكونتيس مرات عدة في الفراش . كانت مضطربة قلقة ، وتنهدت ، وخرجت من شفتيها انة تدل على ضجرها . ثم قربت يدها من الطاولة ، وأخذت عنها اناء صغيراً يحتوي على سائل بني اللون ، وأفرغت منه أربع أو خمس قطرات من اللبن قبل ان تشربه ، وأخيراً ، وبعدما زفرت زفرة حارة ، هتفت صارخة : « يا الله ! » .

حطّم قلبي هتافها ، وخصوصاً اللهجة التي اعتمدتها في إرساله . وانقطعت عن الحركة فجأة ، فاستولى عليّ الخوف ، لكنني

ما لبثت أن سمعت أنفاس شخصٍ نائم تتردّد قوية رتيبة . عندئذٍ أبعدت السجف عن النافذة ، وتركت مخبئي ، وتقدمت من السرير ، ووقفت عند قدمي النائمة ، ورحت أنظر إليها بشوق لا يوصف . كانت ساحرة في رقادها ، وكانت تخبىء رأسها بذراعها كطفل . أما وجهها الغارق في الموسلين والذي ينطق بعذوبة فائقة ، فقد ألهب الدماء في عروقي وفكرت : « ماذا يعني أن أكون هكذا قريباً منها وبعيداً جداً عنها ؟ » . وأصبحت مجبراً على احتمال عذاب لم أكن مستعدًّا له : « يا الله » . هتفت قبل قليل . وهذه الفلذة من فكرة مجهولة ألقت ضوءاً على جميع ما شاهدت ونظرت ، وبدلت آرائي بفيدورا . إن هذه الكلمة الكثيرة المعاني ، التي قد تكون صدقاً ، والتي يمكن أن ننسبها إلى السعادة أو إلى العذاب ، إلى آلام جسدية أو نفسية ، أهي لعنة أم صلاة ؟ أهي ماض أم مستقبل ؟ أهي أسف أم خوف ؟ إن حياة كاملة تكمن في هذه الكلمة ، حياة سعادة أو تعاسة ، وتتضمن معنى الجريمة ! وهكذا فإننا نستطيع أن ندرس فيدورا من نواح عدة ، لكنها لا تلبث أن تبدو من جديد غامضة مبهمة .

كانت أنفاسها قوية أو ضعيفة ، ثقيلة أو خفيفة ، فتؤلف نوعاً من الكلام وجهت إليه عواطفي وأفكاري . كنت أحلم معها ، وأحاول التغلغل إلى رقادها ، لاستخلص ألف فكرة عنها ، متضادة متنافرة ، مشوشة . وجعلتني رؤ ية وجهها أفترض المستحيل ، وهو أن هذه المرأة لم تجد إلى الآن قلباً يخفق لقلبها . وصممت على القيام بتجربة أخيرة ، وعلى التحدث إليها بقصة حياتي وحبي

وتضحياتي . ومن يدري ؟ فقد تقوى كلماتي على إيقاظ شفقتها ، وانتزاع دموع هذه المرأة التي لا تعرف ما هو البكاء .

وضعت كل رجائي وآمالي في هذه التجربة الأخيرة . وأعلمتني الضجة التي ارتفعت في الشارع أن النهار قد سطع . ومرت لحظة تمثلت فيها فيدورا تستيقظ بين ذراعي ، وخيل لي انني أستطيع أن أندس في فراشها ، واقترب منها ، وأعصرها بين ذراعي . وعصفت بي هذه الفكرة بضراوة ، ولكي أقوى على كبحها تركت الغرفة راكضاً ، دون أن أبذل أي جهد لأجتنب ضجيجاً قد يوقظ الخدم . وبعد قليل وجدتني أمام باب صغير يفضي إلى الحديقة ، ففتحته واندفعت أهبط الدرج دون أن أنظر ورائي . وما لبثت أن صرت في الشارع ! . .

بعد يومين من هذا الحادث ، كان أحد الكتاب يود أن يقرأ رواية تمثيلية عند الكونتيس ، فذهبت وكلي أمل أن أنفرد بالكونتيس بعد انصراف الجميع ، لأقدم لها مناشدة غريبة . لقد أردت أن أرجوها بأن تسمح لي بتمضية سهرة الغد معي ، وتغلق بابها في وجه جميع ضيوفها .

ولما رأيتني وحيداً معها ، خانني قلبي فزاد خفقاته . وأصبحت كل دقة من دقات الساعة تخيفني وتبلبلني ! ولم يبقَ إلّا ربع ساعة لانتصاف الليل فقلت في نفسي : « إذا لم أكلمها الآن فعليّ أن أحطم جمجمتي على زاوية المدفأة » . لكنني عدت فأعطيت نفسي فرصة ثلاث دقائق للتفكير . ومرّت الدقائق مسرعة فلم أحطم جمجمتي على زاوية المدفأة . . . وكان قلبي مثقلاً كاسفنجة مغمورة

بالماء .

وقالت لي الكونتيس :

ـ إنك كثير اللطف .

فأجبت :

ـ آه يا سيدتي ! لو كان في إمكانك أن تفهميني !

وقالت :

ـ ما بك ؟ ولماذا يكسو الشحوب وجهك ؟

ـ لأني لا أجرؤ أن أسألك نعمة طالما حلمت بها !

وشجعتني بحركة من يدها ، فحدثتها برغبتي .

قالت :

ـ بكل سرور . ولكن ، لماذا لا نتكلم الآن ؟

ـ لكي لا أغشك ، ويجب أن أظهر لك مدى وعودك . أرغب في تمضية هذه السهرة بالقرب منك كأننا شقيق وشقيقة . لا تخافي . أعرف ما تنفرين منه ويغضبك . ولا أشك في أنك تعرفينني معرفة عميقة تسمح لك بالثقة بي ، وتعرفين أيضاً أني لا أضمر لك شرًّا . لقد منحتني صداقتك ، فكنت مخلصة جداً ، مملوءة بالغفران . ولكن اعلمي انه عليّ أن أقول لك غداً : الوداع .

وهتفتُ عندما رأيتها تتأهب للجواب :

ـ لا تنقضي وعدك !

ثم انسحبت .

في إحدى أمسيات شهر نيسان الماضي ، عند الساعة الثامنة ، وجدتني وحيداً مع فيدورا في غرفة زينتها . لم أكن

مضطرباً في تلك الساعة ، بل كنت متيقناً من سعادتي . فعلى عشيقتي أن تكون ملكاً لي ، أو عليّ ان ألتجىء إلى ذراعي الموت . لقد حكمت على حبي الجبان بالموت ، والرجل يشعر بقوة خارقة عندما يعترف بضعفه .

كانت الكونتيس مرتدية ثوباً من الكشمير الأزرق ، ومستلقية على كنبة ، وقدماها ترتاحان على وسادة من المخمل ، وعلى رأسها قبعة شرقية أضافت جاذبية جديدة إلى جسدها الذي تنطق كل جارحة من جوارحه بالاغواء والاغراء . وكان وجهها يتألق بسحر متبدل كأنه يؤكد لنا اننا في كل لحظة كائنات جديدة ، لا علاقة لنا بما نسميه « نحن » في المستقبل ولا بـ « نحن » في الماضي . ولم أكن رأيتها في ما مضى متألقة كما كانت تلك الليلة .

قالت وهي تبتسم :

ـ هل تعرف انك آثرت فضولي ؟

قلت في نفسي : « لن أخدعها » . ثم جلست إلى قربها ، وأخذت يدها بيدي وقلت لها ببرودة :

ـ إن لك صوتاً جميلاً .

ـ لم تسمعه قط .

ـ سأثبت لكِ العكس حينما يغدو ذلك ضرورياً . إن غناءك كثير العذوبة . وإذا كنت تودين أن يبقى هذا الأمر سراً ، فتأكدي أني لن أحاول الكشف عنه .

وبقينا ما يقرب من ساعة نتحدّث حديث انس وألفة . وإذا كنت قد لجأت إلى اللهجة والأساليب والحركات التي يعتمدها

العاشق عادة ، فقد اعتمدت في الوقت نفسه احترام العاشق لحبيبته . وهكذا تمكنت من الحصول على نعمة تقبيل يدها . ثم خلعت قفازها بحركة لطيفة . وكنت غارقاً في نعيم أحلامي التي صورت لي انني ذوّبت نفسي في قبلة ورصّعت بها يدها . وسمحت لي فيدورا بمديحها ومداعبتها باستسلام لا يصدق ، وأرجو ألاّ تنعتني بالحمق إذا قلت لك انها كانت على استعداد لاظهار مخالب القطة ، إذا سوّلت لي نفسي المضي في مداعباتي لها أو ان . . . ولزمنا صمتاً عميقاً استمرّ عشر دقائق ، كنت خلالها أتأملها بإعجاب ، وأسبغ عليها سحراً لم يكن فيها . لقد كانت لي في تلك اللحظة ولي وحدي . وكنت أمتلك هذه المخلوقة الساحرة ، كما كانت تسمح بامتلاكها ، وأحطتها بذراعي ، وضممتها إلى صدري ، أما خيالي الجامح فقد تزوّج منها . لقد انتصرت على الكونتيس بقوة سحر مغناطيسية . وكم ألعن الآن نفسي لأنني لم أخضع تلك المرأة لجميع رغباتي . لكنني تلك اللحظة لم أكن أفكر في جسدها ، بل كان هدفي نفسها وحياتها ، كنت أنشد تلك السعادة المثالية الكاملة ، ذلك الحلم الجميل الذي لا نؤمن به طويلاً .

وأخيراً ، عندما شعرت باقتراب آخر ساعة من ساعات نشوتي ، قلت لها :

ـ سيدتي ! اصغي إليّ . إني أحبّك وتعلمين ذلك جيداً ، وقد ردّدت هذه الكلمات على مسامعك أكثر من ألف مرة . وكان يجب أن تصغي إلى نداء قلبي . لكنني لم أشأ أن أكتسب حبك بإرضاء زهوك وغرورك بنفسك ، ولا باللجوء إلى لجاجة الحمقى ،

ولكنك لم تفهمي قصدي . . . آه ! كم تحملت من أجلك آلاماً أنتِ بريئة منها . ولكن مهلاً ، قليلاً وتصدرين حكمك عليّ . هنالك نوعان من الشقاء ، يا سيّدتي : ذلك الشقاء الذي يسير في الشوارع ، مرتدياً أسمالاً بالية ، والذي يعيد تمثيل « ديوجين » دون أن يعرف ، ويكتفي بالقليل ، ويعيد الحياة إلى أبسط غاياتها . وقد تكون هذه الحياة أوفر سعادة من حياة الغنى ، فهي على الأقل لا يشغلها شاغل وتتبع الزيّ الذي يتخلى عنه الأقوياء . ثم هنالك شقاء الترف ، ذلك الشقاء الاسباني الذي يخفي التسول خلف لقب . فهو متغطرس فخور بصدريته البيضاء وقفازه الأصفر ، يملك العربات ويبدد الثروات . الأول هو شقاء الشعب ، أما الآخر فهو شقاء السارق والملك ورجال الفن . لست ملكاً يا سيدتي ولست سارقاً ، ولست من الشعب . ومن يدري ؟ فقد لا أكون أيضاً رجل فن . وربما كنت شاذاً . . . إن شرفي يأمرني بالموت ولا يدعني أتسوّل .

اكتسى وجه الكونتيس بذلك التعبير البارد الذي يرتسم عادةً على وجوهنا عندما يذهلنا أن نكتشف أسباب التعاسة عند رفاق نحبهم .

وأضفت :

ـ تأكدي يا سيدتي أنني أملك الآن كل ما يلزمني . ولكن ، أتذكرين اليوم الذي أردت أن تأتي فيه إلى المسرح من دوني ، وكلك اعتقاد أن لا تريني هناك ؟

فوافقتني على كلامي بحركة من رأسها .

ـ لقد أنفقت آخر قطعة ذهبية لي ذلك اليوم لأذهب وأراك هناك . . . وهل تذكرين أيضاً النزهة التي قمنا بها معاً في الحديقة العامة ؟ لقد كلفتني أجرة العربة آنذاك كل ما كنت أملك من مال .

وأخبرتها عن تضحياتي ووصفت لها حياتي . وإذا كنت أتكلم الآن تحت تأثير نشوة الخمر فقد كنت أتكلم حينذاك تحت تأثير نشوة القلب النبيلة . وأفصحت لها عن أشواقي بكلمات ملتهبة ، ويفيض من العواطف ، نسيتها الآن . لقد أوحى إليّ حبّي ، بكل قوته وجماله ورجائه ، تلك الكلمات التي كانت تردد صراخ نفسي المحزونة . وكانت نبرات صوتي تشبه نبرات صوت المحتضر الذي يردد صلاته الأخيرة ، بعدما سقط مثخناً بالجراح في ساحة الحرب .

وبكت فيدورا ، فتوقفت عن الكلام . يا الله ! كانت دموعها ثمرة لذلك التأثر الاصطناعي الذي ندفع ثمنه مئة سنتيم عند أبواب المسارح . لقد نجحت إذن في تمثيلي كممثل محترف قدير .

وقالت الكونتيس :

ـ لو كنت عرفت . . .

فقاطعتها صارخاً :

ـ لا تكملي ! . . . ما زلت أحبك في هذه اللحظة حباً يكفي لقتلك !

ومدت يدها لتقرع الجرس ، فانفجرت ضاحكاً ، وأتممت حديثي قائلاً :

ـ لا تكلفي نفسك عناء استدعاء الخدم . لأنني سأدعك تمضين أيامك في هدوء . ولا تخشي من أي عنف . . . لقد أمضيت

ليلة كاملة بالقرب من سريرك دون أن . . .

فقالت ، وقد كسا الاحمرار وجهها :

ـ سيدي . . .

ولكن هذا الحياء الذي هو طبيعة في النساء ، حتى في أقلّهن شعوراً ، لم يدم طويلاً . ثم رمقتني بنظرة احتقار وقالت :

ـ لا بد أن تكون بردت !

فأجبتها وقد حزرت ما يقلقها :

ـ أتعتقدين يا سيدتي أن جمالك الثمين يعادل كل هذا العذاب ؟ ان وجهك يعدني بنفسٍ يفوق جمالها جمالك . سيدتي ! ان الرجال الذين لا يرون في المرأة إلّا المرأة يستطيعون أن يشتروا كل مساء امرأة عبدة جديرة بالقصور ، تقدم لهم السعادة بثمن بخس . ولكنني كنت طموحاً ، وأحببت أن أعيش معك قلباً في قلب ، معك أنت التي لا قلب لها . إنني متأكد من هذا الآن . . . وإذا ما أحببت رجلاً فسأقتله . ولكن ، لا . لا . سأدعك تحبينه ، فقد يموت ويخلف موته في قلبك العذاب .

ثم انفجرت صارخاً :

ـ آه ! كم أتعذب !

فأجابتني ، وهي تتصنع السرور :

ـإذا كان هذا الوعد يعزيك ، فأستطيع أن أؤكد لك الآن انني لن أكون لأحد . . .

فقاطعتها قائلاً :

ـ انك تحقرين الله نفسه ، وسيعاقبك ولا شك . فإذا رأيت

نفسك يوماً ملقاة على كنبة ، لا تقوين على احتمال الضجيج أو الضوء ، محكومة بالحياة في نوع من القبور ، مبليّة بآلام لا حصر لها ، فتذكري ، إذا حاولت التفتيش عما يدعو إلى هذا الانتقام الطويل ، أسباب التعاسة التي بذرتها بسخاء أثناء مرورك . لقد بذرت اللعنات في كل مكان ، فلن تجدي في المقابل إلا البغض والحقد . نحن قضاة أنفسنا وجلادو العدل الذي يملك على هذه الأرض ، ويمشي فوق عدل الناس ، وتحت عدل الله .

فأجابتني ضاحكة :

ـ آه ! اني بلا شك مجرمة لأني لا أحبك . أليس كذلك ؟ هل الذنب ذنبي ؟ لا أحبك لأنك رجل . وهذا يكفي . ولا أكتمك اني أشعر بالسعادة بعيشي وحيدة . لماذا تريدني أن أبدل حياتي ـ حياتي الأنانية إذا أردت ـ بأهواء سيد يخضعني ؟ الزواج سر لا يجلب إلا الأحزان ، ثم ان الأطفال يضجرونني . ألم أنبئك بطبائعي بصدق وأمانة ؟ لماذا لم تقنع بصداقتي ؟ . . . كنت أودّ لو أقدم لك بعض العزاء عن الآلام التي سببتها لك . عندما لم أحزر متاعبك مع حساباتك المالية . انني أقدر مدى تضحياتك ، ولكن الحب وحده يقوى على التعويضّ عن تفانيك ، ونعومتك ، وذوقك . غير أن حبي لك قليل إلى حد أن الوضع الذي نحن فيه الآن يثير اشمئزازي .

فقلت بعذوبة ، دون أن أتمكن من لجم دموعي :

ـ اغفري لي .

ثم أضفت :

- حبي الكثير يدفعني إلى الاصغاء بلذة فائقة إلى الكلمات القاسية التي تلفظت بها . آه ! أود لو أمهر حبي بكل دمي .

فأجابت ضاحكة :

- جميع الرجال يرددون على مسامعنا هذه الكلمات الكلاسيكية . ولكنه يبدو من الصعب جداً الموت عند أقدامنا . . . الساعة تشير إلى منتصف الليل . فهل تسمح لي بالرقاد ؟

فقلت :

- وبعد ساعتين ستصرخين « يا الله » !

فأجابت :

- نعم حدث ذلك قبل يومين . كنت أفكر في قضية تتعلق بأرباحي المالية .

نظرت إليها بعينين يتطاير منهما شرر الغضب . لقد فهمتها على حقيقتها . انها اعتادت سماع الكلمات العاطفية ، فنسيت كلامي ، ولم تعبأ بدموعي .

وسألتها ببرود :

- هل تتزوجين نبيلاً من نبلاء فرنسا ؟

- ان ذلك ممكن شرط أن يكون دوقاً .

فأخذت قبعتي ثم حييتها .

قالت لي بسخرية مؤلمة قرأتها في حركتها ، ووضع رأسها ولهجتها :

- أتسمح لي بمرافقتك إلى الباب ؟

- سيدتي . . .

ـ سيدي . . .

ـ لن أراك أبداً ؟

ـ أرجو ذلك .

فقلت ، وقد استبد بي جنون ولّده في قلبي احتقارها اللاذع :

ـ هل تريدين أن تصبحي دوقة ؟ أحبيني إذن ، وقولي لعلمي أن يتكلم ، ولصوتي أن يدوي من أجلك . كوني ملهمتي ونجمتي المضيئة . ثم لا ترضي لك زوجاً بعد ذلك إلا وزيراً ، أو نبيلاً ، أو دوقاً . سأعمل من نفسي كل ما تريدين أن أكون .

فأجابت باسمة :

ـ أرى انك عرفت كيف تكتسب من الوقت الذي أمضيته في مكتب المحامي . فان دفاعك يتقد حرارة .

فصرخت قائلاً :

ـ لك الحاضر ولي المستقبل . فاني لا أخسر سوى امرأة ، أما أنت فتخسرين لقباً وأسرة ، والوقت يتسع لانتقامي لأنه سيحمل إليك البشاعة والموت ، وحيدة مهملة ، ويحمل لي المجد والانتصار !

فقالت ، وهي تتثاءب وتعبِّر بوقفتها عن شوقها لعدم رؤيتي :

ـ شكراً على هذه الخاتمة .

وفرض عليّ كلامها السكوت ، فرميتها بنظرة حملتها بغضي وحقدي ووليت هارباً . وأصبح يجب أن ينسى فيدورا ، وأن أشفى من جنوني ، وأن أعود إلى وحدتي المنتجة أو أن أموت . وآليت على

نفسي أن أنهي أعمالي المتراكمة ، وان أنتهي من مؤلفاتي . وبقيت خمسة عشر يوماً ملازماً غرفتي ، غارقاً في الدرس والبحث ، ولكن أعمالي كانت تسير ببطء . وتركتني ملكة الالهام ، ولم أستطع طرد شبح فيدورا اللامع الساحر من مخيلتي . ووُلِدت فيَّ أفكار جنونية ، ولم أكن أدري أي شوق يعتلج في قلبي وأي تبكيت ضمير يعذبني ، وأضحت حياتي كحياة نساك « تيباياد » . ولكنني لم أكن أصلي مثلهم . وشعرت أنني بحاجة إلى إحاطة خصري بزنار مسلّح بنتوءات حادة لأروّض الآلام النفسية بآلام جسدية .

وفي إحدى الأمسيات تسللت بولين إلى غرفتي وقالت لي بلهجة التوسل :

ـ إنك تنتحر . . . يجب أن تخرج من هذه الغرفة ! . . إذهب إلى زيارة أصدقائك .

ـ آه ! لقد تنبأت بالغيب ، يا بولين . ان فيدورا تقتلني . أريد أن أموت ، لأنني لم أعد أقوى على احتمال هذه الحياة .

فأجابت وهي تبتسم :

ـ ألا يوجد في العالم امرأة غيرها ؟ الحياة أقصر من أن نشحنها بآلام لا نهاية لها .

ونظرت بخوف إلى بولين ، ولكنني لم أرَ شيئاً . كانت قد تركتني دون أن أشعر بذهابها . وكنت قد سمعت صوتها دون أن أفهم معنى كلماتها . . . ثم رأيتني مضطراً على حمل مخطوطة المذكرات إلى « فينو » . وعجبت وأنا في غمرة أهوائي كيف استطعت الحياة دون مال ، وكل ما كنت أعرفه أن المبلغ الذي بقي

لي في ذمة الناشر يكفي لسد ديوني . وفي طريقي إلى قبض مرتبي التقيت راستينياك ، فوجدني هزيلاً شاحباً ، فقال لي :

ـ إن من يراك يعتقد أنك تخرج من المستشفى .

ـ تلك المرأة تقتلني ، ولا أقوى على بغضها أو احتقارها .

فأجابني ضاحكاً :

ـ أفضل حلٍ هو أن تقتلها ، فتمتنع عندئذٍ عن التفكير فيها !

فقلت :

ـ لقد فكرت ملياً في قتلها . ولكن عندما تختمر في نفسي فكرة الجريمة ، سواء بالفضيحة أو بالقتل ، أو بالاثنين معاً ، أجدني عاجزاً عن التنفيذ . إن الكونتيس مسخ بديع يطلب الرحمة .

فقاطعني راستينياك قائلاً :

ـ إنها كجميع النساء اللواتي لا نستطيع الحصول عليهن .

فهتفت :

ـ أنا مجنون ! ولا أكتمك أنني في بعض اللحظات أشعر بأن الجنون يزأر في رأسي . وتغدو أفكاري كالأشباح تتراقص أمام ناظري ، فلا أتمكن من التقاطها وتنسيقها . وأصبحت أفضل الموت على هذه الحياة .

ثم لطمت جبيني وقلت :

ـ ليست فيدورا هي التي تقلقني الآن ، بل النار التي تضطرم في رأسي . ما رأيك في الأفيون ؟

فأجاب راستينياك :

ـ باه ! إنه يولد عذاباً قاتلاً .

ـ والاختناق ؟

ـ يا للأبله !

ـ ونهر السين ؟

ـ إن الشباك وسخة جداً .

ـ وطلقة من مسدس ؟

ـ وإذا لم تصب نفسك أمضيت حياتك مشوهاً . اسمع . لقد فكرت في الانتحار كجميع شباب هذا العصر . . . فمن منا ، في الثلاثين من عمره ، لا يكون قد انتحر مرة ومرتين وثلاث مرات ! لكنني لم أجد أنسب من إغراق وجودنا في الملذات . أغرق نفسك في الخلاعة ، فتهلك أنت أو تتخلص من أهوائك . الشراهة هي أقرب سبيل إلى الموت . وإذا كان الافيون يقطر لنا اللذات قطرة قطرة ، فان الفسق تقدم لنا جميع الملذات الجسدية . أليس طعم النبيذ أسوغ مذاقاً من وحول نهر السين ؟ وعندما يتعتعنا السكر بالقرب من الطاولة ، ألا يعني هذا اختناقاً نتذوق حلاوته كل يوم ؟ آه ! إن هذا الانتحار الطويل ليس انتحار بقال أعلن إفلاسه . إن التجار قد حقروا النهر برميهم أنفسهم في مياهه ليستدروا عطف دائنيهم .

وأضاف :

ـ لو كنت مكانك ، لجربت أن أموت بأناقة وعظمة . وإذا أردت أن تخلق نوعاً جديداً من الموت باندفاع أهوج وراء الملذات ، فاني أتبعك دون شك ، لأني أشعر بالضجر . فالألزاسية التي

عرضوا عليّ الزواج منها لها ست أصابع في رجلها اليمنى . فكيف أستطيع الحياة مع امرأة لها ست أصابع ؟ ألا ترى أن الأمر لا يلبث أن ينكشف وأصبح مضغة في الأفواه ؟ أما دخلها فلا يبلغ سوى ثمانية عشر ألف فرنك . وها أنت ترى أن ثروتها تنقص وأصابعها تزداد . . . إلى الشيطان ! . . . ومن يدري ؟ . فقد يقدم لنا الحظ السعادة إذا اندفعنا وراء الملذات اندفاعاً جنونياً .

كان في كلام راستينياك سحر مغرٍ فأحيا في قلبي الآمال . وكانت تلفه صبغة شعرية من الطبيعي أن ترضي غرور الشاعر .

وقلت :

ـ من أين نأتي بالمال ؟

ـ ألا تملك أربعمئة وخمسين فرنكاً ؟

ـ نعم . ولكنني مدين للخياط ولصاحبة الفندق .

ـ هل تدفع للخياط ؟ ثق يا عزيزي انك لن تصبح شيئاً يذكر حتى ولا وزيراً !

ـ وما تريدني أن أصنع بهذا المبلغ الزهيد ؟

ـ اذهب إلى المقامرة .

فارتجفت .

وأضاف راستينياك ، وقد لاحظ ترددي :

ـ تريد أن ترمي بنفسك في أحضان الطريقة الجديدة التي ابتكرتها لك وتخاف من المائدة الخضراء !؟

فأجبته :

ـ اسمع يا صديقي ، لقد وعدت أبي أن لا أغشى بيتاً من

بيوت المقامرة . وليس هذا الوعد مقدساً فحسب ، ولكنني أشعر بخوف لا يوصف لدى مروري أمام نادٍ من نوادي القمار . خذ : هذه مئة قطعة ذهبية . اذهب وخاطر بثروتنا بمفردك . وسأذهب للاهتمام ببعض شؤوني ثم أعود لانتظارك هنا ، في غرفتك .

وهكذا يا صديقي أضعت حياتي . ويكفي شاباً أن يصادف امرأة لا تحبه أو يلتقي امرأة يبرحها هواه ، حتى ترتبك حياته وتضطرب . فالسعادة تبتلع قوانا كما يبتلعها الشقاء .

ثم عدت إلى فندق « سان كوينتين » وأخذت أجيل نظري في الغرفة الحقيرة ، حيث عشت حياة محترمة ، كان من الممكن أن تكون شريفة وطويلة ، وكان عليَّ أن أحافظ عليها ولا أتركها لأنساق وراء حياة عاصفة تجرني إلى الهاوية جراً .

وفاجأتني بولين حزيناً مفكراً ، فقالت لي :

ـ ماذا دهاك ، يا رفائيل ؟

فوقفت ببرود ، وسلمتها المال الذي استدنته من أمها ، وزدت عليه إجرة ستة أشهر . فأخذت بولين تتفحصني بنظرات يقطر منها الخوف .

ـ إني أترككم ، يا عزيزتي بولين .

فهتفت قائلة :

ـ لقد حدست ذلك !

ـ أصغي إليّ ، يا طفلتي . لن أمتنع عن المجيء إلى هنا . فأرجو أن تحتفظي لي بهذه الغرفة طوال ستة أشهر . وإذا لم أعد إليها حتى الخامس عشر من تشرين الثاني ، فتصبحين وريثتي ، وتحملين

مخطوطة أبحاثي هذه عن الارادة إلى المكتبة الملكية . وتتصرفين بما يبقى من أشياء كما يحلو لك .

فرمقتني بنظرات حركت قلبي . لقد كانت بولين أمامي كضمير حي .

ثم قالت ، وهي تشير إلى البيانو :

ـ لن تعود تعطيني دروساً .

فلم ألفظ كلمة .

ـ هل تكتب إلي ؟

ـ وداعاً ، يا بولين .

وأخذتها بلطف بين ذراعي ، وقبلتها على جبينها الطاهر الأبيض كالثلج قبلة أخ ، بل قل قبلة شيخ محطم . فنفرت مني وولت هاربة . ولم أشأ أن أرى السيدة غودان ، فوضعت المفتاح في مكانه المعتاد ، وتركت البيت . وعندما قطعت شارع « كلوني » سمعت وقع خطوات امرأة خلفي ، فأدرت رأسي . . .

وقالت لي بولين :

ـ لقد قمت بتطريز كيس النقود هذا هدية لك . ألا تقبله مني ؟

وظننت أني ألمح على ضوء قنديل الشارع دموعاً حيرى في عيني بولين . وكأنما كانت تدفعنا نحن الاثنين فكرة واحدة ، فافترقنا بسرعة من يود الهرب من الطاعون .

وظهرت لي حياة الطيش التي أسلمتها زمام نفسي ممثلة في الغرفة التي انتظرت فيها عودة راستينياك . فعلى المدفأة وضعت

ساعة يعلوها تمثال فينوس منحنية على سلحفاتها ، وبيدها لفافة أتت النار على نصفها . وقطع ثمينة من الأثاث موزعة هنا وهناك . وحذاء قديم على كنبة وثيرة . والكنبة التي جلست عليها كانت متآكلة الجوانب ، تعرض للنظر ذراعيها الممزقتين . والفقر والأناقة يمتزجان بسذاجة في السرير ، وعلى الجدران ، وفي كل مكان . لقد كانت غرفة مقامر يحتفظ بأناقته لنفسه ، ويعيش في انفعالاته ولا يشغل باله شيء . ولم يكن هذا المشهد يخلو من الشعر ، فقد كانت الحياة تنصب بخرقها البالية واسمالها ، ناقصة كما هي في الواقع ولكنها حية ، جامحة ، مندفعة وراء أهوائها وشهواتها . وكنت على وشك الاستسلام للنوم عندما دفع راستينياك الباب بقدمه واندفع إلى الغرفة صارخاً :

ـ النصر ، النصر ! نستطيع أن نموت كما نتمنى !

وأراني قبعته الملأى بالذهب ، ثم وضعها على الطاولة . فانتصبت واقفاً وأخذنا نرقص حول القبعة كما يرقص اثنان من آكلة لحوم البشر حول فريستهما ، ورحنا نزأر ، ونقفز ، ونضرب الأرض بأقدامنا ، ونتبادل ضربات قوية تكفي لقتل وحيد القرن . ثم انصرفنا إلى الغناء أمام جميع ملذات الأرض مجتمعة في تلك القبعة الحبيبة .

وقال راستينياك ، وهو يضيف بضع أوراق مالية إلى كومة الذهب :

ـ عشرون ألفاً من الفرنكات . . . إن هذا المبلغ يكفينا للحياة ، ولكن ، هل ، يكفينا للموت ؟ أوه ! نعم ، سنلفظ

أنفاسنا في حمام من الذهب . . . هورا . . .

وعدنا إلى القفز ، ثم اقتسمنا المبلغ قطعة قطعة ، كما يفعل الورثة وبدأنا بالقطع الصغيرة ونحن نستعذب التفوه بهاتين الكلمتين : « لك . . . لي » .

وصرخ رفائيل :

ـ لن ننام الليلة . جوزيف ، إلينا بالنبيذ .

ورمى قطعة ذهبية إلى خادمه الأمين . ثم أضاف مخاطباً إياه :

ـ هذه هي حصتك . ادفن نفسك إن كنت تستطيع .

صباح اليوم التالي اشتريت أثاثاً جديداً من محلات « بوزاج » . . . واستأجرت البيت الذي عرفتني فيه في شارع « تايبوت » ، وكلفت أشهر صانعي السجاد تأثيثه وتزيينه ، واقتنيت جياداً ، والقيت بنفسي في خضم من الملذات الجوفاء والحقيقية معاً . . . وانصرفت إلى المقامرة ، فكنت أخسر أو أربح مبالغ طائلة ولم أكن أقامر إلا في الحفلات أو عند أصدقائي . ولم أضع قدمي قط في أندية القمار ، لأن خوفي منها كان لا يزال مسيطراً علي . واكتسبت كثيراً من الأصدقاء دون أن أسعى إلى ذلك . وكانت المشاجرة تسهل لي سبيل الصداقة ، وكثيراً ما كانت تمهد لها الطريق تلك الثقة العمياء التي تدفعنا إلى البوح بأسرارنا إلى من يحيطون بنا ، وقد يكون أحد أسبابها الرئيسية تعلقنا جميعاً بالرذائل . وفي ذلك الوقت وضعت بعض المؤلفات الصغيرة ، فحملت لي شهرة ومديحاً . لأن تجار الأدب المشهورين لم يروا فيّ خصماً يخافونه ، فأطنبوا في مدحي ، ولم يكن ذلك لكفاءتي الشخصية ، بل ليثيروا

عضب زملائهم . وأصبحت معدوداً من طلاب الحياة في عرف من هم على شاكلتي ، من المنهمكين في السكر والمفرطين في اللذات . وكنت أستخدم أنانيتي لأقضي على نفسي في أقرب وقت ، ولأحطم أصحابي بتوقد ذهني وقوتي . وأصبحت أرتاد المجتمعات متأنقاً متألقاً .

وما لبثت حياة المجون والتحلل أن تبدت لي بشكلها المخيف المرعب ، وتعرفت إلى شرورها وقسوتها . الرجال العقلاء لا يستطيعون أن يدركوا ما هي عليه هذه الحياة ، ولا ما هي عليه حالتها الأخلاقية . هل تلقي القصائد على مسامع سكان الأقاليم الذين لا يفرقون بين الافيون والشاي ، ويحسبونهما دواء ، بالرغم من اللذة التي يغرقان فيها شاربهما ؟ وفي باريس نفسها ، في عاصمة الفكر هذه ، ألا تجد رجالاً فاسقين تنقصهم القوة والاستمرار ، فلا يستطيعون الافراط في اللذات ؟ ألا ينصرف هؤلاء مجهدين منهكين ، بعد أن يكونوا قد أشبعوا إحدى لذاتهم ، كما يترك البورجوازيون الاوبرا وهم يصدرون أحكامهم بإعدام الموسيقى ، بعد سماع أحد ألحان روسيني الجديدة ؟ ألا يتقاعس عن الجري وراء هذه الحياة رجل لا يود أن يأكل الحلويات لأن أول قطعة منها سببت له عسر هضم مؤلماً ؟

الفسق فن كالموسيقى ، يتطلب نفوساً قوية . ولكي نفهم أسراره ونتذوق حلاوته ، علينا أن ننصرف إلى درسه انصرافاً كلياً ، فهو كجميع العلوم ينفرنا في البداية ، وطريقه وعرة شائكة . كثيرة هي الحواجز التي تحيط بملذات الانسان ، ولا أعني لذائذه

بالتفصيل ، بل تلك الطرق التي تولد عادة الاحساسات النادرة وتختصرها ، وتنميها في ذاته ، فتخلق في كيانه حياة تبدد قوله تبديداً مفاجئاً . إن الحرب والسلطة والفنون هي أيضاً مفسدة وضعت بعيداً عن قبضة الانسانية ، وهي عميقة عمق الفسق ، وصعبة المنال مثله ، ولكن ، عندما يندفع الانسان في غياهب هذه الأسرار ، ألا يجد نفسه يسير في عالم جديد ؟ أما القادة والوزراء والفنانون ، فهم أيضاً بحاجة إلى إشباع لذاتهم وإغراق أنفسهم في اللهو بعيداً عن مشاغلهم اليومية العملية . على كل ، أليست الحرب هي فسق الدم ، كما أن السياسة هي فسق المصلحة ؟ كل الافراطات أخوة . وهذه الفظاعات الاجتماعية تملك قوة الهاوية ، فتغرينا وتجذبنا إليها ، كما جذبت جزيرة القديسة هيلانة نابوليون . انها تسبب لنا الدوار وتسحرنا وتسيطر على عقولنا ، ولست أدري لأي سبب تدفعنا الرغبة دائماً إلى التفتيش في أعماقها وسبر غورها . ومن يدري ؟ فقد تكون فكرة اللانهاية تكمن في أعماق هذه الهاوية ، أو انها تنطوي على ما يشبع غرورنا وزهونا . . . ولكي يتملص الفنان المجهد من ساعات عمله واستيعابه لأبحاثه ، فانه يفتش عن الراحة في الاخلاد إلى الهدوء نهار الأحد ، كما فعل الله ، أو في ملذات الجحيم كالشيطان . فهو يود دائماً أن يناقض عقله عمل احساسه . وفي الحرب ، ألّا يتحول الانسان إلى ملاك شرير ، أو إلى جلاد جبار ؟ ألسنا بحاجة إلى إغراء عجيب كي نرضى باحتمال عذاب جسمنا القاتل الذي يحيط بأهوائنا كإطار من الشوك ؟ المدخّن يتعذب اليوم ويقاسي آلام الاحتضار ، ولكن في الماضي ألم ينقله

التدخين إلى ما لا أدري أيّة اعياد ؟ ألا تظل أوروبا تشعل الحرب دون أن تسمح لنفسها بالوقت الكافي لغسل قدميها من الدماء التي تغوص فيها ؟

الفسق هو كل شيء بالنسبة إلى الرجل المحروم ، وهي ضغط أبدي على حياته ، بل انها صراع مع قوة مجهولة ، مع وحش . يبدأ الوحش بإثارتنا ، فنضطر إلى مهاجمته وتحطيم قرنيه ، وهذا عذاب لا يطاق . . . لقد وهبتك الطبيعة معدة ضيقة كسلى ، ولكنك تروضها فتتسع وتتعلم كيف تحتمل الخمر ، وكيف تتجنب السكر . وتمضي ليالي بأكملها ساهراً مسهداً ، فتكتسب صفة كولونيل في فرقة المدرعات ، وتخلق نفسك مرة ثانية ، خلقاً جديداً ، كأنك تود أن تحقر الله . وإذا اكتسب الانسان هذه الصفة وأصبح جندياً قديماً ، يكون قد روّض نفسه على حياة جندي المدفعية ، ومرّن ساقيه على السير الطويل ، دون أن يكون ملكاً للوحش . ولكنه لا يدري في هذه الحالة إلى من ينتسب . وتتطاحن صفته الجديدة مع الوحش ، فيتغلّب الوحش مرة ، وتنتصر صفته الجديدة مرة . وهكذا يبقى الاثنان يتطاحنان في كرة عجيبة ، تركد فيها آلام النفس ، ولا تطرقها سوى أشباح الأفكار . . . أما المعركة فقد أصبحت ضرورية لا مناص منها .

ولكي يحقق المبذر المتلاف وجود هؤلاء الأشخاص الوهميين ـ الذين كما تزعم الاسطورة باعوا أنفسهم للشيطان ليهبهم القوة على صنع البشر ـ فانه يبيع روحه ويقرب أجله بانسياقه وراء ملذات الحياة الوفيرة المخصبة ، عوضاً عن أن يقطر حياته قطرة قطرة في

مصرف ما أو في مكتب محام . فحياتنا تغلي وتفور وتهرب كالسيل . والفسق هو إلى الجسد ما هي الملذات السماوية إلى النفس . فالسكر يغرقك في أحلام يفوق جمال رسومها وأوهامها جمال الرؤى التي ترتسم أمام أنظارنا في حالة الانخطاف الروحي . هناك ساعات مغرية كنزوات فتاة غريرة ، وأحاديث عذبة مع الأصدقاء ، وكلمات تصقل الحياة وتهذبها ، وملذات خالصة صريحة ، ورحلات بلا تعب ، وقصائد تعبر عنها كلمات معدودة .

إن إرضاء الحيوان الوحشي الذي يفتش العلم في أعماقه عن نفس ، يتبعه دائماً فتور جسمي يبحث عنه الرجال الذين أضجرهم العقل . أليس هؤلاء بحاجة إلى راحة تامة ؟ أو ليس الفسق نوعاً من الضريبة تدفعها العبقرية إلى الشر ؟ انظر إلى جميع الرجال العظام ، فان لم يكونوا متهتكين ، فذلك لأن الطبيعة قد أوجدتهم تعساء ضئال الأجسام ، وإن هنالك قوة ساخرة أو حسودة تفسد أنفسهم أو أجسادهم لكي توحد قوى عبقريتهم . . . في هذه الساعات البهيمية المتجددة اللذة نشعر بسيطرتنا على الناس والأشياء ، ونحوّل ربّ الخليقة إلى ما يوافق رغباتنا وأهواءنا . وخلال هذا الافراط الأبدي تسكب لك المقامرة ، برضاك وموافقتك ، رصاصها المذاب في شرايينك وعروقك ! ويوماً ما ستصبح ملكاً للوحش ، فيحدث فيك ما حدث فيّ من يقظة مسعورة . العجز يرتاح على وسادتك ! وأنت أيها المحارب القديم ، مرض السل يلتهم جسدك ! وأنت أيها السياسي ، ألا ترى مرض القلب يهدد أيامك ؟ أما أنا ، فقد تقترب مني ذات الرئة وتهمس في

أذني بإصرار : « لنذهب » كما همست في ما مضى في أذن « رفائيل ايربان » الذي قتله إفراطه في الحب .

هذه هي الحياة التي عشتها ، ولا أعرف إذا كان دخولي إلى العالم جاء متأخراً أو أنني دخلت إليه صغيراً ، لكن ما أعرفه أن قوتي كانت هائلة بحيث كان في إمكانها أن تشكل خطراً لو لم أخفف من حدتها كما فعلت . ألم ينقذ العالم من الاسكندر هجومُ هرقل بعد نشوة الرذيلة ؟ عندما يخوننا الحظ وتسد الطرق أمام وجوهنا ، فاننا نصبح بحاجة إلى السماء أو إلى الجحيم . إلى الفسق والتهتك أو إلى مأوى في دير سان لازار .

ثم أضاف ، وهو يشير إلى اكيلينا وإفرازي :

ـ قبل لحظة لم أكن أجرؤ على تأنيب هاتين المخلوقتين ، لأنهما تجسيم لقصتي ، وصورة عن حياتي . نعم ، لم أقوَ على ذمهما ، فقد بدتا لي كقاضيين . وفي غمرة هذه الأنشودة الحية . وفي قلب هذه النشوة المريضة ، تعرضت أيضاً لأزمتين سببتا لي ألماً مراً وشقاءً مبرحاً . فقد التقيت بفيدورا في أروقة إحدى قاعات الموسيقى ، بعد بضعة أيام من لقائي الناري الأخير بها . وكنا ننتظر عرباتنا .

ـ آه ! أرى أنك لا تزال على قيد الحياة .

كانت هذه العبارة تعبيراً واضحاً لابتسامتها ، ولكلماتها الخبيثة التي همستها في أذن مرافقها ، وهي تخبره بقصة غرامي دون شك ، معتبرة حبي حباً سوقياً مبتذلاً . كنت لا أزال أحبها وأعبدها ، وكانت تتراءى لي ، وأنا في ثورة عواطفي ونشوتي ، على سرير الرذيلة ، فأشعر بأنني ضحية حبها ومجونها ، دون أن أقوى

على تمزيق صدري ونبش حبي وإلقائه عند قدميها . وكنت أبذر حياتي بسهولة ويسر . ولكن السنوات الثلاث التي عشتها في نظام ثابت وهبتني صحة قوية . وفي اليوم الذي كنت أجدني فيه خالي الوفاض كنت أحس أنني أتفجر صحة وعزماً .

ولكي أقرب أيام موتي ، استدنت مالاً وتعهدت بدفعه في وقت قريب . وجاء يوم الدفع . . . أيتها الانفعالات القاسية ! كيف تقلبين حياة الشباب رأساً على عقب ! لم أكن قد شخت بعد ، ولا ساعة موتي قد حانت . كانت نفسي تزخر بالحيوية . وأيقظت فيّ ديوني فضائلي ، فجاءتني تسعى على مهل ، وبدت حزينة ناقمة على إهمالي لها . ولكن عرفت كيف أتصرف معها ، كما نتصرف عادة مع عمّاتنا الوقورات ، فانهن يبدأن بالتوبيخ والتأنيب ، وينتهين بذرف الدموع ودفع المال . غير أن خيالي كان أكثر قسوة ، فقد أظهر لي اسمي مسافراً من مدينة إلى مدينة ، متجولاً في جميع أنحاء أوروبا . أو لم يقل « أوزيب سالفرت »[1] « ان اسمنا هو ذاتنا ؟ » وبعد هذا التطواف الوهمي كنت أعود إلى غرفتي التي لم أتركها قط ، لأوقظ نفسي من أحلامها المخيفة .

قديماً كنت أرى رجال المصارف ، يسيرون في شوارع باريس ، بثيابهم البنيّة ، وسجلاتهم ، فلا أكترث بهم . أما الآن فقد أصبحت أمقتهم وأبغضهم . ألن يأتيني أحدهم صباح يوم

---

(١) سياسي وفيلسوف فرنسي صدر له عام ١٨٢٣ كتاب بعنوان « دراسة تاريخية وفلسفية في أسماء الأفراد والشعوب والأماكن » .

قريب ليسألني حساباً عن أحد عشر سنداً مهرتها بتوقيعي ؟ لقد كان توقيعي يساوي ثلاثة آلاف فرنك ، ولم أكن أنا نفسي أساوي هذا المبلغ ! وتمثلت في خاطري موظفي المحكمة ، بوجوههم الجامدة حتى في حالات اليأس والموت ، كالجلاد الذي يقول للمحكوم بالاعدام : « لقد دقت الساعة الثالثة والنصف » . وكان يحق لهم أن يتعقبوني ، ويأخذوا بتلابيبي ويلطخوا اسمي ويهزأوا به . . . كان عليَّ أن أدفع الدين . الا يعني ذلك أنني أصبحت ملكاً لغيري ؟ ألا يحق لهؤلاء الرجال أن يسألوني حساباً عن حياتي ، فيقولون : « لماذا كنت تأكل السمك وتشرب المثلجات ، لماذا تنام وتمشي وتفكر وتلهو ، دون أن تدفع ثمناً لذلك ؟ وقد أكون مأخوذاً بقصيدة أو منتشياً بفكرة جديدة ، أو محاطاً بعدد من الأصدقاء ، أو منصرفاً إلى اللذات والمداعبات ، فأرى رجلاً يرتدي ثياباً قاتمة ، ويحمل قبعة ، ان هذا السيد يكون دَيْني ، أو السند المتوجب الدفع ، أو الطيف الذي يكدر فرحتي ، ويجبرني على ترك الطاولة والمجيء إليه ، فينتزع مني فرحتي وعشيقتي،وكل شيء حتى سريري . ان الندم هو أكثر مسامحة وغفراناً ، لأنه لا يلقي بنا إلى الشارع ولا يغرقنا في مواخير الرذيلة ، بل يقودنا إلى المقصلة حيث الجلاد يرقيك في سلم المراتب . وفي لحظة إعدامنا ، يؤمن الجميع ببراءتنا ، بينما المجتمع لا يعترف بفضيلة واحدة للداعر الفقير . ثم هذه الديون التي تسعى على قدمين ، مرتدية قماشاً أخضر ، تعلو أنوفها النظارات الزرقاء ، أو ترتفع فوق رؤوسها المظلات المتعددة الألوان ، والتي نلتقي بها وجهاً لوجه في زاوية ما من الشارع ونحن نبتسم . عندئذٍ يحق

لأولئك الأشخاص أن يقولوا : « ان السيد رفائيل مدين لي ولا يريد أن يدفع دينه . لقد ظفرت به . آه ! لماذا تبدلت سحنته هكذا ؟ » . وعلينا أن نحيي دائنينا أن نحييهم بابتسام ولطف فيقولون : « متى تدفع لنا ؟ » ونضطر عندئذ إلى اللجوء للكذب ، وإلى التوسل إلى رجل آخر من أجل المال ، وان ننحني أمام أحمق يجلس وراء صندوقه ، وأن نتحمل نظرته الباردة ، نظرته التجارية ، التي هي أقسى من لسعة سوط ، وأن نخضع لجهله المطبق . ان نزوة من نزوات النفس تقود المدين غالباً وتخضعه ، بينما لا شيء من النبل يقود ويخضع أولئك الذين يعيشون للمال ، وللمال وحده . وكنت أخشى المال كثيراً ، فقد يكون السند لشيخ فاضل عليه أن يعول أسرته ، وقد يكون لمريض مقعد يحيط به الأطفال ، أو لأرملة جندي . وكيف تتصرف إذا ما مدّ إليك هؤلاء جميعاً أيديهم ضارعين يطلبون إليك مساعدتهم ؟

غرقت عشية يوم الدين في ذلك الهدوء الخادع ، في هدوء الذين ينامون قبل إعدامهم ، أو قبل مبارزة ، قبس من الرجاء . ولكن عندما استيقظت من نومي ، شعرت بأن نفسي مسجونة في حقيبة صاحب البنك ، راقدة على السجلات ، مكتوبة بالحبر الأحمر ، وأحسست بأن ديوني تحيط بي كالجراد . كنت أراها في ساعة الحائط الكبيرة ، وفي الوسائد الوثيرة ، وفي الأثاث الذي أحبه ، في هذه الأشياء الحبيبة التي سوف تنتزع مني بقسوة وتباع في المزاد . وإذا ما قرع جرس الباب فكنت أشعر أنه يقرع في قلبي ، ويضربني على الرأس في المكان الذي يجب أن يُضرب فيه الملوك . وأصبحت

كشهيد لا جزاء له في السماء . نعم ، ان الدين ، بالنسبة إلى الكريم ، هو الجحيم . وإذا لم يدفع ، فذلك يعني الحقارة والدناءة ، بل قل السرقة والاختلاس ، وأكثر من هذا أيضاً ، فانه يعني الكذب . ان الدَيْن اللامدفوع يرسم خطوط الجريمة ويُعدّ أخشاب المقصلة .

حل موعد دفع ديوني وأعلن عنه رسمياً ، فتمكنت من دفعها بعد ثلاثة أيام وهاك ما حصل : عرض عليّ أحد المخمنين شراء الجزيرة التي كنت أملكها في اللوار ، حيث دُفنت أمي ، فقبلت العرض . وعندما وقعت على عقد البيع عند الكاتب العدل ، شعرت في أعماق نفسي برطوبة تشبه رطوبة الأقبية المظلمة وارتجفت وأنا أشعر ببرد يشبه البرد الذي اعتراني عند قبر والدي ، فتشاءمت من هذه الحادثة ، وكان يخيَّل لي أنني أسمع صوت أمي وأرى طيفها . ولا أعرف أية قوة كانت تردد اسمي بغموض فأسمعه خلال ضجيج يشبه صوت الأجراس .

تبقى لي من ثمن الجزيرة ألفا فرنك بعدما دفعت كل ديوني . وكان من الممكن أن أعود إلى غرفتي الحقيرة ، لأحيا حياة العالم ، بعدما خبرت الحياة ، وأن أرجع إليها ورأسي يزخر بملاحظات قيمة ، وأنا أتمتع بشهرة لا بأس بها . ولكنّ فيدورا لم تكن بعد قد تركت فريستها . وكثيراً ما كنا نتلاقى ، وكان عشاقها الذين تولتهم الدهشة من ذكائي ، وجيادي ، وبطانتي ، يرددون اسمي على مسامعها فتتمسك ببرودها وعدم اكتراثها . ولم تكن تأبه عندما يهمس راستينياك بهذه الكلمات في أذنها : « انه ينتحر من

أجلك » . لقد كلفت وبطانتي ، العالم كله أن ينتقم لي ، ولكن لم أكن سعيداً ! كنت أشعر دائماً بأفضلية حب متبادل ، فأتبع شبحه خلال تبذيري واسرافي ، وفي قلب إفراطي . وكنت مخدوعاً ـ لتعاستي ـ بمعتقداتي الجميلة : فقد عوقبت على حسناتي بنكران الجميل ، وكوفئت على أغلاطي بألف لذة ولذة . فلسفة مشؤ ومة ولكنها حقيقية بالنسبة إلى الفاسق ! وعندما عدت إلى نفسي أنقّب في أعماقها وجدتها مقرّحة نتنة فاسدة . ووصم الشيطان جبيني بميسمه ، وأصبح متعذراً عليَّ التحرر من ارتعاشات حياة المخاطرة الدائمة ، ومن المغالاة في الزهو ولذيذ الأطعمة . ولم أعد أقوى على البقاء وحيداً . وصرت بحاجة إلى مومسات ورفاق متملقين ، وإلى خمور وسلع ثمينة تذهلني وتسلب لبي ، وتحطمت في قلبي جميع القيود التي تصل بين رجل وعائلته . وكان جنوني باللذات يدفعني إلى انتحار مؤكد ، وهذا ما كنت أهدف إليه عندما أوشكت ثروتي أن تنفد . فصرت أفرط كل مساء إفراطاً لا يصدق ، غير أن الموت كان يعيدني إلى الحياة كل صباح ، فأصبحت أشبه شيء بصاحب دخل دائم . . . وأخيراً وجدتني وحيداً مع عشرين فرنكاً ، فتذكرت عندئذٍ سعادة راستينياك .

ثم صرخ رفائيل ، وهو يفكر بالطلسم الذي انتزعه من جيبه :

ـ آه ! آه ! . . .

وهب انه كان متعباً مما قاساه في هذا اليوم ، أو أن صور حياته تبدت أمامه واضحة جلية ، فانساق وراءها دون شعور وقد أثمله

سيل كلامه ، فان رفائيل لم يعد يملك القوة الكافية للسيطرة على نفسه ، في هذا الفيض من النبيذ والكوكتيل ، فأخذ يرغي ويزبد كرجل فقد عقله تماماً ، ثم خرج وهو يهز الطلسم بيده :

ـ إلى الشيطان ، أيها الموت ! أريد أن أعيش الآن . إنني غني ! وأملك جميع الفضائل ، ولا يقوى شيء على مقاومتي ! ومَن لا يغدو طيباً عندما يمتلك كل شيء ؟ آه ! آه ! كنت أتمنى دخلاً يربو على المئتي ألف ليرة وسأحصل عليه . حيوني أيها الخنازير الذين تتمرغون على السجاد كأنكم على المزابل ! انكم ملك لي . انني غني . وأستطيع أن أشتريكم كلكم ، حتى ذلك النائب الذي يغط هناك . . . وأنتم يا بلهاء المجتمع الراقي ، باركوني ، فانني الحبر الأعظم . . .

وفي هذه اللحظة تعالى صراخ رفائيل ، وأصبح كالغطيط المزعج ، وقد كان إلى وقت قريب هادئاً خافتاً . فاستيقظ معظم النائمين وهم يصرخون . ورأوا من أزعجهم في رقادهم لا تقوى ساقاه على حمله ، فلعنوا سكره الشديد وغمروه بسيل من الشتائم .

وصرخ رفائيل قائلاً :

ـ اصمتوا ! يا كلاب الأغنياء ! اميل . . . انني أملك كنوزاً لا تحصى ، وسأقدم لك سيجار الهافانا .

فأجاب اميل :

ـ انني أصغي إليك . . . فيدورا أو الموت . . . أكمل حديثك . إن فيدورا العذبة قد خدعتك . فجميع النساء هنّ بنات حواء . . . وليست قصتك مؤثرة كما تظن . . .

ـ آه ! كنت نائماً أيها المنافق ؟
ـ كلا . فيدورا أو الموت . . . إنني أصغي إليك .
فصرخ رفائيل ، وهو يضرب اميل بالجلد المرقط كأنه يود أن يستخرج منه سائلاً كهربائياً :
ـ استيقظ !
انتصب اميل واقفاً وأحاط جسم رفائيل بذراعيه ، وقال :
ـ يا للصاعقة ! . . . فكّر على الأقل أنك محاط بالمومسات .
ـ أنا مليونير .
ـ ان كنت لا تملك الملايين ، فأنت ولا شك سكران .
ـ إني سكران من السلطة ، وأستطيع أن أقتلك . . . اصمت . . . أنا نيرون ، أنا نبوخذنصر .
ـ ولكن يا رفائيل نحن بين قوم خبثاء . حافظ على الصمت من أجل كرامتك .
ـ لقد كانت حياتي سكوتاً طويلاً مملاً . أما الأن فأريد أن أنتقم من العالم أجمع . ولا أريد أن أبذر قطعاً ذهبية بخسة ، بل سأختصر عصري وأنا أفني عقولاً ونفوساً . وهذا بذخ ليس بالدنيء كما ترى . يا لغنى الطاعون ! سأناضل ضد الحمى الصفراء والزرقاء والخضراء ، ضد الجيوش وضد المقصلة ، وسأحصل على فيدورا . . . لا ، لا ، لا أريد أن أحظى بفيدورا ، فانها مرضي ، إن فيدورا تدفعني إلى الموت . . . أريد أن أنسى فيدورا .
ـ إذا بقيت مصراً على الصراخ فسأضطر لنقلك إلى غرفة الطعام .

ـ أترى هذا الجلد ! انه وصية سليمان . . . وسليمان هو مِلْكي ، والعالم كله لي ! وأستطيع أن أستعبدك أنت أيضاً إذا شئت . . . إنني أقول إذا شئت . . . حذار . أستطيع أن أشتري جميع مكاتب الصحف فتصبح عبدي . . . وستؤلف لي الأغاني وتتمم معاملاتي . . . خادم ، خادم . وهذا يعني « انه يتمتع بصحةٍ جيدة لأنه لا يفكر في شيء » .

عند هذه الكلمات جرّ اميل صديقه رفائيل جرّاً إلى غرفة الطعام وقال له :

ـ إنني خادمك . ولكنك ستكون رئيس تحرير صحيفة ، فالزم الصمت . ألا تكنّ لي أي تقدير ؟ . . . ألا تحبني ؟ . . .

ـ إذا كنت أحبك فسيقدم لك هذا الجلد سيغار الهافانا . . . دائماً هذا الجلد . . . الجلد السماوي . إنه دواء شاف ، وإنني أستطيع شفاء الأمراض . هل أنت مريض لأخلصك من آلامك ؟

ـ لم يسبق لي أن رأيتك أحمق مثلما أنت الآن .

ـ أحمق ؟ كلا يا صديقي . هذا الجلد هو طوع يدي ، وينكمش على ذاته عندما أشعر بأدنى رغبة . . . إنه برهميّ . . . يوجد برهميّ هنا . . . لقد كان البرهميّ سخرية ، لأن الرغبات . . . يجب أن تُبسّط . . .

ـ نعم .

ـ أقول لك . . .

ـ نعم ، ما تقوله صحيح . وأفكر مثلك . يجب أن تبسّط الرغبات . . .

ـ أقول لك . . . الجلد . . .

ـ نعم .

ـ لا تصدقني . لكنني أعرفك حق المعرفة ، يا صديقي . فأنت كاذب كملك تُوِّج حديثاً .

ـ كيف تريدني أن أؤمن بما يصور لك هذيان سكرك ؟

ـ أراهنك وأقوى على إثبات ما أقول . . . لنقسه . . .

فهتف إميل صارخاً عندما رأى رفائيل مشغولاً بالتفتيش في غرفة الطعام :

ـ لن ينام ، عَبَث !

كان فالانتين يفتش في الغرفة ، وقد اكتسب مرونة قرد بفضل ذلك الوضوح الذي تتناقض ظواهره عند السكارى ، مع الرؤى الغامضة المشوشة التي يصورها لهم السكر . وأخيراً وجد دواة ومنديلاً ، وكان يكرر ويعيد :

ـ لنقس الجلد ، لنقس الجلد . . .

فقال إميل :

ـ نعم ، لنقس الجلد .

وضع الصديقان المنديل على الطاولة ، ثم وضعا فوقه الجلد المسحور . وكان إميل يبدو أكثر تماسكاً لأعصابه من صديقه . فأخذ الريشة وغمسها في الحبر ورسم خطاً على المنديل حول الجلد بينما كان رفائيل يقول :

ـ لقد تمنيت الحصول على دخل يربو على المئتي ألف فرنك . وعندما أحصل عليه سترى بعينيك كيف ينكمش الجلد !

ـ نعم . والآن ، ثم . . . أتود أن أرتب لك الكنبة ؟ . .
هل تشعر بالراحة هكذا ؟

ـ نعم ستقوم على تسليتي يوماً ما وتطرد الذباب عني . إن للصديق الذي يلازمك في أوقات الشقاء حقاً في أن يبقى صديقك في أيام الرفاه . . . وسأعطيك أيضاً سيـ . . . غا . . . راً . . . من الها . . .

ـ اهضم ذهبك ، أيها المليونير .

ـ وأنت اهضم مقالاتك . . . مساء الخير . قل مساء الخير لنبوخذنصر . حب ! شرب ! فرنسا ! مجد وثراء ! . . . ثراء ! .

وبعد قليل ارتفع غطيط الصديقين ، ثم امتزج بالموسيقى التي كانت تنبعث من القاعة . وانطفأت الشموع ، شمعة إثر شمعة ، ولف الليل برادئه هذا الافراط في الأكل والخمر والملذات . وقد كانت قصة رفائيل إفراطاً أيضاً ، بكلمات لا تتضمن أية فكرة ، وبأفكار لم يقو على التعبير عنها .

وفي الصباح استيقظت اكيلينا الجميلة منهوكة مجهدة تتثاءب ، واستيقظت افرازي كما استيقظت صاحبتها ، وانتصبت واقفة فجأة . ثم صرخت صراخاً مبحوحاً ، وغدا وجهها الأبيض الذي كان يتألق في المساء أصفر شاحباً كوجه فتاة تسير إلى المستشفى . وبدأ المدعوون يتململون في رقادهم ، وهم يصعدون زفرات طويلة مؤلمة . وشعروا بالوهن يستولي على أعضائهم فيجمد حركاتهم . وكان ينتظرهم عند يقظتهم ألف ألم وألم . ودخل خادم إلى القاعة ، وفتح جميع النوافذ . وبعد قليل وقف المدعوون على أقدامهم ، إذ

أعادتهم إلى الحياة أشعة الشمس التي غمرت أرجاء القاعة بأنوارها السنية .

وكان النوم قد أفسد زينة النساء ، وأتى على البنايات الرائعة من الشعر التي كانت تتوج رؤوسهن . فأظهرن مشهداً بشعاً شنيعاً : كانت شعورهن مشعثة ، وفقدت وجوههن قوة التعبير ، وخبا النور الذي كان يتألق في عيونهن ، إذ سطا عليها التعب والافراط . وكان اللون الصفراوي الذي ينبعث من وجوههن ، في غمرة أنوار الصباح ، يبعث القلق ويحرك الخوف . فالوجوه الندية الغضة الناصعة البياض ، في حال راحتها ، بدت خضراء قاتمة . والثغور الرطبة القرمزية ، تراها الآن جافة شاحبة ، تحمل بصمات السكر المخزي . وأنكر الرجال عشيقات الأمس لما اعتراهن من تبديل . فقد أصبحن كالجيف أو كالزهور التي تدوسها الأقدام في الشارع بعد احتفال كبير . أما الرجال فقد بدا منظرهم مخيفاً أيضاً . وإنك لترجف قرفاً إذا ما وقعت عينك على هذه الوجوه بعيونها الغائرة الضيقة ، التي سطت عليه الخمرة ، فسلبتها نعمة النظر ، فتظنها لا ترى شيئاً . هذه الوجوه الشاحبة الهزيلة التي تقرأ عليها ، بوضوح ، القابلية والنهم إلى الارتعاشات الجسدية ، ولن ترى عليها أبداً تلك الانشودة العذبة التي تزين نفوسنا . كان مسطوراً عليها لست أدري أي شيء من الوحشية والحيوانية .

هذه اليقظة للرذيلة ، هذه اليقظة العارية من الثياب ، والبريئة من التدليس ، هذا الهيكل العظمي من الشر ، الرث ،

البارد ، الفارغ ، الذي لا يخضع للمغالطة والكذب ، والمحروم سحر الاناقة والبذخ ، أخاف هؤلاء المبارزين الشجعان ، رغم طيشهم وتهورهم وانسياقهم وراء الرذيلة . ووجموا جميعاً . وجم الفنانون كما وجمت المومسات . وأخذوا جميعاً يفحصون بنظرات تائهة أرجاء القاعة والأثاث المبعثر ، حيث انتهكت الفضيلة ، وغزت نار الأهواء كل شيء . وأراد تاليفير أن يحيي ضيوفه ، فأطلق ضحكة شيطانية ، وألقى وجهه المعروق الذي يتصبب منه العرق ، على هذا المشهد ، صورة الجريمة الـوقحة التي لا يتبعها توبيخ الضمير . لقد تمت اللوحة . إنها حياة موحلة في صميم الترف ، ومزيج من الشقاء الانساني والبذخ . إنها يقظة الرذيلة عندما تهصر بيديها القويتين جميع ثمار الحياة ، ولا تترك منها سوى بقايا دنيئة حقيرة ، أو أكاذيب لم تعد تؤمن بها . ويمكنك القول أن الموت يبتسم في أسرة تفشى فيها الوباء ، فليس هنالك عطور وأضواء مدهشة ، ولا فرح ورغبات ، ولم يبقَ إلا القرف برائحته الكريهة وفلسفته الموجعة . أمـا نور الشمس المشرق الذي يغمر القاعة ، والهواء النقي الذي تسرب إليها من النوافذ المفتوحة ، فإنهما يتناقضان تناقضاً تاماً ، مع هذا الجو الدافىء ، المثقل بالعفونة ، بعفونة الرذيلة والفجور .

وبرغم الالفة التي صارت بينهم وبين الرذيلة ، عادت الذكرى ببعض الفتيات إلى يقظتهن في أيامهن الأولى ، إلى تلك الأيام الجميلة ، عندما كنّ طاهرات بريئـات ، يستيقظن في الصباح ، فيرين من نوافذ غرفهن في الريف الحقول الساحرة

المزينة بالورود وزهور الجبل البرية ، المرصعة بالندى ، المغمورة بفيض من أشعة الفجر . وتذكرت بعضهن طعام العائلة ، والطاولة التي يجتمع حولها الأب والأطفال الضاحكون ، حيث كل شيء يوحي سحراً ما بعده سحر ، وحيث الطعام بسيط كالقلوب . وراح أحد الفنانين يفكر في سكينة محترفة ، وفي منحوتته البريئة ، وفي « الموديل » الجميلة التي تنتظره . وانصرف أحد الشبان يفكر في دعوى يتوقف عليها مصير أسرته ، وتستوجب حضوره ، وأخذ أحد العلماء يتحسر على مكتبه ، حيث يناديه عمل مهم . وكانوا كلهم تقريباً يشكون من أنفسهم . أما إميل فقد بدا نضراً أحمر الوجه ، تفوق نضارته نضارة أي مستخدم في أحد المحلات التجارية .

وهتف إميل صارخاً :

- إنكم أقبح وأسمج من أعوان موظفي المحاكم . لن نستطيع القيام بأي عمل اليوم . لقد أضعنا نهاراً كاملاً ، ولم يبق أمامنا إلا تناول الطعام .

عند هذه الكلمات خرج تاليفير كي يصدر الأوامر . وانصرفت النساء بفتور إلى ترتيب زينتهن أمام المرآة . وراح كل مدعو يهز نفسه هزاً . وبدأ أكثر الحاضرين فسقاً وفجوراً يلقون مواعظهم على أكثر الحاضرين اتزاناً وتعقلاً ، وأخذت المومسات يهزأن بأولئك الذين سيطر عليهم الفتور ، ولم يعودوا يقوون على متابعة ملذات هذه الوليمة الشرسة القاسية . وما لبثت الحياة أن دبت في هذه الأشباح ، فألفوا حلقات وراحوا يتحدثون

ويبتسمون . ودخل بعض الخدم إلى القاعة وأعادوا قطع الأثاث إلى أماكنها . وتحرك المدعوون نحو غرفة الطعام ، وأحاطوا بطاولة قدمت عليها أصناف الأطعمة بسخاء نادر المثيل . ورغم أن المدعوين كانوا لا يزالون يحملون طابع ليلة أمس ، فانك كنت تلمح هنا وهناك بعض دلائل الحياة والتفكير ، وآخر ارتعاشات الاحتضار .

في اللحظة التي أحاطت هذه المجموعة بالمائدة ظهر كاردو ـ الذي كان قد اختفى ليلة أمس بعد الوليمة لكي يختم فجوره في الفراش الزوجي ـ ظهر هاش الوجه باشاً ، تهيم على شفتيه ابتسامة عذبة . فكأنه تنبأ أن هنالك إرثاً عليه أن يسجله ويلاحقه ويتذوق حلاوته ، إرثاً يحتاج إلى معاملات كثيرة ، ويدر أرباحاً طائلة .

فصرخ كورسي قائلاً :

ـ كنا نوشك أن نتناول الطعام في غياب الكاتب العدل .

وقال رجل المصارف ، وهو يشير إلى الطعام :

ـ وصلت في الوقت المناسب لكي توقع بإمضائك على هذه الأوراق !

وقال العالم :

ـ ليس هنالك وصايا تستدعي حضورك ، ولكن ربما بعض عقود الزواج !

ـ أوه ! أوه !

ـ آه ! آه !

فأجاب كاردو ، وقد أصمت أذنيه هذه المداعبات الرديئة :

ـ لحظة من فضلكم جئت هنا لأجل عمل مهم . إني أحمل ستة ملايين إلى واحد منكم .

(سكوت عميق) .

ثم وجه حديثه إلى رفائيل الذي كان يمسح عينيه بطرف منديله :

ـ ألم تكن أمك الآنسة أوفلاهارتي ؟

فأجاب رفائيل على الفور :

ـ نعم ، باربه ـ ماري اوفلاهارتي .

ـ هل تحمل هنا عقد ولادتك وعقد ولادة مدام ده فالانتين ؟

ـ أعتقد ذلك .

ـ أنت إذن يا سيدي الوريث الوحيد للماجور أوفلاهارتي الذي قضى نحبه في آب ١٨٢٨ في كالكوتا .

فصرخ « الحَكَم » :

ـ هذه ثروة طائلة !

وأضاف الكاتب العدل :

ـ الماجور خصص في وصيته مبالغ لبعض المؤسسات العامة ، وأعلنت عن إرثه « شركة الهند » بواسطة الحكومة الفرنسية . أما الارث فهو الآن متوافر بالسيولة ويمكن الحصول عليه . منذ خمسة عشر يوماً وأنا أفتش دون جدوى عن ورثة

الآنسة باربه ـ ماري أوفلاهارتي ، ومساء البارحة ، حول المائدة . . .

في هذه اللحظة انتصب رفائيل واقفاً ، وهو يأتي بحركة عنيفة ، حركة رجل جرح جرحاً عميقاً ، كانت تعبيراً صامتاً لما اعتلج في صدره . أما المدعوون فانهم شعروا نحوه باديء بدء بالحسد ، وتوجهت جميع الأنظار تصب عليه شرارها . ثم ارتفعت دمدمة تشبه الرعد الغاضب ، وعلا ضجيج ، ثم تضخم ، وراح كل منهم يقول كلمة ليحيي هذه الثروة المفاجئة التي حملها الكاتب العدل . وأخذ رفائيل المنديل الذي قاس عليه الجلد في الليلة الفائتة ، ووضع عليه الطلسم ، فاعترته رجفة عنيفة ، عندما لاحظ أن الطلسم انكمش بعض الشيء عن الخط الذي كان اميل قد رسمه .

وصرخ تاليفير قائلاً :

ـ ماذا حدث له ؟ إن له ثروته عداً ونقداً .

وقال بيسكيو موجهاً كلامه إلى إميل :

ـ اسنده . . . ستقتله الفرحة .

اكتسى وجه رفائيل الذائب بشحوب مخيف ، وتشنجت تقاطيعه ، وابيض ما برز منه ، واسود ما انخفض ، فأصبح لونه أغبر داكناً ، وجمدت عيناه . . . لقد كان يرى الموت ! إن احتضار السرور هذا كان صورة حية لحياته . ثم نظر مرتين أو ثلاث مرات إلى الطلسم الذي يتألق على المنديل . وجرب أن يشك في قوته ، ولكن شعوراً داخلياً أبعد عنه تشككه . . . لقد

أصبح العالم ملكاً له ، فانه يقدر على كل شيء ولم يعد يطلب شيئاً . وكان يرى بوضوح كم سوف يبذر في سبيل كل لذة من الأيام ، كمسافر في الصحراء ، لم يبق لديه سوى قليل من الماء ، وعليه أن يقيس حياته بعدد الجرعات التي يتجرعها . وأصبح يؤمن بالجلد المسحور ، وشعر بـأنه مـريض فساءل نفسه : « ألست مصاباً بذات الرئة ؟ أو لم تمت أمي بـداء الصدر ؟ » .

في هٰذه الأثناء كانت اكيلينا تقول له :

ـ آه ! آه ! ، إنك ستلهو كثيراً ، يا رفائيل . . . ماذا ستهديني ؟

ـ لنشرب نخب موت عمه الماجور اوفلاهارتي . . . فهذا رجل يستحق المديح .

ـ سيصبح نبيلاً من نبلاء فرنسا .

وقال « الحكم » :

ـ باه ! وما هي قيمة نبيل من نبلاء فرنسا بعد ثورة تموز ؟

ـ هل سيكون لك مقصورة خاصة في « البوفون » ؟

وقال بيسكيو :

ـ أرجو أن « تطعمنا » جميعاً معك .

وقال إميل :

ـ إن من كان مثله يعرف كيف يهتم بالأمور .

كان صراخ الجماعة الضاحك يطن في أذني رفائيـل ، ولكنه لم يتمكن من التقاط معنى كلمة واحدة . ذلك لأنه كان

يفكر ، تحت غشاء غائم من الأحلام والذكريات والتصورات في الحياة الآلية التي يعيشها الفلاح ، الذي لا تؤرقه الـرغبات وتقض مضجعه ، يعيل أطفالاً كثيرين ، ويحرث حقله ، ويأكل الخبز الأسود ، ويشرب ، ويعتقد بالعذراء وبالملك ، ويتقدم من مناولة القربان المقدس في عيد الفصح ، ويرقص على العشب الأخضر ، ولا يفهم معنى كلمة واحدة من موعظة الأحد . أما المنظر الذي يبدو الآن هنا أمام عينيه ، في هذه اللحظة ، وهذه النقوش الذهبية التي تكسو الجدران ، وهذه المأدبة الفاخرة ، فان هذا كله قد أمسكه من خناقه فراح يسعل .

وصاح فيه المضيف قائلاً :

ـ أتود قليلاً من الهليون ؟

فأجابه رفائيل بصوت قوي :

ـ لا أريد شيئاً .

فقال تاليفير :

ـ برافو ! لقد أصبحت تفهم ما هي الثروة ! إنها إجازة تجيز الوقاحة . لقد أصبحت منا . سادتي ! لنشرب نخب قوة الذهب . السيد فالاتين أصبح يملك الملايين ، ووصل إلى السلطة . إنه ملك ، ويقوى على كل شيء ، وهو فوق كل شيء كما هي حالة جميع الأثرياء ! بالنسبة إليه عبارة « جميع الفرنسيين سواسية أمام كذبة القانون » أصبحت بعد اليوم كذبة مدونة في رأس الشرعة . وهو لن يطيع القوانين بل القوانين هي التي ستطيعه . ليس هناك مقصلة ولا جلادون للمليونيريّة !

فأجاب رفائيل :

ـ نعم ، فهم جلادو أنفسهم !

فصرخ المضيف :

ـ وهذا حكم اعتباطي آخر !

وقال رفائيل ، وهو يضع الطلسم في جيبه :

ـ لنشرب .

فقال إميل ، وهو ينظر إلى يد رفائيل :

ـ ماذا تفعل ؟

ثم وجه حديثه إلى الجمهور الذي اعتراه الذهول من تصرفات رفائيل قائلاً :

ـ اعلموا يا سادتي أن صديقنا فالنتين . . . ماذا قلت ؟ المركي ده فالانتين يملك سراً يجلب الثروة . وأظنه سيقدم لنا جميعاً ما نتمنى ويجعلنا أثرياء ، هذا إذا لم يكن وغداً حقيراً أو إنساناً عديم القلب .

فصرخت افرازي :

ـ آه ! أريد عقد لؤلؤ !

وقالت اكيلينا :

ـ إن لم يكن رفائيل ناكراً للجميل ، سيهديني عربة وخيولاً جميلة تنطلق بسرعة مذهلة !

ـ أتمنى دخلاً شهرياً يربو على المئة ألف ليرة .

ـ أحب الكشمير !

ـ إدفع لي ديوني !

ـ وجّه مرضاً قاتلاً إلى عمي العجوز !

ـ رفائيل ! لا أطلب منك سوى دخل سنوي من عشرة آلاف ليرة .

ـ يجب أن تشفيني من داء التفرس !

انطلقت هذه الكلمات كأسهم نارية . وكانت هذه الرغبات الجامحة حقيقية أكثر مما هي مداعبات .

وقال إميل ، وقد تجهم وجهه :

ـ يا صديقي العزيز ، إن دخلاً سنوياً يبلغ مئتي ألف ليرة يرضيني . هيا ، تمم رغبتي !

فأجابه رفائيل :

ـ ألا تعرف يا اميل أي ثمن أدفع ؟

وصرخ الشاعر :

ـ أما عذر ! أليس علينا أن نضحي بأنفسنا في سبيل أصدقائنا ؟

فأجاب رفائيل وهو يرمي الحاضرين بنظرة قاتمة عميقة :

ـ أكاد أشتهي أن أتمنى الموت لكم جميعاً .

وقال إميل مبتسماً :

ـ إن الذين يموتون يصبحون قساة جداً !

ثم أضاف برصانة وهدوء :

ـ لقد هبطت عليك الثروة . ولن يمضي شهران حتى تصبح متعجرفاً مكروهاً . وأرى أنك أصبحت لتوك غبياً ، فلم تعد تفهم النكتة . ولم يعد ينقصك إلا أن تؤمن بجلدك

المسحور .

وخشي رفائيل أن تمتد ألسنة الحضور بالسخرية . فلزم الصمت ، ثم انصرف إلى تجرع الكأس تلو الكأس ، وكله أمل أن ينسيه سكره ، إلى لحظة ما ، قوته المشؤومة .



III

الاحتضار

في أوائل كانون الأول ، كان شيخ يبلغ السبعين من عمره يسير في شارع « فارين » رغم المطر الغزير المنهمر ، وهو يرفع رأسه بين وقت وآخر ، وينظر إلى الأبواب مفتشاً عن فندق المركي ده فالانتين ، ببساطة طفلٍ وتجهم فيلسوف . وكانت إمارات الحزن العميق المتصارع مع مزاج استبدادي ترتسم على وجهه الجاف الذي يشبه رقّاً يتلوى في النار . أما شعره فكان يتدلى على صدغيه وجبهته أشعث أغبر . ولو صادف رسام ماهر هذا الرجل النحيل النافر العظام ، الذي يرتدي ثوباً أسود ، قد يعود تواً إلى مرسمه ليضيف إلى مجموعة صوره رأس هذا الرجل ويخط تحت الرسم هذه الكلمات : « شاعر كلاسيكي يفتش عن قافية » . وبعدما تأكد العجوز من صحة الرقم ، قرع بهدوء باب فندق كبير ، ثم سأل الخادم الذي فتح الباب :

ـ هل السيد رفائيل موجود ؟

فأجاب الخادم ، وهو يزدرد قطعة كبيرة من الخبز أخذها من اناء كبير للقهوة :

ـ سيدي المركي لا يستقبل أحداً .

فقال الشيخ المجهول ، وهو يشير إلى عربة فخمة تنتظر تحت سرادق من الخشب :

عربته تنتظر هنا ولا يلبث أن يخرج ، فدعني أنتظره .

فأجاب الخادم :

ـ آه ! مسكين أنت أيها الشيخ ! تستطيع أن تنتظر إلى صباح غد ، ألا تدري أن العربة تنتظر دائماً في خدمة سيدي ؟ ولكن أرجوك أن تخرج ، لأني أخسر ستمئة فرنك لو سمحت مرة واحدة لغريب أن يدخل إلى الدار ، دون أمر من سيدي .

في هذه اللحظة برزمن أحدالأروقة شيخ يشبه شبهاًشديداً حاجباً في إحدى الوزارات ، ثم هبط الدرج بسرعة وهو يتأمل الشيخ الغريب المشدوه :

وقال الخادم :

ـ على كل حال هذا هو السيد جوناتـاس . كلمه في الأمر .

وتقابل الشيخان في منتصف صحن الدار حيث تنمـو بعض الأعشاب ، بين البلاط الرخامي الجميل ، يدفعها فضول متبادل أو ميل طبيعي خاص . وكان يخيم على المكان سكون مخيف . ولدى رؤ يتك جوناتاس ، فانك تود لو تقدر أن تكتشف السرّ الذي يكفّن وجهه والذي ينطق به كل شيء في هذا البيت العابس الكئيب .

كان أول أمر اهتم به رفائيل بعدما تسلم ثروة عمه هو أن

يفتش عن المكان الذي يعيش فيه خادمه المخلص الأمين ، إذ هو يستطيع أن يتكل على عطفه وحبه . وبكى جوناتاس الطيب عندما رأى سيده بعدما ظنّ أنه ودّعه إلى الأبد . وغمرت قلبه السعادة عندما علم أن المركي يعيّنه وكيلاً له . فأصبح جوناتاس قوة هائلة تعترض بين العالم أجمع ورفائيل ,.وصار الآمر الناهي في كل ما يتعلق بثروة سيده ، والمنفذ الأعمى لقوة مجهولة ، وحاسة سادسة تصل منها حوادث الحياة إلى رفائيل .

قال الشيخ وهو يصعد بضع درجات هرباً من المطر :

ـ سيدي ، أريد التحدث إلى السيد رفائيل .

فصرخ الوكيل مدهوشاً :

ـ أتود التحدث إلى المركي ؟ . . . إنه نادراً ما يوجه إليّ الكلام ، أنا أبوه الرضعي .

فصرخ الشيخ قائلاً :

ـ ولكنني أيضاً أبوه الرضعي ! فإذا كانت امرأتك قد أرضعته حليبها في ما مضى ، فلقد جعلته أنا أيضاً يرضع ثدي الحكمة . فهو ربيبي وطفلي . لقد هذّبت طباعه ، وصقلت قوة إدراكه وفهمه ، واني فخور بذلك . أو ليس رفائيل من أبرز رجال العصر ؟ لقد درسته في الصف السادس والثالث ، وعلمته البيان والبلاغة والفصاحة . إني معلمه .

ـ آه ! هل أنت السيد بوريكيه ؟

ـ بكل تأكيد ، ولكن يا سيدي . . .

ونظر جوناتاس إلى خادمين كان صوتهما يعكر السكون

الذي يسيطر على البيت ، وقال لهما :

ـ هسّ ! هسّ !

فقال المعلم :

ـ ولكن يا سيدي ، هل المركي مريض ؟...

فأجاب جوناتاس :

ـ الله وحده ، يا سيدي العزيز ، يعرف ما به سيدي المركي ، ليس في باريس منزل آخر يشبه منزلنا . هل تسمع ما أقول ؟ ولا منزل واحد ! لقد اشترى المركي هذه الدار التي كانت في ما مضى ملكاً لدوق كبير ونبيل خطير من نبلاء فرنسا ، وأنفق ثلاثمئة الف فرنك في سبيل تأثيثها . وان ثلاثمئة الف فرنك لمبلغ ضخم كما ترى ... غير ان كل غرفة من غرف منزلنا هي أعجوبة حقيقية . وعندما رأيت كل هذا البذخ قلت في نفسي : « ان المركي سيستقبل في بيته هذا المدينة والبلاط كما كان يفعل جده المرحوم » . لكن السيد لم يشأ ان يستقبل أحداً . انه يحيا حياة غريبة ، حياة عجيبة تناقض حياة الناس . أتسمع ما أقول يا سيد بوريكيه ؟ ان السيد يستيقظ كل يوم في وقت معين ، ولا يحق لغيري ان يدخل إلى غرفته . وقد اتفقنا على ان أفتح بابه في السابعة من صباح كل يوم ، وادخل إلى الغرفة وأقول له :

ـ سيدي المركي ، يجب ان تستيقظ ، وان ترتدي ثيابك .

فيستيقظ ويرتدي ثيابه . وعليّ ان أقدم له رداءه الذي

يصنع دائماً من قماش واحد ، ويخاط على طراز واحد . واني مضطر إلى إبداله بغيره عندما ألاحظ انه لم يعد صالحاً للاستعمال ، لا لشيء إلا لأوفر عليه العذاب الذي يسببه قولي له : « ان السيد بحاجة إلى ثوب جديد » . والحقيقة انه يلتهم الف فرنك يومياً ، ويعمل كل ما يريد . هذا الطفل العزيز ! وانني أحبه كثيراً ، فاذا شاء ان يصفعني على خدي الأيمن فاني أدير له الأيسر ، وإذا طلب اليَّ ان أقوم بأعمال اصعب من الأعمال التي أقوم بها الآن ، فانني أتمم رغباته عن طيب خاطر . أتسمع ما أقول ؟ كلفني أن أقوم بأعمالٍ كثيرة ، صغيرة أو كبيرة . والحق يقال ان هنالك ما يشغلني طوال يومي . إنه لا يقرأ الصحف ، ولكنه يأمر ان توضع في المكان نفسه وعلى الطاولة نفسها . وعليَّ ان أحلق ذقنه كل يوم في ساعة معينة ، والطاهي يخسر الف قطعة ذهبية ، تستحق له كارثٍ بعد موت السيد ، إذا لم يقدم له طعامه في الساعة العاشرة تماماً . وأنواع الطعام معدَّة لسنة كاملة . وليس هنالك شيء يتمناه السيد ! اننا نقدم له « الفريز » عندما يثمر ، وأول سمكة بحرية تصل إلى باريس يأكلها المركي . البرنامج مطبوع ومعروف . فالسيد يعرف ما عليه ان يأكل كل صباح ، زد على ذلك انه يرتدي ثيابه في ساعة معينة . أتسمع ما أقول ؟ انه يرتدي دائماً الثياب نفسها التي أضعها في مكان لا يتغير ، على الكنبة . وعليَّ أيضاً ان أسهر على ان يكون لسريره الغطاء ذاته . وعندما ألاحظ ان « ريدانغوته » لم يعد صالحاً للاستعمال فعليَّ ان استبدله بغيره

دون ان الفظ كلمة . واذا كان الطقس جميلا ، أدخل إلى غرفته وأقول :

ـ يجب ان تخرج ، سيدي .

فيجيبني نعم ، أولاً . وإذا كان يود الخروج فلا ينتظر اعداد المركبة ، لأنها دائماً معدة تنتظر ، والحوذي في مكانه ، وسوطه في يده ، كما تراها الآن . وفي المساء ، بعد العشاء ، فان السيد يذهب يوماً إلى الأوبرا ، ويوماً آخر إلى « الايتا . . . » لا ، لا ، لم يذهب بعد الى « الايتاليان » . لأنني لم أتمكن من الحصول له على مقصورة إلا البارحة . ثم يعود إلى الفندق في الساعة الحادية عشرة تماماً لينام . أما النهار فانه يمضيه في المطالعة . هل تفهم هذه الفكرة التي تسيّره يا سيد بوريكيه ؟ وأمرني بأن أقرأ قبله « فهرس المكتبة » لكي اسرع وأشتري الكتب الحديثة ، فيجدها هكذا حاضرة ، يوم صدورها على المدفأة . ويأمرني أيضاً ان أدخل عليه ساعة بعد ساعة كي أذكي النار وأرى إذا كان شيء ينقصه . وقد أعطاني كتيباً صغيراً يحتوي على جميع واجباتي ، وأرغمني على حفظه . وفي الصيف ، عليَّ ان استعمل كمية كبرى من الثلج لأحفظ درجة الرطوبة في كل الغرف ، وأن أضع دائماً زهوراً جميلة ، أوزّعها بذوق وترتيب ، في انحاء البيت . انه غني يلتهم الف فرنك يومياً ، ويقوى على إرضاء جميع نزواته . لقد حرم وقتاً طويلاً من الضروريات ، هذا الطفل المسكين ! انه لا يعذّب أحداً ، وهو طيب كالخبز الجيد الصنع . ويرغب في ان يشمل الهدوء انحاء

البيت ، ولم يوجّه إليَّ أدنى كلمة . وليس هنالك أمر يشتهيه سيدي ، فكل شيء يسير وفقاً لاشارة من يده أو من عينه . وانه على حق ، فاذا لم نحدّ من نزق الخدم ، فلا تلبث الفوضى ان تعم . أما أنا فأكلمه بكل ما عليه ان يفعله ؛ وهو يصغي اليَّ . ولا تستطيع ان تتصور إلى أية درجة دفع بالأشياء . ان قاعاته هي . . .

- كيف هي ؟ . . .

- انها تشكّل خطاً مستقيماً ، ولنفرض انه فتح باب قاعة نومه ، فان كل الأبواب تفتح دفعة واحدة بطريقة آلية ، فيستطيع عندئذٍ ان ينتقل في ارجاء البيت من دون أن يعترضه باب مغلق . وهذا لطيف ومريح ، ويلائمنا نحن الخدم . . . لقد كلفنا هذا العمل كثيراً . وقال لي أخيراً ، يا سيد بوريكيه :

- جوناتاس . يجب ان تعتني بي كاعتنائك بطفل رضيع .

كطفل رضيع ، نعم يا سيدي ، كطفل رضيع . لقد قال هذا !

- وستفكر في كل حاجاتي ، بدلاً مني .

- انني الآمر هنا يا سيدي ، وهو الخادم . أتسمع ما أقول ؟ . . . أما سبب هذا فلا يدركه إلا اللهوحده . وهذا شيء يناقض العرف ، أليس كذلك ؟

فأجاب المعلم الشيخ :

- انه يؤلف قصيدة .

- أتعتقد يا سيدي انه يؤلف قصيدة ؟ أيكون تأليف

الشعر عملاً استعبادياً إلى هذا الحد ؟ ولكني لا اعتقد انه يؤلف الشعر . فلقد طالما ردَّد على مسامعي انه يود ان يعيش كالنبات ؟ ومساء أمس ، يا سيد بوريكيه ، نظر الى زنبقة وقال وهو يلبس ثيابه :

- هذه هي حياتي . . . إنني أعيش كالنباتات يا صديقي جوناتاس .

ويعتقد الناس انه بلي بالجنون . . . شيء عجيب !

فأجاب المعلم الشيخ ، وقد اكتسى وجهه بوقار فرض الاحترام فرضاً على جوناتاس الخادم الأمين :

- هذا يعني ان سيدك يهتم بعمل أدبيّ قيّم ، وهو يغرق في تأملات لا نهاية لها ، ولا يريد ان يبدد أوقاته بالاهتمام لشؤون الحياة المبتذلة . فان العبقري ينسى كل شيء في غمرة أعماله الفكرية . وكان « نيوتن » المشهور يوماً . . .

فقاطعه جوناتاس :

- آه ، نيوتن . . . انني لم أسمع به .

فتابع بوريكيه حديثه قائلاً :

- نيوتن عالم رياضيات كبير أمضى أربعاً وعشرين ساعة مسنداً يده إلى الطاولة ، وعندما تخلّص من تأملاته صباح اليوم التالي ، كان يعتقد ان النهار لو يولِ بعد . . . انا ذاهب لرؤية هذا الطفل العزيز ، فقد أنفعه في شيء .

فصرخ جوناتاس :

- لحظة سيدي . قد تكون ملك فرنسا ، ولكنك لن

تقوى على اقتحام بابه إلا إذا سرت على جثتي . اسمع يا سيد بوريكيه : سأذهب اليه في الحال وأقول له : « هل يجب ان يصعد اليك السيد ؟ » فيجيبني ، نعم أو لا . ولن أقول له أبداً : هل تتمنى ان ؟ . . . أو هل تريد ؟ أو هل ترغب في . . . لقد ألغينا هذه الكلمات من محادثاتنا . وفي احدى المرات صدرت عني عبارة غير متفق عليها فغضب سيدي وصاح بي : « أتريدني أن أموت ؟ » .

ترك جوناتاس المعلم الشيخ في الرواق وهو يشير اليه بألا يقترب ، ثم عاد بعد فترة قصيرة وبشره بنجاح مسعاه ، وقاده خلال القاعات المفتوحة الأبواب . ولاحظ بوريكيه ، من بعيد ، تلميذه بالقرب من المدفأة ، كان جالساً على كنبةٍ وثيرة ، مرتدياً ثوباً تزينه رسوم كبيرة ، ودلائل الحزن مطبوعة على جبينه ، وعلى وجهه الشاحب كزهرة ذابلة . وكان يميّز شخصه شيء غريب يختص بالأغنياء المرضى . أما يداه الشبيهتان بيدي امرأة جميلة ، فقد كساهما لون أبيض شاحب ، فيما عقد شعره الأشقرالخفيف حلقات حول صدغيه ، وعلى رأسه قبعة يونانية من الكشمير . وعند قدميه وضعت سكين ذهبية يستعملها لقطع أوراق الكتب .

لكن هذا الضعف الذي ينم عنه جسم رفائيل ؛ كانت تكذبه عينان زرقاوان ، يُظن ان الحياة بكاملها قد تجمّعت فيهما . كانتا تلمعان بفكرة غريبة تستولي على كل شيء ، وقد تؤذينا نظراتهما إذا أمعنا في التطلع اليهما . ورب قائل انها نظرات

يأس ، ورب قائل انها تفضح معركة داخلية مخيفة كتبكيت الضمير . انها نظرات العاجز الذي يدفن جميع رغباته في أعماق قلبه ، أو نظرات البخيل ، وهو يفكر في كل اللذات التي تستطيع أمواله ان تقدمها له ، أو نظرات « بروميثه » في قيوده ، أو نظرات نابوليون التي تمثلت فيها خيبته ، عندما علم في « الأليزه » سنة ١٨١٥ بالغلطة الاستراتيجية التي ارتكبها أعداؤه ، فطلب القيادة لمدة أربع وعشرين ساعة ، ولكنه لم يفز بمأربه . إنها نظرات فاتح حقيقية ونظرات محكوم بالاعدام . كان رفائيل يخضع ارادته وعقله لفلاح مسنّ ، يلامس المدينة من بعيد ، بعدما أمضى خمسين سنة مستخدماً . انه يتنازل عن الحياة ليعيش أو يعري نفسه من كل رغباتها ، ويكاد يفرحه ان يصبح كالآلة وأخص حياله ليصير عفيفاً ، من رجل ان يجيد مصارعة القوة الرهيبة التي قبل تحدّيها .

في اليوم التالي لهبوط الثروة عليه ، وبعدما رأى الجلد ينكمش في يده ، ذهب عند الكاتب العدل فشاهد هناك طبيباً يتمتع بشهرة لا بأس بها ، فأخبره هذا كيف تمكن من شفاء أحد الخدم من ذات الرئة ، ولقد قال : ان هذا الخادم قضى عشرين سنة دون أن يتفوه بكلمة واحدة ، وأخضع نفسه لنظام دقيق ، وبقي طوال هذه المدة لا يتنفس سوى ست مرات في اليوم في إحدى زرائب البقر ، متبعاً طريقة خاصة في الغذاء . فقال رفائيل في نفسه : « سأكون هذا الرجل » . ذلك لأنه يود ان يعيش مهما كان الثمن ، وأخذ يحيا حياة آلة بخارية في قلب

الترف والاناقة .

وقع نظر المعلم الشيخ على هذه الجثة الشابة ، فاعتراه الارتجاف ، وبدا له أن كل شيء هو اصطناعي في هذا الجسم الواهن الهزيل . كانت نظرات المركي ملتهبة وجبينه مثقلاً بالأفكار ، فلم يقو المعلم الشيخ على معرفة الطالب ، بوجهه الغض الصبيح ، وأعضائه القوية التي لا تزال صورتها ماثلة لعينيه . ولا هذا الرجل الطيب ، الناقد الحصيف ، قد قرأ لورد بيرون ، ان يظن ولا شك انه يرى « مانفرد » في المكان الذي يجب أن يرى فيه « تشايلد هارولد » .

وقال رفائيل ، وهو يشد على أصابع أستاذه الباردة بيد ملتهبة رطبة :

- صباح الخير . كيف حالك ؟

فأجاب الشيخ ، وقد أفزعه التناقض الذي وجده في هذه اليد التي تلتهمها الحمى :

- أنا حسن . . ولكن أنت ؟

- أوه ! أرجو ان أحتفظ بصحة جيدة .

- إنك تعمل ولا شك في بعض التآليف المهمة .

فأجاب رفائيل :

- كلا يا سيد بوريكيه ، لقد ختمت صفحة كبيرة ، ثم ودعت العلوم إلى الأبد . ولا أكتمك انني لا أعرف الآن أين وضعت مخطوطتي .

وسأل المعلم مستفهماً :

ـ إن إنشاءك صحيح دون ريب . وأرجو ألّا تكون اعتنقت مبدأ اتباع المدرسة الحديثة ، الذين يدعون التجديد ، ويعتقدون أنهم يأتون بالبدائع والروائع ، ويخلقون « رونصار »[1] .

ـ إن عملي هو بحث محض فيزيولوجي .

فأجاب المعلم :

ـ لقد قيل كل شيء . وأعتقد أن على اللغة ، في الأبحاث العلمية ، أن تخضع لمقتضيات الاكتشافات الحديثة . ألا ترى أن الكتابة الصحيحة الموسيقية ، لغة « ماسيون » و « بيفون » و « راسين الكبير » لا ينقصها شيء ؟

ثم قال وهو يقاطع نفسه :

ـ كدت أنسى يا صديقي موضوع زيارتي ، وإنه لموضوع مهم جداً ، تتوقف عليه حياتي .

ولجأ المعلم الشيخ إلى الكلمات المختارة المنتقاة التي لا طائل تحتها ، وإلى الدوران في الكلام الذي عودته إياه مهنة التعليم ؛ فأوشك رفائيل أن يندم لأنه استقبله ، لكنه في اللحظة التي كاد أن يتمنى رؤ ية معلمه خارجاً ، سارع إلى كبح جماح رغبته هذه ، وهو يلقي بنظرة عجلى على الجلد المسحور المعلق أمام ناظريه على قطعة قماش بيضاء ، حيث رسم ، حول خطوطه القَدَرية ، خطاً أحمر يؤلف له إطاراً . . . منذ أن انقطع رفائيل عن إفراطه

---

(١) رونصار : شاعر فرنسي أوجد مدرسة أدبية . وقد عرف بجزالة شعره ورقته . (١٥٢٤ ـ ١٥٨٥) .

في شهواته المشؤومة ، أخذ يخنق أقل ميل من ميوله ، ويحيا حياة لا تسبب أي انكماش أو ارتجاف لهذا الطلسم المخيف . وأصبح ينظر إلى الجلد نظرته إلى نمرٍ يجب أن يحيا معه دون أن يوقظ غريزته الوحشية . فثابر إذن على الاصغاء بصبرٍ عجيب إلى كلمات المعلم الشيخ . وأمضى بوريكيه ساعة كاملة ، وهو يخبره بالاضطهادات التي تعرض لها منذ ثورة تموز ، وقال أن ذنبه هو أنه يريد حكومة قوية ، وأن يبقى البقالون في مخازنهم ، وأن يدير رجال الدولة المسائل العامة ، وأن يكون المحامون في قصر العدل ، وأمراء فرنسا في اللكسمبور . لكن أحد وزراء الملك صبّ عليه جام غضبه واتهمه بأنه كارليست . وما لبث أن وجد نفسه بلا وظيفة ، بلا تقاعد ، وبلا خبز . ولما كان يعيل ابن أخ لـه فقير ، وعليـه أن يدفـع نفقات دراستـه في دير « سـان سولبيس » ، فانه يرجو تلميذه القديم ، ليس من أجله بل لأجل ابنه بالتبني أن ، يتوسط له عند الوزير الجديد ، لا ليعيده إلى منصبه ، بل ليعين ناظر مدرسة في إحدى المقاطعات .

كان رفائيل قد أصبح فريسة للاسترخاء والفتور عندما انقطع صوت الشيخ الرتيب عن الطنين في أذنيه . لكن التهذيب اضطره إلى التحديق في عيني الشيـخ البيضاوين الجـامدتـين تقريباً ، فراحت قوة غـامضة لا تفسير لها تفعـل فيه فعـل الذهول ، بل فعل السحر المغناطيسي .

وقال رفائيل ، دون أن يعلم تماماً على أية محادثة يجيب :

ـ لا أستطيع أن أصنع شيئاً من أجلك ، يا أبتِ بوريكيه

الطيب . وأتمنى لك النجاح من كل قلبي .

في هذه اللحظة ، ودون أن يلاحظ تماماً مفعول هذه الكلمات الملأى بالتعجرف واللامبالاة ، في قلب الشيخ ، وما ارتسم على جبينه الشاحب المتغضن ، انتصب رفائيل واقفاً كأيّل خائف ، وبعث صوتاً مروعاً ، عندما رأى خطاً صغيراً أبيض ، بين الخط الأحمر والجلد الأسود ، جعل الشيخ المسكين يرتجف فرقاً .

وصرخ رفائيل قائلاً :

ـ إذهب ، أيها الحيوان القذر ! ستعين ناظراً . ألم تكن تستطيع أن تطلب مني ألف قطعة ذهبية ، عوضاً عن رغبة قاتلة كهذه ؟ عند ذلك تكون زيارتك لم تكلفني شيئاً . إن هنالك مئة ألف وظيفة في فرنسا ، وليس لي سوى حياة واحدة ! إن حياة الانسان هي أثمن من جميع وظائف العالم . . . جوناتاس !

وظهر جوناتاس .

فوجه إليه رفائيل الكلام ، وهو يشير إلى الشيخ المرتاع :

ـ انظر ما جنته عليّ أعمالك ، أيها الأحمق . هل وضعت نفسي بين يديك كي تمزقها إرباً إرباً ؟ إنك تنتزع مني في هذه اللحظة عشر سنين من حياتي ، وإذا ارتكبت غلطة أخرى كهذه ، فانك تستطيع عندئذٍ أن تشيعني إلى القبر الذي يرقد فيه والدي . أو لم يكن من الأفضل لي أن أتزوج فيدورا الجميلة ، على أن أقابل هذا العجوز البالي ، هذه الخرقة الانسانية ؟ عندي كثير من الذهب لأجله . . . ولنفرض أن مات بوريكيه جوعاً ،

ومات جميع أمثاله في العالم ، فماذا يضرني هذا الأمر ؟

وابيض وجه رفائيل من الغضب ، وعلا الزبد شفتيه المرتجفتين ، وارتسم في عينيه تعبير مخيف . فاعترت الشيخين ، لدى رؤيته على هذه الحال ، رجفة تشنجية ، كطفلين أمام أفعى . وبعد قليل وقع الشاب على كنبة ، وحدث في نفسه رد فعل معاكس ، فسالت الدموع غزيرة من عينيه الملتهبتين وقال :

ـ آه ! حياتي ! حياتي الجميلة ! . . . لم يبق فيك حب ولا تفكير صحيح . أجل ، لم يبق فيك شيء . . .

ثم استدار نحو المعلم ، وأضاف بصوت عذب :

ـ لقد وقعت الواقعة ، يا صديقي . وها أنت ترى أنني أكافئك مكافأة حسنة على اعتنائك بي وتثقيفي . وهكذا ستكون تعاستي قد أفادت بالخير ، على الأقل ، رجلاً طيباً هو أنت .

كان في كلماته كثير من الرقة جعلت الشيخين يذرفان الدموع ، كما نبكي عادة عندما نسمع أغنية مؤثرة تردد كلماتها بلغة أجنبية .

وقال بوريكيه بصوت منخفض :

ـ إنه مصاب بداء الصرع .

وأردف رفائيل بعذوبة :

ـ أعرف طيبة قلبك ، يا صديقي . إنك تريد أن تجد تبريراً لتصرفي . المرض حادث ، ولكن عدم الانسانية رذيلة شنيعة . دعني الآن . وسيصلك غداً أو بعد غد قرار تعيينك ، وقد يكون تعيينك في هذا المساء . لأن « المقاومة » قد انتصرت

على « الحركة » . . . الوداع .

انسحب الشيخ من الغرفة ، وقد داخله الخوف وأصبح فريسة للقلق المقيم على صحة فالانتين العقلية . فلقد كان في هذا المشهد شيء غير طبيعي . وشك الشيخ في نفسه ، وراح يسائل نفسه ، كأنما يستيقظ من حلم مزعج مخيف .

وقال رفائيل ، موجهاً كلامه إلى خادمه العجوز :

ـ اسمع ، يا جوناتاس . جرب أن تتفهم المهمة التي أمنتك عليها .

ـ نعم يا سيدي المركي .

ـ أنا مثل رجل وضع خارج التقاليد والعادات .

ـ نعم يا سيدي المركي .

ـ جميع ملذات الحياة تلعب حول فراش موتي ، وترقص كنساء جميلات أمامي . وفي دعوتها واقترابي منها الموت المحتم . . . دائماً الموت . يجب أن تكون حاجزاً بين العالم وبيني !

فقال الشيخ ، وهو يمسح قطرات العرق التي تجمعت فوق جبهته المجعدة :

ـ نعم يا سيدي المركي ، ولكنك إن كنت لا ترغب في رؤ ية النساء الجميلات ، فكيف ستتصرف إذن في هذا المساء في « الايتاليان » ؟ لقد رحلت أسرة إنكليزية إلى لندن وأسلمتني باقي اشتراكها ، وحصلت لك على مقصورة جميلة . آه ! مقصورة جميلة جداً ، في الصفوف الأولى .

لم يكن رفائيل يسمع شيئاً لأنه كان غارقاً في تأمل عميق .

*

أرأيت هذه العربة الأنيقة ، البسيطة في مظهرها ، السمراء التي يلمع على كل جانب من جنباتها شعار عائلة نبيلة ؟ عندما تمر هذه العربة ، تحدق فيها العاملات بإعجاب واندهاش ، متخيلات الحرير الأصفر الذي يبطنها ، وسجادتها الثمينة ، ووسائدها الوثيرة ، وزجاجها الصافي . وعلى مؤخرة هذه العربة الارستوقراطية يقف خادمان بثيابهما الرسمية . وفي داخلها ، يرتاح على الحرير رأس ملتهب غائر العينين ، هو رأس رفائيل الحزين المفكر ، صورة شنيعة للثروة ! تنطلق العربة في باريس كطلقة بندقية ، وتصل إلى مسرح « فافار » فيترك الخادمان مكانهما ، ويفتحان الباب ، فتتوجه إلى العربة أنظار الغيرة والحسد .

ويقول طالب لا يملك قطعة ذهبية واحدة تسهّل له أمر الاصغاء إلى موسيقى روسيني الساحرة :

ـ ماذا صنع هذا ليصبح ثرياً هكذا ؟

أخذ رفائيل يمشي بهدوء في الاروقة ، ولم يكن يعلل نفسه بملذات كتلك التي كان يجدها في هذا المكان قديماً . وفي انتظار الفصل الثاني من « الساميراميد » [1] راح يتنقل في الدهاليز ، أو

---

(١) أوبرا وضعها روسيني في البندقية عام ١٨٢٣ وقدمت في باريس للمرة الأولى عام ١٨٢٥ .

يتنزه في قاعة الاستراحة ، دون أن يهتم بمقصورته التي لم يكن بعد قد دخل إليها . ذلك لأن عاطفة الامتلاك لم تعد تسيطر عليه وتسيّره . فهو شبيه بجميع المرضى ، لا يفكر إلا في مرضه . ووقف أخيراً بالقرب من المدفأة وراحت أنظاره تتنقل بين الشباب والشيوخ المتأنقين الذين تغصّ بهم القاعة ، بين الوزراء السابقين والوزراء الحاليين ، بين أمراء دون ألقاب ، وألقاب دون أمراء ، كما صيرتهم ثورة تموز . ووقع نظره أيضاً على جمهور كبير من المضاربين ومن الصحافيين . ورأى رفائيل على بعد خطوات معدودة منه ، بين هذه الرؤوس الكثيرة ، رأساً عجيباً غير طبيعي .

أحنى رفائيل رأسه ، بعينيه المشعتين ، ثم تقدم نحو هذا الكائن العجيب لكي يتأمله عن كثب ، لكنه ما لبث أن قال في نفسه : « يا للرسم المدهش ! » . كان هذا الكائن المجهول يعرض للنظر شعراً أسود وحاجبين سوداوين أيضاً ، ولكنه يبدو جلياً أن الصبغة السوداء أضيفت فوق شعر ناصع البياض ، فغدا اللون بنفسجياً تقريباً . أما وجهه الضيق الذي حفرت فيه السنون تجاعيد عميقة ، والمطلي بالأحمر والأبيض ، فكان يعبر عن القلق والحيلة معاً . ولكن صباغ الوجه لم يكن جيداً ، فبدت بعض أقسامه رصاصية اللون ، تدل على الهرم والشيخوخة . وإذا ما نظر مراقب إلى رفائيل وإلى هذا الشيخ المجهول ، فانه يعتقد دون شك أنه يرى في وجه المركي عيني شاب في وجه هرم ، وفي وجه الشيخ عيني شيخٍ خابيتين في وجه

شاب .

وحاول فالانتين أن يتذكر في أية مناسبة التقى هذا العجوز الجاف المتأنق ، الذي ينتعل أحذية الشباب ، فيسمع مهمازيه صوتاً قوياً ، والذي يظن أنه يملك قوة الشباب النزق ، ويسعى إلى تبذيرها . كان يمشي مشية طبيعية لا تصنّع فيها ، وثوبه مزرّر بعناية فوق مجموعة عظام صلبة ، فيعطيه هذا مظهر أبله معجب بنفسه يتبع آخر الأزياء . إن هذا النوع من الدمى المليء بالحياة كان فيه سحر الرؤيا بالنسبة إلى رفائيل . فراح يتأمله بفضول كما نتأمل رسم شيخ « لرامبرانت » أضيفت فوقه بعض الألوان ، ووضع في إطار جديد . لكن رفائيل ما لبث أن عرف في هذا الشيخ تاجر « الانتيكة » الذي سبب له جميع آلامه . وفي هذه اللحظة انطلقت من فم الشيخ ضحكة خرساء وارتسمت على شفتيه الباردتين ، وجمح خيال رفائيل فأظهر له شبهاً غريباً بين رأس الشيخ ورأس الشيطان في مسرحية « فاوست » « لغوته » ، والذي برع في تصويره الرسامون . واستبدت ألف خرافة بنفس رفائيل القوية ، فاعتقد أولاً بقوة الشيطان ، وبجميع الخرافات التي تحملها أساطير القرون الوسطى والتي يجسمها الشعراء . ورفض بخوفٍ أن يكون مصيره كمصير « فاوست » فتضرع إلى السماء ، مثل محتضر ، يؤمن إيماناً قوياً بالله وبمريم العذراء . فسمح له ضوء سني عجيب أن يرى سماء « ميكل آنجٍ » « وسانزيو ايربان » : غيوم ، وشيخ لحيته بيضاء ، ورؤوس مجنحة . وامرأة جميلة جالسة ضمن هالة من النور . إنه

الآن يفهم هذه الابداعات ، ونزواتها شبه الانسانية، تشرح له مغامرته وتسمح له بالرجاء . ولكن عندما عادت عيناه تجولان في القاعة . رأى عوضاً عن العذراء فتاة مغرية ، افرازي المحتقَرَة ، تلك الراقصة الرشيقة القامة ، الخفيفة الحركات . كانت ترتدي ثوباً مرصعاً باللآلىء الشرقية ، وقد بدت فاقدة الصبر ، وقحة ، تعبّر عيناها اللامعتان عن ثروة هذا التاجر الطائلة التي تبدد هي كنوزها .

وتذكر رفائيل الأمنية التي استقبل بها هدية الشيخ المشؤومة ، وتذوق لذة الانتقام ، وهو يرى بأم عينه ذل الحكمة السامية التي كان إذلالها يبدو مستحيلاً في ما مضى . ووجّه الشيخ ابتسامة باهتة إلى افرازي فأجابت عليها بكلمة حب ، ومد لها ذراعه الجافة الهزيلة ، ثم راح يتنقل برفقتها في قاعة الاستراحة ، متقبلاً بلذة تفوق لذة النظرات المحمومة ، وكلمات المديح التي توجَّه إلى عشيقته ، دون أن يسمع كلمات السخرية اللاذعة التي كان هدفاً لها .

وصرخ شاب رومانتيكي متأنق :

ـ من أية مقبرة يخرج هذا الغول ؟

وارتسمت الابتسامة على شفتي افرازي عند سماعها هذه الكلمات . كان الساخر شاباً أشقر الشعر ، أزرق العينين ، رشيق القوام ، يزين شفته العليا شارب جميل ، ويرتدي « فراكاً » قصيراً ، وقبعته مائلة إلى الوراء ، يتدفق حياة وقوة .

وقال رفائيل مناجياً نفسه : « كم من الشيوخ يستبد بهم

نوع من الجنون فيجعلهم يحيون حياة النزاهة والعمل والفضيلة ! ولكن هذا الشيخ لا يزال يسعى وراء الحب ، برغم السنين التي ينوء بها كاهلاه . . .

ثم أوقف التاجر بحركة من يده وهو يغمز افرازي ، وقال :

ـ ألم تعد تذكر يا سيدي مبادىء فلسفتك الصارمة ؟

فأجاب الشيخ بصوت محطم :

ـ آه ! أشعر الآن بسعادة تفوق سعادة شاب في ريعان العمر . لقد كنت أعيش الوجود بالمقلوب ألا تعرف أن حياة كاملة تكمن في ساعة حب ؟

في هذه اللحظة سمع الحضور صوت جرس يدعوهم إلى المسرح ، فتركوا قاعة الاستراحة لكي يحتلوا مقاعدهم ومقصوراتهم . وافترق رفائيل عن الشيخ .

كان المركي يدخل إلى مقصورته عندما لاحظ فيدورا في مقصورة تقابل مقصورته تماماً . وان من ينظر إليها في تلك اللحظة يعتقد أنها دخلت إلى القاعة منذ وقتٍ قريب جداً ، لأنها كانت لا تزال تأتي بحركات كثيرة كي تتخذ وضعاً ملائماً ، تحرص عليه دائماً النساء المتأنقات . ثم رفعت شالها وأظهرت عنقها ، فتوجهت كل الأنظار إليها . وكان يرافقها أمير شاب من أمراء فرنسا ، فطلبت إليه أن يعطيها نظارتها التي كلفته حملها . وأتى الشاب بحركة ، ففهم رفائيل للحال أن خَلَفه المسكين يخضع لعبودية عمياء . فهو مخدوع كما كان هو مخدوعاً في ما

مضى ، وهو مثله دون ريب يناضل بكل ما في الحب الحقيقي من قوة ضد أساليب فيدورا الباردة . ان هذا الأمير الشاب يحتمل العذاب القاسي الذي تخلص منه رفائيل لحسن حـظه . . .
وارتسمت على وجه فيدورا إمارات السرور عندمـا اعتقدت ـ بعدما تفحصت بنظارتها جميع المقصورات ـ أنها تحطم بجمالها وزينتها جمال النساء الموجودات في القاعة وزينتهن ، ثم راحت تضحك كي تظهر أسنانها البيضاء ، وحركت رأسها الصغير المزيّن بالزهور لكي تنتزع الاعجاب وتستولي على الألباب .
وأخذ نظرها ينتقل من مقصورة إلى مقصورة ، فتهزأ بنبيلة روسية لأنها لم تضع قبعتها على رأسها بشكل يظهر جمال شعرها ، أو تسخر من ابنة صاحب بنك لا تعرف كيف تتزين .

والتقت عينا فيدورا فجأة عيني رفائيل الجامدتين ، فاعترى وجهها الشحوب . كان عشيقها الذي أعرضت عن حبه يصب عليها نظرات احتقار لا ترحم . إنه وحده بين عشاقها المهمَلين لا يعترف بقوتها ، ووحده أصبح في منجاة من إغرائها . إن السلطة التي تقبل آن يواجهها التحدي من دون أن ترفعه أو تعاقب صاحبه ، هي سلطة شارفت على الانهيار . هذا الرأي ، أو قل هذه الحكمة ، هي محفورة في قلوب النساء أكثر مما هي موجودة في رؤوس الملوك . وهكذا كانت فيدورا ترى في رفائيل زوال سحرها وفتنتها وأناقتها . ان كلمة قالها البارحة في الاوبرا ، أصبحت ترددها جميع الألسنة في قـاعات بـاريس الكبرى . فطعنتها كلمة في الصميم وأحدثت في قلبها جرحاً لا يلتئم . إننا

نتمكن في فرنسا من تضميد الجراح ، ولكننا لم نتوصل بعد إلى اكتشاف دواء يزيل الألم الذي تحدثه كلمة عابـرة . . . وفي اللحظات التي كانت جميع أنظار النساء موجهة إلى الكونتيس ورفائيل ، تمنت فيدورا لو تستطيع أن تزج بالمركي في أعماق سجن من السجون ، ذلك لأن منافساتها حزرن عذابها برغم براعتها في إخفاء مشاعرها .

وشعرت فيدورا أنه لم يبق لها عزاء واحد تلجأ إليه ، وهذه الكلمات العذبة : « إنني أجمل مخلوقة » ، هذه العبارة الخالدة التي كانت تنيم جميع آلامها ، وترضي تعجرفها ، أصبحت كذبة شنيعة . ففي بداية الفصل الثاني جاءت امرأة وجلست بالقرب من رفائيل ، في مقصورة كانت لا تزال خالية إلى ذلك الوقت . فارتفعت همسات الاعجاب من القاعة ، واستدارت الرؤوس وتعلقت جميع الأنظار على القادمة المجهولة . وحدثت ضجة عامة اشترك فيها الشباب والشيوخ ، بحيث إن الموسيقيين ، عندما رفع الستار ، استداروا أولاً كي يطلبـوا إلى الجمهور المحافظة على الهدوء ، ولكنهم ما لبثوا أن اشتركوا مع الجمهور في التصفيق ، وأرسلوا آهات طويلة . وارتفعت الأحاديث في كل مقصورة ، وتسلحت النسـاء بنظاراتهن ، وراح الشيـوخ يمسحون زجاج نظاراتهم بقفازاتهم . . . ثم بـدأت الحماسـة تخفت تدريجاً ، وصـدحت الموسيقى عـلى المسرح ، وارتفـع الغناء ، وعاد كل شيء إلى ما كان عليه من نظام وترتيب .

وأحس الجمهور بالخجل لأنه استسلم لعاطفة طبيعية ،

وعاد إليه بروده الارستوقراطي وأساليبه المهذبة . إن الأغنياء لا يريدون أن يندهشوا من شيء ، ويحبون أن يروا ، لدى أول نظرة منهم إلى شيء جميل ، عيباً يمنعهم من الاعجاب ، لأنه عاطفة سوقية مبتذلة . ولكن بعض الرجال ظلوا جامدين لا ينصتون إلى الموسيقى تسيطر عليهم نشوة حبيبة ، وأنظارهم موجهة إلى جارة رفائيل .

ولاحظ فالنتين ، في مقعد ما ، بالقرب من « اكيلينا » وجه تاليفير الدامي الشنيع ، ثم رأى اميل واقفاً بالقرب من الأوركسترا ، وكأنه يقول له : « انظر إلى هذه المخلوقة الجميلة الجالسة قربك ! » ، ووقع نظره أيضاً على راستينياك جالساً بين مدام نيسانجان وابنتها ، يشد على قفازه بحركة عصبية ، كرجل دبّ في قلبه اليأس ، لأنه حكم عليه أن يبقى مقيداً في هذا المكان .

كانت حياة رفائيل رهينة عقد لا يزال مكتوماً ، وقعه بينه وبين ذاته ، وآل على نفسه ألا ينظر بانتباه وإمعان إلى أية امرأة ، لكي يكون بمنجاة من التجربة ، وكان يحمل نظارة وضعت زجاجتها بشكل يشوه جمال التقاطيع ، ويعطيها منظراً قبيحاً مخيفاً .

وكان لا يزال فريسة لذلك الخوف الذي استبد به في الصباح ، عندما أجبره تهذيبه على الاصغاء إلى معلمه الشيخ ، وشاهد الجلد ينكمش . فقرر رفائيل ألاّ يدير وجهه نحو جارته . . . كان جالساً كأميرة ، يدير ظهره إلى زاوية مقصورته ، ويحجب عن المجهولة بوقاحة نصف المشهد ، كأنه

يحتقرها ، ويتجاهل وجود امرأة حسناء وراءه . وكانت المجهولة تستند بمرفقيها على حافة مقصورتها ، وتقرب رأسها كي تقوى على رؤ ية المغنين ، فكأنها تتخذ وضعاً أمام رسام . إن هذين الشخصين كانا يشبهان عاشقين اختلفا لسبب ما ، فتظاهرا بالغضب ، ولكنهما ينتظران أول كلمة حب تصدر عن أحدهما حتى يتعانقا . أحياناً كان شعر المجهولة يلامس لمساً رفيقاً رأس رفائيل ، فيسبب له هذا الاحتكاك شعوراً عذباً ، أخذ رفائيل يقاومه بكل قواه . ثم سمع حفيف ثوبها ، وطرق أذنه تردد أنفاسها . واتصلت حياتها فجأة بحياته كشرارة من الكهرباء ، ولمس الحرير كتفه فنقل إليه حرارة ظهرها الأبيض العاري . وهكذا شاءت الطبيعة ، بنزوة من نزواتها ، أن يتنفس معاً هذان الكائنان اللذان تفصل بينهما هوة عميقة ، وأن يفكر واحدهما في الآخر . وتسربت رائحة عطر نفاذة منها إليه ، فأحس رفائيل بنشوة كبرى ، وصور له خياله المحموم امرأة نارية مخيفة ، فاستدار بسرعة نحوها . وساءها دون شك أن تجد نفسها على اتصال بغريب عنها ، فأتت بحركة مشابهة ، ودبت الحياة في الوجهين ، وكستهما بالحمرة فكرة واحدة .

- بولين !

- السيد رفائيل !

بقي الاثنان ينظر واحدهما إلى الآخر ، وقد استولت عليهما الدهشة . كان رفائيل ينظر إلى بولين خلال الحرير الذي يغلف بتواضع صدرها الجميل ، ونظراته الثاقبة تقع على بياض أين منه

بياض الزنبق ، وتحيطان بشكل نهديها المغريين ، هذه الكنوز التي تعجب بها حتى النساء ، زد على ذلك براءتها الملائكية ، وعذوبتها ، وجاذبيتها ، ونعومتها . وكان جسمها يرتجف كما يرتجف قلبها .

قالت بولين :

ـ آه ! . . . تعال غداً إلى فندق « سان كوانتان » لكي تأخذ أوراقك . سأكون هناك عند الظهر تماماً . أرجو ألا تتأخر .

ثم نهضت فجأة واختفت . وأراد رفائيل أن يتبع بولين ، ولكنه خاف أن يحرجها . فبقي في مكانه . ووجه نظراته إلى فيدورا فرآها سمجة قبيحة ، ولكنه لم يعد يفهم شيئاً من الموسيقى ، وأحس أنه يختنق في هذه القاعة ، فتركها عائداً إلى منزله ، وقلبه يجيش بالآمال .

وقال لخادمه الشيخ عندما أصبح في فراشه :

ـ أعطني قليلاً من « روح الأفيون » على قطعة من السكر ، ولا توقظني في الغد إلاّ قبل الظهر بعشرين دقيقة . . .

وفي صباح اليوم التالي صرخ قائلاً ، وهو ينظر إلى الطلسم بحسرة وشوق :

ـ أريد أن أكون محبوباً من بولين !

وخيل أن الجلد قد أضاع قوة الانكماش ، فلم تتراجع أطرافه عن الخط الذي رسمه رفائيل . والحقيقة أن الجلد لا يقوى على تحقيق رغبة سبق لها أن تحققت .

وصرخ رفائيل ، وهو يشعر بأن حملاً ثقيلاً قد ألقي عن

كاهليه ، هذا الحمل الذي لازمه منذ أن أعطي الطلسم :

ـ آه ! إنك تكذب . إنك لا تطيعني . لقد فسخ العقد . وأنا الآن حر ، وسأعيش ! لقد كانت إذن مداعبة سمجة .

لفظ هذه الكلمات ولكنه لم يجرؤ على الايمان بفكرته . ثم راح يقطع الطريق إلى « سان كوينتان » على قدميه ، وهو يجرب أن يعيد إلى ذهنه ذكرى أيامه الجميلة في ذلك الفندق ، حيث كان يعيش سعيداً ، بعيداً كل البعد عن نزوات الأهواء والشهوات ، وحيث لا يزال يعتقد بوجود السعادة الخالصة . كان يمشي وقد امحت من مخيلته صورة بولين في « سان كوينتان » ، وارتسمت عوضاً عنها صورة بولين التي التقى بها البارحة ، بولين العشيقة الكاملة التي طالما حلم بها ، الفتاة الخيالية ، العاشقة الفنانة ، التي تفهم الشعراء وتحب الشعر ، وتعيش في الترف والبذخ والأناقة . وبكلمة ، إنه يتخيل فيدورا ذات نفس نبيلة أو بولين أميرة ، يفوق ثراها ثلاث مرات ثراء فيدورا . وعندما وجد نفسه على درجات ذلك الباب القديمة التي طالما راودته أفكار تبعث اليأس وهو واقف فوقها ، خرجت امرأة مسنة من القاعة وقالت له :

ـ ألست السيد رفائيل ده فالنتين ؟

فأجاب رفائيل :

ـ نعم ، أيتها السيدة الطيبة .

ـ أعتقد أنك تعرف غرفتك القديمة . إصعد إليها . فان شخصاً ما ينتظرك فيها .

وسألها رفائيل :

ـ ألا تزال السيدة غودان تدير هذا الفندق ؟

ـ أوه ، كلا ، سيدي . لقد أصبحت السيدة غـودان بارونة . وتسكن الآن في قصر جميل ، في الناحية الثانية من الشارع . لقد عاد زوجها من سفره ، حاملاً ألوفاً ومئات . ويقولون إنها تستطيع أن تشتري حي سان جاك إذا أرادت . وقد وهبتني أثاث هذا الفندق ولم تشأ أن تأخذ ثمنه مني . آه ! إنها امرأة كثيرة الطيبة . لم تبدل الثروة من أخلاقها ، وهي لا تزال محافظة على تواضعها ونبلها .

صعد رفائيل درجات السلم المؤدية إلى غرفته القديمة بفتور ظاهر . وما أن وصل إلى الدرجات الأخيرة حتى داعبت أذنه أنغام البيانو . كانت بولين في الغرفة مرتدية ثوباً حريرياً ، ولكن قفازها وشالها وقبعتها الملقاة بإهمال على السرير تدل على ثروة طائلة .

وصرخت بولـين وهي تديـر رأسها ، ثم وقفت وأتت بحركة فرح بريئة :

ـ آه ! لقد حضرت أخيراً .

تقدم رفائيل وجلس قربها ، سعيداً خجولاً أحمر الوجه ، ثم راح يحدق فيها دون أن يتلفظ بكلمة .

وقالت بولين ، وهي تخفض بصرها وقد اكتسى وجهها بالاحمرار :

ـ ماذا تفعل الآن ؟

ـ آه ! يا بولين . . . كنت ولا أزال تعيساً .

فصرخت ، وقد أثر فيها كلامه :

ـ لقد حدست ذلك عندما رأيتك أمس ، غنياً في المظهر ، ولكن الحقيقة . . . يا سيد رفائيل ، ألا تزال كما كنت في الماضي ؟

ولم يقوَ رفائيل على كبت دموعه ، فسالت غزيرة محرقة على خديه ، ثم صاح قائلاً :

ـ بولين ! . . . إنني . . .

ولم يستطع أن يضيف كلمة واحدة ، وتألق الحب في نظراته وعبرت عيناه عما يعتلج به قلبه من شوقٍ وهيام .

وصرخت بولين :

ـ آه ! إنه يحبني ! إنه يحبني !

فأتى رفائيل بحركة من رأسه ، لأنه كان في حالة لا تسمح له بنطق كلمة واحدة . وعند هذه الحركة ، أخذت الفتاة يده بيدها وراحت تشد عليها ، وتقول وهي تضحك تارة وتبكي أخرى :

ـ غنيان ! غنيان ! سعيدان ! غنيان ! إن بولين ثرية . . . إنه يحبني . لقد قلت ألف مرة إنني أدفع ثمن هذه الكلمة جميع كنوز الأرض . آه ! يا رفائيل !عندي ملايين كثيرة ، وأنت تحب الترف والبذخ ، وستكون سعيداً . ولكن يجب أن تحب أيضاً قلبي ، لأن في هذا القلب كثيراً من الحب لك . لقد عاد أبي وأصبحت وارثة غنية جداً ، وهو يترك لي الحرية الكاملة في

تصرفاتي . إنني حرة . أتفهم ما أقول ؟

كان رفائيل يحتفظ بيدي بولين بين يديه ، فراح يقبلهما بقـوة وشراهـة . فكانت قبـلاته نـوعاً من التشنـج وهيجان الشهوات .

وخلصت بولين يديها من يدي رفائيل وألقتهما على كتفيه ، وشدته إلى صدرها ، والتقت شفاههما في قبلة طويلة محرقة .

وصرخت بولين ، وهي تتهالك على الكرسي :

ـ لا أريد أن أتركك .

ثم أضافت ، وقد كسا وجهها الاحمرار :

ـ لا أعرف من أين تأتيني هذه الشجاعة .

ـ لاتخافي شيئاً يا بولين . إنها شجاعة الحب ، الحب الحقيقي ، العميق الجذور ، الخالد كحبي .

فقالت :

ـ آه ! تكلم ! تكلم ! فقد كنت دائماً صامتاً .

ـ هل كنت تحبينني ؟

ـ أتسألني إذا كنت قد أحببتك في الماضي ؟ كم من مرة بكيت هنا ، في هذه الغرفة ، وأنا أرتب سريرك ، وألعن فقرك وفقري . وكنت على استعداد لبيع نفسي من الشيطان لكي أجنبك بعض الآلام . أما اليوم يا رفائيل ، فأنت لي ، ولي وحدي هذا الرأس الجميل ، وهذا القلب . أوه ! نعم ! قلبك لي وحدي ، وهو ثروة لا تفنى .

ثم اتخذت وضعاً مريحاً وأضافت :

إننا نملك أربعة أو خمسة ملايين كما أعتقد . ولو كنت فقيرة لكان من الممكن أن أتمنى أن أصبح زوجتك وأحمل اسمك . ولكنني في هذه اللحظة أود أن أكون خادمتك . والآن ، وأنا أقدم لك قلبي وشخصي وثروتي ، فثق أنني لا أهبك أكثر مما وهبتك في ما مضى عندما وضعت على هذه الطاولة بضع القطع المالية . آه ! لكم آلمني سرورك عندئذٍ ! . . .

فصرخ رفائيل :

ـ لماذا أنت ثرية ؟ لماذا لا تملكين الكبرياء والغطرسة ؟ إنني لا أقوى على صنع شيء من أجلك .

ثم أخذ يلوي يديه من السعادة ومن اليأس ومن الحب .

ـ عندما تصبحين المركيزة فالانتين أيتها الروح السماوية . . . ألا يساوي هذا اللقب وثروتي . .

فصرخت قائلة :

ـ هذا لا يساوي شعرة واحدة من شعر رأسك .

ـ إنني أيضاً أملك الملايين . ولكن ، ما قيمة هذه الثروات بالنسبة إلينا الآن ؟ إن لي حياتي ، وها أنا أقدمها لك ، فخذيها .

ـ آه ، حبك يا رفائيل ، حبك يعادل العالم . فإذا ما وجهت أفكارك نحوي فثق أنني سأكون أسعد النساء .

وقال رفائيل :

أعتقد أنهم ينتظرون عودتك .

فصدرت عنها حركة لامبالاة وأجابت :

ـ ليس هنالك من ينتظرني .

فمد لها يده وهتف قائلاً :

ـ تعالي إذن .

فقفزت إلى ركبته ، وأحاطت عنقه بيديها وقالت :

ـ قبّلني من أجل جميع الآلام التي سببتها لي . قبلني لكي تمحو قبلاتك العذاب الذي كانت تسببه لي أفراحك وملذاتك . قبلني من أجل الليالي الطويلة التي أمضيتها مكبَّة على رسومي الصغيرة . . .

ـ رسومك الصغيرة ؟

ـ إننا الآن أغنياء أيها الطفل المسكين ، فأستطيع إذن أن أبوح لك بكل شيء . آه ، يا كنزي ! كم هو سهل أن تخدع رجال الفن والفكر ! هل تعتقد أنه كان في وسعك أن تحظى بقمصان نظيفة مرتين في الأسبوع ، بثلاثة فرنكات كنت تدفعها في الشهر أجرة غسيل ؟ ولكنك كنت تشرب لبناً بستة فرنكات ! ثم لا تنس النار والزيت ، والمال . . .

ـ وكيف كنت تتصرفين كي تقومي على جميع حاجاتي ؟

ـ كنتُ أعمل كل ليلة إلى ساعة متأخرة من الليل ، فأعطي أمي نصف ثمن لوحاتي ، ولك النصف الباقي .

وحدّق أحدهما في الآخر ، لحظة من الوقت ، وقد استولت عليهما الدهشة من الحب والفرح .

وهتف رفائيل قائلاً :

ـ سندفع يوماً ما دون ريب ثمن هذه السعادة التي نشعر بها الآن . وسيكون عذابنا مراً أليماً .

وقالت بولين :

ـ هل أنت متزوج ؟ . . . لا أريد أن أسلمك ولا إلى امرأة . . .

ـ إنني حرّ ، يا عزيزتي .

ـ حر ، ولي وحدي . . .

ثم انزلقت عن ركبتيه وضمت يديها إلى صدرها ، وحدقت فيه بشوق جارف وقالت :

ـ أخاف أن أفقد عقلي . كم أنت لطيف ! (قالت هذا وهي تمر بيدها على شعر حبيبها) . كم هي غبية الكونتيس فيدورا ! وأية لذة شعرتُ بها البارحة عندما حياني بالتصفيق جميع الرجال . لم يسبق للرجال أن حيوا فيدورا كما حيوني . اسمع يا حبيبي ، عندما لامس ظهري ذراعك سمعت صوتاً يصرخ فيَّ : « إنه هنا » فاستدرت ورأيتك ! آه ! لقد شعرت برغبة جارفة تدفعني إلى إحاطة عنقك بيدي أمام جميع الناس .

فأجاب رفائيل :

ـ يا لسعادتك ! إنك تقوين على الكلام . أما أنا فأشعر أن قلبي يضغط عليه شيء ثقيل . أريد أن أبكي ولكنني لا أستطيع ذلك . دعي يدك على رأسي . ويخيل لي أنني أقوى على البقاء هكذا ، طوال حياتي ، أنظر إليك سعيداً فرحاً بك يا حبيبتي .

ـ آه ! كرر ما قلته يا حبيبي .

فأضاف رفائيل ، ودموعه الحرى تنهمر على خديه :

ـ وما هي قيمة الكلام يا حبيبتي ؟ سأحاول أن أتكلم عن

حبي في المستقبل ، أما في هذه اللحظة فلا أستطيع إلا أن أتذوق حبي وأشعر به .

ـ آه ! هذه النفس الجميلة ! وهذه العبقرية المتفوقة ، وهذا القلب الذي أعرفه جيداً ، كل هذا هو لي كما انني ملك لك ، يا حبيبي .

وقال رفائيل بصوت يزخر بالتأثر :

ـ إنك لي إلى الأبد ، يا حبيبتي . وستصبحين زوجتي ، يا ملهمتي . لقد كان حضورك يبدّد دائماً أحزاني ويعيد السكينة إلى نفسي . وفي هذه اللحظة أشعر بأن ابتسامتك الملائكية تطهرني . وأعتقد أنني أبدأ حياة جديدة . أما الماضي القاسي وأحزاني وجنوني فتتراءى لي كحلم مزعج . إني أتطهر بقربك ، وأتنشق نسمات السعادة .

ثم ضمها بشدة إلى قلبه الخافق وأضاف :

ـ كوني دائماً إلى قربي . لا تتركيني .

فهتفت بولين ذاهلة شاردة :

ـ لم أعد أخشاك ، أيها الموت ! فاقترب مني في أية ساعة شئت . . . لقد عشت .

سعيد هو الذي يستطيع أن يحدس سعادتها ، لأنه يكون قد تذوقها .

وقالت بولين بعد ساعتين من الصمت :

ـ أريد ، يا رفائيل ، أن لا يدخل أحد في المستقبل إلى هذه الغرفة العزيزة . يجب أن تقفل بابها ونشتري هذا البيت .

ـ نعم ، هذا ما يجب علينا أن نفعله .

وقالت بولين بعد فترة من الصمت :

ـ نسينا أن نفتش عن مخطوطاتك .

فانفجرا ضاحكين ببراءة عذبة .

وهتف رفائيل :

ـ باه ! إنني أسخر الآن من جميع العلوم .

ـ آه ، سيدي ! والمجد ؟

ـ إنكِ مجدي .

ـ كنت تعيساً جداً وأنت تكتب في هذه الغرفة الضيقة .

ـ حبيبتي بولين . . .

ـ إنني ملك لك . . . وبعد ذلك ؟

ـ أين تسكنين ؟

ـ شارع سان لازار . وأنت ؟

ـ في شارع فارين .

ـ مسكنك بعيد جداً عن مسكني . وسنبقى كذلك إلى أن . . .

ثم توقفت عن الحديث ونظرت إلى حبيبها نظرة تدلل خبيثة .

فأجاب رفائيل :

ـ لكننا لن ننفصل أكثر من خمسة عشر يوماً .

ـ أصحيح ما تقول ؟ هل نتزوج بعد مضي هذا الوقت ؟

وراحت تقفز كطفل صغير ، ثم قالت :

ـ إني فتاة عاقة لم أعد أفكر بأبي ، ولا بأمي ، أو بأي شيء في

العالم . لقد عاد أبي من الهند مريضاً جداً ، وهو يتعذب الآن كثيراً . وأوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في « الهافر » عندما ذهبنا إلى استقباله .

ونظرت إلى ساعتها ، وتابعت :

- الله ! لقد مضى على وجودي هنا ثلاث ساعات ، يجب أن أكون في غرفة أبي عند يقظته . إنني سيدة البيت وأمّي تنفّذ جميع رغباتي ، وأبي يعبدني . ولكن يجب ألّا أستغل عاطفتهما على هذا الشكل ، فقد يؤذيهما ذلك . إن أبي المسكين هو الذي أرسلني مساء أمس إلى « البوفون » . . . هل تأتي غداً إلى زيارتنا ورؤية والدي ؟

- أتود المركيزة ده فالانتين أن تتكىء على ذراعي ؟

فأجابت :

- أحب أن أحمل معي هذا المفتاح . أليست هذه الغرفة قصراً ؟ أليست كنزنا ؟

- بولين ، أريد قبلة أخيرة .

فأجابت ، وهي تنظر إلى رفائيل :

- قبلة ؟ لماذا لا تقول ألفاً ؟ إن حياتنا ستكون هكذا . أعتقد أنني في حلم .

وهبطا الدرج معاً ، وسارا إلى ساحة السوربون ، وقلباهما يخفقان خفقاناً شديداً . وهناك وجدت بولين عربتها في انتظارها . وقالت :

- أريد أن أذهب إلى بيتك ، لأرى الغرفة التي تعمل فيها ، وأجلس إلى المكتب الذي تستعمله .

وأضافت ، وقد تضرّج وجهها بالحمرة :
ـ إن ذلك يذكرني بأيامنا الماضية .
وخاطبت الحوذي قائلة :
ـ جوزف ، أريد أن أذهب إلى شارع فارين قبل عودتي إلى البيت . الساعة الآن الثالثة والربع ، ويجب أن أصل إلى البيت في الرابعة .
فألهب الحوذي ظهر جواده بالسوط فانطلق يعدو بسرعة مدهشة .
وبعد قليل وجد الحبيبان نفسهما في بيت رفائيل .
قالت بولين ، وهي تمر بيدها على الحرير الذي يظلل سرير رفائيل :
ـ أشعر بالسعادة لأنني رأيت هذا كله . عندما آوي إلى فراشي سأفكر في رأسك الحبيب يرتاح على هذه الوسادة . قل لي يا رفائيل ، ألم تستشر أحداً في تأثيث هذه الدار ؟
ـ لم أستشر أي شخص .
ـ أصحيح ما تقول ؟ أليست امرأة هي التي . . .
ـ بولين !
ـ آه ! أشعر بغيرة قاتلة . إنك حسن الذوق ، وسأشتري غداً سريراً شبيهاً بسريرك .
وانتشى رفائيل من السعادة ، فأخذ بولين بين يديه .
فصرخت قائلة :
ـ آه !. . والدي . . . والدي . . .

فهتف رفائيل :

ـ سأقودك إذن إليه لأني أحرص على أن أبقى معك أطول وقت ممكن .

ـ كم تحبني ! لم أكن أجرؤ أن أقترح عليك هذا الأمر .

ـ ألستِ حياتي ؟

من الصعب جداً أن ننقل بأمانة ثرثرة الحب العذبة التي يشترك فيها النظر ، والنبرة ، والاشارات ، فتجعل لها قيمة لا تقدر بثمن . . . قاد رفائيل بولين إلى بيتها ، وعاد إلى فندقه وقلبه يزخر بأكبر كمية من الفرح يمكن الانسان أن يحملها وأن يشعر بها على هذه الأرض . وعندما جلس على كنبة وثيرة ، قرب النار ، يفكر في ما صارت إليه حالته ويتأمل في تتميم رغباته ، مرت فكرة باردة في رأسه ، كما تغرز نصلة خنجر في صدر . فرفع نظره إلى الجلد ، فرآه قد انكمش قليلاً ، فقذف فمُه أكبر شتيمة فرنسية ، ثم أحنى رأسه على الكنبة . وبقي هكذا بلا حراك ، يحدق في كأس معدنية . ولكنه لم يكن يراها . وبعد قليل هتف :

ـ يا الله ! جميع رغباتي ! جميعها ! مسكينة أنتِ يا بولين ! . . .

ثم أخذ بيكاراً وقاس الجلد ليرى كم كلفه هذا اليوم من حياته ، وقال بعد فترة قصيرة من الصمت :

ـ لم يبقَ لي في الحياة سوى شهرين .

وارتسمت قطرات العرق على وجهه فجأة . فانتزع الجلد وقد استبد به الهيجان ، وصرخ قائلاً :

ـ ما أغباني !

وترك الغرفة راكضاً واجتاز الحديقة ، ورمى الطلسم في بئر عميقة وهو يردد :

ـ إلى الشيطان جميع هذه الحماقات !

وأسلم رفائيل نفسه إلى سعادة الحب ، وعاش مع بولين قلباً في قلب ، وعُيِّن موعد زفافهما في أوائل أيار ، وقد تأخر موعد الزواج إلى هذا الوقت لأسباب لا فائدة من ذكرها . وكان الحبيبان قد اختبرا عاطفتهما فلم يعودا يشكان في قوتها . والحقيقة أنه لم يسبق لنفسين أن اتحدتا بالقوة التي اتحدت بها نفسهما ، فقد جمعتهما رغبات واحدة وأهواء واحدة . وكلما أمعنا في نفسهما درساً ازدادا كلفاً وهياماً . وغمرتهما السعادة بجناحيها عندما تبينا أن لهما رقة الشمائل نفسها ، والميول نفسها ، وان ليس هنالك غيوم في السماء . وكان الاثنان غنيين فأصبح في إمكانهما إرضاء نزواتهما ، ولكنه لم يبقَ لديهما نزوات . وبولين ، بذوقها المرهف ، وحبها للجمال ، أضحت تحتقر زينة النساء ، وأصبحت ابتسامة من حبيبها في نظرها أجمل من جميع لآلىء « هرمز » [1] وصارت تكتفي بالموسلين والزهور . وأخذ الحبيبان يتجنبان الناس لأنهما يجدان في العزلة لذة ، ويذهبان في المساء إلى « الايتاليان » أو إلى « الاوبرا » . ولاكت الألسن اسميهما بادىء بدء ، في قاعات الاستقبال الكبرى ، ولكن الحوادث التي تتابعت على باريس في هذه الآونة أنست الناس اسمي العاشقين .

(١) المضيق المعروف بهذا الاسم .

وتم زفافهما أخيراً ، فكان بمثابة ردٍ بليغ على النمامين الحسودين ، ولم يحضر الاحتفال سوى جماعة مختارة من الأصدقاء ، فلم تطرق إذن مسامع الحبيبين كلمة واحدة تعكر صفاءهما .

في صباح يوم من أواخر شباط ، في واحد من الأيام التي تعلن بصفائها اقتراب ملذات الربيع ، كان رفائيل وبولين يتناولان الطعام في قاعة صغيرة تغص بالزهور وينفتح بابها على الحديقة . وكانت شمس الشتاء اللطيفة الشاحبة تغمر بأشعتها أشجار الحديقة وتبثّ الدفء في الجو . ويبهج العين حقاً أن تنظر إلى التناقض الغريب بين أغصان الأشجار المتنوعة ، بألوان براعمها المزهرة وبجميع مداعبات الظلال والأضواء . . . عندما كانت باريس بأجمعها تفتش عن الدفء في الغرف الحزينة ، كان الزوجان الشابان يضحكان تحت سرير من الكاميليا ، والزنبق ، والخلنج ، ورأساهما بأعينهما الضاحكة يرتفعان فوق النرجس والسوسن وورود البنغال . في هذه القاعة الجميلة المغرية ، تدوس الأقدام بساطاً افريقياً جميلاً كثير التصاوير ، بهيج الألوان . والأثاث الموزع هنا وهناك بذوق وفنّ يبدو خشناً في المظهر لكنه يلمع من النظافة . وكان قط صغير جالساً على الطاولة وقد جذبته رائحة اللبن . وراحت بولين تلاعبه ، فتقرب من أنفه إناء اللبن وتسمح له بشمه ، ثم تبعد الاناء عندما يفتح القط فمه ويمد لسانه فكأنها تختبر قدرته على الصبر وجلده على القتال . وكانت بولين تضحك ضحكاً صافياً بريئاً لدى كل حركة تصدر عن القط ، وترسل المداعبات تباعاً كي تمنع رفائيل من قراءة صحيفته ، وكانت الصحيفة قد وقعت من يدي رفائيل عشر مرات

على الأقل . إن سعادة لا توصف ترفرف بجناحيها في هـذا الصباح ، على هذا المشهد البديع ، ككل ما هو طبيعي وحقيقي .

وراح رفائيل يتظاهر بقراءة الصحيفة ، وينظر خلسة إلى بولين تلاعب القط ، إلى بولين التي لفّت قامتها المشوقة بثوب بديع الصنع يظهر جمالها ومفاتنها ، إلى بولين بشعرها المبعثر التي تمد قدماً بيضاء في خفٍ من المخمل الأسود . إنها ساحرة مغرية كوجوه « ويستال » [1] الخرافية . وهي فتاة غريرة وامرأة معاً ، ونستطيع القول أنها فتاة مغرية أكثر مما هي امرأة ، ولا تعرف من الحب إلاّ ملذاته الأولى .

غرق رفائيل في تأملات عذبة فوقعت الصحيفة من يده ، فأسرعت إليها بولين وأخذتها وصنعت منها كرة ورمتها من النافذة ، فركض القط وراء السياسة التي كانت تدور على نفسها كما هي حالها دائماً . وعاد رفائيل إلى الواقع ، وأراد أن يكمل قراءة صحيفته ، وأتى بحركة ليقلب الصفحة ، لكنه لم يجد الصحيفة ، وفجأة انفجر الحبيبان ضاحكين ، ضحكاً عذباً لذيذاً ، يتجدد من نفسه كغناء العصافير .

وقالت بولين ، وهي تمسح الدموع التي أسالها ضحكها الصبياني على وجهها .

---

(١) ريتشارد ويستال (١٧٦٥ ـ ١٨٣٦) رسام انكليزي اشتهر بتزيين كتب شكسبير وميلتون .

ـ إنني أغار من الصحيفة .

ثم أضافت ، وقد عادت فجأة إلى امرأة ناضجة .

ـ أليس من الخيانة والمكر أن تقرأ التصريحات الروسية في حضوري ، وتفضل النثر الذي يكتبه الامبراطور نيقولا [١] على كلمات الحب ونظراته ؟ .

ـ لم أكن أقرأ الصحيفة يا حبيبتي ، بل كنت أنظر إليك .

في هذه اللحظة سُمعت خطوات البستاني ، بحذائه الضخم ومساميره الحديدية ، تقرع أرض الحديقة وتقترب من القاعة الصغيرة حيث يجلس الحبيبان .

ـ اعذرني يا سيدي المركي إذا كنت أزعج خلوتكما ، كما أرجو أن تقبلي عذري يا سيدتي المركيزة . إنني أحمل إليكما شيئاً عجيباً لم أرَ له شبيهاً في حياتي الطويلة ، لقد أخرجت منذ قليل دلو ماء من البئر ، فرأيت فيه هذه النبتة البحرية العجيبة ، ولم تكن مبتلة ولا رطبة ، بل كانت جافة كقطعة خشب . ولما كان سيدي المركي أوفر مني علماً بهذه الأشياء ، فكرت أنه من الأفضل أن أحملها إليه ، فقد يرى فيها ما يثير فضوله .

ثم قدم البستاني إلى رفائيل الجلد المسحور الذي لا تزيد مساحته عن موضع ست أصابع .

وقال رفائيل :

---

(١) التصريحات الروسية المشار إليها هي حول الانتفاضة البولونية في ذلك الحين .

ـ شكراً ، يا فانيير . هذا الشيء يثير الفضول حقاً .

وصرخت بولين :

ـ ما بك يا ملاكي ؟ لقد شحب وجهك !

ـ فانيير ، دعنا وحدنا .

وتابعت بولين مضطربة مرتبكة :

ـ صوتك يخيفني . ما بك ؟ بماذا تشعر ؟ ماذا يؤلمك . . . النجدة ، النجدة ، يا جوناتاس . . . الطبيب . . . الطبيب !

وقال رفائيل ، وقد عاد إليه بروده :

ـ اسكتي يا بولين . بالقرب مني زهرة تزعجني رائحتها . وقد تكون هذه الزنبقة الغريبة .

فاقتربت بولين بسرعة من الزنبقة الصغيرة ، وانتزعتها من مكانها ، ورمت بها إلى الحديقة . وقالت وهي تضم رفائيل إلى صدرها ضمة قوية كحبها ، وتقدم له بدلال شفتيها القرمزيتين :

ـ يا ملاكي ، عندما رأيتك تشحب شعرت بأني لا أقوى على العيش بعدك . حياتك هي حياتي . مر بيدك على ظهري يا رفائيل لأنني لا أزال أحس برعشة الموت . إنني أشعر بالبرد . شفتاك محرقتان أما يدك فباردة .

فقال رفائيل :

ـ مجنونة !

ـ لماذا تذرف هذه الدمعة ؟ دعني أرشفها يا حبيبي .

ـ بولين ! بولين ! تحبينني أكثر مما يجب .

ـ يحدث فيك شيء عجيب يا رفائيل . كن صريحاً وأخبرني

بكل شيء . لأني لن ألبث أن أعرف .

قالت هذا وأخذت الجلد المسحور بيدها .

فصرخ رفائيل ، وهو يلقي على الطلسم نظرة رعب وخوف :

ـ إنك جلادي .

فتمتمت بولين ، وقد سمحت يدها لرمز القدر المشؤوم أن يقع على الأرض :

ـ يا الله ! أي تغيير مفاجىء في صوته !

ـ أتحبيني يا بولين ؟

ـ نعم أحبك . ما معنى هذا السؤال ؟

ـ إذا كنت تحبينني حقيقة فاتركيني وحيداً . اذهبي .

فخرجت الصغيرة المسكينة .

ولما أصبح رفائيل وحيداً في الغرفة صرخ قائلاً :

ـ ماذا ؟ . . في عصر علمنا فيه ان الماس هو كربونات فحم متبلور ، في عصر نستطيع أن نفهم فيه كل شيء ، في عصر يسوق فيه البوليس مسيحاً جديداً أمام المحاكم ويخضع عجائبه إلى أكاديمية العلوم ، في وقت لم نعد نؤمن إلا بتوقيع الكاتب العدل ، أعتقد أنا بنوع من « مَنَامَنَا » و « تَقِلْ » و « فَرسين » [1] . كلا ! لا أظن أن

---

(١) « منامنا » و « تقل » و « فرسين » هي الكلمات التي امتدت أصابع يد إنسان وكتبتها على كلس الحائط في المأدبة التي أقامها الملك نبوخذنصر لألف من عظمائه : « منا » أي أحصى الله ملكه وأنهاه « تقل » أي وزنت في الميزان فوجدت ناقصاً «وفرسين» أي قسمت مملكتك ودفعت إلى ماداي وفارس .

(سفر دانيال . الفصل الرابع) .

الكائن الأعظم يجد لذة في تعذيب مخلوق شريف . يجب أن أستشير في هذا الأمر بعض العلماء .

ووجد رفائيل نفسه بعد قليل أمام مستنقع تكثر فيع أنواع البط المختلفة الألوان التي تشبه زجاج كاتدرائية تعكس أشعة الشمس . إن جميع أنواع البط في العالم كانت هناك ، تصرخَ وتقرقر ، وتخوض بمناقيرها في الماء ، وتؤلف مجلساً للبط جُمع أعضاؤه رغماً عنهم ، بلا حصانة ، وبلا مبادىء سياسية . ويحيا هؤلاء الأعضاء بعيدين عن الصيادين . تحت أنظار علماء الطبيعة الذين يهتمون بهم كثيراً .

وكان رفائيل قد طلب مقابلة كبير علماء علم الحيوان . فقال له أحد الخدم :

ـ هذا هو السيد « لافريل » .

رأى المركي رجلاً قصير القامة ، ينظر باهتمام إلى بطتين ، غارقاً في تأملات علمية . كان هذا العالم بين الكهولة والشيخوخة من عمره ، لطيف قسمات الوجه ، وديعاً ، يميز شخصه شغف خاص بالعلم . وشعره المستعار المشعث يظهر خطاً من الشعر الأبيض ، ويشتكي قسوة الاكتشافات العلمية التي هي شبيهة بجميع الأهواء ، تنتزعنا بقوة من أشياء هذا العالم ، وتنسينا ذاتنا . ورفائيل ، رجل العلم والبحث ، نظر بإعجاب إلى هذا العالم الطبيعي الذي يكرس لياليه لتوسيع حقل المعارف الانسانية ، والذي تصنع أخطاؤه أيضاً مجد فرنسا . ولكن عشيقة مغناجة ستضحك دون ريب من صدرة العالم الفذ وسرواله الرثين ، ومن

قميصه البالي الذي كان ينثني وهو ينحني مرة بعد مرة ، خضوعاً لملاحظاته الحيوانية .

وبعدما تفوه رفائيل ببضع عبارات يفرضها التهذيب ، رأى من اللائق أن يوجه بعض الكلمات إلى السيد لافريل يمدح بها بطه .

فأجاب العالم الطبيعي :

ـ آه ! نحن أغنياء بالبط . هذا النوع كما تعلم هو أخصب فصيلة بين كفيات القدم . وهو يبدأ من الاوز الطويل العنق وينتهي إلى البط الصغير ، وهو يضم مئة وسبعة وثلاثون نوعاً ، لها أسماؤ ها ، وعاداتها ، وأوطانها ، وهيئتها ، والشبه بينها لا يعدو الشبه بين الأبيض والأسود . والحقيقة يا سيدي أننا عندما نأكل بطة ، فإننا لا نشك أبداً في أغلب الأحيان باتساع . . .

وقاطع العالم نفسه لدى رؤ ية اوزة جميلة صغيرة تخرج من المستنقع :

ـ هذه هي الاوزة الجميلة ذات ربطة العنق . مسكينة هذه الطفلة ، لقد أتت من كندا كي ترينا ريشها الأسمر والرمادي ، وربطة عنقها السوداء . انظر إليها ، إنها تحك جلدها بمنقارها . وهذه الاوزة الشهيرة ذات الزغب الناعم التي تنام عشيقاتنا المغناجات على الوسائد المصنوعة من ريشها . انها جميلة جداً . ومن لا يعجب ببطنها الأبيض المشوب بالحمرة ، وبمنقارها الأخضر ؟ لقد ساعدني الحظ يا سيدي أن أكون شاهداً لزواج نوع جديد . وإني أنتظر النتيجة بفارغ صبر . لقد اخترت هذا الذكر وهذه

الأنثى . . .

ثم أتى بحركة عجيبة تدل معاً على كبرياء العلماء وتواضعهم ، كبرياء ملأى بالجهد وتواضع مليء بالاقتناع . وأضاف :

ـ إننا لا نلهو هنا ، يا ولدي ، وأنا أهتم الآن بوضع كتاب عن أنواع البط . . . ولكنني رغم ذلك أستطيع أن أنصت إليك .

وبينما هما في طريقهما إلى بيت جميل في شارع بوفون أخضع رفائيل الجلد المسحور إلى فحص السيد لافريل .

وقال العالم أخيراً بعدما سلط منظاره على الطلسم :

ـ أعرف هذا جيداً . كان يستعمل غطاء علبة ، وهو قديم جداً . أما اليوم فان صناع أغماد السيوف يفضلون جلود « الورنك » . والورنك ، كما تعلم ، هو نوع من الأسماك التي تعيش في البحر الأحمر .

ـ سيدي ، إنك كثير الطيبة . . . ولكن ما معنى هذا . . .

فقاطعه العالم قائلاً :

ـ هذا شيء آخر . فالفرق بين جلد الورنك وجلد « شاغري » الذي معك ، كالفرق بين المحيط واليابسة ، بين الأسماك والحيوانات البرية .

ثم أشار إلى الجلد المسحور ، وأضاف :

ـ إنك تعرف يا سيدي دون شك أن هذا الجلد هو من أغرب المنتوجات الحيوانية .

فقال رفائيل :

ـ أصحيح ما تقول ؟

وقال العالم ، وهو يتخذ وضعاً مريحاً في كنبة وثيرة :

ـ سيدي ، هذا الجلد هو جلد حمار .

فأجاب رفائيل :

ـ أعرف هذا ، يا سيدي .

وتابع العالم الطبيعي قائلاً :

ـ يوجد في العجم حيوان نادر . هو عُناجر [1] عند الأقدمين وكحلان عند التتر . لقد ذهب « بالاس » إلى هناك وراقبه مراقبة تامة وأخضعه للعلم . والحقيقة ان الناس بقوا مدة طويلة ينظرون إلى هذا الحيوان نظرتهم إلى حيوان خرافي . وهو كما تعرف مشهور في الكتاب المقدس . ولقد منع موسى أن يزاوجوا بين هذه الحيوانات . ولكن العناجر هو أيضاً مشهور بالخرافات التي كان هدفاً لها . ويقول بالاس في أحد كتبه إن التعلق بهذه الخرافات هو تقاليد دينية عند الأعاجم . ولا نشك أبداً في هذا نحن الباريسيين المساكين .

وصمت العالم فترة ، ثم أضاف :

ـ ليس ثمة عناجر في المتحف . يا للحيوان الجميل ! إنه مليء بالأسرار ، وعيناه تعكسان أشعة ينسب إليها الشرقيون قوة

---

(١) عناجر : حيوان وحشي بين الجواد والحمار ، اسمه العلمي Onager وأصله من اليونانية Onagros ويكون في سهول آسيا الوسطى . وهو أربد اللون في الشتاء وأصحره في الصيف ، وعلى ظهره جدة تخالف لون سائر جسده ، وله عرف قصير قائم منتصب لا يلتوي على نفسه ، وحجم هذا الحمار حجم الفرس والجحش لا فرق البتة .

عن مجلة المجمع العلمي العربي عدد كانون الثاني وشباط سنة ١٩٤٥ الأب أنستاس ماري الكرملي .

السحر ، وجلده أجمل وأصقل من جلد أي جواد عندنا ، ترى عليه خطوطاً كثيرة ويشبه شبهاً عظيماً جلد الحمار الوحشي . ونظرته ثاقبة كنظرة الانسان ، وهو أكبر قليلاً من الحمير الجميلة التي نراها في بلادنا ، ويتحلى بشجاعة غريبة . وإذا هوجم فإنه يدافع عن نفسه ببسالة عجيبة ضد أوفر الحيوانات المفترسة قسوة ووحشية . ولا نستطيع أن نشبّه سرعته في السير إلاّ بطيران العصفور . إن العناجر يا سيدي يتفوق في السباق على خيول العرب والأعاجم الأصيلة . والحمير التي نملكها الآن لا تستطيع أن تعطينا فكرة عن هذا الحيوان المستقل المتعجرف . فهو حسن الهيئة ، يطفح عذوبة ، مرن ، رشيق الحركات . وهو ملك الحيوانات في الشرق . إن الخرافات التركية والفارسية تجعل نسبه غامضاً سريًا ، واسم سليمان يمتزج بالقصص التي يرددها قصاصو « التيبت » عن شجاعة هذه الحيوانات النبيلة . وليس من السهل صيده في الجبال ، حيث ينطلق كسنجاب ، ويخال انه يطير كعصفور . قصة الجياد المجنحة ولدت ولا شك في تلك البلاد ، حيث شاهد الرعاة عناجر يقفز من صخرة إلى صخرة . إن حمير الركوب التي تولد في العجم من تزاوج أنثى الحمار مع عناجر ، يصبغونها بالأحمر ، وهذا تقليد قديم ، وقد يكون هذا التقليد هو الذي دعانا إلى إطلاق هذا المثل : « شرير كحمار أحمر » . ومن زمان ، عندما كان علم الطبيعيات مهملاً في فرنسا ، اعتقد ان بعض المسافرين أحضر معه عناجر ، وهو كما تعلم لا يحتمل الأسر إلاّ بصعوبة شاقة . وأخيراً ، إن العناجر المروّض يساوي مبالغ طائلة . . . والجلد الذي تحمله يا سيدي هو

جلد عناجر . ولكن العلماء يختلفون في اسمه ، فيدعي البعض ان « شاغري » ـ التي أعطته اسمه في الفرنسية ـ هي كلمة تركية ، ويقول غيرهم ان « شاغري » هو اسم المدينة التي خضعت فيها هذه البقايا الحيوانية للتطورات الكيميائية التي وصفها بالآس وصفاً دقيقاً . ولكن « مارتلان » كتب إليّ يقول : إن « شاغري » هو اسم ينبوع .

ـ أشكرك يا سيدي على هذه المعلومات التي قدمتها لي . ولكنني أود أن ألفت نظرك ، والخوف يستبد بي ، إلى الانكماش الذي يتحكم بهذا الجلد ، فقد انكمش على ذاته منذ ثلاثة شهور انكماشاً يخيفني ويقلقني .

فأجاب العالم :

ـ سيدي ، إن جميع بقايا الكائنات البدائية هي عرضة لانحلال طبيعي ، تسهل مراقبته ، وهي خاضعة للتأثير الجوي . والمعادن نفسها تتمدد أو تتقلّص بشكل محسوس . وقد لاحظ المهندسون مسافات كبيرة بين أحجار ضُمّ بعضها إلى بعض بواسطة قضبان حديدية . إن حقل العلم شاسع وحياة الانسان قصيرة جدًّا . زد على ذلك اننا لا ندّعي فهم جميع ظواهر الطبيعة .

قال رفائيل ، وقد شعر بقليل من الخجل :

ـ أرجو المعذرة يا سيدي على هذا السؤال الذي سألقيه عليك . هل أنت متأكد من أن هذا الجلد يخضع أيضاً لقوانين الزيولوجيا العادية وان في إمكانه أن يتمدد ؟

فأجاب لافريل ، وهو يحاول أن يمدد الجلد المسحور :

ـ آه ! بكل تأكيد .

ثم أضاف بعدما عجز عن تمديده :

ـ اذهب يا سيدي إلى « بلانشيت » البروفسور المشهور في الميكانيك ، فانه يجد ولا شك طريقة تعيد إلى هذا الجلد تمدده .

ـ آه ! شكراً ، يا سيدي ، إنك تنقذ حياتي .

ودع رفائيل العالم الطبيعي ، وهرع راكضاً إلى بلانشيت ، تاركاً لافريل الطيب في غرفة عمله الملأى بالقماقم والحشائش اليابسة ، حاملاً من هذه الزيارة ، دون أن يعرف ، جميع العلوم البشرية : فهرس الاصطلاحات !

إن لافريل يشبه سانشو بانسا وهو يخبر دون كيشوت بقصة الماعز . فهو يلهو بعد الحيوانات وترقيمها . وقد بلغ الآن أرذل العمر ، ولا يكاد يعرف إلا قسماً زهيداً من أسماء هذا القطيع الذي لا يحصى له عد ، والذي رمى به الله خلال خضم العوالم ، في هدف المجهول .

وكان رفائيل يشعر بالسعادة تغمر كيانه ، فهتف :

ـ يجب أن أشد زمام حماري ! . . .

أو لم يقل « سترن » قبله : « لنلاطف حمارنا إذا كنا نود أن نعيش طويلاً ؟ » ولكن الحيوان جموح صعب القياد .

كان بلانشيت رجلاً طويلاً ، نحيل الجسم ، شاعراً حقيقياً ضائعاً في تأمل أبدي ، مشغولاً دائماً بالنظر إلى هاوية لا قرار لها ، وهذه الهاوية هي « الحركة » . انه من أولئك الناس الذين لا نستطيع أن نفهمهم ، والذين يحيون بعيدين كل البعد عن الاناقة

والترف ، ويبقون أياماً كاملة وهم يدخنون لفائف مطفأة ، أو يدخلون إلى قاعات الاستقبال الكبيرة دون أن يعتنوا بتزرير أثوابهم . وفي يوم ما ، بعد أن يكونوا قد أمضوا وقتاً طويلاً يقيسون الفراغ ، أو يكومون كميات كبيرة من الحروف بعضها فوق بعض ، يتوصلون إلى تحليل بعض قوانين الطبيعة ، ويتمكنون من انتزاع إعجاب الجمهور بصنعهم آلة أو عجلة تدهشنا بهندستها البسيطة ، ولكن العالم المتواضع يبتسم ويقول للمعجبين الذين يحيطون به : « ماذا خلقت ؟ لا شيء . الانسان لا يستطيع أن يخترع القوة ، بل هو يسيّرها » .

وفاجأ رفائيل العالم الميكانيكي واقفاً على قدميه ، كمشنوق معلق في مشنقته . كان بلانشيت يفحص كرة تدور على إطار ، منتظراً أن تتوقف . ولم تكن الأوسمة تزين صدره ، لأنه لا يعرف كيف يستفيد من مقدرته في الحساب . وهو سعيد إذ يترقب أن يكتشف شيئاً جديداً ، ولا يفكر في المجد ، ولا في العالم ، ولا في نفسه ، بل يعيش في العلم للعلم .

وقال العالم :

ـ هذا لا يمكن أن يحدّ !

ثم أضاف عندما رأى رفائيل :

ـ آه ! سيدي . كيف حال والدتك ؟ إني خادمك . . . اذهب وسلّم على زوجتي .

وفكر رفائيل : « كنت أستطيع أن أعيش هكذا » . ثم انتزع العالم من أحلامه وهو يسأله عما يجب فعله ليعود إلى الطلسم تمدده .

وأنهى حديثه قائلاً :

ـ سيّدي ، أرجو ألاّ تسخر من حماقتي . أقول لك الحقيقة ولا أخفي عليك شيئاً . ولا أكتمك اني أعتقد أن هذا الجلد يملك قوة مقاومة لا يؤثر فيها شيء .

فقال بلانشيت :

ـ الناس جميعهم ينظرون إلى العلم نظرة استخفاف . أما الميكانيك فغايته تطبيق قوانين الحركة أو تعطيلها . وأعلن لك بتواضع أننا لا نستطيع أن نعرّف الحركة . لقد لاحظنا بعض الظواهر الدائمة تتحكم في عمل السوائل والجوامد . وإذا ما أوجدنا ثانية أسباب هذه الظواهر الرئيسية ، فاننا نستطيع نقل هذه الأجسام وتزويدها بقوة محركة في نسبة السرعة المحدودة ، ودفعها وتقسيمها أقساماً محدودة ، أو ذرات ، ولكن بكسرها أو بسحقها ، ثم نعود إلى جمعها ، ونجعلها تدور دوراناً محورياً ، ونضغطها ونمددها . هذا العلم يا سيدي يستند إلى عمل واحد . انظر إلى هذه الكرة . إنها الآن على هذا الحجر . انظر ، لقد أصبحت هناك . أي اسم تطلقه على هذا العمل المادي الطبيعي ؟ هل تسميه حركة أو انتقالاً ؟ أو تبديل مكان ؟ أية أباطيل تختفي تحت الكلمات ! وهل الاسم هو الحل ؟ ومع هذا ، فذلك هو العلم كله . إن آلاتنا تستعمل أو تحلل العمل الفلاني ، أو الحادثة الفلانية . وهذه الظاهرة الصغيرة إذا طبقت على كميات كبيرة فانها تستطيع أن تنسف باريس . إذ إننا نستطيع أن نزيد السرعة على حساب القوة ، والقوة على حساب السرعة . ما هي القوة وما هي السرعة ؟ إن علمنا عاجز عن إعطاء

الاسم كما هو عاجز عن خلق الحركة . الحركة ، مهما كانت ، هي قوة كبرى ، والانسان لا يستطيع أن يخترع القوة . فالقوة هي واحدة كما أن الحركة هي كنه القوة . وكل شيء هو حركة .

والفكرة أيضاً حركة . والطبيعة ترتكز على الحركة . والموت هو حركة لا نعرف لها نهاية . وإذا كان الله خالداً ، فيجب أن تعتقد أنه في حركة دائمة . ومن يدري ؟ فقد يكون الله هو الحركة . ولهذا تبقى الحركة مستعصية على الشرح كالله نفسه ، وتبقى مثله عميقة ، لا حدود لها ، غامضة لا يمكن لمسها . من يستطيع أن يلمس أو يفهم ، أو يقيس الحركة ؟ إننا نشعر بمفعولها دون أن نراه ، ونستطيع أيضاً أن ننكر وجودها كما ننكر وجود الله . في أي مكان نجدها ؟ من أين تبدأ ؟ وأين تنتهي ؟ وما هي أسبابها ؟ إنها تحيط بنا ، وتضغط علينا ، وتهرب منا . وهي بَدَهية كالواقع ، مظلمة كالتجريد ، وهي معاً المسبب والسبب . إنها مثلنا بحاجة إلى المدى ، وما هو المدى ؟ فالحركة وحدها هي التي تظهره لنا ، وإذا لم يكن هنالك حركة فان المدى يغدو كلمة فارغة لا معنى لها . وهذه مشكلة لا تحل ، تشبه الفراغ ، تشبه الخليقة ، وتشبه اللانهاية . الحركة تُعجز العقل البشري وكل ما سمح للانسان أن يلاحظه ، ذلك لأنه لا يراها أبداً . وبين كل نقطة من النقاط التي احتلتها الكرة تباعاً في هذا المدى ، هوة يقع فيها العقل البشري ، هوة وقع فيها باسكال . . . ولكي نستطيع التأثير على مادة مجهولة نود أن نخضعها لقوة مجهولة ، علينا أول الأمر أن ندرس هذه المادة . يقول لنا العلم إن المادة قد تتحطم تحت الضغط أو تقاوم . وإذا حدث أن تجزأت ولم

نكن نرغب في تجزئتها ، فان أتعابنا تذهب سدىً . أتريد أن تضغط مادة ما ؟ يجب أن تنقل حركة تعادل جميع أقسام المادة ، بشكل يقلل باطراد من المسافة بين أقسامها . أتريد أن تمددها ؟ يجب أن تعطي كل ذرة من ذراتها قوى تعادل بعضها بعضاً ، لأنه إذا لم نراع هذا القانون مراعاة تامة فاننا نحصل على قوة استمرار في المادة . . . يا سيدي هناك في الحركة عوالم لا نهاية لها ، واتحادات لا حدود لها . فعند أيّ مفعول تود أن تتوقف ؟

أجاب رفائيل ، وقد فرغ صبره :

ـ أود يا سيدي أي ضغط تريد ، يستطيع أن يمدد نهائياً هذا الجلد .

فأجاب العالم الرياضي :

ـ عندما يتم تكوين المادة تبقى خاضعة للتمديد ، والضغط يزيد في اتساع مساحتها على حساب سماكتها .

فصرخ رفائيل :

ـ احصل يا سيدي على هذه النتيجة فتربح الملايين .

فأجاب العالم ببرود هولندي :

ـ لا أود أن أسرق مالك . بل دعني أريك آلة تستطيع إذا ما وضعنا فيها رجلاً بحذائه ومهمازيه ، وربطة عنقه ، وقبعته ، وذهبه ، وجوهره ـ أن تحول شكله إلى شكل الورق الذي يستعمل للمسودات . . .

ـ يا للآلة المخيفة !

وتابع العالم حديثه دون أن يعبأ باحترام الانسان لذريته :

ـ على الصينيين أن يستفيدوا من أولادهم بهذا الشكل ، عوضاً عن أن يلقوا بهم في الماء .

وأخذ بلانشيت إناء خزفياً مثقوباً من أسفله ووضعه على بلاطة ساعة شمسية ، ثم ذهب يفتش في الحديقة عن قليل من الطين . وبقي رفائيل مدهوشاً كطفل يصغي إلى مرضعته تقص عليه حكاية جميلة . أخذ بلانشيت من جيبه سكيناً صغيرة ، بعدما وضع الطين على البلاطة وقطع قضيبين من شجرة ، وراح يصفر كأن رفائيل ليس موجوداً بالقرب منه . ثم جوف القضيبين فأصبحا كأنبوبين ، وقال :

ـ هذه هي عناصر الآلة .

ثم أخذ أحد القضيبين وغمسه في الطين ووضعه في الاناء بشكل يتصل فيه الثقبان ، فأصبح يشبه غليوناً كبيراً . ثم سوّى الطين على البلاطة بشكل مجرفة . وأخذ الاناء بكلتا يديه ووضعه على القسم الواسع منها ، وعلق الانبوب على القسم الذي يمثل المقبض . وأخيراً وضع قليلاً من الطين على طرف الانبوب وغرس القضيب الثاني المجوف ، وهو يميل به قليلاً كي يتصل بالأنبوب العمودي ، بحيث إن الهواء أو أي جسم مائع يستطيع أن يسيل داخل هذه الآلة ، ويجري من فتحة الأنبوب العمودي داخل القناة المتوسطة إلى الاناء الخزفي الفارغ .

فقال رفائيل برصانة عضو مجمع علمي يلقي خطابه :

ـ سيدي ، هذه الآلة التي وجهت الأنظار إلى باسكال وانتزعت إعجابنا .

ـ لا أفهم . . . .

ابتسم العالم ، ثم أخذ زجاجة من شجرة مثمرة في الحديقة كان أحد الصيدليين قد أرسل له فيها سائلاً لقتل النمل ، وكسر أسفلها وصنع منها قمعاً وضعه بعناية على فتحة القضيب المجوف الذي كان قد وضعه عمودياً في الطين ، وأفرغ فيه كمية من الماء . . . بينما رفائيل يفكر في جلده المسحور .

وقال العالم :

ـ الماء لا يزال جسماً لا يمكن ضغطه . لا تنس هذا المبدأ الأساسي . إلا أنه يُضغط قليلاً جداً مما يضطرنا إلى أن نعد صفة التقلص فيه صفراً . أنت ترى ولا شك المساحة التي تمثلها المياه التي ارتفعت إلى مساحة الاناء .

ـ نعم سيدي .

ـ لنفرض أن هذه المساحة تكون أكبر ألف مرة مما هي فتحة القضيب الذي أفرغت فيه الماء . انظر ، لقد رفعت القمع .

ـ نعم سيدي .

ـ فإذا تمكنت بطريقة ما أن أزيد حجم هذه الكمية ، بإدخالي الماء من فتحة الأنبوب الصغير ، فان السائل يزعجه الضغط ويعلو في الاناء إلى أن يبلغ مستواه مستوى الماء في الأنبوب .

فقال رفائيل :

ـ هذا واضح جداً سيدي .

فتابع العالم :

ـ ولكن هنالك هذا الفرق . إذا كان الماء الذي أضفناه إلى

الأنبوب يمثل قوة تعادل وزن كتاب ، مثلاً ، وكما ان عمله ينتقل إلى السائل ثم يؤثر على جميع نقاط المساحة الممثلة في الاناء الخزفي ، فانك ترى فيه ألف عمود من الماء تحاول الارتفاع جميعها كأنها مدفوعة بقوة تعادل القوة التي جعلت الماء يضاف إلى الأنبوب .

وأشار إلى الاناء وأضاف :

ـ فتحدث عندئذٍ قوة هي أكبر ألف مرة من القوة التي أدخلت إلى هنا .

ودل العالم بإصبعه على الأنبوب الخشبي الذي وضع عمودياً في الطين .

فقال رفائيل :

ـ هذا سهل جداً يا سيدي .

فابتسم بلانشيت وأضاف :

ـ ويجب ، كي نقوى على دفع غارة المياه ، أن نوجه إلى كل قسم من أقسام المساحة الكبيرة قوة تعادل القوة التي تؤثر على الأنبوب العمودي . ولكن إذا كان علو السائل يبلغ القدم ، فان الألف عمود في المساحة الكبيرة لا ترتفع إلاّ ارتفاعاً قليلاً . وهب اننا بدّلنا هذه الأنابيب الخشبية بأنابيب معدنية تتلاءم في المساحة والقوة ، ثم وضعنا محل الاناء مستودعاً معدنياً وبالقرب منه مستودعاً آخر يستطيع المقاومة مهما بلغ نوع القوة التي توجه إليه . وإذا سمحت يا سيدي أن أفرغ الماء دائماً في فتحة الأنبوب العمودي ، فان الشيء الذي نضعه بين السطحين المستويين يتمدد دون شك . وطريقة إدخال الماء دائماً في فتحة الأنبوب الصغير هي حماقة في

الميكانيك كما ان « موضة » نقل القوة من السائل إلى المعدن هي أيضاً حماقة . . .

ثم أخذ ذراع رفائيل بيده ، وقال :

ـ أرأيت الآن يا سيدي انه لا يوجد مادة تستطيع المقاومة إذا ما وضعت بين هاتين القوتين ، وانها تتمدد حتماً ؟

فصاح رفائيل :

ـ ماذا ؟ . . . باسكال اخترع . . .

ـ نعم . نعم . والميكانيك لم يعرف أبسط ولا أجمل من هذا . والمبدأ المضاد ، أي قابلية امتداد الماء ، هو الذي خلق الآلة البخارية . غير ان الماء لا يتمدد إلا إلى درجة معيَّنة ، بينما عدم قابليته للضغط هي ـ نوعاً ما ـ قوة سلبية .

فقال رفائيل :

ـ إذا تمدد هذا الجلد ، فاني أعدك بإقامة تمثال كبير لباسكال ووضع جائزة قدرها مئة ألف فرنك لأهم اختراع ميكانيكي كل عشر سنين ، ودفع بائنة محترمة لقريباتك ولقريباتهن أيضاً ، وبناء مستشفى للعلماء الرياضيين الذين يصبحون مجانين أو فقراء .

فقال بلانشيت موافقاً :

ـ ربما كانت مشاريعك ضرورية جداً . . . سنذهب في الغد إلى « سبياغالتر » وهو ميكانيكي معروف ، وقد صنع آلة حديثة ، أدخلت عليها تحسينات كثيرة ، استناداً إلى التصاميم التي وضعتها له . وهي آلة يستطيع طفل أن يستعملها بسهولة فائقة .

ـ إلى الغد ، يا سيدي .

ـ إلى الغد .

وهتف رفائيل صارخاً :

ـ كلموني عن الميكانيك . . . أليس هذا العلم أجمل من جميع العلوم ؟ . . . وما هي قيمة ذلك العالم الطبيعي ، بعناجره ، وتصنيفاته ، وبطه ، وأجناسه ، وغرفه الملأى بالوحوش ؟

صباح اليوم التالي جاء رفائيل إلى بلانشيت ، فرحاً متهلل الوجه ، وذهب الاثنان إلى شارع « لاسانته » . وبعد قليل وجد رفائيل نفسه عند سبياغالتر ، في بناء واسع ، ووقعت أنظاره على كثير من الأفران الحمراء الهادرة المزمجرة : مطر من النار ، وطوفان من المسامير ، وخضم من الدسامات والبراغي والمضخات ، وبحر من حديد الصب والخشب . وكانت ثياب الرجل ملأى بالحديد ، وكل شيء ينضح بالحديد . لقد اتخذ الحديد حياة ، فهو ينصهر ويمشي ويفكر ، ويأخذ مختلف الأشكال ، ويطيع مختلف الأهواء . ودخل رفائيل إلى غرفة كبيرة ، نظيفة ، فشاهد هنالك الآلة الضاغطة التي كلمه عنها بلانشيت . وأدهشته أنواع حديد الصب .

وقال له سبياغالتر ، وهو يشير إلى رقاص من الحديد المصقول :

ـ إذا أدرت هذا الرقاص سبع مرات بسرعة كلية ، بعد أن تضع في هذه الآلة صفيحة من الفولاذ ، فان الصفيحة تنقسم ألوف الأقسام تخرج من الآلة وتغرز في ساقيك كالابر .

فصاح رفائيل :

ـ يا للطاعون !

وضع بلانشيت الجلد بين السطحين المستويين ، وهو يتمم شروحه العلمية بثقةٍ تامة ، ثم أدار الرقاص بسرعة وحيوية .

فصرخ سبياغالتر بصوت مخيف وهو يرتمي على الأرض :

ـ ناموا على الأرض ! لقد هلكنا جميعاً !

وسُمع صوت انفجار مخيف في جميع أنحاء المعمل وحطمت المياه الموجودة في الآلة الحديد الصب وخرجت منه على شكل فوّارة قوتها لا تقاوم ، واصطدمت لحسن الحظ بفرن قديم فقلبته رأساً على عقب ! وراحت تتلوى ، كما تتلوى الزوبعة حول بيت من البيوت وتحمله معها . . .

وقال بلانشيت بهدوء :

ـ آه ! الجلد سليم كعينيّ . أيها السيد سبياغالتر ! كانت قشّة في الحديد الصب أو خلل ما في الأنبوب الكبير .

ـ كلا سيدي . أعرف جيداً الحديد الذي أستعمله . تستطيع أن تحمل هذا الجلد من هنا لأن الشيطان يسكن فيه !

ثم أخذ المطرقة ورمى الجلد على السندان ، وانهال عليه طرقاً بجميع القوى التي وهبه إياها الغضب ، فأحدثت الطرقات صوتاً قوياً لم يسبق أن سمع في المعمل .

وهتف بلانشيت ، وهو يمر بيده على الجلد :

ـ الطَرْقات لم تؤثر فيه !

وركض العمال . فانتزع أحدهم الجلد من يد العالم ورماه في فرن محمى ، وانتظم الجميع حول الفرن يشكلون نصف دائرة ، ووقف رفائيل وبلانشيت وسبياغالتر في الوسط ينصتون إلى صوت

المنفاخ الكبير . ولما رأى رفائيل هذه العيون البيض ، وهذه الرؤوس المغطاة بالحديد ، وهذه الثياب السوداء اللامعة ، وهذه الصدور الكثيرة الشعر ، ظن أنه نقل إلى عالم الأساطير الألمانية الخرافي المظلم . وبعد عشر دقائق انتزع العامل الجلد من النار بملقط . فقال له رفائيل :

ـ اعطني إياه .

فقدم الجلد إلى رفائيل ضاحكاً . فأخذه المركي بيده ، فإذا به بارد مرن بين أصابعه ! فارتفع صراخ الخوف ، وهرب العمال ، وبقي فالنتين مع بلانشيت وحدهما في المعمل .

وصرخ رفائيل يائساً :

ـ في هذا الجلد شيء شيطاني دون ريب . وليس هنالك قوة بشرية تستطيع أن تضيف يوماً واحداً إلى حياتي !

فقال العالم ، وقد شعر بالندم :

ـ أعترف بخطئي ، يا سيدي . كان يجب أن نُخضع هذا الجلد العجيب إلى قوة آلة تصفيح المعادن ، كنت مخبولاً ولا شك عندما عرضت عليك أن تخضعه للضغط .

فأجاب رفائيل :

ـ كنت أنا الذي اقترح هذا الاقتراح .

فتنفس العالم تنفس الارتياح ، كمجرم نال عفو القضاة . ولكنه كان مأخوذاً بالمشكلة العجيبة التي يعرضها هذا الجلد ، ففكر ثم قال :

ـ يجب أن نعالج أمر هذه المادة الغريبة بمادة كاشفة .

فلنذهب الآن إلى « جافيت » فعسى أن تكون الكيمياء أكثر حظاً من الميكانيك .

وأطلق رفائيل لجياد عربته العنان وكله أمل أن يجد جافيت ، الكيميائي المشهور ، في معمله .

وقال بلانشيت ، عندما لاحظ الكيميائي جالساً على كنبته :

ـ هذا أنت يا صديقي ؟ كيف حال الكيمياء ؟

ـ انها تنام . لا شيء جديد . أكاديمية العلوم اعترفت بوجود الساليسين والاسباراجين ، والفوكالين ، والديجيتالين ، ولكن هذه جميعها ليست اكتشافات . . .

فقال رفائيل :

ـ أرى أنك لا تستطيع اكتشاف أشياء جديدة ، فرضيت باختراع الأسماء .

ـ هذه هي الحقيقة ، أيها الشاب .

وقال العالم بلانشيت :

ـ جرب أن تحلل هذه المادة ، فإذا استخرجت منها مبدأ ما ، فاني اسميه منذ الآن « الشيطاني » لأننا عندما حاولنا ضغطها سببت انفجار آلة ضغط مائية .

فصاح الكيميائي بفرح :

ـ اعطني إياها بسرعة . فقد تكون جسماً بسيطاً !

وقال رفائيل :

ـ سيدي ليس هذا إلا جلد حمار .

وصرخ العالم الكيميائي بسرعة :

- سيدي . . .

فقدم له رفائيل الجلد المسحور وقال :

- انني لا أمزح يا سيدي .

تناول البارون جافيت الجلد ولحسه بلسانه المعتاد طعم أنواع الأملاح والأحماض . وقال بعدما أعاد التجربة مراراً :

- لا طعم له . لنسكب عليه قليلاً من الحمض الفتوريك .

ولم يتأثر الجلد من هذا الحمض برغم أن له خاصة تحليل الأنسجة الحيوانية . وصرخ الكيميائي :

- ليس هذا جلد حيوان ! يجب الآن أن نعتبره معدناً ونضعه في بوتقة لا تقبل الانصهار وضعت فيها قليلاً من البوتاس الاحمر .

وخرج جافيت من الغرفة ثم عاد بعد قليل ، وقال لرفائيل :

- دعني يا سيدي أقطع جزءاً صغيراً من هذه المادة . انها ـ والحق يقال ـ عجيبة جداً .

فصرخ رفائيل خائفاً :

ماذا تقول ؟ أتود أن تقطع منه جزءاً ؟ إني لا أسمح بقطع مقدار شعرة منه .

ثم أضاف ، وقد دلت هيئته على الحزن والخوف معاً :

- ورغم ذلك ، حاول يا سيدي .

كسر العالم سكيناً وهو يحاول قطع الجلد ، فوجه إليه تياراً كهربائياً ، ثم سلط عليه قوة بطارية هائلة ، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً ، فلم يقوَ على تمديد الجلد أو على قطع جزء صغير منه .

وصاح رفائيل :

ـ إنني هالك لا محالة يا الله !... سأموت ...

وترك الغرفة راكضاً . وبقي العالمان مدهوشين يحدق واحدهما في الآخر .

وقال بلانشيت ، بعدما اتخذ وضعاً مريحاً :

ـ يجب ألا نتكلم عن هذا الحادث في أكاديمية العلوم ، لأني أخشى أن نصبح سخرية زملائنا .

كان العالمان عندئذ كمسيحيين خرجا من قبرهما دون أن يجدا الهاً في السماء . العلم ؟ إنه لعاجز ! الاحماض ؟ انها مياه صافية ! البوتاس الأحمر ؟ انه يحقرهما ! البطارية والتيار الكهربائي ؟ لا جدوى منهما !

وأضاف بلانشيت :

ـ انفجرت آلة الضغط المائي وتحطمت تحطيماً .

وقال البارون جافيت بعد فترة من الصمت :

ـ إني أؤمن بالشيطان !

فأجاب بلانشيت :

ـ أما أنا فأؤمن بالله .

وبدا الصدق في ما يقولان . فالعالم بالنسبة إلى الميكانيكي هو آلة تنتظر عاملاً . ولكنه بالنسبة إلى الكيمياء ، هذا الشيطان الذي يحلل كل شيء ، غاز وُهب قوة الحركة .

وأضاف الكيميائي :

ـ لا نستطيع أنَ ننكر الواقع .

- باه ! لقد أوجد لنا العقائديون - كي نعزي أنفسنا - هذا التشبيه : « غبي كالواقع » .

فأجاب الكيميائي :

- يخيل لي أن تشبيهك هو واقع كغبي .

وانفجرا ضاحكين ، ثم انصرفا إلى الطعام كأناس لا يرون في الأعاجيب سوى الظاهرات .

دخل رفائيل إلى بيته ، وهو فريسة لاضطراب مرهق . لم يعد يؤمن بشيء ، وكانت أفكاره تختلط في رأسه وتدور وتترجرج كأفكار كل شخص يجد نفسه أمام واقع غير معقول ، وكان قد اعتقد بوجود الخلل في آلة سبياغالتر ، وعجز العلم والنار لم يدهشه ، ولكن مرونة الجلد عندما يأخذه بيده ، ومقاومته الغريبة لكل ما أخضع له كل تجارب ، كانت تثيره . وهذا الحادث الساطع ، جعله يدوخ .

وحدث نفسه قائلاً : « إنني مجنون دون ريب . فرغم أني لم أذق طعاماً منذ الصباح ، لا أشعر بالجوع أو بالعطش ، وأحس أن ناراً تتأجج في صدري وتلتهمني » .

ثم أعاد الجلد المرقط إلى الاطار الذي كان فيه سابقاً ، بعدما رسم خطاً حول الطلسم بالحبر الأحمر ، وجلس على كنبة وثيرة :

وقال بعد وقت قليل :

- الساعة تشير إلى الثامنة . لقد مضى هذا النهار كالحلم .

واتكأ على الكنبة ، وأسند رأسه بيده اليسرى ، وغرق في تأملات محزنة ، لا يعرف ضراوتها وقسوتها إلا المحكومون بالاعدام .

وصاح قائلاً :

- آه ! بولين ! مسكينة أنتِ ! هنالك لجج لا يستطيع الحب أن يقطعها ، برغم قوة جناحيه .

في هذه اللحظة طرقت مسامعه زفرة مكتومة ، فعرفها للحال . . . يا الله ! إنها أنفاس بولين . فقال في نفسه : « لو كانت بولين موجودة هنا ، لأحببت أن أموت بين ذراعيها » .

وارتفع ضحك عاتب فرح جعله يدير رأسه نحو سريره ، فرأى خلال الكلة الشفافة وجه بولين . كانت تضحك كطفل سعيد بنجاح إحدى ألاعيبه ، وشعرها الجميل يشكل حلقات كثيرة حول كتفيها . فهي تشبه وردة من ورود البنغال بين كومة من الورود البيضاء .

وقالت بولين :

- لقد أغريت جوناتاس . أليس هذا السرير ملكي ؟ أليس ملك زوجتك ؟ لا تؤنبني يا حبيبي . كل ما أريده هو أن أنام قربك ، وأن أفاجئك بوجودي . اغفر لي هذه الحماقة .

ثم قفزت من السرير كالقطة ، فظهرت مغرية بين ثنايا الموسلين ، وجلست على ركبتي رفائيل ، وقالت وقد ارتسمت خطوط القلق على جبينها الغض :

- عن أية لجة كنت تتكلم ، يا حبيبي ؟

ـ عن الموت .
فقالت :
ـ كلامك يؤذيني ، هنالك أفكار لا نستطيع أن نتوقف عندها ، نحن النساء المسكينات . ولا أعرف إذا كان هذا من قوة الحب أم من قلة الشجاعة .
وأضافت ضاحكة :
ـ الموت لا يخيفني ـ وإذا قدر لي أن أموت معك ، غداً صباحاً ، في قبلة أخيرة ، أكون قد حصلت على سعادتي الكبرى . يخيل إليّ أنني عشت أكثر من مئة سنة . وماذا يهم عدد الأيام ، إذا كنا في ليلة أو في ساعة ، قد التهمنا حياة كاملة من السلام والحب ؟
فقال رفائيل :
ـ إنك على حق ، فالسماء تتكلم بفمك الجميل . قدمي لي فمك كي أقبله ، ولنمت .
فأجابت ضاحكة :
ـ لنمت إذن . . .
في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ، كانت أشعة الشمس تتسرب خلال شقوق النوافذ المغلقة إلى الغرفة التي ينام فيها الحبيبان ، ولكن الموسلين المسدل على النوافذ كان يخفف من قوة ضيائها ، فتسمح الأضواء الباهتة برؤ ية السجادة الوثيرة التي فُرشت بها أرض الغرفة . وانفلت شعاع من أشعة الشمس وجاء يحتضر على الوسادة التي ألقت بها لعبة الحب على الأرض ،

وكان ثوب بولين المعلق على المشجب يبدو كرؤ يا في الضباب ، وحذاؤ ها الصغير كان ملقى بعيداً عن السرير . وجاء عصفور وحطّ على النافذة ، وراح يزقزق ويغرّد ، ثم بسط جناحيه وطار ، فأيقظ خفقان أجنحته رفائيل من نومه .

وخاطب رفائيل نفسه وهو يتابع فكرة بدأها في الحلم : « لكي أموت ، يجب أن يكون في جسمي ، في مجموعة هذه الآلات الميكانيكية من لحم وعظم التي تحركها الارادة والتي تصنع مني ما نسميه « إنساناً » ، خلل ما . وعلى الأطباء أن يعرفوا مواطن المرض ، وأن يقولوا لي إذا كنت مريضاً أم أتمتع بصحة جيدة .

أخذ يتأمل زوجته النائمة التي تمد له رأساً مغرياً يعبّر في رقاده عن ملذات الحب . كانت بولين ممددة بالقرب منه كطفل صغير ، ووجهها يستدير نحوه ، فيخيل أنها تنظر إليه ، وتمد له فماً جميلاً ، تتردد منه الأنفاس طاهرة رتيبة . وكان بياض أسنانها العاجية يظهر احمرار شفتيها الرطبتين ، اللتين تهيم فوقهما ابتسامة عذبة . أما لون بشرتها فكان في تلك الآونة مشرقاً متألقاً ، وبياضها في تلك اللحظة كان أنصع من بياضها في أي وقت من أوقات النهار ، وتسليمها المليء بالثقة يمزج بسحر الحب جاذبية الطفولة المعبودة النائمة . إن النساء ، حتى أكثرهن براءة ، يخضعن عادة في النهار إلى بعض التقاليد الاجتماعية فتقيد أسرار قلوبهن الساذجة ، ولكن النوم يفك القيود ويظهرها على حقيقتها . لم تكن بولين تخجل من شيء ، فهي كواحدة من

تلك المخلوقات السماوية لم يلقِ العقل بعد فكرة في حركاتها ولا أسراراً في نظراتها . كانت أهدابها الطويلة تلقي ظلالاً على خديها كأنما لتحمي نظرها من لمعان قوي ، أو لتساعد على خشوع النفس عندما تحاول أن تحتفظ بلذة كاملة ، ولكنها هاربة . وأذنها الصغيرة البيضاء والحمراء ، المحاطة بالشعر الناعم ، والمرسومة بين التخاريم ، تجعل الفنان مجنوناً من الحب ، سواء أكان الفنان شيخاً أو شاباً ، ويمكن أيضاً أن تعيد العقل إلى بعض المجانين . . . أليست متعة فائقة أن ترى عشيقتك نائمة ، ضاحكة ، يهدهد رقادها حلم جميل ، تحت حمى جناحيك ، تحبك حتى في أحلامها ، في اللحظة التي يفقد الكائن تقريباً قدرة الادراك ، وتقدم لك أيضاً ثغراً صامتاً يكلمك في رقاده عن القبلة الأخيرة ؟ أليست لذة فائقة أن ترى امرأة مستسلمة بثقة كاملة ، نصف عارية ، ولكن الحب يستر جسدها كرداء ، وأن ترى ثيابها موزعة هنا وهناك ، وان يقع نظرك على جوربها الحريري الذي تخلصت منه بسرعة في الأمس كي ترضيك ، وزنارها الذي فكت أزراره بثقة عمياء ؟ إن هذا الزنار هو قصيدة كاملة ، لأن المرأة التي كان يحميها لم يعد لها من وجود ، فهي ملك لك ، وقد أصبحت « أنت » . وأضحت خيانتك لها ، بعد اليوم ، فعل جرح لنفسك .

وغمر التأثر قلب رفائيل فراح ينقل نظراته في هذه الغرفة الملأى بالحب والذكريات ، ثم تعود نظراته فتنصب على بولين الطاهرة ، الشابة ، المحبة ، المخلصة . وتمنى أن يعيش

ويسعد . . . وعندما وقعت أنظاره على بولين لآخر مـرة في رقادها ، فتحت عينيها كأنما وجهت إليها أشعة حادة . وقالت وهي تبتسم :

ـ صباح الخير أيها الصديق . إنك جميل ، أيها الشرير !

إن هذين الوجهين اللذين يطفحان جمالاً مصدره الحب والشباب والضوء الباهت والهدوء كلها معاً ، يؤلفان مشهداً من المشاهد السماوية لا يدوم سحره إلا في أيام الأهواء العنيفة الأولى . كما أن السذاجة والبراءة همـا صفتا الـطفولـة . يا لـلأسف ! إن ملذات ربيع الحب ، وحتى الضحكـات التي نطلقها في شبابنا ، لا بد أن تهرب منا ، وتحيا في ذكرياتنا ، لكي تدفع بنا إلى اليأس ، أو تبث لنا العزاء في عطر تبعث به إلينا ، وفقاً لأهواء تأملاتنا السرية .

قال رفائيل :

ـ لماذا استيقظت ؟ كنت أشعر بلذة لا توصف وأنا أراك نائمة هانئة . لقد بكيت . . .

فأجابت :

ـ وقد بكيت أنا أيضاً هذا الليـل ، وأنا أنـظر إليك راقداً . لكنني لم أبكِ من الفرح . اصغِ إليّ يا رفائيل . إن أنفاسك لا تتردد تردداً رتيباً وأنت نائم . ففي صدرك شيء يسمع صوتاً ويخيفني جداً ، وكثيراً ما تسعل سعالاً جافاً يشبه سعال أبي الذي يحتضر من داء الصدر . إن حركة رئتيك تؤكد ظني ، ثم هذه الحمى التي لا تفارقك . انا متأكدة مما أقول .

فيدك رطبة ومحرقة . . .

ثم أضافت ، وهي ترتجف :

- حبيبي . . . إنك لا تزال شاباً وتستطيع الشفاء إذا لا سمح الله . . . ولكن لا ! لا ! ليس هنالك شر نخافه . الأطباء يقولون أن المرض ينتقل بالعدوى !

وأحاطت عنق رفائيل بيديها وذوبت نفسها في قبلة طبعتها على شفتيه . وقالتَ :

- لا أود أن أموت عجوزة . لنمت معاً في ريعان الشباب ، ولنذهب إلى السماء وأيدينا مليئة بالزهور !

فأجاب رفائيل ، وهو يداعب شعر بولين بيده :

- هذه المشاريع تولد دائماً عندما نكون نتمتع بصحة جيدة .

واستبدت به نوبة سعال جاف مخيف يخيل انه يخرج من تابوت ، سعال يدفع بالشحوب إلى جبين المريض ويتركه يرتجف ويتصبب منه العرق ، بعد أن يهز أعضاءه هزاً ، ويبليه بالخمول والفتور . وتمدد رفائيل بتؤدة شاحب الوجه منهوكاً ، كرجل بدد كل قواه في مجهود أخير . وحدقت فيه بولين بنظرات جامدة وقد اتسعت عيناها من الخوف ، وبقيت ساكنة ، صامتة ، شاحبة الوجه .

وبعد قليل قالت لرفائيل ، محاولة إخفاء الذعر الذي استيقظ في قلبها :

- يجب أن نبتعد عن حماقاتنا ، يا ملاكي .

وغطت وجهها بيديها ، لأنها رأت صورة الموت المخيفة .
كان رأس رفائيل قد أصبح شاحباً غائر الخدين ، كجمجمة أخذت من مقبرة لتخضع لدرس بعض العلماء . وتذكرت بولين الهتاف الذي صدر عن رفائيل في الليلة الفائتة وقالت تخاطب نفسها : « نعم هنالك لجج لا يستطيع الحب أن يجتازها ، بل عليه أن يدفن نفسه فيها » .

في صباح يوم من أيام آذار ، بعد مضي بضعة أيام على هذا المشهد المؤلم ، وجد رفائيل نفسه جالساً على كنبة ، قرب النافذة ، محاطاً بأربعة أطباء ، يتنافسون في جسّ نبضه ، ويوجهون إليه أسئلتهم بلهفة واهتمام . وكان المريض يقرأ أفكارهم بدرس حركاتهم والتجاعيد التي ترتسم على جباههم . وكان هذا الفحص الطبي أمله الأخير ، فهؤلاء القضاة سوف يلفظون حكماً بالموت أو بالحياة . ويعود الفضل إلى ثروته في اجتماع الطرق الثلاثة ـ التي تتأرجح بينها المعارف البشرية ـ في غرفته : ثلاثة من هؤلاء الأطباء يحملون في رؤوسهم الفلسفة الطبية ، وهم يمثلون المعركة الدائرة ما بين الطب التحليلي ، والطب الروحاني ؛ والطب الانتقائي . أما الطبيب الرابع فهو هوراس بيانشون ، وهو رجل ينتظره مستقبل زاهر ، وقد يكون أفضل طبيب بين الأطباء الشباب . انه نائب عن الشبيبة المثقفة التي تتهيأ لترث الكنوز المكوّمة منذ خمسين سنة في مدرسة باريس ، وقد يشيد البناء الذي هيأت له العصور السالفة مواد كثيرة . وهو صديق المركي وصديق راستينياك ، وقد اعتنى

برفائيل منذ بضعة أيام ويساعده الآن في الاجابة عن أسئلة الأطباء الثلاثة ، ويشرح لهم من وقت إلى آخر ، بنوع من الاصرار ، الحالات التي تجعله يعتقد أن المريض مصاب بداء السل الرئوي .

وقال أحد الأطباء الثلاثة المشهورين ذو الرأس المربع الشكل والوجه العريض اللذين ينبئان بتفوقه في العلم والمعرفة على زميليه :

ـ لقد حييت حياة طائشة وأفرطت في السهر والشراب ، وأسلمت نفسك إلى أعمال أدبية تحتاج إلى تفكير وصبر . . . أليس ما أقوله صحيحاً ؟

فأجاب رفائيل :

ـ لقد أسلمت نفسي إلى التهتك سعياً وراء الموت ، بعدما عملت ثلاث سنوات متتابعة في مؤلف ضخم ، قد تهتم أنت بتتميمه يوماً .

فهزّ الطبيب الكبير رأسه علامة الرضى كأنه يقول : « كنت متأكداً من هذا » . إن هذا الطبيب هو « بريست » المشهور ، خليفة كابانيس وبيشا ، طبيب العقول الايجابية والمادية ، يرى في الانسان كائناً تاماً ، يخضع لقانون وظائف الأعضاء ، وتشخص حالته الطبيعية أو حالته المرضية وفقاً لأسباب واضحة جليّة .

ونظر بريست بصمت إلى رجل معتدل القامة ، أحمر الوجه ، حاد النظرات ، يخيَّل أنه أحد سكان الكهوف

الأقدمين . ان يسند ظهره إلى الجدار ويتأمل رفائيل بانتباه تام دون أن يتكلم . إنـه الطبيب كـامريستـوس رجـل الشغف والايمان ، والمدافع الأول عن مبادىء « فان هالمون » الغامضة ، يرى في الحياة الانسانية مبدءاً رفيعاً ، وظاهرة تستعصي على الشـرح ، تخـدع الجـراحـة وتنتصـر عـلى الأدويـة ، وعـلى التشخيصات الفلكية ، وتسخر من جهودنا . هي نوع من النار غير المنظورة ، تخضع للقوانين السماوية ، وتبقى غالباً في جسم تؤذيه وتجهز عليه امتناعاتنا ، كما انها تنهك أكثر الأعضاء قوة وقابلية للحياة .

وكانت ابتسامة خبيثة تهيم على شفتي الطبيب الثالث ، وهو الطبيب « موغرادي » الساخر الذي لا يؤمن إلا بالمبضع ، يسلّم مع بريست في احتمال ان يموت فجأة رجل في أوفر الصحة ، ويتفق مع كامريستوس في أن الانسان يستطيع أن يعيش بعد الموت . كـان يعجب بجميع النـظريات ، لكنـه لا يعتنق أية نظرية ، ويدعي أن أفضل طريقة للعلاج هي أن لا يكـون للطبيب « طريقـة » وهذا السـاخر الكبـير ، رجـل الملاحظة ، ورجـل التجارب اليـائسة ، كـان يفحص الجلد المسحور . وقال للمركي :

ـ أريد أن أكون شـاهداً لمصـدر الصلة الموجـودة بين الرغبات وانكماش هذا الجلد .

فقال بريست :

ـ وما ينفعنا هذا ؟

وكرّر كامريستوس :

ـ وما ينفعنا هذا ؟

فأجاب موغرادي :

ـ آه ! لقد اتفقتما إذن ؟

وقال بريست :

ـ انكماش الجلد شيء سهل هينّ .

وقال كامريستوس :

ـ إنه غير طبيعي .

وقال موغرادي ، وهو يعيد الجلد المسحور إلى رفائيل ويتصنع الجديّة :

ـ إن انكماش الجلود واقع لا يشرح بالرغم من أنه طبيعي . وهو منذ ابتداء العالم يُعجز الطب والنساء الجميلات .

لم يكتشف رفائيل أي عطف في الأطباء الثلاثة وهم يدققون في فحصه . كان الثلاثة يجسّون نبضه بعدم اكتراث ، ويلقون أسئلتهم بلا شفقة أو رحمة ، ويلزمون الصمت عند كل جواب من أجوبته . وكانت البلادة تبدو خلال تهذيبهم . وكانت كلماتهم نادرة ، سواء أكان ذلك من الثقة أم من التفكير ، فخيل لرفائيل في فترة ما أنهم ذاهلون عنه . ومن وقت إلى آخر كان بريست ، وحده ، يجيب على كلمات بيانشون اليائسة وتشخيصه للمرض بهذه الكلمة « لا بأس » . وبقي كامريستوس غارقاً في تأمل عميق . وكان موغرادي يشبه مؤلف روايات هزلية يدرس شخصين طريفين يريد أن ينقلهما بأمانة إلى

المسرح . أما وجه هوارس فكان يعبر عن ألم عميق دفين ، لأنه حديث التخرج ولم يتح له الوقت الكافي لكي يصبح عديم الاحساس أمام الألم ، وقليل الاكتراث أمام سرير الموت . ولم يكن يعرف كيف يحبس دموعه ، هذه الدموع التي تمنع الانسان من الرؤ ية الواضحة ومن انتزاع لحظة النصر من غير الالتفات إلى صراخ المحتضرين . وبعدما ظلوا نصف ساعة تقريباً ، يأخذون قياس المرض والمريض ، كما يأخذ الخياط قياس ثوب لشاب يود أن يرتديه يوم عرسه ، تكلموا أخيراً ، ولكن كلامهم كان عن مسائل عامة تافهة ، ثم طلبوا أن يجتمعوا في غرفة رفائيل كي يتبادلوا الآراء ويتفقوا على تشخيص الحالة .

وسألهم رفائيل :

ـ سادتي ، ألا أستطيع أن أحضر اجتماعكم ؟

عند هذا السؤال صرخ بريست وموغرادي صوتاً قوياً ، ورفضوا جميعاً ، برغم إلحاح المريض ، أن يتكلموا في حضوره . فخضع رفائيل ، وهو يفكر ان في إمكانه أن يختبىء في مكان يتنصت منه إلى المناقشات التي سينهمك فيها اساطين الطب .

وقال بريست ، وهو يدخل إلى الغرفة ؛

ـ اسمحوا لي يا سادتي أن أبدي رأيي في الحال ، وثقوا انني لا أريد أن أفرضه عليكم فرضاً . إن حالة مريضنا واضحة ، ويوجد شبه تام بين حالة أحد مرضاي والحالة التي دعينا إلى فحصها ، ثم ان أعمالاً كثيرة تنتظرني في مستشفاي ، وبعض الحالات الخطرة تستدعي حضوري . ولهذا أرجو أن

تقبلوا عذري إذا كنت قد سمحت لنفسي بالكلام أولاً . إن حالة مريضنا ناتجة دون ريب عن إرهاق فكريٍ . . .

ثم وجه كلامه إلى الطبيب الشاب سائلاً :

ـ ماذا كان يعمل ، يا هوراس ؟

ـ كان يكتب « نظريات في الارادة » .

ـ آه ! يا للشيطان ! . . ولكن هذا الموضوع واسع متشعب . إذاً أرهق جسمه بالافراط في التفكير ، وبابتعاده عن طرق الوقاية ، وباستعمال مستمر لمنبهات شديدة التنشيط . ان العمل العنيف للجسم والدماغ قد أفسد لعبة جميع الأعضاء ، ومن السهل يا سادتي أن نعرف من الدلائل التي تظهر على الوجه والجسم ارتباك المعدة الخطير ، وتوتر الأعصاب ، والسويداء . لقد لاحظتم دون شك تضخم الكبد والأنف . وقد راقب السيد بيانشون هضم مريضه وقال لي أنه مصاب بعسر هضم دائم . وبكلمة واحدة ، لم يبقَ للمريض معدة . لقد اختفى الرجل ، وتبلدت قوة ذهنه لأن معدته لم تعد تقوى على الهضم ، ومن هنا ينشأ اضطراب أعصابه . وقد أثر هذا الاضطراب في دماغه ، فأحدث فيه التهاباً . انه مصاب بنوع من الجنون ، تسيره فكرة واحدة ، ويعتقد أن هذا الجلد الذي في حوزته ، يتقلص حقيقة . ولنفرض أن هذا الجلد يتقلص أو أنه يحافظ على مساحته فانه بالنسبة إليه الذبابة التي وقعت في ما مضى على أنف بعض الوزراء . والدواء يا سادتي هو أن نضع العلق على معدته ، فيهدأ التهاب هذا العضو ، وأن يتبع نظاماً خاصاً في

مأكله ومشربه ، ليفارقه الجنون . ولن أقول أكثر من هـذا للطبيب بيانشون الذي عليه أن يشرف على علاج المريض . وقد يكون هنالك بعض الالتهابـات الرئتين ، لكنني أعتقد أن الجهازين المعدي والمعوي ، يفوقان الرئتين أهمية . إن الدرس المستمر لبعض المواد الغامضة واندفاع عنيف وراء الشهوات سببا المرض لهذين الجهازين . ولكن الوقت لم يفت بعد ، ونستطيع إصلاحهما . وبإمكانك أيها الطبيب بيانشون أن تنقذ صديقك .

وقال كامريستوس :

ـ زميلنا العالم يعتقد أن النتيجة هي السبب ، ولا أظن أن المعدة هي التي سببت اضطراب الأعصاب والتهاب الدماغ كما يحدث صدع في الزجاج شقوقاً تحيط به ، بل كان يجب أن توجه ضربة إلى الزجاج كي تصدعه . من وجه هذه الضربة ؟ أنقوى على معرفة ذلك ؟ هل سمح لنا الوقت بمراقبة المريض مراقبة تامة ؟ هل نعرف جميع دقائق حياته ؟ سادتي ، إن مبدأ الحياة قد طعن في المريض ، والحياة نفسها هوجمت في كنهها ، والشرارة السماوية ، أي الذكاء الذي هو كرباط يشـدنا إلى أعضـاء الجسد ، والذي يولد الارادة وعلم الحياة ، قد كف عن ضبط ظواهر الآلة الميكانيكية اليومية ، وعمل كل عضو من الأعضاء . ومن هنا ينشأ الارتبـاك الذي لاحـظه زميلي الـطبيب . ان الالتهاب لم يتوجه من المعدة إلى الدماغ ، بل من الدماغ إلى المعدة .

وراح يضرب صدره بيده وهو يضيف :

ـ كلا ! كلا ! لا أعتقد أن المعدة هي كل الانسان .

ولا أجد الجرأة على القول ان المعدة هي المحرك وكل ما يبقى هو شكل متمم . . .

ثم تابع حديثه بهدوء :

ـ لا نستطيع يا سادتي أن ننسب كل الالتهابات الخطرة التي يصاب بها بعض الناس إلى عمل مادي ، وأن نتبع في علاجها طريقة واحدة . لا تجدون رجلاً يشبه رجلاً آخر ، ولكل منا أعضاء خاصة ، تتغذى تغذية خاصة ، لتتم الوظائف المختلفة ، وتطور الأبحاث الضرورية لتتميم نظام في الأشياء لا نزال نجهله جهلاً تاماً . إن الجزء من الكائن الأكبر الذي يحرك ويرعى فينا ـ بإرادة عظيمة ـ ظاهرة الحياة ، يتبدى تحت أشكال مختلفة في كل إنسان ، ويجعل منه في الظاهر كائناً كامل الصنع ، ولكنه يصله من نقطة ما بغاية لانهاية لها . وهكذا علينا أن ندرس كل إنسان على حدة ، ونتعمق في الدرس ، ونعرف ما هو هدف حياته ، وما هي قوتها . ان بين ليونة الاسفنجة وصلابة الحجر فروقات لا حصر لها . هذا هو الانسان . وان أعضاء أصحاب المزاج اللمفاوي الشبيهة بالاسفنج ، وقوة العضلات الحديدية لبعض الرجال الذين وجدوا ليحيوا حياة طويلة ، تبيّن لنا كم من الهفوات ترتكب الطريقة الوحيدة في العلاج التي تتبعونها فتجعلكم تعتقدون بالالتهابات الدائمة . أريد أن أتبع في هذه الحالة يا سادتي علاجاً معنوياً ! ولنفتش عن سبب الشر في أعماق الكائن ! إن

الطبيب مخلوق ملهم ، وهب عبقرية خاصة ، وأعطاه الله القوة على القراءة في جوهر الحياة ، كما أعطى الأنبياء أعيناً تكشف ما يخبئه المستقبل ، والشعراء خاصة مناجاة الطبيعة ، والموسيقيين فنّ ترتيب الأنغام في انسجام مدهش لعل نموذجه يقيم فوق ، في العلى . . .

فهتف بريست ، وهو يتنهد :

ـ دائماً طبه الاطلاقي الملكي الديني . . .

فقاطع موغرادي بريست قائلاً :

ـ سادتي ! أرجو ألّا ننسى المريض . . .

وتمتم رفائيل في مخبئه بحزن ويأس :

ـ هذا هو العلم إذن . . . إن شفائي يتأرجح بين السبحة والعَلَق ، وبين مبضع ديبويتران وصلاة الأمير هوهانلوه ، وعلى الخط الذي يفصل الواقع عن الكلام والمادة عن الروح تجد موغرادي المتشكك . إن « نعم » « ولا » تتبعانني أينما حللت . دائماً « كاريماري » « كاريمارا » : هل أنا مريض روحياً ؟ « كاريماري » . هل أنا مريض جسدياً ؟ « كاريمارا » . هل أعيش ؟ انهم يجهلون هذا الأمر المهم . لقد كان بلانشيت على الأقل صريحاً عندما قال : « لا أعرف » ! .

في هذه اللحظة سمع فالنتين صوت الطبيب موغرادي يقول :

ـ إن المريض مجنون . اتفقنا ! ولكن هناك مئتا ألف ليرة دخلاً سنوياً ، والمجانين الذين هم على هذا الشكل قلائل

جدا . أما ان المعدة هي التي سببت التهاب الدماغ ، أو ان الدماغ هو الذي سبب التهاب المعدة ، فاننا لا نستطيع أن نتحقق من هذه الناحية إلا عندما يموت المريض . إنه مريض ، وهذا شيء واقع لا شك فيه ، فعلينا إذن أن نصف له علاجاً . لندع العقائد جانباً ولنضع له عَلَقاً على بطنه لكي يشفى من الالتهاب الذي اتفقنا على وجوده جميعاً ، وليذهب بعد ذلك إلى « مياه اكس » سعياً وراء الاستشفاء ، فنكون بعملنا هذا قد اتبعنا الطريقتين . وإذا كان مصاباً بداء الرئة فاننا لا نستطيع إنقاذه كما تعلمون . وهكذا . . .

ترك رفائيل مخبأه وعاد إلى كنبته . وما لبث الأطباء الأربعة أن خرجوا من الغرفة .

وبدأ هوراس الكلام قائلاً :

ـ اتفق هؤلاء السادة على أن تعالج علاجاً مستعجلاً بوضع العَلَق على بطنك ، ورأوا من الضرورة أن تعالج معاً ، علاجاً مادياً وعلاجاً نفسياً . فتخضع أولاً للعلاج الذي يهدىء الالتهاب . . .

هنا ، أتى بريست بحركة تدل على الاستحسان .

ـ ثم تتبع علاجاً صحياً غايته أن يؤثر على حالتك النفسية ، وقد أشار جهابذة الطب أن تذهب إلى « مياه اكس » في « السافوا » أو إلى مياه « مون دور » في « اوفرنيه » . ولك أن تختار المكان الذي يروقك ، غير أن الهواء والمناظر الطبيعية في « السافوا » هي أفضل منها في « اوفرنيه » . ولكنك حر يا سيدي

في اختيار المكان الذي تفضل الذهاب إليه . . .

هنا صدرت عن كامريستوس حركة تدل على الاغتباط .

وأضاف بياشون :

ـ ولقد رأى السادة الأطباء أن يعتمدوا على تشخيصي الصائب فمالوا إلى الاعتقاد بوجود التهاب خفيف في جهاز التنفس ، ويعتقدون الشفاء ممكناً ويتوقف على الخضوع للعلاج خضوعاً تاماً ، و . . .

ـ وهذا هو علمكم العاجز .

قال رفائيل هذا ، ثم دخل مع هوراس إلى غرفته لكي يدفع له أجرة هذا الفحص الفاشل .

فأجاب الطبيب الشاب :

ـ إنهم على حق في ما يقولون . إن كامريستوس يحس . وبريست يفحص ، وموغرادي يشك . أليس للانسان نفس وجسد وعقل ؟ إن سبباً من هذه الأسباب الثلاثة يؤثر فينا بشكل قوي أو ضعيف ، ويوجد دائماً شيء إنساني في العلم البشري . صدقني يا رفائيل ، نحن لا نشفي المرضى ولكننا نساعد على الشفاء . وبين طب بريست وطب كامريستوس يوجد أيضاً الطب الطبيعي ، ولكي يعطي هذا الطب نتيجة حسنة يجب أن يكون الطبيب على معرفة بمريضه منذ عشر سنين على الأقل . في أعماق الطب ما ينفيه ، كما في جميع العلوم . حاول إذن أن تتصرف بتعقل وحكمة واذهب إلى « السافوا » . وأعتقد أن الحل كان ولا يزال هو أن نسلم أنفسنا إلى الطبيعة .

في أمسية يوم من أمسيات الصيف الجميلة ، عاد رفائيل من النزهة ، وكان بعض الأشخاص الذين جاؤوا إلى « مياه اكس » جالسين في قاعة الفندق . وجلس رفائيل قرب النافذة وأدار ظهره إلى الجماعة ، وغرق في تأملات هي من النوع الذي نستسلم إليه عادة دون روية أو تفكير ، فتولد أثناءها أفكارنا ، وتتصل ثم تضمحل ، دون أن تتخذ شكلاً ، وتمر في كياننا كضباب رقيق باهت اللون ، فنحسّ أن الحزن عذب ، والسرور غامض ، والنفس غارقة في غيبوبة عذبة ، كان رفائيل يتنشق هواء الجبال النقي المعطر ، ويشعر بالسعادة لأنه لم يعد يشكو أي ألم ، ولأنه تمكن من السيطرة على الجلد المسحور المخيف . وعندما ألقت الشمس الغاربة أشعتها الحمراء على قمم الجبال والربى ، هبّت نسمات باردة ، فترك رفائيل مكانه وأغلق النافذة .

قالت له سيدة مسنة :

ـ هل يفتح سيدي النافذة من فضله ؟ إننا نختنق .

مزّقت هذه الكلمات أذنه بخشونتها الفريدة ، وأحس لدى سماعها بما نحسه عادة ، عندما تؤذينا كلمة من رجل نؤمن بصداقته ، فتنتزع منا أوهام الود ، وتفتح عند أقدامنا هاوية من الغطرسة والتعجرف . وألقى المركي على السيدة المسنة نظرة باردة ، كأنها نظرة رجل سياسي ، ثم نادى أحد الخدم وقال له بصوت جاف :

ـ افتح النافذة .

عند هذه الكلمات ، ارتسمت الدهشة على جميع الوجوه ، وراح الحضور يتهامسون ويتكلمون ، ووجهوا إلى المريض نظرات الاستفهام والدهشة ، كأنه ارتكب عملاً شنيعاً . فشعر رفائيل بالخجل بادىء الأمر ، لأنه لم يكن قد تخلص بعد من الحياء الذي يلازم الشباب عادة ، ولكنه عاد فقاوم خجله ، واسترجع رباطة جأشه ، وساءل نفسه عما يدعو إلى حدوث هذا المشهد الغريب . ولمعت فكرة في رأسه ، وتبدّى له الماضي في رؤيا واضحة المعالم ، ظهرت فيها الأسباب التي يفتش عنها بارزة ناتئة ، كما تبدو عروق جثة يلوّن علماء الطبيعة كل فروعها ، وعرف في هذه اللوحة نفسه ، وتابع فيها وجوده ، يوماً يوماً ، وفكرة فكرة . لقد عاشها ، ولكن مدهوشاً ، متجهم الوجه ذاهلاً في قلب هذا العالم الضاحك ، مفكراً دائماً في مصيره ، مشغولاً بألمه ، متظاهراً باحتقار الأحاديث ، هارباً من توطيد العلاقات ، هذا التوطيد الذي يحدث عادة ما بين المسافرين معاً ، ربما لأنهم ينوون أن لا يعودوا فيتلاقوا في ما بعد ـ شبيهاً بالصخور التي لا تحسّ بمداعبة الأمواج ولا تهتم لهيجانها . ثم ، وبقوة حدس غريبة ، راح يقرأ في النفوس ، ووقع نظره على صلعة شيخ مسن فتذكر أنه ربح منه مالاً ولم يعين له وقتاً للأخذ بالثأر . ورأى امرأة جميلة ، كانت جهودها قد تركته غير مبال . ان كل وجه يتهمه بخطإٍ ارتكبه ، لا يُعلل تعليلاً ظاهرياً ، ولكنّ الجريمة تكمن في الأنانية المطعونة . . . أما الذين دعاهم إلى حفلاته وأعارهم جياده فقد أثار غناه نقمتهم

ومقتهم ، فلذا أصبح يتجنب الاختلاط بالناس في « مياه اكس » لكي يجنبهم نوعاً من الذل ، ويجنب نفسه نكرانهم جميله ، فظنوا أنه يحتقرهم وأخذوا يتهمونه بالارستقراطية .

ولما سبر هكذا غور القلوب، تمكن من قراءة الأفكار المكتومة، فاستبد به رعب من المجتمع ومن تهذيبه ومن أقنعته ، انه غني وذو ذكاء وقّاد ، فهو إذن مبغوض ، سكوته يثير الفضول ، وتواضعه يظنه الناس ترفعاً ، وتراءت له الجريمة المخيفة التي يتهمه بها هؤلاء الناس ، ولكنه وضع نفسه بمنجاة من أحكام تفاهتهم . إنه ثائر ضد استبدادهم وظلمهم ويقوى على اهمالهم ، ولكي ينتقموا منه تآمروا جميعاً على ان يجعلوه يشعر بسلطتهم ، ويخضعوه إلى نوع من النفي ، ويفهموه انهم يستطيعون إهماله وازدراءه .

شعر رفائيل بادىء الأمر بالشفقة ، لدى نظرته إلى العالم على هذا الشكل ، ثم اعترته رجفة من القوة التي تسمح له بالكشف عما تخبئه النفوس ، وأغمض عينيه كي لا يعود يرى شيئاً . وفجأة أسدل ستار أسود صفيق على هذه الرؤيا المشؤومة الحقيقية . ثم اعترته نوبة سعال حادة ، فطرقت سمعه كلمات التذمر والتأفف . ان المجتمع لا يرحمه ولا يتصنع الشفقة عليه . ومن يدري ؟ فقد يكون كره المجتمع ناشئاً عن فهم رفائيل العميق له .

ـ ان مرضه معدٍ . . .

ـ على صاحب الفندق ان يمنعه من دخول الصالون .

ـ الذوق يقضي بألّا يسعل هكذا .

ـ عندما يكون الانسان مريضاً ، يجب ألا يأتي إلى هذا

المكان . . .

ـ سيطردني من هنا .

ترك رفائيل القاعة كي يتجنب سخط الجماعة ونقمتها ، وراح يتنقل في أرجاء الفندق . وأراد ان يجد ملجأ يزيل عنه كربه ، فعاد إلى القاعة واقترب من امرأة جميلة كانت جالسة وحدها ، وحاول ان يبادلها الكلام ، لكنها أدارت له ظهرها ، وتظاهرت بأنها تراقب الراقصين . وخاف رفائيل ان يكون قد أساء الى الجلد المسحور في هذه السهرة ، ففقد قدرته على الكلام ، وترك القاعة العامة ووجّه خطواته الى قاعة « البليارد » فلم يستقبله أحد بنظرة ترحيب ، ولم توجّه اليه كلمة ، ولم يحيّه أحد . ففهم أسباب النفور الذي يشيعه بين هؤلاء الناس . فقد تكون هذه الجماعة خاضعة ـ دون ان تعرف ـ الى القانون الذي يسيّر الطبقة الاجتماعية الرفيعة . وعادت به الذكرى الى الماضي ، فتمثلت له فيدورا كنموذج كامل لهذه الطبقة من الناس . فالمجتمع إذن لن يعطف عليه ، ولن يداوي آلامه ، كما ان فيدورا لم ترحمه ، ولم تشفِ جراح قلبه .

العالم يطرد الاشقياء كما يطرد رجل موفور الصحة أسباب العلة من جسده . العالم يكره الآلام والتعاسة ، ويخافها خوفه مرضاً معدياً ، ولا يتردد في الاختيار بينها وبين الرذائل . ومهما كان الشقاء جليلاً ، فان المجتمع يعرف كيف يحط من شأنه ، ويجعله سخرية بكلماته اللاذعة . والمجتمع يرسم صوراً كاريكاتورية ويلقيها على رؤوس الملوك المخلوعين لكي يثأر لنفسه من الظلم الذي يعتقد ان

الملك قد سببه له في ما مضى . وهو يشبه نبلاء الرومان في « السيرك » الذين لا يرحمون أبداً المصارع الذي يُغلب . وهو يعيش من الذهب والسخرية . . . الموت للضعفاء ! هذا هو شعار أفراد هذه الطبقة في جميع أنحاء الأرض ، لأن ثمة أغنياء في كل مكان ، وهذه الحقيقة محفورة في أعماق القلوب التي أفسدتها الثروة أو غذتها الارستوقراطية . اجمع أطفالاً في مدرسة فتحصل على صورة للمجتمع ، على صورة مصغرة ، هي لحقيقية بقدر ما هي بريئة وصريحة . وهذه الصورة تقدم لك في ما تقدم ، اشقياء محتقرين ، خلقوا للعذاب والألم ، ووضعوا بين الاحتقار والشفقة ، ولكن الانجيل يعدهم بالسماء . وهاك مثلاً آخر : إذا شكا طير من الألم ، فان رفاقه في الخم تهاجمه بمناقيرها وتنتزع ريشه ، ولا تتركه إلا ميتاً . والعالم ، الأمين على الأنانية ، يلاحق بقسوته الاشقياء كي يزيد من تعاستهم ويحزن نفوسهم . فمن يشكو ألماً في نفسه ، أو علة في جسده ، ومن كان فقيراً أوضعيفاً ، فليبق في صحرائه ، لأنه إذا حاول ان يجتاز الحدود فلا يجد إلا الشتاء . صقيع في النظرات ، وصقيع في الحركات والأساليب ، وصقيع في الكلام وفي القلب ؛ وسعيد هو اذا لم يحصد اللعنة ، حيث يأمل ان يجد العزاء ! أيها المرضى ! أبقوا في أسرتكم ولا تبارحوها . أيها الشيوخ ! أجلسوا وحيدين أمام مواقدكم الباردة . أيتها الفتيات المسكينات اللواتي لا يملكن بائنة ! لتتجمد أطرافكن ، ولتلتهب قلوبكن شوقاً في بيوتكن الحقيرة ! إذا رضي العالم بوجود شقاء ما ، فذلك كي يهذبه ويستفيد منه ويُلبسه بردعةً ويلجمه ، ويمتطي ظهره ويصنع منه

فرحاً . . . ايتها الفتيات الجامحات الأهواء اظهرن وجوهاً ضاحكة ، واحتملن الشوق إلى الزواج ، وداعبنه ، وترقبن حلوله ثم الزمن الصمت ! وانت ، يا ملك الخدم ، الذي لا يلبس بزة رسمية ، أيها الطفيلي الخالع العذار ! دع طبائعك في بيتك ، واهضم كما يهضم مضيفك ، ولتكن دموعك كدموعه ، وليكن ضحكك كضحكه ، ومجّد قصائده ! وإذا أردت أن تذمه فانتظر سقوطه ! هكذا يمجد العالم الشقاء . فانه يقتله أو يطرده ، ويذلله ، أو يخضعه .

غمرت هذه التأملات قلب رفائيل ، وراح ينظر إلى ما يحيط به ، فشعر بذلك الصقيع المشؤوم الذي يواجه به المجتمع الشقاء والذي يلفح النفس كما تلفح الجسد رياح الشتاء القارسة . ثم وضع يديه على صدره وأسند ظهره إلى الحائط ، وأسلم نفسه إلى حزن مرهق . وراح يفكر بالسعادة القليلة التي يقدمها المجتمع للناس : لهو بلا سرور ، مرح بلا فرح ، وأعياد بلا بهجة ، وفسق بلا لذة ، وأخيراً خشب المدفأة أو رمادها ، ولكن بلا نار . وعندما رفع رأسه وجد نفسه وحيداً . . . كان اللاعبون قد تركوا القاعة .

وقال مناجياً نفسه : « لكي أجعلهم يعبدون سعالي ، يكفي ان أظهر لهم سلطتي ! » .

عند هذه الفكرة رمى بالاحتقار وكأنه معطف بينه وبين العالم .

صباح اليوم التالي جاء الى زيارته طبيب « مياه اكس » . واظهر له عطفاً وقلقاً على صحته . فشعر رفائيل بالفرح يغمر كيانه

لدى سماعه كلمات الطبيب المؤاسية . ولمح على وجهه امارات الطيبة والمحبة . شعره الأشقر تفوح منه رائحة محبة البشر ، وخياطة ثوبه ، وثنايا سرواله ، وحذائه الضخم ؛ تفصح عن مزايا مبشر ، وتعبر عن المحبة المسيحية ، وعن تفاني رجل دفعته الغيرة على مرضاه إلى لعب « الويست » و« الطاولة » كي يربح مالهم .

وقال الطبيب بعدما تكلّم طويلاً مع رفائيل :

ـ سيدي . اريد أن أبدد أحزانك . أما وقد عرفت تركيب جسمك معرفة تامة ، فاني استطيع الجزم بأن أطباء باريس ، برغم تفوقهم وعبقريتهم ، لم يتوفقوا إلى اكتشاف طبيعة مرضك . سيدي المركي ، ستعيش حياة طويلة جداً إذا لم تصب بحادث ما ، ورئتاك قويتان جداً ، ومعدتك تُخجل معدة النعامة ، ولكن مناخ الأماكن العالية لا يلائمك ؛ وقد يؤدي بقاؤك في « مياه اكس » إلى موت عاجل . لقد اثبتت الكيمياء ان التنفس هو احتراق حقيقي ، يتوقف ضعفه وقوته على كثرة أو على ندرة السائل الذي يسبب هذا الاحتراق . وهذا السائل يختلف باختلاف الأجسام ، وهو وفير في رئتيك ، وإذا سُمح لي بالتعبير عن أفكاري على هذا الشكل ، فأستطيع القول أنك من أولئك الرجال الذين خصصوا لجلائل الأعمال . وانك بتنشقك الهواء النقي الذي هو من أسباب اطالة الحياة عند بعض الناس ، تلحق بنفسك ضرراً جسيماً ، لأنه في هذه الحالة يَحدث احتراق بطيء في رئتيك ، يسرع بخطواتك إلى القبر . ان المناخ الذي يلائمك هو مناخ الأودية نعم ، ان الهواء الذي يجب ان يتنشقه رجل تلتهمه العبقرية التهاماً هو هواء المراعي الكبيرة في

المانيا ، في بادن ـ بادن . واذا كنت لا تخشى انكلترا ، فاذهب اليها ، لأن الضباب الذي يغمرها دائماً يهدىء نوبات سعالك . « مياه اكس » يا سيدي ، الموجودة على ارتفاع الف قدم عن سطح البحر الأبيض المتوسط ، تلحق بك ضرراً جسيماً .

ثم صدرت عنه حركة تدل على التواضع ، وأضاف :

ـ هذا هو رأيي ، يا سيدي . وقد لجأت الى الصراحة وان كان فيها خسارة كبرى لي ، لأنك إذا قدرت كلامي حق قدره ورحلت عنا ، فسنحزن كثيراً على فراقك .

لولا العبارة الأخيرة لظل رفائيل مخدوعاً بالكلام المعسول الذي تفوه به الطبيب . لكن السخرية الناعمة التي رافقتها جعلته يفهم المقصود منها ، ويفهم الرسالة التي يحملها اليه الطبيب بتكليف من رفاقه المرضى الضاحكين والعاطلين عن العمل ، والنساء المسنات الضجرات ، والعشيقات اللواتي هربن من أزواجهن وجئن مع عشاقهن إلى هذا المكان . لقد اتفق هؤلاء جميعاً على طرد مريض مدنف ، يعتقدون أنه لا يقوى على احتمال الاضطهاد المستمر الذي يسومونه اياه . ولكن رفائيل كذب ظنهم ورضي بالنضال ، وقد اعجبته هذه المؤامرة المضحكة .

وأجاب رفائيل على كلام الطبيب قائلاً :

ـ بما انكم ستحزنون جداً على فراقي ، ولما كنت أؤمن بعلمك الغزير ، فاني سأشرع منذ غد ببناء منزل هنا تتوافر فيه الشروط الصحية التي تلائمني ، وفقاً لوصفتك الطبية .

وارتسمت على شفتي رفائيل ابتسامة صفراوية ، فاكتفى

الطبيب بالقاء التحية وترك الغرفة دون ان يجد كلمة واحدة يوجهها إلى المريض .

ان بحيرة بورجيه هي فرحة كبيرة بين الجبال ، حيث تلمع على علو سبعمئة أو ثمانمئة قدم نقطة ماء زرقاء ، تفوق زرقتها اية مياه في العالم . وإذا نظرنا اليها من علو « دان ديشا » فانها تبدو كزمردة زرقاء تائهة . هذه النقطة الجميلة من الماء يبلغ محيطها تسعة فراسخ ، وعمقها في بعض الأمكنة ينوف على مئة قدم . واذا وجدت نفسك في زورق يتهادى فوق صفحة مياه هذه البحيرة ، تغمرك اشعة الشمس الدافئة ، فانك لا تسمع إلا الضجة التي تحدثها المجاذيف ، ولا ترى في الأفق إلا الجبال المكسوة بالثلج ، وسر بزورقك محاذياً الشاطىء فتقع انظارك من جهة على صخور كثيرة نبتت بينها الأزهار والشجيرات ، وعلى رواب ضاحكة ، وطبيعة غنية بمناظرها وخيراتها . ومن جهة ثانية ترى أرضاً قاحلة مترامية الأطراف . ان هذا الانسجام وذاك التناقض يؤلفان مشهداً كل شيء فيه صغير وكل شيء فيه كبير ، والنظر الى الجبال يبدل منظر الأشياء البعيدة ، فالصنوبرة التي يبلغ علوها مئة قدم تظهر كقصبة رفيعة الساق ، والأودية العميقة تبدو كطرقات ضيقة متعرّجة .

هذه البحيرة هي المكان الوحيد الذي يستطيع فيه قلبان ان يتبادلا الأسرار ، وبالقرب منها نستطيع ان نفكر وأن نحب . وفي هذا المكان تجد انسجاماً غريباً بين الماء والسماء والجبال والأرض . انه يحفظ سر الآلام ، ويخففها ، ويبث فينا العزاء ، ولديه دواء

ناجع لكل الأزمات ، ويمزج الحب لا اعرف باي شيء مخيف ، ويجعل الأهواءأعمق وأطهر،انها بحيرة الذكريات ، تصبغها بلون مياهها التي هي مرآة ينعكس كل شيء عليها .

لم يكن رفائيل يستطيع ان يحتمل آلامه إلا بين هذه المناظر الجميلة . فهو يقوى على البقاء هناك ، مسترخياً ، مفكراً ، لا يرغب في شيء . وذات يوم ذهب إلى هذا المكان قصد النزهة ، ونزل من زورقه بالقرب من رابية تجثم فوقها قرية « سان اينوسان » . وكان رفائيل يحب ان يرى من هذا المكان ، على الضفة المقابلة ، دير « هوكومب » ، قبر ملوك سردينيا الجاثم أمام الجبال ، كحجاج بلغوا غايتهم .

وعكّر الهدوء صوت مجاذيف رتيب يشبه صلاة الرهبان ، ودهش رفائيل لما شعر بوجود غيره في هذا المكان من البحيرة ، فراح ينظر الى الأشخاص الجالسين في الزورق الذي يشق الماء في اتجاهه . ولما اقترب المتنزهون منه ، عرف السيدة المسنة التي طلبت منه ليلة امس اغلاق النافذة . وعندما اقترب الزورق منه حيته الفتاة التي ترافق السيدة ، فخيل اليه أنه يرى هذه الفتاة النبيلة المسكينة للمرة الأولى . وكان قد نسي المتنزهتين اللتين ابتعدتا عن نظره عندما سمع بالقرب منه حفيف ثوب ، ووقع أقدام خفيفة ، وأدار رأسه فابصر الفتاة التي كانت ترافق السيدة ، وشعر من ارتباكها وتصرفاتها انها تود ان تكلمه . فاقترب منها . انها في السادسة والثلاثين من عمرها تقريباً ، طويلة القامة ، نحيلة الجسم ، باردة كجميع العوانس . وهي شابة ومسنة معاً ، تعبّر بوقارها عن الثمن

الكبير الذي تقدر به كنوزها وفضائلها ، وتأتي بحركات النساء اللواتي اعتدن محبة ذاتهن، ربما كي لا يفوتهن الحب الذي خلقن له .

وقالت العانس لرفائيل وهي ترجع الى الوراء بضع خطوات كما لو ان شرفها في خطر :

ـ سيدي ، ان حياتك في خطر . أرجو ألا تدخل بعد الآن إلى صالون الفندق .

فأجاب رفائيل باسماً :

ـ ولكن ، يا آنسة ، أرجو ان تفصحي عن فكرتك بوضوح ، لأنك تجشمت عناء المجيء إلى هنا . . .

ـ آه ! لو لم يكن الأمر الذي قادني اليك مهماً جداً ، لما كنت خاطرت بالتعرض لنقمة الكونتيس ، لأنها إذا عرفت أنني أخطرتك . . .

فقال رفائيل مقاطعاً :

ـ ومن تراه ينقل اليها الخبر ؟

فأجابت العانس ، وهي توجه اليه نظرات مرتجفة كبومة وضعت في الشمس :

ـ صحيح . ولكن الزم الحذر ، لأن شباباً كثيرين قد اتفقوا على ابعادك عن هذا المكان ، ولن يتورعوا عن اجبارك على المبارزة .

وسمع صوت الكونتيس العجوز يلعلع في البعيد .

قال المركي :

ـ آنستي اني مدين لك . . .

وابتعدت الفتاة لدى سماعها صوت سيدتها . وعندما لفظ رفائيل كلماته الأخيرة ، كانت العانس تتسلق الصخور .

وفكر رفائيل ، وهو يجلس تحت شجرة : « ان الأشقياء يتفاهمون دائماً ويساعدون بعضهم بعضاً » . . . آه ! أيتها الفتاة المسكينة !

ان مفتاح جميع العلوم هو ، دون شك ، علامة الاستفهام ، واننا مدينون بأعظم اكتشافاتنا إلى « كيف » . وقد تكون الحكمة في الحياة ، في أن نسأل أنفسنا في كل مناسبة « لماذا » . ولكن هذا الافتعال في استباق المعرفة ينتزع منا أوهامنا ، وهكذا فقد اعمل رفائيل فكره في بادرة الفتاة نحوه فوجدها تطفح بالمرارة .

قال مناجياً نفسه : « ليس عجيباً ان تحبني هذه الفتاة . انني في السابعة والعشرين من عمري وأحمل لقباً ، ويبلغ دخلي مئتي الف ليرة . ولكن العجيب حقاً ان تحضرها إليَّ في زورقها تلك العجوز الشمطاء . لقد جاءت هاتان المرأتان إلى « مياه اكس » كي تناما كمرموط [1] ، وهما تسألان عند الظهر إذا كانت الشمس قد بزغت . فأي شيء دفعهما الى ترك الفراش عند الساعة الثامنة في هذا اليوم للمجيء الى البحيرة . . . ومطاردتي ؟

وما لبثت الفتاة وسيدتها البالغة الثمانين من العمر ان بدتا أمام ناظريه كصورة جديدة للعالم الاصطناعي المزعج : حيلة حقيرة ، مؤامرة فاشلة ، جدال كهنة أو نساء . هل المبارزة خرافة ، أم أنهم

---

(١) مرموط : حيوان من فصيلة القارضة ينام طول الشتاء .

يريدون ان يخيفوه فحسب ؟ هذه النفوس الصغيرة المزعجة كالذباب ، قد نجحت بطعنه في الصميم ، وإيقاظ كبريائه ، وإثارة فضوله .

لكنه لا يريد ان يصبح سخرية لها ، ولا كذلك ان يتهم بالجبن . وبما ان هذه « الدراما » الصغيرة قد استهوته نوعاً ما فقد عاد في المساء الى الصالون . وبقي واقفاً متكئاً على المدفأة ، هادئاً وسط القاعة ، يفحص الوجوه ويتحدى الجمهور . كان ككلب واثق من قوته ينتظر المعركة ملازماً مكانه . دون ان يرسل نباحاً لا فائدة منه . وعند نهاية السهرة راح يتنقل بين قاعة البليار وقاعة المقامرة ، موجهاً نظراته إلى بعض الشباب وهم يلعبون . وبعدما قام بدورات عدة سمع أحد الشباب يلفظ اسمه . وبرغم ان الصوت كان منخفضاً جداً فقد تمكن رفائيل من التقاط هذه الكلمات :

ـ أنت ؟

ـ نعم أنا .

ـ أتحداك .

ـ لنراهن .

ـ آه ! سيذهب .

في اللحظة التي كان رفائيل كثير الفضول لمعرفة الأمر الذي يتراهنون عليه ، وقف شاب طويل القامة ، متين البنيان ، حاد النظرات ، وقح ، شاب من أولئك الذين يعتمدون على قوتهم المالية .

ووجه الكلام إلى رفائيل بصوت هادىء قائلاً :

ـ لقد كلفت نفسي ابلاغك شيئاً يظهر انك تتجاهله : إن وجهك وشخصك يزعجان هنا جميع الناس ، ويزعجانني انا بشكل خاص . ان تهذيبك يدفعك دون شك إلى التضحية في سبيل الجمهور ، ولهذا أرجوك ان تمتنع عن المجيء إلى هذه القاعة .

فأجاب رفائيل ببرود :

ـ سيدي ، مزحتك هذه أصبحت بالية وباخت تماماً من فرط الاستعمال .

فقال الشاب :

ـ لا امزح يا سيدي ، وأكرر ما قلت . ان اضراراً كثيرة تلحق بصحتك من جراء بقائك هنا ، فالحر والاضواء ، وهواء القاعة، ومخالطة الناس ، كل هذا يؤلمك ويضاعف مرضك .

وسأله رفائيل :

ـ اين درست الطب ؟

ـ سيدي ، لقد نلت البكالوريا باطلاق النار عند ليباج ، تعلمت الطب عند ساريزيه ملك المبارزة .

فأجاب رفائيل :

ـ لم يعد ينقصك إلا رتبة واحدة يجب ان تحصل عليها . ادرس أصول التهذيب ، فتصبح نبيلاً محترماً .

في هذه اللحظة اقترب بعض الشباب ، باسمين أو ساكتين . أما اللاعبون الباقون ، فقد اعاروا انتباههم إلى ما يجري ، وتركوا الأوراق تسقط من أيديهم ليتفرجوا على شجار يرضي أهواءهم .

وجرب رفائيل وحده ان يحافظ على هدوء اعصابه ، كي لا تصدر عنه اية اهانة ، ولكن خصمه وجه اليه كلاماً يبطنه الاحتقار والازدراء ، فأجابه رفائيل بقسوة :

ـ سيدي ، ليس من اللائق ان يُصفع رجل في عصرنا هذا ، ولكنني لست أدري أية كلمة تقوى على فضح السلوك الشائن الذي تسلكه .

عند هذه الكلمات تقدم بعض الشباب ، وحالوا دون اشتباك الخصمين قائلين :

ـ يكفي ، يكفي ، غداً تتفاهمان !

خرج رفائيل من القاعة ، كأنما هو الذي أراد الخصام ، وقد رضي ان تجري المبارزة بالقرب من قصر بوردو ، في مرجٍ صغير ، لا يبعد كثيراً عن الطريق التي شقت حديثاً ، لكي يتمكن المنتصر من الذهاب بعد المبارزة الى مدينة « ليون » . كان على رفائيل ان يلازم فراشه ، أو أن يغادر « مياه اكس » . لقد انتصر المجتمع .

وفي صباح اليوم التالي ، عند الساعة الثامنة ، كان خصم رفائيل قد سبقه إلى مكان المبارزة مصحوباً بشاهدين وجرّاح .

قال الخصم ضاحكاً وهو ينظر الى قبة السماء الزرقاء ، ومياه البحيرة ، والصخور :

ـ الطقس جميل للقتال . واذا حدث ان أصبته إصابة ضعيفة في كتفه ، فانها سوف تجبره على ملازمة الفراش شهراً على الأقل . ألا توافقني على ما أقول ، أيها الطبيب ؟

فأجاب الجراح :

ـ شهر على الأقل .

ولكن دع هذه الصفصافة لشأنها ، وإلا تعبت يدك ، فتخونك عندما تطلق النار . وقد تقتل الرجل عوضاً عن ان تجرحه .

وسمعت ضجة تحدثها عربة آتية من بعيد .

وقال الشاهدان ، وقد رأيا عربة تجرها أربعة جياد يقودها حوذيان :

ـ لقد جاء .

وصرخ خصم رفائيل :

ـ كم هو عجيب هذا الرجل ! انه يجيء الى الموت في عربة على استعداد للسفر .

في المبارزة كما في المقامرة ، تؤثر الحوادث الطفيفة على خيال المنهمكين بنجاح ضربتهم ، وهكذا كان الشاب ينتظر بنوع من القلق وصول العربة . ووقفت العربة على الطريق ، ونزل منها جوناتاس بتثاقل ملحوظ ، ثم ساعد رفائيل على النزول ، وهو يحيطه بذراعيه الضعيفتين ، معتنياً به اعتناء العاشق بحبيبته . واختفى الاثنان في الطريق القريبة ، التي تفصل الطريق العامة عن المكان المخصص للقتال ، ولم يظهرا إلا بعد وقت طويل ، لأنهما كانا يمشيان على مهل . واستبد تأثر عميق بالطبيب وخصم رفائيل وشاهديه لدى رؤيتهم المركي مستنداً على ذراع خادمه ، شاحب الوجه محطماً . كان يمشي محني الرأس لا يتلفظ بكلمة وتستطيع القول انك امام شيخين محطمين ، حطم أحدهما الوقت وأنهك

الفكر الآخر . كان عمر الأول مسطورا على شعره الأبيض ، أما الثاني فلم يبق له عمر .

وقال رفائيل ، موجهاً كلامه إلى خصمه :

ـ سيدي ، لم أنم طوال الليل .

هذه الكلمة الباردة ، والنظرة المخيفة التي رافقتها ، جعلتا الشاب يرتجف بقوة ، فشعر بخطإه واستبد به الخجل من سلوكه . وكان في وقفة رفائيل ولهجته وحركاته شيء عجيب . واتخذ المركي وضعاً للمبارزة ، وخيم الصمت على الجميع ، فضلاً عن القلق ورهبة الانتظار .

وتابع رفائيل :

ـ سيدي ، لا يزال أمامك متسع من الوقت كي تعتذر . اعتذر عما بدر منك وإلا عرضت نفسك للهلاك . إنك لا تزال تعتمد في هذه اللحظة على مهارتك ولا تحب ان تتراجع في مبارزة تعتقد نفسك فيها الرابح . والواقع انني كثير السخاء يا سيدي واعلمك بتفوقي . إني أملك قوة رهيبة مخيفة تستطيع أن تشل يدك ، فترتجف يدك ويخفق قلبك وجلاً . ويكفيني ان أشتهي قتلك كي تقع أمامي صريعاً . احب أن لا اضطر إلى إظهار قوتي ، لأن ذلك يكلفني كثيراً . ولن تكون وحدك الذي يموت . وإذا رفضت ان تعتذر فان رصاصك لن يصيب إلا ماء هذا الشلال ، رغم مهارتك في اطلاق النار ، أما رصاصي فسيتوجه إلى قلبك دون أن أعنى بالتصويب .

في هذه اللحظة قاطعت رفائيل أصوات كثيرة .

لفظ المركي كلماته وهو يوجه إلى خصمه نظراته الجامدة ، مظهراً وجهاً مخيفاً يشبه وجه مجنون شرير .

وقال الشاب لشاهد من شاهديه :

ـ اسكته . ان صوته يزعجني .

فصرخ الشاهدان والطبيب :

ـ يكفي ايها المركي ! كلامك لا جدوى منه .

ـ سادتي ، انني أقوم بواجبي . هل لهذا الشاب اجراءات يجب ان يتخذها ؟

ـ يكفي ، يكفي .

وبقي المركي واقفاً دون ان ينقل نظره ، لحظة واحدة ، عن شارل ، خصمه الذي سيطرت عليه قوة سحرية مجهولة ، فأصبح كعصفور أمام أفعى . كان مجبراً على احتمال هذه النظرات القاتلة ، وإذا حاول الهرب منها ، تتبعه بعناد واصرار . وقال للشاهد الذي كلمه أولاً :

ـ اشعر بظمأ قاتل . اعطني قليلاً من الماء .

ـ خائف ؟

ـ نعم ، عين هذا الرجل ملتهبة ونظرتها تخيفني .

ـ تريد ان تعتذر إليه ؟

ـ لم يعد ينفع الاعتذار .

ووقف الخصمان متقابلين تفصل بينهما خمس عشرة خطوة ، ووضعت بالقرب من كل واحد منهما غدارتان . وكان عليهما ـ وفقاً لمراسم الاحتفال ـ إطلاق رصاصتين بعد إشارة الشهود .

وصرخ أحد الشهود قائلاً :

ـ ماذا تفعل يا شارل ؟ لقد وضعت الرصاصة قبل أن تضع البارود .

فتمتم مجيباً :

ـ انني ميت لا محالة . . . لقد وضعتموني تجاه الشمس . . .

فقال له رفائيل بصوت مخيف أجش وهو يحشو غدارته بهدوء ، دون أن يظهر أدنى اهتمام بالاشارة التي أعطاها الشاهد ، وبخصمه الذي يوجه الرصاص إلى صدره .

ـ إن الشمس وراء ظهرك .

كان هذا الهدوء العجيب ينطوي على شيء مخيف ، فاستبد الخوف حتى بالحوذيين اللذين دفعهما الفضول إلى ترك العربة ومشاهدة المبارزة . وكان رفائيل يلاعب قوته أو يود أن يختبرها ، فراح يكلم جوناتاس في اللحظة التي أطلق خصمه النار . انطلقت رصاصة شارل فحطمت غصن صفصاف أصابته ، ثم وقعت في الماء . وأطلق رفائيل النار دون أن يعني بالتصويب فأصابت قلب خصمه . ومن غير أن ينتبه إلى سقوط الشاب ، أخذ الجلد المسحور بسرعة ، ليرى كم تكلفه حياة انسان . فوجد مساحة الطلسم لا تزيد عن مساحة ورقة سنديان .

وقال المركي :

ـ ماذا تنتظران أيها الحوذيان ؟ عجلا بالمسير !

وصل رفائيل في مساء اليوم نفسه إلى باريس ، ثم سار للحال في طريق أوفرنيه قاصداً « مياه مون دور » . وغمرت نفسه خلال

الطريق فكرة من تلك الأفكار المفاجئة التي تقع على نفوسنا كشعاع من أشعة الشمس يخترق الغيوم الكثيفة ليصل إلى أعماق واد رهيب . . . شعاع مشؤوم أو حكمة لا ترحم ! إنهما يلونان الحوادث ويظهران لنا أخطاءنا ويتركاننا عاجزين عن مسامحة أنفسنا . وفكر فجأة أن السلطة ، مهما كان نوعها ، لا تدربنا على طريقة استعمالها . فالصولجان هو لعبة بين يدي طفل ، وفأس بين يدي « ايشوليو » وهو بالنسبة إلى نابوليون رافعة لتحويل اتجاه العالم . تتركنا السلطة كما نحن ولا تجعل عظيماً إلا العظيم . كان في إمكان رفائيل أن يصنع كل شيء ، ولم يصنع شيئاً .

في مياه « مون دور » وجد الناس يخافونه ويهربون منه ، كما تهرب الحيوانات من حيوان مريض ، وقد أنبأتها أنوفها الحساسة بموته القريب . كان هذا البغض متبادلاً ، لأن مغامرته الأخيرة جعلته يفهم المجتمع فهماً عميقاً . وكان أول أمر اهتم به هو التفتيش عن منزل منفرد في الضواحي . فقد كان يشعر بحاجة ملحة إلى الاقتراب من الطبيعة وإلى تلك الاحساسات العذبة التي تولد في نفوسنا عندما تستسلم إلى سحر الحقول . في صباح اليوم التالي تسلق قمة جبل سانسي ، وزار الأودية القريبة ، والبحيرات المجهولة ، وأكواخ « مون دور » السحرية . ثمة مناظر شعرية بديعة في هذه الأمكنة ، تتناقض تناقضاً تاماً مع منظر الجبال المنعزلة . على بعد نصف ميل من القرية ، وجد رفائيل نفسه ، وكان فرحاً كطفل ، في مكان يخيَّل أن الطبيعة قد خصته بإخفاء كنوزها وبدائعها . وراح رفائيل يتأمل هذه الروائع مدهوشاً ، ووطّد العزم

على العيش في هذا المكان ، لأن الحياة فيه لا بد أن تكون هادئة ، عفوية ، متلونة كحياة نبتة .

تصور شكلاً مخروطياً قاعدته واسعة جداً ، جوانبه مجزأة نتوءاتٍ غريبة : هنا صخور ملساء ، متصلة ، زرقاء ، تنزلق عليها أشعة الشمس كما تنزلق على مرآة . وهناك صخور كثيرة الشقوق ، أكلت منها مياه السيول ، ونبتت بينها شجيرات يداعب أغصانها نسيم عليل ، ثم هناك وهناك جدران عالية ترتفع فوقها أشجار السنديان ، سامقة كالأرز ، أو كهوف تفتح أفواهاً سوداً عميقة ، مغمورة بالأشواك والزهور ، مزينة بلسان من الخضرة . وفي أسفل هذا الشكل المخروطي يقع النظر على بحيرة صغيرة ، قد تكون فوهة بركان قديم ، تلمع مياهها الصافية كالالماس ، وحول هذه البحيرة المحاطة بالأحجار الصوانية والصفصاف والزهور والنباتات العطرية يمتد مرج أخضر ، تسقي حشائشه الناعمة الجميلة مياه تترشح من الصخور ، وتسعفه بالأسمدة العواصف التي تجرّ دائماً بقايا النباتات من فوق إلى أسفل . وتبلغ مساحة البحيرة خمسة عشر كيلومتراً مربعاً . أما مساحة المرج فلا تزيد عن نصف مساحة البحيرة ، وتضيق الأرض في بعض الأمكنة ، فلا تعود تصلح لمرور البهائم . وفي بعض المرتفعات لا يقع النظر على أية نبتة ، بل تنتصب الحجارة الصوانية مؤلفة أشكالاً غريبة . وإذا حدقت فيها ملياً ، يختلط عليك الأمر وتحسبها غيوماً تهيم في السماء . إن منظر هذا الوادي الجميل ، وهذه الصخور العارية ، والصخور التي نبتت فوقها الأشجار ، يناقض تناقضاً تاماً صور النفس الحزينة المكلومة .

وفي بعض الأحيان ، تضاء هذه الصخور الناتئة ، وهذه الكهوف الهوائية ، وهذه البحيرة الهادئة ، واحدة بعد أخرى ، وفقاً لمسير الشمس ، ولتقلبات الطقس ، فتكتسي بلون الذهب ، ثم بلون الأرجوان ، كأنما سرق اللون من وردة حمراء مشرقة أو صفراء بديعة . ان هذه الأعالي تقدم دائماً مناظر متنوعة شبيهة بألوان قوس قزح . وغالباً ما ينفلت شعاع من أشعة الشمس عند الشروق أو عند الغروب ، ويتسرب إلى فجوة بين صخرين ، ويخال أنها أحدثت بضربة فأس ، ويضيء أعماقها ، فتظنها تضحك مستبشرة ، أو يلاعب هذا الشعاع صفحة مياه البحيرة التي يجعّدها نسيم فاتر . . . عندما تحلّق الشمس فوق هذه المياه ، يخيل انه يحدث شيء في داخلها ، فتدب الحرارة في البركان القديم ، ويوقظ دفئه المزروعات ، ويلون الزهور ، وينضج الثمار في هذه الزاوية من الأرض المنعزلة .

شاهد رفائيل أبقاراً كثيرة ترعى في المرج ، وبعدما تقدم بضع خطوات نحو البحيرة رأى بيتاً متواضعاً ، بني من الحجارة الصوانية وسُقف بالأخشاب . وكان سطح البيت مكسواً بالأعشاب والأزهار ينسجم انسجاماً تاماً مع الحقل الذي يحيط به . والدخان الذي لم يعد يخيف العصافير يتصاعد من مدخنته القديمة . والباب هو لوح خشبي ضخم وضع بين ركيزتين ، والأزهار المختلفة الألوان تحيط به من كل جانب . أما الجدران فلا تكاد تظهر من العرائش النابتة حولها ، والياسمين والورود التي ترفع رؤوسها ، ناشرة عطرها . ولم يكن سكان البيت يهتمون بهذه النباتات العطرية ، بل أوكلوا أمر

الاعتناء بها إلى الطبيعة . ورأى رفائيل بعض الثياب معلقة على أغصان شجرة ، وقطاً متكوماً على آلة لقشر القنب ، وقدراً معدنية صغيرة بين كمية من قشر البطاطس . وفي ناحية البيت المقابلة ، شاهد سياجاً من الأشواك الجافة ، وضع دون شك ليمنع الدجاج من مهاجمة الثمار وحديقة الخضر . ان هذا البيت يشبه عش عصفور علق في تجويف صخر ، يجتمع فيه الفن والاهمال . انها طبيعة ساذجة طيبة ، خشونة حقيقية ولكنها شعرية ، لأنها تغذي قصائدنا ، ولا تجد لها مثيلاً في أية فكرة ، ولا تملك إلا نفسها ، وهي انتصار حقيقي للصدفة .

لحظة وصل رفائيل كانت الشمس توزع أشعتها يميناً وشمالاً فتجعل ألوان النباتات تتألق بهاء ، وتظهر بسحر الأضواء ، وبتناقض الظلال ، نتوءات الصخور الصفراء والرمادية ، ولون الأوراق الأخضر ، وكومات الزهور الزرقاء والحمراء والبيضاء ، واللبلاب الذي يتسلق الصخور ، والأعشاب الندية ، وعناقيد العنب المدلاة ، وخصوصاً صفحة الماء الصافية ، التي تنعكس عليها الصخور الصوانية ، والأشجار ، والبيت ، والسماء . في هذه اللوحة البديعة ، لكل شيء سحره وإغراؤه ، من « الميكة [١] » إلى كومة العشب المختبئة تحت ظل باهت . والبقرة المبرقشة اللامعة الشعر ، والزهور الرخصة المائية الممتدة كالمخمل المزين بالأهداب ، المنحنية فوق الماء في فتحة تطنّ فيها الحشرات المتعددة

(١) الميكة : حجر لامع ذو صفائح .

الألوان . وشعر رفائيل ، وهو يتنشق رائحة الأزهار ويمتع أنظاره بهذه المشاهد ، بلذة ليس بعدها لذة ، وقاطع السكوت الذي يخيم على هذا المكان نباح كلبين ، فأدارت الأبقار رؤوسها نحو مدخل الوادي ، وأرت رفائيل خطومها ، ثم عادت ترعى العشب الندي . وقفزت عنزتان من صخر إلى صخر ، ووقفتا بالقرب من رفائيل ، وراحتا تنظران اليه كأنما تستفهمان عن سبب مجيئه .

وتعالى النباح ، فخرج من البيت طفل وقف فاغراً فاه من الدهشة ، وتبعه شيخ مسن ، معتدل القامة ، أبيض الشعر . ان هذين الكائنين كانا على اتصال وثيق بالمنظر الطبيعي ، والهواء ، والزهور ، والبيت . فالصحة تتفجر تفجراً في هذا المكان المخصب ، والشيخوخة والطفولة فيه جميلتان . وكنت ترى في هذين النموذجين ـ الشيخ والطفل ـ مثالاً صارخاً للسعادة . كان وجه الشيخ أسمر ، حفرت فيه السنون تجاعيد كثيرة تبدو خشنة الملمس ، أنفه مستقيم ، وخداه حمراوان ، ودلائل العزم والقوة تظهر في حركاته ونظراته . ويداه القويتان مكسوتان بشعر أبيض خفيف . ووقفته ، وأساليبه ، وتصرفاته ، تجعلك تعتقد انك أمام رجل يعشق الحرية ، ولو كان إيطالياً لكان من الممكن أن يمتهن القرصنة كي يحافظ على حريته الثمينة . أما الطفل فهو جبلي حقيقي بعينيه السوداوين اللتين تستطيعان ان تواجها الشمس دون ان يطرف لهما جفن . شعره كستنائي مشعث ، وهو مرن ، طبيعي في حركاته كعصفور . وكانت ثيابه الرثة الممزقة تسمح للنظر ان يقع على بشرةٍ غضة ناصعة البياض .

وقف الشيخ والطفل ساكتين ، الواحد قرب الآخـر ، تغمرهما عاطفة واحدة ، يعرضان للنظر صـورة حية للحيـاة اللامبالية . فالشيخ قد رضي بألعاب الطفل ، والطفل قد تخلق بأخلاق الشيخ ، فكأنهما وقّعا بينهما عقداً هو نوع من الاتفاقات التي توقع بين قوتين ضعيفتين ، بين قوة توشك ان تفنى وقوة توشك أن تنفجر . ثم ظهرت على عتبة الكوخ امرأة تناهز الثلاثين من عمرها ، مديدة القامة باسمة المحيا ، بيضاء الأسنان صريحة . هي مثال حقيقي للمرأة « الأوفرنية » بثوبها ، وتسريحة شعـرها ، وبدانتها . أما كلامها فهو تجسيم كامل لما يميز المنطقة من تقاليد جميلة ، وجهل ، واقتصاد ، وحب وعطف .

ألقت المرأة التحية على رفائيل ، وبادءته الحديث . فهدأت ثائرة الكلبين ، وجلس الشيخ على مقعد في الشمس ، وراح الطفل يتبع أمه في ذهابها وايابها ، صامتاً ، مصغياً إلى الأحاديث ، يتفحص الغريب .

- ألا تشعرون بالخوف هنا ، ايتها المرأة الطيبة ؟

فأجابت ، وهي تقود رفائيل إلى أوسع غرفة في البيت :

- من يستطيع ان يدخل إلى بيتنا عندما نسد المدخل ؟ آه ! اننا لا نشعر أبداً بالخوف . وماذا يستطيع اللصوص ان يجدوا عندنا ؟

وأشارت بيدها إلى جدران الغرفة السود من الدخان . فوقع نظر رفائيل على لوحة تمثل آلام المسيح . وعلى أخرى تمثل رماة الحرس الامبراطوري . وكان في الغرفة سرير قديم من خشب

الجوز ، وبضعة كراسٍ خشبية ووعاءً لوضع الخبز ، ولحم مقدد يتدلى من السقف ، وإناءً للملح ، ومدفأة . ولما ترك رفائيل الغرفة شاهد بين الصخور رجلاً يحمل مجرفة ، يحني ظهره وينظر بفضول إلى البيت .

وقالت المرأة ، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة :

ـ سيدي ، هذا هو زوجي . انه يعمل في الأرض .

ـ وهذا الشيخ المسن ، هل هو والدك ؟

ـ اتق الله يا سيدي ، انه جد زوجي . عمره مئة وسنتان . وقد رافق منذ مدة قريبة طفلنا إلى « كلارمون » مشياً على الأقدام . لقد كان رجلاً قوياً جداً ، أما الآن فلم يبق له عمل سوى الأكل والشرب والنوم . انه يمضي أوقاته بملاطفة الصغير ، وأحياناً يقوده الصغير إلى هذه المرتفعات . فيرافقه دون ان يشكو أو يتذمر .

عندئذ قرر رفائيل ان يعيش بين هذا الشيخ وهذا الولد ، وان يتنفس في جوهما ، ويأكل من خبزهما ، ويشرب من مائهما ، وينام من نومهما ، ويدفع إلى شرايينه بدماء جديدة من دمائهما : نزوة من نزوات المحتضرين . . . وضح له ان تأجيل الموت بضعة أيام هو كنه الوجود الحقيقي ، والحياة الجميلة المثالية ، الحياة الحقيقية . وغمرت قلبه فكرة انانية ابتلعت العالم ، وأصبح العالم يجري في كيانه . والعالم بالنسبة الى المريض يبدأ من الوسادة التي يريح عليها رأسه في سريره ، وينتهي عند قدميه .

من من الناس لم يراقب ، ولو مرة واحدة في حياته ، خطوات نملة تدب على الأرض ، ولم يضع القش في ثقب تعيش فيه بزاقة ،

ولم يدرس حركات فتاة غريرة ؟ من لم ينظر طويلاً ، بلذة فائقة ، إلى تأثير الشمس والمطر على سقفٍ معمم بالقرميد ، ولم يتأمل قطرات الندى ، وبثلات الأزهار ؟ من لم يغرق في تأملات مادية متراخية لامبالاة ، لا هدف لها ، ولكنها رغم كل شيء تؤدي إلى فكرة ؟ من لم يعش حياة الطفولة ، الحياة الكسلى ، حياة المتوحش ؟ .
هكذا عاش رفائيل بضعة أيام ، دون اعتناء ودون رغبات ، يشعر بأن قلقه سيفارقه ، وأن ألمه سيزول عنه . كان يتسلق الصخور ، ويجلس على نتوء احداها ، ويغمر بأنظاره مسافات شاسعة من المناظر البهيجة ، وقد يبقى قابعاً في مكانه نهاراً كاملاً كنبتة في الشمس ، أو كأرنب في حجرها ، يراقب نمو النباتات ، وكل ما يحدث على الأرض ، وفي المياه ، وفي السماء . وحاول ان ينضم الى حركة الطبيعة وان يتحد بها ذاتياً ، لكي يخضع الى القانون المستبد الذي يسوس الكائنات التي تسيرها الغريزة ، لأنه لم يعد يريد ان يحمل اثقال وجوده . فهو اذن كالمجرمين الذين كانوا يلجأون في الماضي الى الأديرة هرباً من وجه العدالة ، يحاول ان يلتجىء إلى هيكل الطبيعة . وأصبح قسماً متمماً لهذا الاخصاب الوفير . فاعتاد تغييرات الرياح ، وتعلم تقاليد النباتات وعاداتها ، ودرس أنظمة الحياة ، وفهم أسرارها ، كان يعتقد ان مواليد الطبيعة هي تطور مادة واحدة ، وتآلف اشياء في حركة واحدة ، وتنفس لكائن عظيم يؤثر ويفكر ويمشي وينمو ، أحب رفائيل ان ينمو ويمشي ويفكر ويؤثر مثله . لقد مزج حياته مزجاً خرافياً بحياة هذه الصخور . وتذوق طوال الأيام الأولى التي قضاها في هذا المكان الضاحك

لذاذات طفولة ثانية ، ويعود الفضل في ذلك الى الأوهام العجيبة ، والنقاهة الكاذبة ، الشبيهة بالهذيان المحسن الذي تمنحه الطبيعة ، كفترات راحة في الألم . كان يحيا حياة لاهية ، لامبالاة ، ينسى في الغد مشاريع البارحة ، فشعر بالسعادة وظن أنه سينجو من براثن الموت .

وفي صباح يوم من هذه الأيام الجميلة ، بقي رفائيل ملازماً فراشه إلى الظهر ، غارقاً في أحلامٍ بين اليقظة والنوم ، تُلبس الحقائق مظهر الأوهام ، وتعطي الأوهام مظهر الحقيقة . وبينما هو مستسلم لهذه الغيبة العذبة ، سمع صوت مضيفته ـ وهو لا يدري إذا كان لا يزال يواصل حلماً ـ يردد التفاصيل الدقيقة عن صحة المريض ، على مسامع جوناتاس الذي جاء كعادته كل يوم يسأل عن صحة سيده . كانت المرأة تحسب رفائيل لا يزال نائماً فلم تخفف من حدة لهجتها الجميلة .

وكانت المرأة تقول :

ـ انه لا يتقدم مطلقاً نحو الصحة ، يا سيدي . لقد سعل كثيراً هذه الليلة ، فخيل الي انه سيلفظ أنفاسه . هذا السيد العزيز يسعل ويبصق ، ويستدعي الشفقة ، ونتساءل أنا وزوجي من أين يجيء بالقوة ليسعل على هذا الشكل . ان حالته تفتت القلوب . أي مرضٍ ملعون مرضه هذا ؟ إنه مرض قبيح دون شك . ونخشى جداً أن نجده في صباح يوم ما ميتاً في فراشه . وهو شاحب الوجه كتمثال للمسيح صنع من الشمع . أيتها السيدة ! عفوك ورحمتك . اني أراه عندما ينهض في الصباح ، جسمه هزيل

كمئة مسمار جمعت معاً ، ورائحته كريهة . وهو ينهك نفسه بالمسير ، كأنما يملك صحة للبيع . ولكنه يتحلى بالشجاعة رغم كل ذلك ، فلا يشكو ولا يتذمر . وأعتقد يا سيدي انه من الأفضل له ان تضمه أحشاء الأرض ، على ان يسير فوقها ، لأنه يتعذب عذاب المصلوب . ولا أكتمك ان في موته خسارة لنا ، ولكننا نحبه كثيراً . وهب انه امتنع عن الدفع فان حبنا له لن ينقص ، بل يشتد ويقوى . آه ! إن الباريسيين وحدهم يصابون بهذا المرض . مسكين هذاالشاب !إني متيقنة من موته . الحمى التي لا تفارقه تهدّ جسمه هداً ، وتدفع بالشحوب إلى وجهه . وسوف تؤدي به إلى الموت ، ولكنه لا يهتم بها ولا يلاحظ شيئاً ، ولا يشك في قوته . . . ألا تستدر الدموع هذه الحال ، يا سيدي جوناتاس ؟ ألا تعتقد ان في موته راحة له ؟ عليك ان تصلي من أجله . الصلاة تحمل البرد والشفاء ، وقد شهدت بعيني تأثيرها في كثير من المرضى . أما أنا فاني مستعدة استعداداً تاماً لدفع ثمن شمعة تضاء في سبيل شفاء مخلوق طيب لطيف ، كهذا السيد ، بل قل هذا الحمل الوديع .

كان صوت رفائيل قد أصبح من الضعف بحيث لا يكاد يسمع ، فهو لا يقوى إذن على الصراخ ووضع حد لحديث المرأة . فاضطر إلى سماع هذه الثرثرة المخيفة . ولكن الضيق طرده من سريره طرداً ، فمثل على عتبة الباب ، وصرخ في جوناتاس قائلاً :

- أيها السفاك المجرم ! . . . أتود ان تكون جلادي ؟

واعتقدت الفلاحة انها ترى شبحاً فلاذت بالهرب .

وتابع رفائيل قائلاً :

ـ اني أمنعك منعاً باتاً من القلق على صحتي .
فأجاب الخادم الشيخ ، وهو يمسح دموعه :
ـ نعم ، يا سيدي المركي .
ـ وعليك ألا تأتي إلى هذا المكان دون أمرٍ مني .

وأراد جوناتاس ان يطيع ، لكنه القى نظرة عطف على المركي قبل ان ينسحب ، رأى فيها الأخير موته القريب . عندئذ خانته قواه ، وتمثلت له سوء حاله ، فجلس على العتبة ، ووضع يديه على صدره ، وأحنى رأسه . فاقترب منه خادمه الأمين جزعاً خائفاً :

ـ سيدي ...
فصرخ فيه المريض :
ـ اذهب !... إذهب !...

صباح اليوم التالي تسلق رفائيل بعض الصخور ، وجلس على العشب الأخضر ، في مكان يشرف على الطريق الضيق الذي يؤدي إلى البيت . وبينما هو في جلسته تلك شاهد جوناتاس يتحدث مع القروية للمرة الثانية . فعبرت له قوة خبيثة عن معنى هزّ الرأس وحركات الأيدي ، وسذاجة المرأة ، وحمل اليه الصمت والهواء الكلمات المخيفة ، فاستبد به الجزع ، فترك مكانه وراح يصعّد في الجبل إلى ان بلغ ذراه ، وبقي هنالك حتى المساء ، دون ان يقوى على طرد الأفكار التي ولدتها في كيانه الشفقة التي أصبح هدفاً لها . وفجأة انتصبت القروية نفسها أمامه ، كخيال في ظلال المساء السوداء ، فجمح به خياله ، وصوّر له انه يرى شبحاً يرتدي ثوباً مزيناً بخطوط سود وبيض ، وقالت المرأة :

- الندى يتساقط ، يا سيدي العزيز . يجب ان تعود إلى البيت . وليس من مصلحتك في شيء ان تتنشق الهواء المبلل بالندى . زد على ذلك انك لم تتناول طعاماً منذ الصباح .

فصرخ رفائيل :

- إني آمرك أيتها الساحرة الشمطاء ان تتركيني أعيش كما يحلو لي ، وإلا اضطررت إلى ترك هذا المكان . ألا يكفيك انك تحفرين قبري كل صباح ، حتى تأتي وتهيلي عليه التراب في المساء ؟

- آه ! . . . قبرك ، يا سيدي . . . ان نحفر قبرك ، يا سيدي . . . اننا نود ان نراك تعيش إلى أن تبلغ عمر جدنا الذي رأيته وأعجبت بقوته ، ولا نرغب في رؤ يتك في القبر ! . . . لا نود أن نستعجل خطانا إلى القبر . . .

فصرخ رفائيل :

يكفي .

- استند على ذراعي ، يا سيدي .

- لا . لا .

العاطفة التي يحتملها الانسان أقل ما يكون هي عاطفة الشفقة ، خصوصاً إذا كان يستحقها . البغض دواء مقوٍ يجعلنا نعيش ، وهو يحض على الانتقام ؛ أما الشفقة فانها تقتل ، تزيد ضعفنا ضعفاً . انها الشر الذي أصبح رواغاً ، وانها الاحتقار في الحنو ، أو العطف في الاهانة . لقد وجد رفائيل عند الشيخ شفقة منتصرة ، وعند الطفل شفقة فضولية ، وعند المرأة شفقة مزعجة ، وعند الزوج شفقة نفعية . ومهما تعددت هذه الشفقة ، فانها بدت له بجميع أشكالها

سمجة كالموت . والشاعر يستطيع ان ينظم من هذا كله قصيدة مفرحة أو محزنة ، وفقاً للصور التي تؤثر فيه ، ونفسُه المحمومة تلقي جانباً بالألوان اللطيفة ، وتختار الألوان الصارخة المتباينة .

كانت هذه الألوان من الشفقة تؤلف في نفس رفائيل قصيدة من الحزن والهلع . ولم يكن قد فكر ، دون شك، بصراحة العواطف الطبيعية عندما أراد ان يقترب من الطبيعة . . وعندما كانت نوبة سعال مخيفة تأخذ بخناقه ، وهو يحسب نفسه وحيداً ، يتفيأ ظل شجرة ـ ولم يكن يتخلص من السعال إلا منهوكاً مجهداً ـ كان يرى عيني الطفل اللامعتين موضوعتين كرقيب ، تحت كومة من العشب ، تتفحصانه بفضول مشوب بالسخرية واللذة ، ولست أدري بأي اهتمام ممزوج بقسوة القلب . وهذه العبارة : « أيها الأخ ، يجب ان تموت ! » كان يقرأها دائماً في أعين الفلاحين الذين يعيش بينهم . ولم يكن يدري بالضبط أي شيء يخيفه فيهم ، هل هو كلامهم الساذج البريء ، أم سكوتهم ؟ إن كل شيء فيهم يزعجه ويبلبله . . .

في صباح أحد الأيام ، شاهد رجلين يرتديان ثياباً سوداء ، يدوران حوله ويتفحصانه من بعيد . ثم اقتربا منه ، كأنهما جاءا إلى هذا المكان قصد النزهة ، وألقيا عليه أسئلة تافهة أجاب عنها باقتضاب . ولم يلبث ان عرف فيهما الطبيب والكاهن . قد يكون جوناتاس هو الذي أرسلهما ، وقد يكون أصحاب البيت ذهبوا لاستشارتهما ، أو تكون رائحة الموت هي التي جذبتهما إلى هذا المكان . عندئذ غامت الدنيا أمام أنظار رفائيل ، وتراءت له صورة

مأتمه ، وسمع ترانيم الكهنة ، وعدّ الشموع ، ولم يعد يرى هذه المناظر الطبيعية البهيجة التي يعتقد انه وجد الحياة في أحضانها إلاّ من خلال رداء شفاف . وكل ما كان يعده بحياة طويلة ، أصبح الآن يتنبأ بموته القريب . وفي صباح اليوم التالي ركب العربة إلى باريس ، دون ان يتمكن من اعفاء نفسه من تمنيات الفلاحين الحزينة .

أمضى الليل بكامله في السفر ، راقداً في عربته . واستيقظ أخيراً في وادٍ ضاحك من أودية « بوربونيه » الجميلة . وراحت المناظر البهيجة تتتابع أمام ناظريه كصور حلم غامضة . كانت الطبيعة تتبدى أمامه في أنفس حللها مغرية ساحرة : ألواح متواضعة تختبىء بين الجبال ، وصخور هاجمتها الرياح والأمطار فبدلت من ألوانها ، ومطاحن جاثمة على مداخل الأودية بين الكروم ، وقصور ضاحكة هنا وهناك ، وقرى عديدة ، وطرقات محاطة بأشجار السرو والحور . إنه « اللوار » وبُسطه السندسية تلمع بين رماله المذهبة . اغراء لا نهاية له ، وجمال فتّان . . . وهذه الطبيعة المتحركة الملأى حيوية كطفل كانت تحاول عبثاً ان تلفت أنظار المريض . فأسدل رفائيل ستائر العربة وعاد إلى النوم .

في المساء ، بعدما كان قد اجتاز « كوسّن » انتزعته من رقاده موسيقى عذبة ، ولما فتح عينيه وجد نفسه في قرية تحتفل بعيدٍ في ساحتها العامة . وسمح له الوقت الذي استغرقه تبديل الخيول برؤية الرقص الشعبي الجميل ، والفتيات المزينات بالزهور ، والشبان الأقوياء ، والشيوخ من الفلاحين المحمرة وجوههم من النبيذ . النساء يتكلمن ضاحكات ، وكل شيء يوحي بالسرور ، والسعادة ترفرف بجناحيها فوق الكاتدرائية والساحة العامة ، ويخيل

ان البيوت والسقوف والنوافذ لبست لباس العيد . وكان رفائيل كجميع المرضى المدنفين لا يقوى على احتمال أية ضجة ، فلم يستطع منع نفسه من اللجوء إلى قوته لفرض الصمت على الآلات الموسيقية ، وإبطال هذه الحركة ، ووضع حد لهذا السرور ، وتشتيت شمل المحتفلين الوقحين . وما ان وجه نظراته الحادة إلى السماء حتى خفتت أصوات السرور ، وتشتيت شمل المحتفلين الوقحين . وما ان وجه نظراته الحادة إلى السماء حتى خفتت أصوات السرور ، وتسابق الناس في الهرب ، واصبحت المقاعد خالية . وبقي على المسرح شيخ أعمى يعزف لحناً راقصاً . هذه الموسيقى ، وهذا الشيخ الوحيد ، الجالس تحت شجرة زيزفون ، بثيابه الرثة ، وشعره الأشعث ، هما صورة لرغبات رفائيل . لقد جعل المطر ينهمر مدراراً فأجفل الناس وولوا هاربين . ثم صعد إلى عربته دون ان ينظر إلى الجلد المسحور ، وألهب الحوذي ظهور الجياد ، فراحت تسابق الرياح .

وفي صباح اليوم التالي وجد رفائيل نفسه في غرفته ، قابعاً بالقرب من المدفأة . وأمر أن توقد نار عظيمة ، لأنه كان يرتجف من البرد . وأحضر له جوناتاس الرسائل ، وكانت كلها من بولين . فأخذ رفائيل الرسالة الأولى وفتحها متمهلاً ، وقرأ العبارة الأولى :

« لقد ذهبت ، ولكن هذا هرب ، يا رفائيل . . . كيف يحدث ألا يستطيع أحد ان يدلني على مكانك ؟ وإذا كنت أنا ، بولين ، لا أعرف أين تختبىء ، فهل لغيري ان يعلم ذلك ؟ . . . »

ولم يشأ رفائيل ان يستزيد من القراءة ، فألقى بالرسالة ببرودٍ في المدفأة ، وراح ينظر إلى النار تلتهم الورقة المعطرة ، وتلوّيها ،

وتجزّئها ، وسمحت له هذه الأجزاء برؤية بعض العبارات ، وبعض الكلمات ، وبعض الأفكار التي أتت النار على نصفها ، فراح يقرأها قراءة آلية :

« . . . جالسة أمام بابك . . . انتظر . . . أهواء . . . انني أطيع . . . أعداء » « . . . أنا . . . كلا ! . . . ان بولين . . . تحب . . . ألا تفكر ببولين ؟ حبٌ خالد . . . موت . . . » .

وولدت فيه هذه الكلمات ندماً قاتلاً ، وشعر بتوبيخ الضمير ، فأخذ ملقطاً وانتزع من المدفأة الجزء الوحيد من الرسالة الذي لم تمتد اليه ألسنة النار . وكانت بولين قد كتبت على هذا الجزء من الرسالة :

« . . . لقد تألمت كثيراً ولكنني لم أتذمر . رفائيل ! ان هربك مني لا يعني سوى انك تود أن تجنبي أثقال العذاب . وقد تقتلني في يوم ما ، ولكنك لا تسمح لنفسك مطلقاً بتعذيبي . ولكن ، كان يجب ألا تذهب هكذا . انني استطيع أن أحتمل جميع أنواع الاضطهاد والعذاب وأنا إلى قربك ، لأن العذاب في هذه الحال لا يكون عذاباً . وقلبي الكسير لا يزال ينطوي على كثير من الحب لك ، وقد أكون أحبك الآن أكثر مما أحببتك في ما مضى . انني استطيع احتمال كل شيء ، إلا ذرف دمعة واحدة وأنا بعيدة عنك ، لا أعرف ماذا . . . »

وضع رفائيل هذه البقية من الرسالة على المدفأة ، ثم عاد فألقاها بسرعة في النار . كانت هذه الرسالة صورة حية لحبه وحياته المشؤومة .

وخاطب خادمه قائلاً :

ـ جوناتاس عجل باحضار السيد بيانشون .

وجاء هوراس فوجد رفائيل في سريره .

ـ هل تستطيع يا صديقي ان تصف لي دواء ينيمني نوماً مستمراً ، دون ألم أو وجع ؟

فأجاب الطبيب الشاب :

ـ الأمر سهل ، يا صديقي . ولكن يجب ان تبقى واقفاً على قدميك بضع ساعات كلٍ يوم ، كي تتناول طعامك . . .

فقاطعه رفائيل قائلاً :

ـ ماذا تقول؟ بضع ساعات ؟ لا أريد أن أشعر بالحياة إلا ساعة واحدة كل يوم .

وسأله بياشون :

ـ وما هو هدفك ؟

فأجاب المريض :

ـ ان من ينام يعيش أيضاً .

وخاطب خادمه قائلاً: بينما الطبيب يكتب له وصفة الدواء، قائلاً :

ـ لا تسمح لأي شخص بالدخول إلى هذه الغرفة ، حتى ولو كان هذا الشخص بولين ده ويتشنو .

وقال الخادم الأمين ، وهو يقود الطبيب في الرواق :

ـ هل هنالك أمل ، يا سيدي ؟

ـ من الممكن ان يعيش طويلاً وقد يموت هذا المساء . ان

علامات الموت والحياة متعادلة عنده . والحقيقة انني لا أفهم شيئاً . . . يجب ان تروّح عن سيدك ، يا جوناتاس .

ـ أتود يا سيدي ان أروح عنه ؟ انك لا تعرفه إذن . فقد قتل رجلاً قبل وقت قريب من غير ان يزفر زفرة واحدة . ولا اعتقد بوجود شيء يمكنه أن يروّح عنه ويبدد كآبته .

بقي رفائيل أياماً طويلة غارقاً في النوم ، وانحدر بفضل قوة الافيون إلى درك الحيوانات الكسلى التي تنام في أعماق الغابات تحت شكل بقايا نباتية ، دون أن تقوم بأية حركة لأخذ فريسة قريبة منها . ومنع عنه أيضاً نور السماء ، فلم يعد الضوء يتسلل إلى غرفته ، بعدما أحكم إغلاق النوافذ . كان يترك سريره في الثامنة مساء ، وهو لا يزال تحت تأثير الغيبوبة ، فيرضي ميله إلى الطعام ، ثم يعود إلى النوم . وكانت ساعات اليقظة هذه ، الباردة المشؤومة ، لا تحمل إليه سوى صور مختلطة المعالم ، ودفن نفسه في صمت عميق ، بعيداً عن الحركة والتفكير . وفي إحدى الأمسيات استيقظ قبل المعتاد ، فلم يجد طعامه بالقرب مْنه ، فقرع الجرس يستدعي خادمه جوناتاس :

ـ تستطيع أن تذهب . اني أجعلك غنياً وستكون سعيداً في أواخر أيامك . ولكنني لا أود أن أدعك تلعب بحياتي . أيها الشقي ! . . . إنني أشعر بالجوع . أين طعامي ؟ . . . أجب . . .

ابتسم جوناتاس ابتسامة الرضى والاغتباط ، ثم أخذ شمعة راح ضوؤها يرتجف في الظلام الذي يسود غرف البيت ، وقاد سيده ، وقد أصبح آلة طيعة في يده ، في رواق طويل ، ووقف أمام

إحدى القاعات وفتح بابها بسرعة .

غمر الضوء رفائيل ؛ واستولت عليه الدهشة لما وقعت أنظاره على هذا المشهد الخارق : ثريات مثقلة بالشموع ، وأزهار نادرة موزعة هنا وهناك بذوق وفن ، وطاولة تتألق بالفضة والذهب واللؤلؤ والأواني الصينية . إنها مأدبة فخمة يسيل لها اللعاب . وشاهد أصدقاءه المدعوين يحيطون بنساء متأنقات مغريات ، عاريات الأعناق والأكتاف ، تزين شعورهن الأزهار ، وتبعث عيونهن لمعاناً ساحراً . وكل امرأة منهن تمثل نوعاً من الجمال يختلف عن الآخر . ورأى رفائيل على جميع الوجوه إمارات السرور والحب واللذة .

أطلّ وجه رفائيل من الباب المفتوح ، فارتفع الهتاف ، وأثرت الأصوات والعطور والنساء الجميلات في حواسه ، وهاجت قابليته للطعام . وسمعت أنغام من الموسيقى من قاعة قريبة ، ما لبث انسجامها وتوافق أنغامها أن طغى على الضجيج ، فتمت عندئذ صور هذه الرؤ يا الغريبة . وشعر رفائيل بيد امرأة تداعب يده ورأى ذراعين تهمان بعناقه ، فعرف يد اكيلينا ، وفهم أن هذه اللوحة ليست وهماً كصور أحلامه الباهتة ، فبعث صرخة مخيفة ، وأغلق الباب بسرعة ولطم خادمه لطمة على وجهه أوقعته على الأرض ، وصرخ فيه قائلاً :

ـ أيها الوحش ، لقد أقسمت إذن أن تقتلني ؟

واعترته رجفة من الخطر الذي تعرض له ، لكنه وجد بعض القوى ليعود إلى سريره . فشرب كمية كبيرة من الدواء المخدر

واستسلم للنوم .

وقال جوناتاس ، وهو يحاول الوقوف :

ـ يا للشيطان ! ألم يأمرني السيد بيانشون بأن أروِّح عنه ؟

كانت الساعة تشير إلى انتصاف الليل . وفي هذه الفترة ، كان وجه رفائيل يتألق جمالاً في اغفاءة هنية ، بظاهرة فيزيولوجية تدهش الأطباء . كانت وردة مشرقة اللون تلون بالحمرة خديه الشاحبين ، وجبينه الجميل الذي يشي بالعبقرية يبدو كجبين فتاة غريرة . والحياة تضحك على هذا الوجه الهادىء . فتحسب أنك تنظر إلى طفل يغفو بين ذراعي أمه . كان نومه هادئاً وفمه القرمزي يسمح بمرور أنفاس رتيبة طاهرة . انه يبتسم فهو ولا شك محمول على أجنحة حلم عذبٍ إلى حياة جميلة : قد يكون شيخاً مسناً يتمنى له أحفاده عمراً طويلاً ، وقد يكون جالساً على بساط من العشب الأخضر ، تغمره أشعة الشمس ، ينظر كنبي من علو الجبل إلى أرض الميعاد .

ـ أهذا أنت ؟

بددت هذه الكلمات صور أحلامه الغامضة ، ففتح عينيه . ورأى على ضوء القنديل بولين جالسة على سريره ، لكنها بولين جديدة ، بولين التي جمّلها الغياب والألم . واستبدت الدهشة برفائيل لدى رؤ يته هذا الوجه الأبيض الجميل كبتلات زهرة المياه ، وهذا الشعر الأسود الذي يبدو أشد سواداً في الظل . ثم انهمرت الدموع على خديه الحمراوين ، وبقي جامداً لا يجرؤ على الاتيان بأية حركة خوف أن ينهار . . . كانت بولين جالسة على السرير مرتدية ثياباً

بيضاء ، رأسها محني فوق السرير ، كملاك هبط من السماء ، كرؤ يا تكفي لمحوها حفنة من الأنفاس .

وقالت بولين :

ـ آه ! لقد نسيت كل شيء . ولا يسعفني صوتي إلا بتمتمة هذه الكلمات : أنا لك . نعم ، ان قلبي يزخر بالحب . آه ! إنك لم تبدُ يوماً جميلاً كما أنت هذه اللحظة ، يا ملاك حياتي . إن عينيك ملتهبتان . . . لقد فهمت كل شيء . . . لقد هربت تفتش عن الصحة من دوني ، لأنك تخافني . . .

فأجاب رفائيل بصوت أجش :

ـ اهربي ، اهربي ، دعيني . إذا بقيت هنا فاني سأموت . أتريدين أن أموت ؟

فقالت :

ـ أتفكر في الموت ؟ أتعتقد أنك تستطيع أن تموت من دوني ؟ أتموت ؟ ولكنك شاب وأني أحبك !

وأضافت بصوت عميق ، وهي تأخذ يده بيدها في حركة جنونية :

ـ إن يدك باردة . هل أنا واهمة ؟

عندئذ أخذ رفائيل الجلد المسحور من تحت وسادته وكان قد أصبح صغيراً جداً وأراه لبولين وقال :

ـ بولين ، يا صورة حياتي الجميلة ، لنتبادل كلمات الوداع .

فقالت بدهشة :

ـ الوداع ؟

ـ أجل هذا طلسم يحقق لي رغباتي ويمثل حياتي . انظري كم تبقى لي في الحياة . إذا ثابرت على النظر إليّ فانني أموت . . .

ظنت الصبية أن رفائيل أصيب بالجنون فأخذت الطلسم وقربت القنديل ، فانعكس الضوء على الطلسم وعلى وجه رفائيل ، وراحت بولين تتفحص بانتباه وجه حبيبها والقطعة الصغيرة من الجلد المسحور . ونظر رفائيل إلى وجه عشيقته ، فخيل إليه أن الخوف والحب يزيدان في جمالها ، ففقد السيطرة على ذاته ، واستيقظت في نفسه ذكريات لياليه الماضية ، بجميع أفراحها ولذائذها ، فهتف قائلاً :

ـ بولين ! . اقتربي . بولين !. .

وبعثت الشابة صوتاً مخيفاً ، وجحظت عيناها ، وقرأت في عيني رفائيل رغبة مجنونة من رغباته في أيامهما الأولى ، رغبة كانت تحبها ، ولاحظت بذعر أن الجلد ينكمش في يدها بنسبة تكاثر دلائل الرغبة في عيني حبيبها . فتركت الغرفة هاربة إلى الغرفة المجاورة وأقفلت الباب وراءها .

فصرخ المريض المدنف ، وهو يتبعها راكضاً :

ـ بولين ! . . . أحبك . . . أعبدك . . . واشتهيك . . . إنني ألعنك إذا لم تفتحي الباب . . . أريد أن أموت لكِ .

وارتمى على الباب وقد دبت في عضلاته قوة عجيبة فإذا الباب يقع على الأرض ، ورأى حبيبته نصف عارية تتلوى على كنبة . كانت بولين قد حاولت تمزيق صدرها . وكي تموت ميتة عاجلة

لجأت إلى شالها عله يساعدها على الموت خنقاً .

قالت ، وهي تشد العقدة التي صنعتها :

ـ إذا مت فانه سيعيش .

كانت مشعثة الشعر ، عارية الكتفين ، دامعة العينين ، ملتهبة الوجه ، فرأى فيها رفائيل الثمل من الحب ألف جمال زاد في تأجج نار شهوته ، فارتمى فوقها بخفة عصفور ينقضّ على فريسته ، ومزق الشال وأراد أن يأخذها بين ذراعيه .

وفتش المريض المدنف عن كلمات تعبر عن الرغبة التي استبدت بكل قواه ، لكنه لم يجد إلا حشرجة الاحتضار في صدره ، ولما لم يقو على التلفظ بكلمة واحدة انحنى فوق بولين وعضها في صدرها . وفي هذه اللحظة دخل جوناتاس إلى الغرفة ، وقد جذبه إليها الصراخ الذي سمعه . وحاول أن ينتزع من الفتاة الجثة التي كانت بولين مكومة فوقها في إحدى الزوايا . لكنها صرخت فيه قائلة :

ـ ماذا تريد مني ؟ إنه لي وقد قتلته . ألم أتنبأ له بهذا المصير ؟

IV

الخاتمة

ـ وماذا صارت إليه بولين ؟

ـ آه ! بولين ! . . . هل جلست في أمسية من أمسيات الشتاء ، قرب المدفأة ، غارقاً في ذكريات الحب العذبة وأحلام الشباب الحبيبة ، وأنت تتأمل خشبة سنديان تلحسها ألسنة النيران فتحدث فيها بيوتاً كبيوت الشطرنج . وتجعلها تلمع كالمخمل ؟ وتنفلت من هذه الخشبة شرارات زرق ، تروح تتراقص فوق الجمر المتقد . فيأتي رسام مجهول ، ويرسم بريشته على هذا اللهب البنفسجي أو الارجواني وجهاً جميلاً بديع القسمات . إنها ظاهرة غريبة لا تريك الصدف إياها مرة ثانية : امرأة تطاير شعرها الرياح ، ووجهها يعد بمغريات شهية . . . من النار وفي النار ! إنها تبتسم ، ثم تتلاشى فلا تعود تراها أبداً . الوداع يا زهرة اللهب ! الوداع أيها المبدأ الناقص ، غير المنتظر ، الذي تأخرت أو استعجلت في الظهور كي تكون جوهرة جميلة .

ـ ولكن بولين ؟

ـ ألا تتابع حديثي ؟ سأعيد . افسحوا لها المجال ! افسحوا لها المجال ! انظر إليها ، لقد وصلت ملكة الأوهام ، المرأة التي تمر

كقبلة ، المرأة الحية كالبرق ، ومثله تندفع محرقة في السماء . الكائن الذي لا بدء له ، كلها حب وكلها فكر . إنها متجسمة في قالب من النور قد دبت فيه الحياة لحظة من أجلها ، وطهارتها تجعلك تحسب أنها تهبط من السماء . . . ألا تتألق كملاك ؟ ألا تسمع حفيف جناحيها في الجو ؟ إنها أكثر خفة من العصفور ، تهبط قربك لامعة العينين ، ولهاثها العذب القوي يجذب شفتيك بقوة سحرية . إنها تهرب وتجرك وراءها فلا تعود تشعر بوجود الأرض . وتود لو تمر بيدك مرة واحدة على هذا الجسم من الثلج ، وتداعب شعرها الذهبي ، وتقبل عينيها الملتهبتين . موسيقى ساحرة تبث في أوصالك النشوة ، وبخار يثملك ، فيعروك الارتجاف ، وتستبد بك الرغبة ، ويعضك الألم . يا للسعادة التي لا توصف ! لقد لامست شفتاك شفتي هذه المرأة ، ولكن ألماً ضارياً يوقظك فجأة من رقادك ، فترى أنك ألقيت رأسك على زاوية من زوايا السرير ، وضممت إلى صدرك « الأكاجو » الأسمر ، والطلاء البارد ، والبرونز ، وحباً من النحاس .

ـ ولكن بولين ، يا سيدي ؟

ـ ألم تفهم ، اصغِ إليَّ إذاً . . . في صباح يوم جميل أمسك شاب بيد امرأة جميلة ، وراح الاثنان يحدقان ، فوق مياه « اللوار » ، في وجه أبيض يموج في ثنايا الضباب كثمرة من أثمار الماء والسماء ، أو كنزوة من نزوات الهواء والشمس . إنها جنية من جنيات الماء أو من جنيات السماء ، هذه المخلوقة المرنة ، تتطاير في الهواء ككلمة تمر في الذاكرة ونعجز عن التقاطها . إنها تتنزه بين الجزر

وتحرك رأسها بين أشجارِ الحور ، ثم تكبر وتتضخم ، فتلمع ثنايا ثوبها ، أو تتألق الهالة التي رسمتها الشمس حول وجهها . إنها تحلق فوق المزارع والربى ، ويخيَّل أنها تمنع المركب البخاري من المرور أمام قصر « إيسّه » . فتحسبها شبح السيدة الذي أراد أن يحمي بلاده من الغزوات الحديثة .

ـ لقد فهمت ما صارت إليه بولين . . . أما فيدورا ؟ . .

ـ آه ! فيدورا . . . إنك ستلتقي بها . . . كانت البارحة في « البوفون » . وستذهب هذا المساء إلى الأوبرا ، هي في كل مكان ، وهي إذا شئت . . . المجتمع .

باريس ١٨٣٠ ـ ١٨٣٤



المَلَف



سيرة بلزاك

إن حياة بلزاك مثقلة بالأحداث المختلفة ، وكلها تبدو بيّنة التعقيد ، إلى حد يكون معه السرد التاريخي الخالص للوقائع مزيجاً غريباً .

فنحن ، في المجال التاريخي ، اكتفينا بأن ميّزنا ، بطريقة أقل ما يمكن أن تكون كيفيّة ، مراحل خمساً كبيرة في حياة بلزاك : من الأصول حتى ١٨١٤ ، ١٨١٥ ـ ١٨٢٨ ، ١٨٢٨ ـ ١٨٣٣ ، ١٨٣٣ ـ ١٨٤٠ ، ١٨٤١ ـ ١٨٥٠ .

فضّلنا ، داخل المراحل الرئيسية ، حين هناك مجال ، ترتيب الوقائع حسب طبيعتها : الآثار ، النشاطات الأخرى المتصلة بالأدب ، الحياة العاطفية ، الرحلات ، الخ . (إنما مستعيدين ، داخل كل مقطع ، النسق التاريخي لتسلسلها) .

العائلة ، الطفولة ، من الأصول حتى ١٨١٤ :

في « رويرغ » ، وفي تموز ١٧٤٦ ، وُلد برنار فرنسوا بلسّا ، الذي سوف يصير والد الروائي ويموت في ١٨٢٩ ، من سلالة قروية . في ١٧٧٦ نلقى الاسم مسجلاً « بلزاك » .

كانون الثاني ١٧٩٧ : يتزوّج برنار ـ فرنسوا ، في الخمسين ، وكان مديراً للاعاشة في قسم « تور » العسكري ، من لور سلمبييه الكائنت في الثامنة عشرة ، وعاشت حتى ١٨٥٤ .

٢٠ نوار ١٧٩٩ : مولد اونوريه بلزاك (بدون دي) في « تور » . وكان ولد صبي أول في مثل هذا اليوم قبل سنة ، لكنه لم يعش .

بعد أونوريه ، وُلد ثلاثة آخرون : ١ ـ لور (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) ،

تزوّجت في ١٨٢٠ من أوجين سورفيل ، مهندس جسور وطرقات ، وقد بقيت وصيفة مفضّلة لأخيها الروائي ، ٢ ـ لورنس (١٨٠٢ ـ ١٨٢٥) ، أصبحت ، سنة ١٨٢١ ، السيّدة دي مونتزيفل : وفي عمادها ، ظهرت ، لأول مرة ، « دي » قبل اسم العائلة : بلزاك ، ٣ ـ هنري (١٨٠٧ ـ ١٨٥٨) ، وهو ابن زنا من جان دي مارغون ، (١٧٨٠ ـ ١٨٥٨) سيد قصر ياشيه .

انطبعت طفولة هونوريه ومراهقته بإيثار الأم لهنري ، الكان محمياً من المواهب والشخصيّة ، فقضى حياة بائسة ، والاقامات الكئيبة التي قضاها في جزر المحيط الهندي قبل موته في مايوتّ تختلف ، كلياً ، عن المغامرات الروائيّة لقاطعي البحار البلزاكيّين . ولقد احتفظ بلزاك بعلاقات مع مارغونّ وغالباً ما أقام في ساشيه ، حيث تبدو ، حتى اليوم ، غرفته وطاولة عمله .

وضع أونوريه ، منذ مولده ، في الحضانة عند زوجة جندي في « سان ـ سير ـ سور ـ لوار » ، ضاحية « تور » اليوم . من ١٨٠٤ إلى ١٨٠٧ جُعل في مدرسة خارجيّة في « تور » ، ومن ١٨٠٧ إلى ١٨١٣ هو تلميذ داخليّ في معهد دي فندوم . ثم ، خلال أكثر من سنة في ١٨١٣ ـ ١٨١٤ ، ظل في عائلته ، مرتاحاً ، لاصابته بتلبّكات وبنوع من البلادة بسبب إكثاره من المطالعة . ويعاود دروسه ، خلال أشهر في ١٨١٤ ، في معهد « تور » ، كتلميذ خارجيّ .

وعيّن والده ، الكانْ حينها مدير مَضْيَفة « تور » العامة ، مدير إعاشة في مشروع باريسيّ لقرطاسية الجيش . فانتقلت العائلة كلها من « تور » إلى « باريس » ، في تشرين الثاني ١٨١٤ .

تدرّجاته ، ١٨١٥ ـ ١٨٢٨ :

١٨١٥ ـ ١٨١٩ : تابع أونوريه دروسه في باريس . باشر دراسة الحقوق ، حضر محاضرات في (السوربون) وفي (الموزيوم) . عمل ككاتب

محام في مكتب المحامي غيّونيه ـ مرفيل ثم في مكتب كاتب العدل باسّيه . هذان التدرجان طبعاه عميقاً .

بعد تقاعد الوالد ، قلّت موارد العائلة ، فغادرت باريس وقطنت ، صيف ١٨١٩ ، في « فيلباري » . ذلك الصيف أعدم ، على المقصلة ، في « ألبي » أخ لبرنار ـ فرنسوا أكبر ، بجريمة قتل فتاة مزرعة ، لربما لا علاقة له بها . في هذه الأثناء ، كانوا يعدون أونوريه ليصير كاتب عدل ، استطاع أن يرفض ذلك ، ويسكن باريس وحيداً ، في سقيفة ، ليؤكّد موهبته في مجال الآداب . في أيلول ١٨٢٠ ، حصل ، « بخبطة حظ » ، على إعفاء من الخدمة العسكرية .

منذ ١٨١٧ كان كتب ملاحظات حول الفلسفة والدين ، أتبعها في ١٨١٨ بملاحظات حول خلود النفس ، هي أولى الاشارات لذوقه الواضح للتأمل الفلسفي ، وقد احتفظ به طويلاً : الآن هو يتعدّى لتراجيديا ، كرومول ، خمسة فصول شعرية ، انهاها في ربيع ١٨٢٠ . وإذ أُخضعت المسرحية لنقّاد متتابعين ، رؤي أنها غير ناجحة ، ولقد رأى أندريو ، وهو كاتب محبوب وأستاذ في (معهد فرنسا) وأكاديمي ، إذ استشارته العائلة ، أن بلزاك يمكنه أن يحاول في أي مجال آخر ، خارج نطاق الأدب . أكمل بلزاك في المجال الفلسفي بـ (فالتورن) ١٨٢٠ ، و (ستيني) ١٨٢١ ، تبعهما في ١٨٢٣ (مبحث في الصلاة) و (فالتورن) ثانٍ .

من ١٨٢٢ إلى ١٨٢٧ ودائماً بأسماء مستعارة ، مع آخرين أو لوحده ، يطبع مجموعة لا بأس بها من منتوجات روائية « رائحة الاستهلاك » تراءى له أن يعنونها « مسائل صغيرة في الأدب التجاري » ، أو حتى « قذارات أدبيّة » . انقسم البلزاكيّون حول موضوعها ، بعضهم وجد فيها مخطّطات لموضوعات وعلامات تبشّر بموهبة روائية ، وشك الآخرون في أن يكون بلزاك وضع فيها شيئاً حقيقياً منه ، إذ هو مغرم في إرضاء جمهوره .

تبدأ ، في ١٨٢٢ ، علاقته الطويلة (غير الملتزمة ، من جهته بأنطوانيت

دي برني ، التي التقاها في فيلباريزي قبل عام . هي من مواليد ١٧٧٧ ، إذن فعمرها ضعفا عمره وهي أكبر من أمّه بسنة ونصف ، مزدوج حبّه لهذه التي ، من جديد ، عمّدها لور وديلكتا ، حيث وجد تعويضاً لطفولته المحرومة .

أنها ابنة موسيقي من البلاط وإحدى وصيفات ماري ـ أنطوانيت ، وبما أنها امرأة تجربة ، فقد لقّنت عاشقها الشاب ، ليس فقط أسرار الحياة المدنية في ظل النظام القديم ، ولكن أيضاً الوضع النسوي واللذة الحسيّة . بقيت له العون والدليل الأكثر ثقة . توفيت في ١٨٣٦ .

في ١٨٢٥ دخل بلزاك في علاقة مع دوقة أبرانتيس (١٧٨٤ ـ ١٨٣٨) ، تكبره هذه العشيقة الجديدة ، التي تضاف إلى السابقة ولا تحلّ محلّها ، بخمسة عشر عاماً . ولقد أكملت له الثقافة الكانت قدّمتها له السيّدة دي برني ، فكانت ضليعة بتاريخ الثورة والامبراطورية ، وقدّمته إلى الأصدقاء المتعدّدين الذين تحتفظ بهم ، له هو نفسه ، فيما بعد ، يصير مستشارها وربما مشاركها حين كتبت مذكّراتها .

خلال آخر هذه الفترة ، ينطلق في أعمال تغني ، بطريقة لا شبيه لها ، اختبار من سيكون كاتب المهزلة البشرية ، لكنه ، في الانتظار ، يتعرّض لفشل كثير مؤلم .

عمل ناشراً في ١٨٢٥ ، وطابعاً في ١٨٢٦ ، وصاحب مسبك في ١٨٢٧ ـ ودائماً شراكة ، وأساس مساهماته من عائلته ومن السيدة دي برني . نشر ، في ١٨٢٥ و ١٨٢٦ ، بين ما نشره طبعات مندمجة من موليير ولافونتين لأجلها كتب ملاحق . تعدّلت ، في ١٨٢٦ ، شركة السباكة ، انسحب منها لصالح ألكسندر دي برني ، ابن صديقته : صار هذا المشروع واحداً من أجمل التحقيقات الفرنسيّة في هذا المجال . صفّيت المطبعة بعد أشهر من ذلك ، في آب ، تركت لبلزاك ستين ألف فرنك ديناً (خمسون منها لعائلته) .

رحلات كثيرة وإقامات في الريف ، منها في منطقة « إيل ـ أدام » ونورماندي ، وبخاصة في تورّين ، أرض مولده وأرضه المفضّلة .

البدايات ، ١٨٢٨ ـ ١٨٣٣ :

ذهب بلزاك يقيم ، منتصف أيلول ١٨٢٨ ، لستة أسابيع في فوجير ، لأجل كتاب يحضّره عن ثورة الملكيين . الثائر الملكي الأخير (أو بريتانيا) في ١٨٠٠ ، وقد صار عنوانه النهائي الثوار الملكيون (الناعقون) ، ظهر في ١٨٢٩ . انها الرواية الأولى التي يضطلع ، صراحة ، بمسؤوليتها إذ يوقّعه باسمه الصريح .

ولقد نشر في كانون الأول ١٨٢٩ ، باسم مستعار : « فيزيولوجية الزواج » ، بحيث (أو كما قال فيها بعد « دراسة تحليليّة ») كان وضع تصميمه ثم تخلّى عنه سنوات عدّة .

١٨٣٠ : مشاهد من الحياة الخاصة في جزءين : ست قصص أو قصص قصيرة . صار هذا العدد خمس عشرة قصة في طبعة جديدة بالعنوان نفسه بأجزاء أربعة (١٨٣٢) .

١٨٣٠ : « الجلد المسحور » ، استعيدت هذه الرواية ، في السنة ذاتها ! لتؤلّف ، مع اثنتي عشرة قصة مختلفة ، أجزاء ثلاثة من « روايات وقصص فلسفيّة » ، تتصدر المجموعة مقدّمة من فيلاريت شازل ، موحاة ، ولا شك ، من بلزاك .

١٨٣٢ : « قصص فلسفية جديدة » زادت هذه السلسلة بأربعة قصص (بينها كتابة أولى لـ « لويس لامبير ») . يجب الاشارة هنا أن النعت « فلسفيّة » له معنى قوي غامض ، احتياطي ، في ذهن الكاتب .

القصص الهزلية . على غرار « مئة قصة جديدة » (كان عنده ذوق قوي للأدب القديم المسمّى غاليّ) ، أراد يكتب مئة موزّعة في عشرة كتب . المجموعة العشرية الأولى ظهرت في ١٨٣٢ ، الثانية في ١٨٣٣ ، لم تُنشر الثالثة إلا في ١٨٣٧ ، وتوقف عند هذا الحد مشروعه .

أيلول ١٨٣٣ : « طبيب الريف » . خلال هذه الفترة ، أعطى بلزاك

نصوصاً كثيرة مختلفة لمدوريات عديدة . تابع هذا النوع من المراسلة طوال حياته كلها ، إنما بمعدّل أقلّ .

ظلت لور دي برني المحبّة ، وصارت لور أربانتيس صديقة .

هوى عابر مع أوليمب بيليسييه .

بعد علاقة تراسلية ، أول الأمر ، مع دوقة كاستري في ١٨٣١ ، أقام قربها في « إكس - لي - بان » وفي « جنيف » ، خلال أيلول وتشرين الأول ١٨٣٢ ، راحت تتسلّى بأن تستسلم بحرارة لتغزّلاته ، إنما لا تمكنه من نفسها ، وإذ خُذل منها ، انتقم بدوقة دي لانجيه .

تلقى ، في بداية ١٨٣٢ ، من أوديسا رسالة موقّعة « الغريبة » ، وأجاب عبر إعلان صغير مدرج في جريدة : إنها بداية علاقاته بالسيّدة هانسكا (١٨٠٥ - ١٨٨٢) ، زوجته المستقبليّة ، وقد التقاها ، لأول مرة ، في نيوشاتل أواخر أيلول ١٨٣٣ .

حوالى الفترة هذه ، نفسها ، كانت له عشيقة سرية ، ماريّا دي فرسناي .

رحلات كثيرة جداً . سوى التي ذكرنا آنفاً (فوجير ، إكس ، جنيف ، نيوشاتل) ، تجب الاشارة إلى إقامات له عديدة قرب « تور » أو « نيمور » ، مع السيّد دي برني ، في « ساشيه » ، في « أنغوليم » عند أصدقائه كارّو ، الخ .

لم يمنع عمله المضني ، من أن يكون مشهوراً كلياً في الأوساط الأدبية وبين الناس . قضى حياة تفاخرية باهظة .

سياسياً ، أعلن نفسه ملكيّاً ، فكر بترشيح نفسه للانتخابات التشريعية في سنة ١٨٣١ ، وسنة ١٨٣٢ في انتخاب فرعي .

الانطلاقة ، ١٨٣٣ - ١٨٤٠ :

في هذه الفترة لم يكن بلزاك يكتفي بتأمين توسيع مؤلفاته : صار يهتم بتخصيص تنظيم متكامل لها . و « مشاهد من الحياة الخاصة » و « روايات وقصص فلسفية » تشهد عنده لهذه النزعة . بات يتقدم ، الآن ، في الطريق التي قادته إلى تصوّره العام و « المهزلة الانسانية » .

في تشرين الأول ١٨٣٣ وقّع عقداً لنشر سلسلة عنوانها « دراسات لعادات القرن التاسع عشر » ، ينبغي أن تضم إعادة لطبعات كما كتباً جديدة . مقسومة إلى ثلاث حلقات ، ضمّت هذه السلسلة أربعة أجزاء من « مشاهد من الحياة الخاصة » ، أربعة من « مشاهد من الحياة الريفية » ، وأربعة من « مشاهد من الحياة الباريسيّة » . ظهرت هذه الأجزاء الاثنتي عشرة من كانون الأوّل ١٨٣٣ حتى شباط ١٨٣٧ . تصدّرت الجزء الأول مقدمة مهمّة لفليكس دافان ، حاملاً لواء بلزاك أو حتى مسخراً منه . للتبويب قيمة أدبية ورمزية معاً : يرتكز هو ، في الآن ذاته ، على إطار العمل وعلى معنى الموضوع .

وبالمقابل ، ظهر ، بين ١٨٣٤ و ١٨٤٠ ، عشرون جزءاً من « دراسات فلسفية » ، مع مقدّمة جديدة من فليكس دافان .

أهم كتبه في المكتبات هذه الفترة هي : أوجيني غرانده ، نهاية ١٨٣٣ ، البحث عن المطلق ، ١٨٣٤ ، الأب غوريو ، زهرة الجلبان (صار العنوان : عقد الزواج) ، سيرافيتا ، ١٨٣٥ ، قصة الثلاثة عشر ، ١٨٣٣ - ١٨٣٥ ، زنبقة الوادي ، ١٨٣٦ ، العانس ، أوهام ضائعة (بداية) ، سيزار بيروتو ، ١٨٣٧ ، المرأة المتفوّقة (صار عنوانها الموظفون) ، العائلة نوسينجن ، (بداية جلال العاهرات وتعاستهن) ، ١٨٣٨ ، غرفة الأثريات ، ابنة ما لحوّاء ، بياتريكس ، ١٨٣٩ ، أميرة باريسية (صار العنوان فيما بعد « أسرار الأميرة كادينيان ») ، بياريت ، بيار غراسّو ، ١٨٤٠ .

على هامش هذا النشاط المهم ، بدأ بلزاك ، في نهاية ١٨٣٥ ، بمشاركة فعّالة في جريدة « لاكرونيك دي باري » وهي سياسيّة وأدبيّة ، نشر فيها عدداً لا بأس به من النصوص إلى أن ، بعد أشهر ستة ، تفككت الشركة بعد عجز لا يمكن تعويضه . وبدافع الحشرية أعاد طبع جزء من روايات شبابه ، محتفظاً باسم مستعار لا يستغلّ أحداً : هي الأعمال الكاملة لأوراس دي سان ـ أوبان ، في ستة عشر جزءاً ، ١٨٣٦ ـ ١٨٤٠ .

انتسب في ١٨٣٩ ، إلى جمعية شابة هي شركة رجال الأدب ، رئسها في ١٨٣٩ ، وقام بحملات متنوعة لحماية المُلكية الأدبية وحقوق المؤلفين .

ترشح للأكاديمية الفرنسية في ١٨٣٩ ، انسحب لهوغو الذي لم يفز .

أسّس في ١٨٤٠ « المجلة الباريسية » ـ شهرية ويكتبها بكاملها ، احتجبت بعد ثالث أعدادها ، حيث نشر مقاله الطويل المشهور حول « شارترية بارم » .

عاد إلى المسرح ، انشغاله القديم والدائم منذ كرومويل عشرينه : فترفض (لارينيسّانس) « مدرسة العلاقات » ، مسرحية قرأها عند كوستين بحضور ستندال وتيوفيل غوتييه . في ١٨٤٠ أجازت الرقابة مسرحية « فوتران » ، لكنها مُنعت منذ اليوم الثاني لتقديمها للمرة الأولى .

يقيم في جنيف إلى جوار السيّدة هانسكا من ٢٤ كانون الأول ١٨٣٣ إلى ٨ شباط ١٨٣٤ ، عاد فالتقاها في فيينّا (النمسا) في نوار ـ حزيران ١٨٣٥ ، ومن حينها بدأ انفصال دام ثمانية أعوام .

في ٤ حزيران ١٨٣٤ ولدت ماري دي فرسناي ، مفترضة ابنته ، ولقد نظر إليها كذلك ، عاشت حتى ١٩٣٠ .

انقطعت السيّدة دي برني عن رؤيته منذ نهاية ١٨٣٥ ، بسبب مرضها انطلاقاً من ١٨٣٤ ولكونها مثقلة بتعاسات عائليّة ، توفيت بعد ثمانية أشهر من ذلك .

في ١٨٣٦ ، مولد ليونيل ـ ريشار لويل ، مفترضاً ابن بلزاك والكونتيسة

غيدوبوني ـ فيسكونتي ، ويفوّضه الكونت نفسه في ١٨٣٧ لينهي له في البندقية قضية إرث . وفي العام ذاته التجأ بلزاك عند الكونتيسة ملاحقاً بسبب ديون : دفعت عنه ، وأنقذته ، هكذا ، من السجن .

تموز ـ آب ١٨٣٦ : ترافقه السيدة ماربوتي ، متنكرة بثياب رجل ، إلى توران وسويسرا .

رحلات كثيرة

استقبله مترنيخ ، أثناء رحلته النمساوية في ١٨٣٥ ، ويزور ساحة معركة (واغرام) قصد كتابة رواية لم يكتبها . في ١٨٣٦ ، وهو مقيم في « تورين » رأى نفسه يستقبله تالّيران ودوقة دينو . في السنة التالية تستضيفه جورج صاند في نوهان . توحي إليه موضوع بياتريكس .

علم ، أثناء رحلته الايطالية في ١٨٣٧ ، في جنوى ، أنه بالمستطاع استثمار خبث معادن مناجم الرصاص المحتوي الفضة القديمة ، في سردينيا ، وبرغ ، في ١٨٣٨ ، وهو يمر بكورسكا ، يزور المكان ـ ليلاحظ أن الفكرة جيّدة لكنّ شركة من مرسيليا سبقته ، عودة إلى جنوى ، توران ، ميلانو حيث يتأخّر .

يسجّل ، في ١٨٣٤ ، غداء يجمع بلزاك ، فيدكوك ، وبجلّادين سانسون الأب والابن .

١٨٣٥ : يتخاصم مع الحرس الوطني رافضاً ، بحزم ، تأمين أدواره في الحراسة ، فيختبىء منهم ، كما من دائنيه ، في شايّو باسم « السيّدة دوران الأرملة » ، في ١٨٣٦ يعتقله الحرس الوطني لأسبوع في سجن مسمّى «أوتيل دي أرّيكو» ، سجن جديد ، للسّبب نفسه ، في ١٨٣٩ .

١٨٣٧ : اشترى قرب باريس ، في شيفر ، في المكان المسمى « لي جاردي » ، العناصر الأولى المنها يريد بناء مسكن . ويدعي بعضهم أنه حلم ، حتى ، بتحصيل ثروة لكونه أراد يؤقلم هناك زراعة الأناناس . كلّفته كثيراً مشاريعه الضخمة هذه ولم تجلب له سوى الخيبات . تصفية باهظة

وطويلة ، وعند موت بلزاك ، لم تكن ، بعد ، انتهت ، كلياً .

في تشرين الأول ١٨٤٠ ، إذ غادر « لي جاردي » ، استقرّ في باسّي في شارع ريونار الحالي ، حيث بيته عاد مجدّداً اليوم : « بيت بلزاك » .

تتمة ونهاية ، ١٨٤١ ـ ١٨٥٠ :

الحدث الفارق الذي يفتتح هذه المرحلة هو مولد « المهزلة الانسانية » المعتبرة ككلّ عضويّ . هذا العمل هو العقد الموقّع في ٢ تشرين الأول ١٨٤١ مع جماعة ناشرين لطبع مؤلفات بلزاك الكاملة ، تحت هذا العنوان . واحتفظ لنفسه بحق « تنسيق وتوزيع المواد ، ترقيم وترتيب الأجزاء » .

لقد رأينا الروائي ، منذ بداياته الحقيقية أو يكاد ، يُظهر اهتماماً بالفئة والتصنيف . تشهد على هذا رسالة إلى السيّدة هانسكا في ٢٦ تشرين الأول ١٨٣٤ . رسالة في كانون الأول ١٨٣٩ أو كانون الثاني ١٨٤٠ موجهة إلى ناشر مجهول ، وقد بقيت بدون تتمة ، تسجّل ، لأول مرة ، « العنوان العام » مع تصميم موسّع إلى حد ما . سيتحقّق ، هذه المرة ، المشروع الكبير (مع مراعاة بعض التغييرات اللاحقة في تفصيل التصميم ، وكذلك مع مراعاة مؤلّفات كثيرة معلن عنها لم تُكتَب) .

المجموعة التي صار اسمها « المهزلة الانسانية » ، ضامّة إعادة طبعات ومؤلفات جديدة ، ظهرت بين ١٨٤٢ و ١٨٤٨ في سبعة عشر جزءاً ، أكملت سنة ١٨٥٥ بجزء ثامن عشر ، تبعه ، كذلك ، في السنة نفسها ، جزء تاسع عشر (مسرح) ، وجزء عشرون (قصص هزليّة) . ثلاثة أقسام : دراسات في العادات ، دراسات فلسفيّة ، دراسات تحليليّة ـ يقسم القسم الأول ذاته إلى مشاهد من الحياة الخاصة ، مشاهد من حياة ، مشاهد من الحياة الباريسية ، مشاهد من الحياة السياسية ، مشاهد من الحياة العسكريّة ومشاهد من الحياة الريفية .

التمهيد نص مذهبي رئيسي . كان طلب ، بدون جدوى ، قبل أن

يقرّر كتابته بنفسه ، إلى نوديبه ، إلى جورج صاند كذلك ، أو هو مضطر لاعادة مقدمات دافان لدراسات في العادات ودراسات فلسفيّة قديمة .

طبعات أولى في المكتبة : خوري القرية ، ١٨٤١ ، مذكرات زوجين شابين ، أو رسول ميرويه ، ألبير سافاروس ، المرأة الثلاثينيّة (بشكلها النهائي وعنوانها بعد كثير تبديلات) ، الأخوان (صار العنوان معكرة المياه) ، ١٨٤٢ ، قضية معتمة ، إلهة المقاطعة ، أوهام ضائعة (بالكامل) ، ١٨٤٣ ، أو نورين ، مينيون المتواضع ، ١٨٤٤ ، تعاسات الحياة الزوجية البسيطة ، ١٨٤٦ ، التجسد الأخير لفوتران (منهياً جلال العاهرات وتعاستهن) ، ١٨٤٧ ، الأهل الفقراء (النسيب بون والنسيبة بت) ١٨٤٧ ـ ١٨٤٨ .

روايات صدرت بعد وفاته . نائب أرسيس والبورجوازيّون الصغار ، بقيا غير منجزين ، وقد أنجزهما ، بوقاحة مذهلة ، شارل رابو بالاتفاق مع الأرملة ، وصدرا في ١٨٥٤ و ١٨٥٦ . وعملت الأرملة بنفسها ، بحس أرفع بكثير ، على أنها « القرويّون » التي نشرتها في ١٨٥٥ .

مسرح . تقديم وفشل « موارد كينولا » ١٨٤٢ ، « باميلا جيرو » ، ١٨٤٣ . نجاح محدود لـ « المتشائمة » ، مسرحيّة كتبت في تاريخ غير ملائم (٢٥ نوّار ١٨٤٨) ، بعد ذلك بثلاثة أشهر ، تحصل الكوميدي فرانسيز على « ماركاديه » أو « المتفاخر » لكن المسرحية لم تقدّم .

صار فارساً في جيش الشرف منذ نيسان ١٨٤٥ ، وترشّح أيضاً إلى الأكاديمية الفرنسيّة ، فحصل في ١١ كانون الثاني ١٨٤٩ ، على أربعة أصوات بينها صوتا هيغو ولامارتين (فُضّل عليه الدوق دي نواي) ، وفي التصويتات الثلاثة ، في ١٨ كانون الأوّل ، حصل على صوتين (فيني وهيغو) ، صوت واحد (هيغو) ولا شيء ، فانتخب الكونت دي سان ـ بريست .

خلال هذه الفترة كلها ، مغامراته ورحلاته تحمل اسماً واحداً : السيّدة هانسكا . مات الزوج ـ أخيراً ! ـ في ١٠ تشرين الثاني ١٨٤١ في أوكرانيا ، لكن بلزاك لم يعلم بالأمر إلا في ٥ كانون الثاني عن هذا الحدث الكان ، مع

ذلك ، ينتظره بفارغ الصبر . ومع هذا ، فقد جعلته صديقته ، وقد صارت حرة في الزواج منه ، ينتظر حوالى العشر سنوات ، اما لفقدانها المبادرة ، اما لأن النظام القيصري ، فعلاً ، يستعدّ لمصادرة أملاكها الكانت كثيرة فيما لو هي تزوّجت من أجنبيّ .

في ١٨٤٣ ، بعد انفصال ثمانية أعوام ، ينتقل بلزاك لرؤ يتها لشهرين في سان بطرسبورغ ، عاد عبر برلين ، فرينانيا ، فبلجيكا . في ١٨٤٥ رحلات مشتركة إلى المانيا ، فرنسا ، هولنده ، بلجيكا ، إيطاليا . في ١٨٤٦ ، يلتقيان في روما ويسافران إلى إيطاليا ، سويسرا ، المانيا .

تحبل السيّدة هانسكا ، يفرح بلزاك حتى الأعماق ، وفضلاً عن ذلك ، يرى في هذا الحدث مناسبة للاسراع في الزواج ، ييأس حين هي تضع في تشرين الثاني ١٨٤٦ ولداً ميتاً .

في ١٨٤٧ تقضي بضعة أشهر في باريس ، فيما بعد ، يخط ، هو نفسه ، وصية في صالحها . في الخريف يذهب للقياها في أوكرانيا ، حيث يقيم حوالى خمسة أشهر . يعود إلى باريس ، يحضر ثورة شباط ١٨٤٨ ، يفكّر بالترشح إلى الانتخابات التشريعية ، يعود مجدّداً ، منذ أواخر أيلول إلى أوكرانيا ، حيث يقيم حتى نهاية نيسان ١٨٥٠ .

هناك تزوّج السيدة هانسكا ، في ١٤ آذار ١٨٥٠ .

معاً عادا إلى باريس حوالى ٢٠ نوار ، وفي ٤ حزيران يوقّعان وثيقة متبادلة بكل أملاكهما في حال الوفاة . وقبل عدة سنوات كانت صحة بلزاك ما فتئت تتدهور .

في أول حزيران ١٨٥٠ ، آخر رسالة (في علمنا) كتبها بلزاك بخط يده . في ١٨ آب ينال سر مسحة المرضى ، وإذ جاء هيغو لزيارته وجده غائباً عن الوعي : مات في الحادية عشرة والنصف ليلاً في حالة جسدية يرثى لها .
دُفن في (بير ـ لاشيز) بعد ثلاثة أيام ، حمل بساط الرحمة هيغو وديماس ، ولكن كذلك المشؤوم سانت ـ بوف ، الذي لم يفهم شيئاً من موهبته ، وأخيراً

وزير الداخلية ، أمام قبره ، خطاب رائع من هيغو : لم يشك لا هيغو ولا بودلير بعبقريّة بلزاك .

بعد أن وجدت زوجة بلزاك بعض تعزية عند ترمّلها ، ماتت مفلِسة سنة ١٨٨٢ .



إشارات

نكاد لا نعرف شيئاً عن الأحوال والظروف التي ، من خلالها ، دُفع بلزاك لكتابة الجلد المسحور . يبدو ، في البدء ، من تصوّرنا للموضوع الرئيسي ، انه لم يجرؤ على اللعبة الغرائبية ، وانه ، بالأحرى ، اهتم ليجعل من هذا الموضوع مخاتلة شخصها الأساسي هو الضحية . ويبدو أيضاً أنه لم يفكر إطلاقاً بأن يلصق بجزء كامل من الرواية دوراً متعلقاً بالسيرة الذاتيّة .

(عموماً ، خلال هذه السنوات حيث يتبلور قدر ، يتم كل شيء كما لو ان مؤلف « المهزلة البشريّة » كان اقترب ، أول الأمر ، لا بدون حذر ، من السهولة الواضحة التي تقدّمها السيرة الذاتية ، ليحيد عنها سريعاً إلى القدرات الغنية التي للخيالي) .

يبقى في لوفنجول دي شانتيلّي لعبة براهين كاملة عن « الجلد المسحور » حاملة سلسلة من تواريخ تخبرنا بفائدة كبيرة . لنختصر التحليل الذي قدّمه السيد بيار بربريس ـ بعد افتراض أن العمل التأليفي وأعمال الطباعة تتابعت عن قرب . نميّز في هذه الفترات الثلاث الأخيرة ، التي تكاد تضمّ تواريخها القصوى ستة أشهر : من ٧ إلى ٢٢ شباط ، من ٣١ آذار إلى منتصف نيسان ، من ٣٠ نوار إلى ٣٠ تموز .

إن المقطع المقابل للفترة الأولى يمتد من البدء حتى اللحظة التي فيها يلتقي رافابيل أصدقاءه ، وهو يخرج من عند بائع الأثريّات .

تجدر الملاحظة أنه من ١٦ كانون الأول ١٨٣٠ ، بدأت دورية هي « الكاريكاتور » ، تنشره تحت عنوان : **مخطّط** نابوليون الأخير ، تصميماً مختصراً لما سوف يكون اللقطات الأولى للرواية ، في بور ـ رويّال . أهي **مخطّط** أوّلي مدعو لكثير من التبديل والتوسيع ، أو فقط مجموعة أخبار تنبّه لها بلزاك فيما بعد كان يمكنها أن تخدمه كنقطة انطلاق لرواية ؟

مهما يكن ، فهو سريعاً ما أحسّ نفسه سيّد المادة فوقّع ، في ١٧ كانون الثاني ١٨٣١ ، مع الناشرين غوسّلين وكانيل ، اتّفاقاً عليه ، بمقتضاه ، أن يسلّم المخطوطة كاملة في ١٥ شباط .

ليلة هذا الاستحقاق ، بما أن الأمر واضح ، ان الموعد لن يُحْتَرَم ، شعر بالذنب ، وحسب تكتيك كلاسيكي ، استبق الأمر ووجّه إلى الناشر رسالة توبيخات وتهديدات ولم يتورّع عن طلب سلفه . لأنه، بما كان عليه، ليعيش، أن يكتب مواضيعاً وقصصاً قصيرة ، لزم أن تنتظر الرواية وقتاً أطول .

في بداية آذار ، ذهب يمضي بعض أيام عمل عند أصدقائه كارّو ، فكتب إلى غوسّلين يعلمه ، الاثنين ٧ : « عزيزي غوسّلين ، نفيت نفسي إلى سان ـ سير ، حيث أعمل بدون توقّف وبدون تسلية لأنهي كل « الجلد المسحور » . أنهي ، هذا المساء ، القسم الأول ، الناحية التي تقلقني بالأكثر ، وعليها يتوقف الكتاب كلّه . بعد إنهاء هذه المهمة القاسية ، يسير ما تبقّى على ما يرام ، وآمل أن أراك الخميس ، ومعي ، بفخر ، المخطوطة » .

تنفيد حروف نهاية هذا القسم شغل الفترة الثانية : من ٣١ آذار إلى منتصف نيسان . لم يكن كل شيء تبجّحاً اذن في الرسالة إلى غوسّلين : لكن بلزاك ، طوال حياته ، كان يمزج ، بطيبة خاطر ، أحلامه بحقيقة مؤكّدة .

ثم انشغل بأمور كثيرة ـ بما فيها الانتخابات التشريعية ، الكان يرغب بالترشح إليها ـ حتى انه ، أوائل نوّار ، باح ، ببساطة ، لزوكا كارّو : « قضيت لياليّ وأيّامي منهمكاً بأمور غريبة عجيبة ، وأصارحك القول إنني لم أكتب سطراً في « الجلد المسحور » منذ الأسطر القليلة الكنت كتبتها في سان ـ سير » .

أقام قرب نيمور ، حتى ٢٤ نوّار ، إلى جانب السيّدة دي برني ، صديقته الحنونة والتي تشيخ ، وهو ، الآن ، ومنذ الآن ، يعمل . من رسالة في ١٨ نوار إلى شارل رابو : « هنا أنا في كتاب مسكين ، في بيت صغير في أقاصي الأرض ، أعيش مع « الجلد المسحور » وهو ، شكراً لله ، يكاد

ينتهي . أعمل ليلاً ونهاراً ، غير مقتات إلا بالقهوة ، كذلك بحاجة أنا لايجاد تسلية في عملي المعتاد أن أعمل « الفندق الأحمر » كما نتجه لملاطفة زوجة بحار » . (على امتداد إعادة طبع « الجلد المسحور » فان تذكيرات « الفندق الأحمر » ثم « الأب غوريو » تصير دقيقة أكثر فأكثر حول شخصيّة تاليفر) .

في ٣٠ نوار يعاود عمل المطبعة حتى ٣٠ تموز ، قبل ليلة من إنزاله إلى المكتبات . تنضيد الحروف ، يسير قدماً مع عملية التأليف ، وتصحيح الملازم يترافق وحملة الاعلان المنظمة بدقّة من الكاتب نفسه ، ومستندة ، قبلاً ، على نشر سابق في « مجلة العالَمين » و « مجلة باريس » .

أوائل تموز ، كتب بلزاك إلى غوسّلين : « يكون قال لك ابن أخيك إنني أقفلت على نفسي ولن أغادر قبل أن أنهي « الجلد المسحور » . حضّرت النجاح جيداً . وقد أعلنت السيّدة ريكاميه عن قراءة بشكل أن يكون لنا الكثير من الممجّدين في ضاحية سان ـ جرمان . حسناً تعمل إن تدرج في الجرائد إلى أصحاب مكتبات الريف ، ليرسلوا إليك طلباتهم مسبقاً ، أعلم أنا ، من كثيرين ، أن لهذا تأثير كبير » .

إذ ظهرت الرواية في أوّل آب ، لقيت نجاحاً عظيماً : إلى حدّ أنه ، في ٢٢ آب ، وُقّع اتفاق ثان مع غوسلين لطبعة ثانية . ظهرت بدون تأخير : بعد شهر ، كانت تؤلّف الجزء الأول من سلسلة بثلاثة أجزاء عنوانها : « روايات وقصص فلسفية » ، نُقّح النص قليلاً ، حذف بلزاك مقدمة الطبعة الأولى ، وأحل محلّها دراسة عن المجموعة بكاملها بقلم فيلاريت شاسل ومراقبة من الروائي .

تتابعت الطبعات اللاحقة بسرعة : ١٨٣٣ ، ١٨٣٥ ، أو بالأحرى ١٨٣٤ في مقدمة سلسلة دراسات فلسفيّة ، تتقدمها نفسها مقدمة طويلة بإمضاء فليكس دافان هذه المرة ، ومراقبة بدقة أكثر) ، ١٨٣٨ (طبعة مزيّنة بالرسوم) ، ١٨٣٩ ، ١٨٤٥ . هذه الطبعة الأخيرة شكّلت جزءاً من الطبعة الأولى « المهزلة البشرية » ، عند فورن وآخرين : تظهر « الجلد المسحور » في

الجزء الرابع عشر ، وفي الجزء الأول من قسم دراسات فلسفية ، هنا يظهر ، لأول مرة ، الاهداء إلى سافاري .

كنا ذكرنا أن الكتابة والطباعة وتصحيح الملازم ، بين شباط ـ تموز ١٨٣١ ، كانت تتابعت سريعاً ، وتشابكت ، فلم يكن من الممكن لبلزاك أن ينكبّ على تنقيحات هائلة سريعاً ما صارت أسطوريّة . لربما هناك صلة بين هذه المناسبة وكون القليل من كتبه فيما بعد كانت تصحّح بين طبعة وطبعة بمثل هذه المثابرة .

لا يغيّر الهيكليات الكبيرة ، لكنه لا يتعب من تحسين المتن . « أعمل ثمان عشرة ساعة في اليوم . لاحظت أخطاء أسلوبية تشوّه « الجلد المسحور » ، أصحّحها لأجعلها لا عيب فيها ، إنما ، بعد شهرين من العمل ، تُطبع الرواية ، فأكتشف فيها مئات من الأخطاء . إنها وسوسات الشاعر » . هكذا كتب حوالى آخر تموز ١٨٣٣ إلى السيّدة هانسكا . وإليها نفسها ، في ٢٦ آب ١٨٣٤ : « في هذه الأثناء أقوم بالتحسين الأخير على أسلوب « الجلد المسحور » . أعيد طباعتها وأنتهي من الأعباء الأخيرة . أوه ! ساعاتي الست عشرة في اليوم مليئة تماماً . بتّ لا أذهب إلى الأوبرا سوى مرة بالأسبوع » . وإليها نفسها ، مرة بعد ، في ٢٠ كانون الثاني ١٨٣٨ : « إن نصّ الطبعة المزيّنة بالرسوم مراجع بكلّ دقّة ، إلى حد يجب حفظه كالوحيد الموجود ، لطالما هو يختلف عن الطبعات السابقة ، هذا الاحتفال الطباعي أثّر على العبارة ، فاكتشفت كثيراً من الأخطاء والغباوات (. . .) » .

مع ذلك ، فطبعة ١٨٤٥ تشهد تغييرات جديدة . وليس هذا كل شيء . نملك ، من هذه الطبعة لـ « المهزلة البشرية » نسخة منقّحة بيد بلزاك بخصوص طبعات مستقبليّة (اتّفق الأخصائيون على تسمية هذه النسخة « المصححة » ، وملاحظاتنا تعود إليها مرات كثيرة) ، والحال ان ، في كل هذه السلسلة النفيسة ، لا يوجد ، ربما ، أيّ كتاب فيه مثل هذه التعديلات كما « الجلد المسحور » .

هكذا ، خلال خمسة عشر عاماً ، ما توقّف بلزاك ، أبداً ، عن الاهتمام بإضافة كل ما يمكنه تحسين النص الأساسي . طبعاً ، نحترم نحن ، هنا ، إرادة بوضوح برزت : والنص الذي نقدّم هو حصيلة كل هذه التهيئات المتتابعة (بما فيها تهيئات « المصححة ») ، ويراعي كلّ هذا الانتباه وكلّ تلك الوساوس .

فهرست

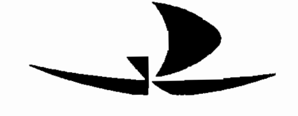
عويدات للنشر والطباعة ٢٠٠٨/١١١١

BALZAC

LA PEAU DE CHAGRIN

Traduction arabe

Farid Antonios



EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth-Liban





... ووقف الشاب على عتبة المتجر، وتظاهر بالتطلع إلى الصور المعروضة للأنظار. تبادل مع المرأة المجهولة نظرة هي أحر بكثير من تلك النظرات التي يلقيها رجل بطريق الصدفة على المارة. كانت هذه النظرة بالنسبة إليه بمثابة وداع للحب، بمثابة وداع للمرأة، غير أن الشابة لم تدرك مغزاها، فلم تحرك قلبها الفاتر، ولم تدفع بالدماء إلى وجهها فيكسوه الاحمرار، ولم ترغمها على خفض نظرها.

ترى، ماذا كانت هذه النظرة بالنسبة إليها؟ إعجاب آخر، رغبة إضافية تجعلها تتلفظ عند المساء بهذه الكلمات: «لشد ما كنت أبدو جميلة في هذا اليوم»...



ISBN 978-9953-28-103-3
9 789953 281033

